

سلسلة الرسائل الجامعية (٢٩)

المصابين بالدعوى

في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ
وَمُعَالَجَتِهِ لِقَضَايَا الدَّعْوَةِ الْمُعَاصِرَةِ

تأليف

د. عَبْدَ اللَّهِ بنُ جُمُودٍ بنِ صَالِحٍ الْفَرِجِ

تمويل أوقاف

الشيخ صالح بن محمد الجربوع

رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ فِي عِلِّيِّينَ



المُضَامِينُ لِلدَّعْوَةِ

فِي تَفْسِيرِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدٍ الْعَنَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ
وَمُعَالَجَتِهِ لِقَضَايَا الدَّعْوَةِ الْمُعَااصرةِ

ح

دار العقيدة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفريح ، عبدالله بن حمود
المضامين الدعوية في تفسير الشيخ العلامة محمد العثيمين رحمه
الله ومعالجته لقضايا الدعوة المعاصرة. / عبدالله بن حمود الفريح -
الرياض ، ١٤٤٢ هـ
٧١٠ ص ؛ ٢٤/١٧ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٩٦-٩-٨

١- العثيمين ، محمد بن صالح ، ١٣٤٧ - ١٤٢١ هـ . ٢- الدعوة

الاسلامية ٣- القرآن - تفسير أ.العنوان

١٤٤٢/٧٣٩٨

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧٣٩٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٩٦-٩-٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م



دار العقيدة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف 0503310067

سلسلة الرسائل الجامعية (٢٩)

المُضَامِينُ إِلَى الدَّعْوَةِ

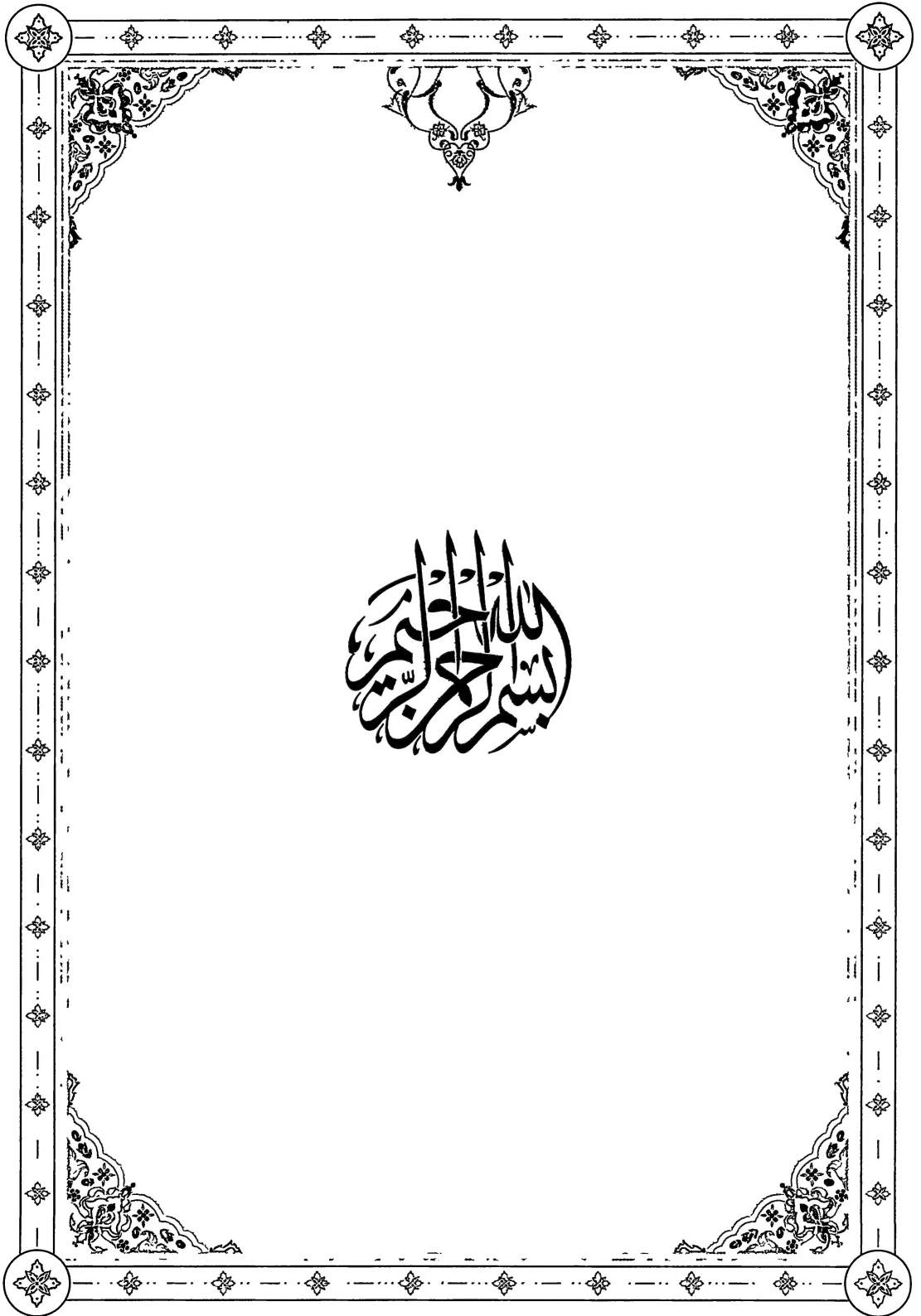
في تَفْسِيرِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ الْعَثِيمِينَ رَحِمَهُ
وَمُعَالَجَتِهِ لِقَضَايَا الدَّعْوَةِ الْمُعَاصِرَةِ

تأليف

د. عَبْدَ اللَّهِ بَرِجْمُودِ بْنِ صَالِحِ الْفَرِجِ

تمويل أوقاف
الشيخ صالح بن محمد الجربوع
رحمهُ الله ورفع درجته في عليين

دار الحقيقة
للنشر والتوزيع





مؤسسة الشيخ
محمد صالح المنجد
مسجلة بوزارة الشؤون الاجتماعية برقم (١٣)
رمز قلمه تعالى

الرقم: ٤٧٤٨
التاريخ: ١٠/٨/١٤٣٧هـ
الشفعة: —

حفظه الله تعالى

فضيلة الشيخ الدكتور/ عبدالله بن حمود الفريخ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،، وبعد/

فتكم على حصولكم على شهادة الدكتوراه في العلوم الشرعية من الجامعة الإسلامية ، وإشارة خطابكم الكريم
المرسل إلينا عبر الفاكس بتاريخ ١٤٣٧/٨/٢ هـ ، بشأن رغبتكم في طباعة البحث الذي قلمتموه ليل تلك الدرجة
العلمية بعنوان: (المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى).
وإنا إذ نشكركم على اختيار هذا الموضوع نحيطكم علمًا بموافقنا على ذلك ، وأسأل الله تعالى لكم دوام التوفيق
والسداد والله يحفظكم ويرعاكم.

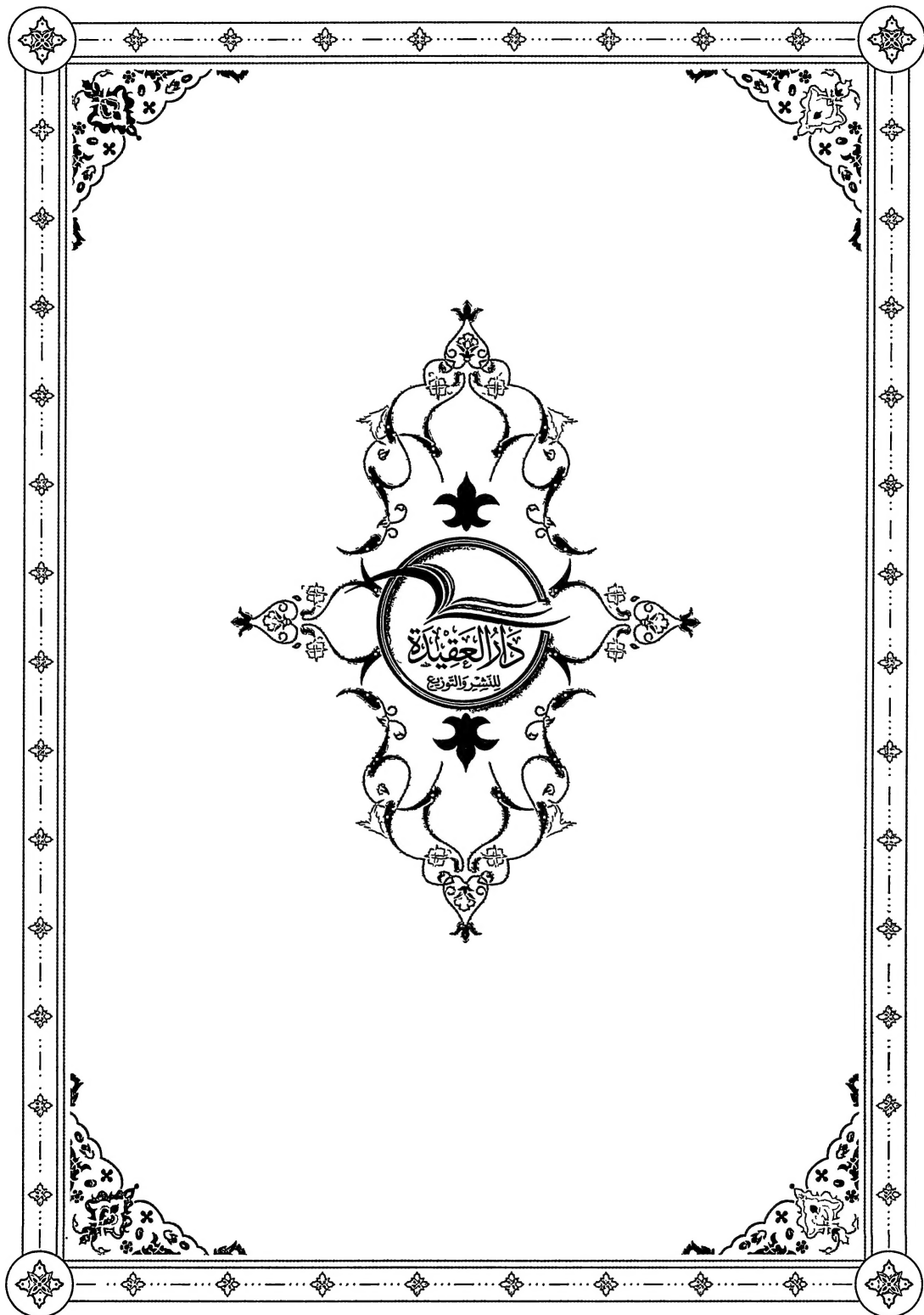
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحمد
رئيس المؤسسة
عبدالله بن محمد بن صالح العثيمين

عبدالله بن محمد بن صالح العثيمين
١٠/٨/١٤٣٧هـ

مودة
مخبر
مخبر

المركز الرئيسي : المملكة العربية السعودية - القصيم - عنيزة ٥١٩١١ م.ب ١٩٦٩ هاتف : ٠١٦٣٦٤٢١٠٧ جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ فاكس : ٠١٦٣٦٤٢٠٠٩
فرع الرياض : الدائري الشرقي - مخرج ١٥٨ مقابل جامع الراجحي هاتف : ٠١٦٥٦٦٦٦٣ فاكس : ٠١٦٤٩١٧٥٦٥ جوال : ٠٥٥٤٤٤٤٧
منفذ تصويق مكة المكرمة : أبراج المفسدة - الدور الثاني - بجانب السلاطمة الكهربائية المؤدية إلى الفنادق جوال : ٠٥٥٤٣٣٧٦٦٣
الموقع الإلكتروني : www.binothameen.com البريد الإلكتروني : info@binothameen.com



المقدمة

١- أهمية وأسباب اختيار الموضوع .

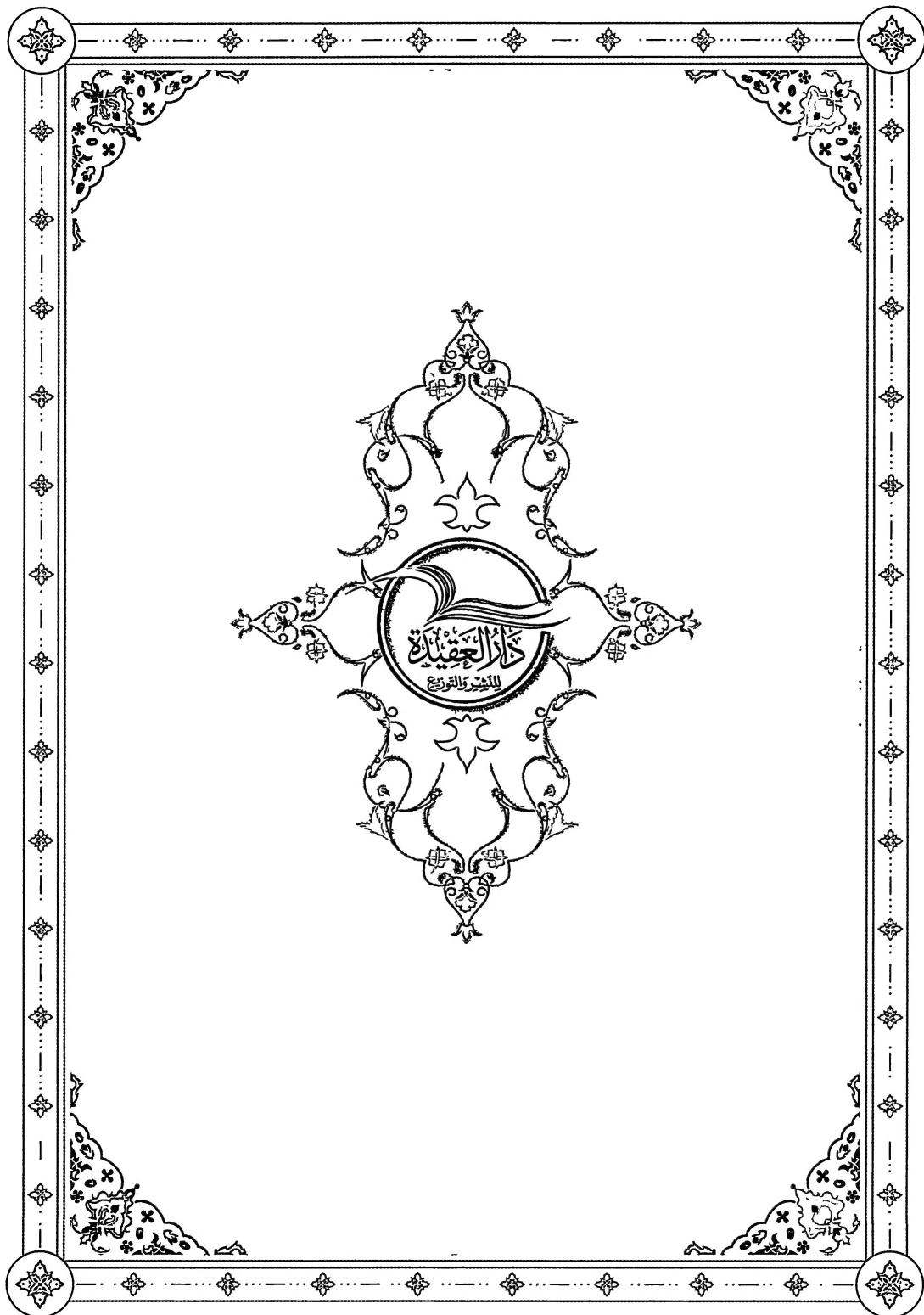
٢- أهداف الدراسة .

٣- تساؤلات الدراسة .

٤- الدراسات السابقة .

٥- منهج البحث .

٦- خطة البحث .



المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، فجاءت آياته هداية للناس ومنهجاً لحياتهم فيه مصالح دينهم ودنياهم ، والصلاة والسلام على خير من بلغ ما أنزل عليه أتم بلاغ ، وأوضح بيان ، فكان أعظم مثال يُحتذى به في طريق الدعوة حتى تركنا على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك ، ثم أما بعد ...

فإن فضل الله تعالى على عباده فضل عظيم عظيم لا يُحصى مهما عدّه العادّون ، وإن من عظيم فضله أن أنزل لهم كتاباً نعتة بالفضل والرحمة لما فيه من هداية ورشاد للعباد إن تمسكوا به وعملوا بتنزيله ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « أَيُّ : بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، فَلْيَفْرَحُوا ، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ ، ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أَيُّ : مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الدَّاهِيَةِ لَا مَحَالَةَ » ^(١) .

وإن العناية بالتنزيل وتوجيه الناس للعمل به والدعوة إليه ، وامتناله أهم ما ينبغي للداعية أن يشتغل به ويدعو الناس إليه ، لما يحتويه من مضامين دعوية هي مصدر الدعوة الأول ، ولأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ٧٧] .

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى ﴾ من الضلالة والغي والشبه

﴿وَرَحْمَةً﴾ تتلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين في معانيه ، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح^(١) .

ولقد عني المفسرون ببيان ما في التنزيل من الهدى والرحمة للمؤمنين ، فجاءت كتب التفاسير مليئة بالمضامين الدعوية التي هي هداية للناس دعاة ومدعويين بأصنافهم ، وإن من التفاسير الثرية بذلك والتي تناولت الملامح الدعوية باستيفاء تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، مع تميزه بتناوله للقضايا المعاصرة في الدعوة ، والذي أخرجت مؤسسة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فيه ما يربو على خمسة عشر مجلدا ، ولقد عُرف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بالعلم الغزير ، والفهم الدقيق ، والجلد والصبر في العلم والدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى الناس وبرهم . وعُرف عنه كذلك رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أنه كان يسير في دعوته وأعماله تلك على منهج الأئمة من الصحابة والتابعين والعلماء الربانيين من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قبول في أوساط واقعنا المعاصر ، لما فيه من سلامة المعتقد ، وعمق التحليل ، وذكر لأقوال المفسرين مع تميزه بالترجيح المدعّم بالتدليل أو التعليل ، مع وضوح العبارة ، واستيعاب لجميع ما تضمنته الآية من منطوق أو مفهوم ، مع التنبيه لما ورد من ضعيف القصص أو الآثار في مناسبات الآيات ونزولها ، وقد اهتم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بترسيخ العقيدة السلفية ، وبيان ما وقع فيه أهل البدع من تأويل الصفات وتعطيلها ،

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٦٠٩) .

وما وقع فيه أهل الإشراك من الشرك بأنواعه ، وكذا بين في مواطن عديدة كثيرا من أبواب التوحيد ، وما يُخلُّ بالعقيدة الصحيحة كمجال من مجالات الدعوة ، ناهيك عن تفصيل الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ واستطراده في مجالات الدعوة الأخرى في الأخلاق والتربية والعبادة والمعاملة وغيرها ، مدعمة بأساليب دعوية مناسبة ووقفات تربوية يحتاجها الداعية والمدعو على حدٍّ سواء ، وللشيخ طرح لمشكلات المجتمع العصرية التي يحتاجها الناس ويستفيد منها الدعاة والمدعويين ، وتفسيره ثري للغاية في طرح ومعالجة القضايا الدعوية المعاصرة ، مع التنبيه على أنواع الفتن المعاصرة - عند الآيات التي تتناول الفتن - ومداخلها وكيفية المخرج منها وضماناتها الشرعية ، وغيرها من المجالات والموضوعات الدعوية ، وبالجملة فإن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ثري بالملاحم الدعوية في مفهوم الدعوة ومصادرها ومجالاتها وأساليبها ، وعوامل بناء الداعية وتأهيله ، وبيان أصناف المدعويين وغيرها من مضامين الدعوة ، وقد كانت له رَحْمَةُ اللَّهِ في تفسيره ووقفات دعوية عند تفسيره لبعض الآيات والسور تدل على علمه وعنايته في الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأحببت أن تكون رسالتي في مضامين الدعوة في تفسير ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى ، وأثر تفسيره في معالجة القضايا الدعوية المعاصرة .

□ الأهمية وأسباب الدراسة :

أولاً : ارتباط الدعوة إلى الله بالكتاب والسنة ارتباطاً وثيقاً ؛ لأنهما مصدر التشريع وأساس الدعوة إلى الله ، وهما مصدر المضامين الدعوية الصحيحة بأركانها وأساليبها ووسائلها وأصولها .

ثانياً : أهمية ربط المجتمع دعاة ومدعويين بكتاب الله تعالى ، والانطلاق من موضوعاته الدعوية ، وما فيه من القصص والعبر ، والبشارة والندارة .

ثالثاً : ضعف الطرح الدعوي المرتبط بكتاب الله تعالى عند بعض الدعاة ، وعدم الرجوع لكتب التفسير الموثوقة ذات الطرح الدعوي .

رابعاً : أن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تفسيرا ثريا بالملاحح الدعوية ، ويتميز بمعالجة القضايا الدعوية المعاصرة ، فهو كثير ما يربط الآيات بما يحتاجه الناس دعاة ومدعويين ، وهو رَحِمَهُ اللهُ من العلماء المعاصرين الذين يسعون إلى تبليغ الدعوة إلى الله بشتى الوسائل والأساليب الشرعية المتاحة ، ويظهر ذلك جلياً في تفسيره للآيات وما تتضمنه من مضامين دعوية .

خامساً : أن الداعية مأمور بأن تكون دعوته على علم وبصيرة ولن يتم ذلك حتى يكون عالماً بالكتاب والسنة الصحيحة .

سادساً : أهمية تقديم دراسة دعوية تكون مادتها أحد التفاسير السليمة في معتقدها ومادتها ، ويُعتبر تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ من أوسع التفاسير التي عُنيَتْ بتقرير العقيدة ، فهو تفسيرٌ سَلَفِيٌّ قَرَّرَ فيه مذهب أهل السنة والجماعة ، ورَدَّ على مخالفهم .

سابعاً : كثرة الفوائد الدعوية التي ذكرها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره ، وقد تميز الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنه من العلماء ذوي المنهج الشمولي في الدعوة ، ولتوجيهاته الدعوية أثر بالغ على كثير من الدعاة والمدعويين في واقعنا المعاصر ، إذ أنه يسير في دعوته محتسباً مقتنياً آثار وخطى السلف الصالح من الأئمة والدعاة الربانيين ، والذين كان لدعواتهم عظيم الأثر في حياة الناس .

وأذكر جملة من المضامين التي امتلأ بها تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ، مقتصرًا على نزر يسير ، مراعيًا في ذلك التنوع للتمثيل لا على سبيل التبع والحصص :
فمن المضامين الدعوية في تفسيره : تناوله لصفات الداعية : ومن ذلك بيان ما يجب أن يكون عليه الدعاة وطلبة العلم من التعاون والتناصح والتشاور ونبذ الاختلاف والتخاصم ، لما في ذلك من ذهاب لبركة الدعوة والعلم .

قال رَحْمَةُ اللَّهِ في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَزَيْتَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قریش : ٤] : « الواجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه في كل مكان ، لا في مكة فحسب ، فبلادنا والله الحمد اليوم من آمن بلاد العالم ، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً . أطعمنا الله تعالى من الجوع ، وآمننا من الخوف ، فعلينا أن نشكر هذه النعمة ، وأن نتعاون على البر والتقوى ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وثبت ، وأن نكون إخوة متكفين ، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور ، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق ، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه ، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه ؛ لأنه ليس مشرعاً معصوماً حتى يقول إن رأيه هو الصواب ، وأن ما عداه هو الخطأ » .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة : ٢٠٤] . : « ومنها - أي ومن الفوائد - الإشارة إلى ذم الجدل ، والخصام ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ ؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة ؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « أبغض الرجال

إلى الله الألد الخصم»^(١)، أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلى مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها؛ وتجد أنهم يخاصمون، ويجادلون، ويتتهون إلى لا شيء؛ لا يتتهون إلى الحق؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن المضامين الدعوية: تناوله لخصائص الدعوة، ومنها الشمول، حيث ذكر شمولية الخطاب الدعوي وأن الدعوة عامة شاملة لجميع أصناف المدعوين، مؤمنا كان أو كافرا شريفا أو وضيعا.

قال في تفسير سورة عبس عند قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتَوَكَّلْ﴾^(١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى^(٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْجَى^(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى^(٤): وهذه الآيات فيها تأديب من الله عز وجل للخلق ألا يكون همهم هماً شخصياً بل يكون همهم هماً معنوياً وألا يفضلوا في الدعوة إلى الله شريفاً لشرفه، ولا عظيماً لعظمته، ولا قريباً لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقير والغني، الكبير والصغير، القريب والبعيد.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

ومن ذلك : تناوله لموضوعات الدعوة وأخلاق الداعية : ومنها الصبر في الدعوة إلى الله تعالى لاسيما ما ربما يجده الداعية من أذى المدعويين .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠] : « فهم يقولون : إن محمداً كذاب ، وساحر ، وشاعر ، وكاهن ، ومجنون ، وأنه لا بعث ، وإن كانوا يقرّون بالرب عزّ وجلّ وأنه خالق السماوات والأرض ، لكن لا يقرّون بأمور الغيب المستقبلة فأمره الله أن يصبر على ما يقولون ، والصبر على ما يقولون يتضمن شيئين : الأول عدم التضجر مما يقول هؤلاء ، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به ، والثاني : أن يمضي في الدعوة إلى الله ، وأن لا يتقاعس » .

وقال في فوائد قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩] : « ومنها : اتباع الحكمة في الدعوة إلى الله بالصبر ، والمصابرة حتى يتحقق النصر ، وأن تعامل كل حال بما يناسبها .. » .

ومن ذلك : تناوله لأساليب الدعوة ووسائلها واختيار الأنسب منها :

ففي مقدمة التفسير قال رحمه الله : « معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة ؛ وذلك لأن فيها فوائد منها :

تربية الدعاة إلى الله تعالى ، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع ، من حيث المخاطبين ، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم ، وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها » .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارَهِبُونَ ﴾ [البقرة: ٤٠] : « من فوائد الآية : أن الله تعالى يوجه الخطاب للمخاطب إما لكونه أوعى من غيره ؛ وإما لكونه أولى أن يمثل ؛ وهنا وجهه لبني إسرائيل ؛ لأنهم أولى أن يمثلوا ؛ لأن عندهم من العلم برسالة

النبي ﷺ ، وأنها حق ما ليس عند غيرهم .

ومنها : أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أَدْعَى لقبوله الحق ، وأقوم للحجة عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠] ؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله ؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعمة ؟
فالجواب : نعم ، نذكره بالنعمة ؛ لأن هذا أَدْعَى لقبول الحق ، وأدْعَى لكونه يحب الله عَزَّجَلَّ ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته .

ومن مضامين الدعوة التي تميَّز بها الشيخ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وانفرد به عن غيره من المفسرين : تناوله للموضوعات والقضايا الدعوية المعاصرة ، وربط حياة الناس بكتاب الله تعالى فيما أَلَمَّ بهم وأصابهم ونزل من نوازل العصر ، وكم تحتاج الدعوة إلى الله تعالى إلى عالم في الدين راسخ فيه يعظمهم بكتاب الله تعالى لاسيما فيما يعرض لهم في حياتهم ، ومن أمثلة ذلك قوله :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] : « ومنها - أي ومن الفوائد - أن لهؤلاء أمثلاً يدعون بدعوى الجاهلية ، كأولئك الذين يدعون إلى القومية : فإن مثلهم كمثل الذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ، ونداءً ؛ وهذه الدعوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتب عليها من تفريق المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، وكونهم يجعلون الرابطة هي اللغة ، أو القومية ، فيدخل فيها غير المسلم ممن تشملهم القومية ، ويخرج بها مسلمون كثيرون ممن لا تشملهم القومية ؛ لكن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] : « ومن فوائد الآية : أن كل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود ، والنصارى ؛ دعاة السفور الآن يقولون : اتركوا

المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاء، وترك التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغرب البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى» .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]: «أي: وجدك فقيراً لا تملك شيئاً ﴿فَأَغْنَى﴾ أي: أغناك وأغننى بك، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠] وما أكثر ما غنم المسلمون من الكفار تحت ظلال السيوف، غنائم عظيمة كثيرة كلها بسبب هذا الرسول الكريم (حين اهتمدوا بهديه، واتبعوا سنته فنصرهم الله تعالى به وغنموا من مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنى، والعزة، والقوة ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلى حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصره الإسلام أو خذلان الإسلام... الأمة تحتاج إلى علاج رفيق هادئ يدعو بالتى هي أحسن، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلى الله، تحتاج إلى العلم بالواقع والفتنة والخبرة، ونظر في الأمور التي تحتاج إلى نظر بعيد، لأن النتائج قد لا تتبين في شهر، أو شهرين، أو سنة، أو سنتين، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتى يعرف، والأمور تحتاج أيضاً إلى عزم وتصميم وصبر؛ لأنه لا بد من هذا لا بد من عزم يندفع به الإنسان، ولا بد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان» .

□ أهداف الدارسة :

١- بيان حاجة الدعوة إلى القرآن الكريم وتفسيره .

٢- التعريف بالشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وجهوده الدعوية من خلال تفسير

القرآن الكريم .

٣- الوقوف على الأساليب التي ذكرها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره .

٤- ذكر الموضوعات الدعوية في القرآن الكريم من خلال تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ سواء في الاعتقاد أو الأخلاق أو العبادات أو المعاملات .

٥- بيان منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ الدعوي في تقرير قضايا الدعوة من خلال تفسيره .

٦- إبراز القضايا الدعوية المعاصرة التي عالجها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره .

٧- ربط الداعية والمدعو بكتاب الله تعالى من خلال إبراز المضامين الدعوية في التفسير .

٨- ذكر أصناف المدعويين الوارد ذكرهم في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وكيفية تناول التعامل الدعوي معهم .

□ تساؤلات الدارسة :

- ١ . ما أهمية ارتباط الدعوة بالقرآن الكريم وتفسيره؟
- ٢ . ما منهج الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تقرير قضايا الدعوة إلى الله تعالى من خلال تفسيره؟
- ٣ . ما هي جهود الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الدعوية المرتبطة بتفسير القرآن الكريم؟
- ٤ . ما هي الموضوعات الدعوية التي تناولها تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ؟ وما القضايا المعاصرة التي تناولها مع بيان أثرها .
- ٥ . ما المنهج الشرعي في التعامل مع أصناف المدعويين الوارد ذكرهم في الآيات من خلال تفسير ابن عثيمين .

٦ . ما أبرز الأساليب الدعوية في القرآن الكريم المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ؟

□ الدراسات السابقة :

بعد البحث عن دراسة تناولت المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وجرى البحث في المكتبات العامة كمكتبة الملك عبدالعزيز ، ومركز الملك فيصل للدراسات والبحوث ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، والإطلاع على قائمة البحوث والرسائل الجامعية في الجامعة الإسلامية ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة أم القرى ، لم أقف على دراسة لهذا الموضوع ، وغاية ما طُرِح -مع قَلَّتْها- هي موضوعات تتكلم عن جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في التفسير ، ويرجع سبب ذلك إلى أن تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ لم يظهر على الساحة العلمية كمطبوع إلا منذ عهد قريب أخرجته مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، ومن الجهود العلمية التي وقفت عليها في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ما يلي :

١. جهود الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في التفسير وعلوم القرآن ، رسالة دكتوراه ، للباحث : أحمد بن محمد البريدي ، جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض .

اشتملت الرسالة على مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة أبواب ، وخاتمة ، ذكر في التمهيد ترجمة للشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، وفي الباب الأول : بيان جهوده ومصادره في التفسير وعلوم القرآن ، وفي الباب الثاني : منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في التفسير ، أمَّا الباب الثالث فكان لبيان اهتماماته في تفسيره ، أمَّا الباب الرابع فعَقَدَه لبيان منهجه في علوم القرآن وأصول التفسير ، ثم الخاتمة ، ولم تُسَقِ الرسالة لبيان المضامين الدعوية لأنها غير مقصودة في البحث ، ولذا لم يتعرض لها الباحث ،

وإنما كانت الرسالة في بيان جهود الشيخ رحمه الله ومنهجه في التفسير .

٢. ترجيحات العلامة ابن عثيمين رحمه الله في التفسير ، وهي ورقة عمل قدّمها الدكتور عبدالله بن محمد الجيوسي ، وليس في هذه الورقة ذكر للمضامين الدعوية البتة ، وإنما هي في آلية ترجيحات الشيخ رحمه الله في تفسير الآيات .

٣. منهج الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في الدعوة إلى الله ، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، للباحث : عبدالعزيز بن عبدالرحمن الروضان ، وقد جاءت رسالته في تمهيد وأربعة فصول ، كما يلي :

الفصل التمهيدي : وفيه ترجمة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله .

الفصل الأول : أصول منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الدعوة والاحتساب وخصائصه :

الفصل الثاني : وسائل وأساليب منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الدعوة إلى الله :

الفصل الثالث : ميادين الدعوة إلى الله تعالى في منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله .

الفصل الرابع : مقومات منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الدعوة إلى الله تعالى

وهي دراسة تختلف عما أردت بحثه من عدة وجوه ، وإيضاحها كما يلي :
أولاً : أوجه الاتفاق .

ذكر الباحث في الفصل التمهيدي ترجمة للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، وذكرت ذلك أيضاً في المبحث الأول من الفصل التمهيدي .

ذكر الباحث في رسالته التفسير إشارة إلى كونه إحدى نتاجه العلمي البارز دون التعرض لمضمون تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ، فقد ذكر في الفصل الأول أصول منهج الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ في الدعوة والاحتساب ، وأنه كان يعتمد الكتاب والسنة في منهجه ومن ذلك عنايته بالقرآن وتفسيره ، وذكر في الفصل الرابع ميادين الدعوة إلى الله في منهج الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ وذكر منها مسجده والذي كان يعقد فيه دروسا علمية ومنها تفسير كتاب الله تعالى .

ثانياً : أوجه الاختلاف .

لم يسلط الباحث في رسالته ما تضمنه تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ من مضامين الدعوة ، فلم يكن منطلق الباحث تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ لكتاب الله تعالى ، ولذا لم يكن للتفسير في رسالته غير ذكره كتاج علمي اهتم به الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ للدلالة على عنايته بكتاب الله تعالى .

الباحث لم يذكر حاجة الدعوة إلى الارتباط الوثيق بتفسير كتاب الله تعالى لاسيما تفسير الراسخين في العلم كالشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ .

الباحث لم يبين منهج الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ في ربط حياة الناس وواقعهم بكتاب الله ، وما تناوله الشيخ عند تفسيره للآيات ، إذ أن دراسة الباحث لم تُعنى بربط الدعوة بتفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ وإنما منهجه الدعوي عموماً .

الباحث لم يذكر ما تضمنه تفسير ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ من موضوعات دعوية ، وهي موضوعات ثرية جداً في تفسيره لاسيما ما يتعلق بالاعتقاد ، ومسائل الإيمان ، وبيان التوحيد وما يخالفه من الشرك وأنواعه ، ويُعدُّ تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ كما تقدّم من أوسع التفاسير في المعتقد السلفي في بيان المعتقد الصحيح وبيان ما وقع فيه أهل البدع من التأويل والتعطيل والرد عليهم ، كما لم يتعرض الباحث إلى موضوعات الدعوة الأخرى في تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فيما

ولم يكن للمضامين الدعوية المتنوعة في تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ أي ذكر في الكتاب مما يبيِّن اختلاف مادة الكتاب عما أردت دراسته تماما .

٥. صفحات من حياة الفقيه العالم الزاهد الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، كتيب صغير كتبه الدكتور عبدالله الطيّار في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ متناولاً اسمه ونسبه ونشأته وأعماله وزهده ومرضه ، ثم تطرق إلى حياة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ العلمية وذكر فيها طريقته في التعليم ثم ذكر شيوخه ومنهجه في التدريس وسمات دروس الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، وتلاميذه ، وفي عنوان جوانب من حياة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذكر منهجه في الدعوة وإنكار المنكر .

والكتاب يُستفاد منه في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلا أن المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لم يكن لها نصيب ، بالإضافة إلى أن مادة الكتاب قليلة .

٦. الجامع لحياة العلامة محمد بن عثيمين العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، وهو كتاب من تأليف الباحث وليد بن أحمد الحسين ، والكتاب عبارة عن ترجمة وسيرة ذاتية للشيخ مع توسع في بسط كثير من المسائل العلمية ، ثم جمع في أكثر من نصف الكتاب ما قيل في الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من المراثي شعراً ونثراً ، وقريب منه كتاب :

٧. ابن عثيمين الإمام الزاهد ، الذي جمعه الدكتور ناصر الزهراني ، ففيه بسط في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، وأكثر من نصف الكتاب مقتصر على ما قيل من المراثي شعراً ونثراً .

ويستفاد من الكتابين في ترجمة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، لكن لم يكن من نهج الكتابين التعرض للمضامين الدعوية في التفسير البتة .

ومما يُذكر من التراكمات العلمية السابقة : ندوة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ العلمية ، المنعقدة بجامعة القصيم ، في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية خلال يومين من (٦-٧ / ١١ / ١٤٣٢ هـ) وعُرض في الندوة جملة من البحوث القصيرة وأوراق العمل وكان منها ما يخص تفسير

الشيخ رحمه الله ، وهي كما يلي :

منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تفسير غريب القرآن ، للدكتور . حسن بن علي الشهراني بحث مُحَكَّم .

موقف الشيخ ابن عثيمين رحمه الله من القراءات من خلال تفسيره ، للدكتور . عبدالعزيز بن سليمان المزيني .

منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في بيان مشكل القرآن الكريم ، للدكتور . رجب عبد المنصف عبدالفتاح .

التأمل والاستنباط في آيات الكتاب بين الشيخ العثيمين وشيخه السعدي رحمه الله ، للدكتور . محمد بن حمد المحميد .

وهذه البحوث القصيرة وأوراق العمل مع اختصارها -لما يقتضيه المقام وطبيعة الندوة- إلا أنها مميزة في موضوعاتها ومضمونها ، لكنها ذات علاقة وطيدة بعلم التفسير وما يتعلق به من مشكل وغريب القرآن وعلم القراءات وبيان منهج الشيخ رحمه الله فيها وطريقته في الاستنباط ، وهي مباحث قصيرة ذات اختصاص بقسم التفسير ، ودراسة الباحث تهتم بإبراز الجوانب الدعوية والمضامين الدعوية في تفسير الشيخ رحمه الله للقرآن الكريم على وجه الخصوص .

وغاية ما ذكر من الدراسات والتراكمات العلمية إما دراسات تناولت ترجمة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وجهوده العلمية على وجه العموم ، دون التركيز على المضامين الدعوية لاسيما في تفسيره ، وإما أن تكون دراسات ذات علاقة بالتفسير وما يتعلق به ، ولم أقف -بعد البحث على دراسة تناولت المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله مع ثروة تفسيره بالأساليب والموضوعات الدعوية في العقيدة والتربية والأخلاق ومنهج التعامل مع

المخالف ، وتأصيله لفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الآيات الدالة عليه ، وبيان المنهج الشرعي من الفتن والقضايا المعاصرة ، وما يحتاجه الناس ، وربطها بما جاء في كتاب الله تعالى ، إلى غير ذلك من المضامين المتنوعة .



□ خطة البحث :

تتكون خطة البحث من : مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة ، وفهارس .

المقدمة : وتشمل :

- أهمية وأسباب اختيار الموضوع .
- أهداف الدراسة .
- تساؤلات الدراسة .
- الدراسات السابقة .
- منهج البحث .
- خطة البحث .

التمهيد : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيها ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوة ، ومؤلفاته .

المبحث الثاني : أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية ،

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة .

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلى القرآن الكريم وتفسيره .

المطلب الثالث : منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية ، وفيه :

بيان منهج الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية ، وربطها بكتاب الله تعالى ، وبيان موسوعيّة الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي شرحه وتناوله لكثير من قضايا العصر ، وتأكيدَه عَلَى ربط حياة الناس دعاء ومدعوين بكتاب الله تعالى بما فيه من المواعظ والعبر والحكم ، وبيان الكتب في التفسير التي صدرت من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ، وقوامها ثمانية عشر مجلدا : ثلاثة مجلدات في سورتي الفاتحة والبقرة ، ومجلدان في سورة آل عمران ، ومجلدان في سورة النساء ، ومجلدان في سورة المائدة ، ومجلد في سورة الأنعام ، ومجلد في سورة الكهف ، ومجلد في سورة يس ، ومجلد في سورة الصافات ، ومجلد في سورة ص ، ومجلد في السور من الحجرات إلى الحديد ، ومجلد في جزء عم ، ومجلدان في أحكام القرآن .

المبحث الثالث : مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسيره رَحْمَةُ اللَّهِ ، ويشتمل عَلَى أربعة مطالب :

المطلب الأول : مفهوم الدعوة إِلَى الله .

المطلب الثاني : أهمية الدعوة إِلَى الله .

المطلب الثالث : حكم الدعوة إِلَى الله .

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إِلَى الله .

الفصل الأول : الدعوة إِلَى عقيدة التوحيد من خلال تفسيره رَحْمَةُ اللَّهِ ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الدعوة إِلَى عقيدة التوحيد بأنواعه .

المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد .

المبحث الثالث : الدعوة إِلَى أركان الإيمان .

المبحث الرابع : الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .
الفصل الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة ، ومجالات الدعوة الأخرى في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه مبحثان :
المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرى في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلى العبادات .
المطلب الثاني : الدعوة إلى مكارم الأخلاق .
المطلب الثالث : الدعوة إلى ما يتعلق بالمعاملات .
المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقُدوة الحسنة .
المبحث الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ .
المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لها .
الفصل الثالث : بناء الداعية وتأهيله من خلال تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل .
المبحث الثاني : التأهيل العقدي للداعية .
المبحث الثالث : التأهيل العلمي للداعية .
المبحث الرابع : التأهيل الأخلاقي للداعية .

المبحث الخامس : التأهيل العملي للداعية .

الفصل الرابع : أصناف المدعوين وخصائصهم في تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف المدعوين وبيان أصنافهم وأنواعهم .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوين .

المبحث الثالث : دعوة المسلمين .

المبحث الرابع : دعوة أهل البدع .

المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب

المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين .

المبحث السابع : دعوة المنافقين .

الفصل الخامس : الأساليب والوسائل الدعوية المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأساليب الدعوية المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدل بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .

المبحث الثاني : الوسائل الدعوية المستنبطة من تفسيره رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والدعاة

المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرى .

الخاتمة :

وتتضمن أهم نتائج البحث والتوصيات .

الفهارس : وتتضمن :

فهرس المضامين الدعوية

فهرس المصادر والمراجع .

فهرس الموضوعات .



□ منهج البحث :

المنهج هو الطريق الواضح البين ، ومنهج البحث هو الطريقة الصحيحة المختارة لتنظيم سلسلة من الأفكار العديدة من أجل الكشف عن الحقائق^(١) .
واعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي ، وقمت باستقراء المضامين الدعوية من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وتحليلها حسب متطلبات البحث وطبيعة الدراسة .

ومما يتعلّق بعملِي ومنهجي في هذا البحث ما يلي :

أولاً : اعتمدت في هذا البحث على النسخة الصادرة من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في جميع المجلدات التي هي موضوع الدراسة وقوامها ثمانية عشر مجلداً كما تقدّم بيانه ، وهي كما يلي :

- أحكام من القرآن الكريم ، مجلدان ، مدار الوطن ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ١٤٢٥ هـ .
- تفسير سورة البقرة مع الفاتحة ، ثلاث مجلدات ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ٣ ، ١٤٣٥ هـ .
- تفسير سورة آل عمران ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ٣ ، ١٤٣٥ هـ .
- تفسير سورة النساء ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ٣ ، ١٤٣٥ هـ .
- تفسير سورة المائدة ، مجلدان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ٢ ، ١٤٣٥ هـ .

(١) « كتابه البحث العلمي ومصادر الدراسات الفقهية » عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان (٤٧) .

- تفسير سورة الأنعام ، مجلد واحد ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ .
- تفسير سورة الكهف ، مجلد واحد ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ٣ ، ١٤٣٥ هـ .
- تفسير سورة يس ، مجلد واحد ، دار الثريا ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٤ هـ .
- تفسير سورة الصافات ، مجلد واحد ، دار الثريا ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .
- تفسير سورة ص ، مجلد واحد ، دار الثريا ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ .
- تفسير السور من الحجرات إلى الحديد ، مجلد واحد ، دار الثريا ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ .
- تفسير جزء عم ، مجلد واحد ، دار الثريا ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٢٤ هـ .
- ثانياً: العزو في أثناء البحث لتفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سيكون مختصراً ، متضمناً اسم السورة ورقم الصفحة .
- ثالثاً: الاهتمام بالمضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ، والتعليق عليها والوقوف على أبرز المضامين الدعوية الظاهرة والمرتبطة بالموضوع ، وأحياناً كثيرة أختار جملة منها دون استقصاء الجميع ؛ لئلا يطول ويكثر النقل ويخرج عن مقصوده .

رابعاً: يذكر الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ الفوائد المستنبطة من الآية مرقمة (١ ، ٢ ، ٣ ...) ، وأحياناً تعداداً بلا ترقيم ، بلفظ (من فوائد الآية ... ، ومنها :) وقد يكون المضمون الدعوي متعلّق بفائدة أثناء هذه الفوائد ، فأورد الفائدة بلفظ الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ مسبوقة بلفظ (ومن فوائد الآية) .

خامساً: عنوان ما يحتاج إلى عناوين من المضامين وقد أدرج معه من كلام أهل العلم ما يعضد المضمون الدعوي في أصل البحث وحاشيته .
سادساً: الإضافة إلى كلام الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ في تفسيره ما يشابهه ويتعلّق به من كتبه الأخرى .

سابعاً: عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها بذكر سورها وأرقامها ، مع كتابتها بالرسم العثماني .
ثامناً: عزو الأحاديث إلى مظانها ، وأذكر في التخريج رقم الحديث والجزء والصفحة واسم الراوي .

تاسعاً: الحكم على الأحاديث ، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بهما ، وإن كان عند غيرهما ذكرت الحكم على الحديث من كلام الأئمة .
عاشراً: الالتزام بعلامات الترقيم ، وضبط ما يحتاج إلى ضبط .
الحادي عشر: تذييل البحث بالفهارس على النحو المبين في الخطة .

وأختم مقدمة رسالتي : بالشكر الخالص ، والحمد التام ، والثناء الكامل لأهل الثناء والمجد ، ومن لا أحصي ثناء عليه ، سبحانه هو كما أثنى على نفسه ، أحمدته حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، على نعمه الوافرة ، ومن جملة نِعَمِهِ إعانتني على هذا البحث وتيسير أمره ، فالحمد له على كرمه وعظيم امتنانه ، والحمد له أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

ثم الشكر لشيخني فضيلة المشرف على هذه الرسالة الدكتور: عبيد بن عبدالله السحيمي في كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية في الجامعة الإسلامية ، الذي سددني وأعانني بتوجيهاته ، وإرشاداته ، ودقة ملحوظاته ، وسرعة إنجازاه في فصول هذا البحث أولا بأول ، فجزاه الله عني وعن طلاب العلم خير الجزاء .

ثم الشكر مقدّمًا للجنة مناقشة هذه الرسالة الدكاترة الفضلاء على ما سيصلني من ثمار ملحوظاتهم وتسديدهم ، ونصحهم وإرشادهم ، فجزاهم عني وعن طلاب العلم خيرا .

وشكرٌ مثله أهديه والدتي وأهل بيتي على حُثِّهم وصبرهم ، وتقديرهم انشغالي بإعداد الرسالة ، والشكر لكل من شجعني وحثني ، وسأل عن مسيرة عملي في رسالتي .

والشكر موصول لكلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، ممثلة بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية على ما يقدمونه من تيسير وخدمة لطلاب العلم والباحثين .

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد ، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفعني به وعامة طلاب العلم ، والمسلمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .



تہید

وفیه ثلاثۃ مباحث :

المبحث الأول : ترجمۃ الشیخ ابن عثیمین ، وفیہا ثلاثۃ مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شیوخہ وتلامیذہ .

المطلب الثالث : مکانہ العلمیۃ والدعویۃ ، ومؤلفاتہ .

المبحث الثاني : أهمیۃ القرآن الکریم وتفسیرہ للدعویۃ الإسلامیۃ ،

وفیه ثلاثۃ مطالب :

المطلب الأول : أهمیۃ القرآن ومنزلتہ فی الدعویۃ .

المطلب الثاني : حاجۃ الدعویۃ إلى القرآن الکریم وتفسیرہ .

المطلب الثالث : منهج الشیخ فی تفسیرہ وتناولہ للقضايا الدعویۃ .

المبحث الثالث : مفهوم الدعویۃ وأهمیتہا وحکمہا ومصادرہا من

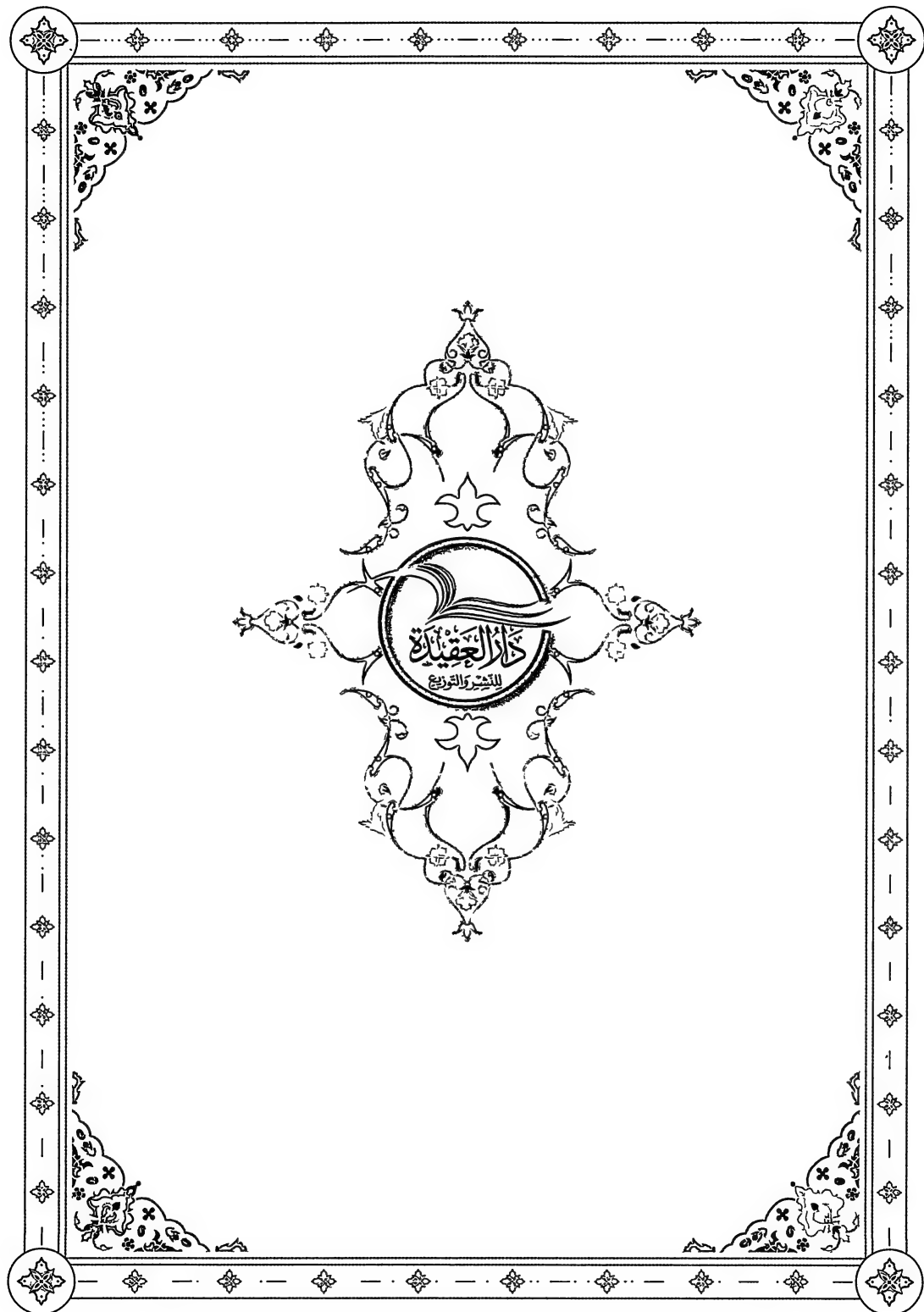
خلال تفسیر الشیخ ابن عثیمین ، ویشتمل علی أربعۃ مطالب :

المطلب الأول : مفهوم الدعویۃ إلى الله .

المطلب الثاني : أهمیۃ الدعویۃ إلى الله .

المطلب الثالث : حکم الدعویۃ إلى الله .

المطلب الرابع : مصادر الدعویۃ إلى الله .



المبحث الأول

ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيها ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته .

المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوة ، ومؤلفاته .

المطلب الأول: مولده ونشأته ووفاته

إن من أبرز العلماء المعاصرين الذين استفاض التأليف في الحديث عن حياتهم مولدا ونشأة وعلماً وعملاً وخدمة للدين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ذَلِكَ أنه من العلماء العاملين الراسخين في العلم ، الذين كُتِبَ لَهُمُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى أَحْبَبَهُ عَامَةُ النَّاسِ وَصَدَرُوا عَنْ آرَأْهُ وَعِلْمِهِ ، لَمَّا حَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَمَقِ فِي الْعِلْمِ ، وَصَحَّةِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ ، وَوُضُوحِ فِي الْمَنْهَجِ ، وَقُوَّةِ فِي الْإِسْتِنْبَاطِ ، وَدِمَاطَةِ فِي الْأَخْلَاقِ ، فَكَانَ مِثَالاً حَيًّا يُرَى فِيهِ سِيرَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَحِمَهُمُ اللهُ وَسَأَتَاوَلُ فِيمَا يَلِي مَوْلِدَ هَذَا الْإِمَامِ وَنَشَأَتِهِ وَوَفَاتِهِ .

أولاً : مولده ونشأته :

وُلِدَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ الْعَلَامَةُ الْمُحَقِّقُ الْفَقِيهُ الْأَصُولِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ عَثِيمِينَ الْوَهْيِي التَّمِيمِي فِي مَدِينَةِ عَنِيْزَةِ إِحْدَى مَدَنِ مَنْطَقَةِ الْقَصِيمِ عَامَ (١٣٤٧ هـ) فِي السَّابِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ فِي عَائِلَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ^(١) .

وَقَدْ كَانَ شَيْخَنَا رَحِمَهُ اللهُ رُزِقَ ذِكَاءً وَزَكَاءً وَهَمَّةً عَالِيَةً فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ ، وَمَزَاحِمَةً رَكَّبَ الْعُلَمَاءُ فِي حَلْقِ الْعِلْمِ ، وَكَانَتْ بَدَايَةُ ذَلِكَ عَامَ (١٣٦٠ هـ) هَجْرِيَةً عِنْدَ مَلَازِمَتِهِ لِشَيْخِهِ الْعَلَامَةِ الْمُفَسِّرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللهُ ، بَلْ إِنْ نَشَأَتُهُ كَانَتْ فِي التَّحْصِيلِ وَاعْتِنَامِ الْوَقْتِ وَصَرْفِهِ فِي الْمَطَالَعَةِ وَالْمَكُوثِ الطَّوِيلِ فِي الْمَكْتَبَاتِ لِأَسِيْمَا مَكْتَبَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَانِعِ رَحِمَهُ اللهُ قَاضِي

(١) « حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية » مرزوق عبدربه عبدالعال (٢٤) .

عنيزة ، حيث يقول أولاد الشيخ المانع : كان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وهو في مُقْتَبَلِ العمر وفي صباه يأتي إلى منزلنا في الصباح الباكر وعلى رأسه قُفَّةٌ^(١) يحمل فيها كتبه وأوراقه فيطرق الباب علينا ويستأذن ، ثم يصعد إلى المكتبة فيبقى فيها إلى الظهر ، ثم بعد ذلك ينزل من المكتبة ويُسَلِّم علينا وينصرف .

وقد تجاوز المراحل الأولى في طلب العلم من حفظه القرآن على جده لأمه الشيخ عبدالرحمن بن سليمان بن دامنغ إمام مسجد الخريزة ، ودراسته وحفظه للمتون المختصرة على شيخه محمد بن عبدالعزيز المطوع ، وقد انتظم مع هذين الشيخين قبل أن ينضم إلى شيخه ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ .

بل الذي صقل موهبته جلوسه للتدريس في حياة شيخه ، فكانت أول جلسة عقدها عام (١٣٧١ هـ) أي قبل وفاة شيخه السعدي رَحِمَهُ اللهُ بخمس سنوات ، فكانت نشأته في أحضان شيخه ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ .

وقد لمس الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ من تلميذه الذكاء والنجابة فحرص عليه ، وعلى أن ينضم إلى حلقة ويُفرغ نفسه للعلم^(٢) .

ثانياً : مرضه ووفاته :

أصيب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بمرض سرطان القولون ، والذي ظل يعاني منه لفترة طويلة ولم يُكْتَشَفْ إلا في شهر ربيع الأول عام (١٤٢١ هـ) إثر مراجعة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لمستشفى الملك فهد بالرياض ، وأمام إلحاح ولاية الأمر بالمملكة العربية السعودية سافر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بطائرة خاصة بأمر من صاحب

(١) قال ابن الأثير : « القُفَّة : شبه زنبيل صغير من خوص يجتنى فيه الرطب ، وتضع النساء فيه غزلهن » . « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٩١ / ٤) ، مادة (قفف) .

(٢) « الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية » وليد الحسين (١٠ - ١١) .

السمو الملكي الأمير : عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد في ذلك الوقت رَحِمَهُ اللهُ إلى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية وذلك للتشخيص بصحبة أخيه وأبنائه وعدد من استشاري الأورام في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض وهذه هي أول مرة في حياته يسافر إلى خارج المملكة حيث إنه أمضى هناك عشرة أيام - ورغم مرضه الشديد لم ييخل على المسلمين في مدينة (بوسطن) الأمريكية ببعض الجلسات والكلمات والنصح والإرشاد، وأمّ المسلمين في صلاة الجمعة مرة واحدة .

ثم عاد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى المملكة وأدخل مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض ، وتوافدت على غرفته بالمستشفى جموع كثيرة من محبي الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وعموم رجالات المجتمع الذين حرصوا جميعاً على الاطمئنان على صحة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ .

وقد غادر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مستشفى الملك فيصل بالرياض يوم الثلاثاء التاسع من رمضان متوجهاً إلى مكة المكرمة لقضاء بقية أيام رمضان بجوار الكعبة المشرفة ، وفي الحرم المكي كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يلقي دروساً يومية من مقر إقامته داخل المسجد الحرام بجوار باب العمرة ، ويتم نقل الصوت عبر المكبرات إلى الركن الذي طالما جلس فيه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لتعليم الناس وتوجيههم ، ثم يجيب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن الأسئلة التي توجه إليه ، إلا أنه لم يكن يستقبل الزيارات نظراً لحالته الصحية ، ثم غادر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى جدة حيث أدخل مستشفى الملك فيصل التخصص ، ثم دخل العناية المركزة ، وخرج منها بعد ثلاثة أيام ، وتحسّنت حالته الصحية لكنها ساءت مرة أخرى .

توفي سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في الساعة السادسة من مغرب يوم الأربعاء (١٥ / ١٠ / ١٤٢١ هـ) داخل مستشفى الملك فيصل

التخصصي بجدة .

وقد شيع أكثر من نصف مليون مصلي أو يزيدون الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ عقب إقامة صلاة الميت عليه عصر يوم الخميس الموافق (١٦ / ١٠ / ١٤٢١هـ) حيث تدافع عدد كبير من العلماء والمسؤولين من مدنيين وعسكريين ، وجمع غفير من طلبة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ومحبيه للمشاركة في تشييع جثمانه إلى مقابر العدل في مكة المكرمة ، ليؤارى إلى جوار أستاذه ورفيق دربه في طريق الدعوة الشيخ : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رَحِمَهُ اللهُ ورغم وجود أكثر من ألف من رجال الشرطة إلا أن تدافع المشيعين الذي بدا عليهم التأثير واضحاً ، حيث أغشي على عدد كبير منهم ، أدى كل ذلك إلى إغلاق مداخل المقبرة لمنع الأعداد المتزايدة من الدخول ، في حين لم تأخذ مراسم الدفن إلا دقائق معدودة ووارى فيها جثمان الفقيد الثرى .

وقد شارك في تشييع الجثمان كل من سمو وزير الداخلية نايف بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ ، والأمير ممدوح بن عبدالعزيز رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية ، والأمير فيصل بن بندر بن عبدالعزيز أمير منطقة القصيم ، ومحافظ جدة الأمير مشعل بن ماجد بن عبدالعزيز .

وبوفاة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فقدت الأمة الإسلامية عالماً من علمائها ولبنة من لبناتها^(١) .



(١) انظر : « حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية » (٥٩ - ٦١) .

٥- الشيخ محمد بن عبدالعزيز المطووع رَحِمَهُ اللهُ ، وهو كذلك من أوائل

من طلب العلم على يديه ، فقد قرأ عليه الشيخ ابن عثيمين : مختصر العقيدة الواسطية للشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ ، ومنهج السالكين في الفقه ، والأجرومية والألفية في النحو والصرف .

٦- الشيخ عبدالرحمن بن علي بن عودان رَحِمَهُ اللهُ ، فقد درس عليه بعض كتب الفقه والفرائض .

٧- الشيخ عبدالرحمن بن سليمان آل دماغ رَحِمَهُ اللهُ ، فقد حفظ عليه القرآن كاملاً .

٨- الشيخ عبدالرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللهُ ، حيث قرأ عليه في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّساً في مدرسة عنيزة^(١) .

ولقد حرص مشايخ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عليه غاية الحرص ؛ لما رأوه من اجتهاده ونبوغه وجلده ومصابرته على العلم ، وتعددت المواقف في بيان هذا الشيء ، ومن ذلك حينما أراد والد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أن يسافر للرياض ويستقر بها فترة من الزمن ، وقرر الوالد أن يصطحب معه ابنه محمد اعترض الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ على والده وقال : هل أنتم تاركوا لي محمداً؟! فكان الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ حريصاً على أن يلازمه تلميذه ابن عثيمين ليستفيد من هذه الملازمة ، وماذاك إلا لما رآه من نبوغه وحرصه على العلم ، ورأى فيه العالم الواعد للأمة^(٢) .

ثانياً : تلاميذه :

لقد كانت فترة تدريس الشيخ رَحِمَهُ اللهُ العلم الشرعي فترة زاخرة بعدد كبير من

(١) « أربعة عشر عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين » عبدالكريم المقرن (١٠-١١) ، وانظر : « حياة الشيخ محمد صالح العثيمين » (٢٦-٢٧) ، و « الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٤٨-٤٩) .

(٢) « الجامع لحياة العلامة محمد بن عثيمين » (٦٦) .

الطلاب ، وكان بداية التصدي للتدريس يوم الأحد (٢٦ / ٦ / ١٣٧٦ هـ) إلى وفاته رحمه الله ، وكان قد توفي يوم الأربعاء (١٥ / ١٠ / ١٤٢١ هـ) أي قرابة خمس وأربعين سنة بذلها الشيخ رحمه الله من عمره تعليمًا لطلابه ولعامة الأمة ، ولقد كان الشيخ رحمه الله شديد العناية بتلاميذه الذين كانوا يتوافدون عليه من كل أنحاء العالم حتى أقام الشيخ رحمه الله سكنًا قريبًا من الجامع الذي يُدرّس فيه ، يحتوى على صالة إعاشة ، ومكتبة علمية ، زاخرة بالكتب والمخطوطات ، وكان يتعاهدهم بالمتابعة واللقاءات الشهرية والإعانة المالية ، ولقد شهد له الكثير حسن عنايته بطلابه ونفعهم ، حتى أورثه الله تعالى نفع طلابه من بعده فكانوا خير سفراء لبلادهم في نشر العقيدة الصحيحة والعلم الشرعي ، دعاة لمنهج الحق القائم على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، ولقد استفاد من علم الشيخ رحمه الله الآلاف المؤلفة من الناس على اختلاف جنسياتهم وأعمارهم وبلدانهم ، ولقد كان رحمه الله يوصي طلابه بنشر العلم الشرعي ونفع الناس وحسن معاملتهم .

يقول وليد أحمد الحسين وهو أحد تلامذته : (ولعلي عاصرت الشيخ رحمه الله في المرحلتين :

المرحلة الأولى : قلة التلاميذ في درسه وربما كنا نزيد على العشرة أو نَقِل ، وكان ذلك في أول انتظامي معه رحمه الله في مطلع عام (١٤٠٢ هـ) .

والمرحلة الثانية : كثرة التلاميذ ، وبدأ هذه التزايد ربما في بداية عام (١٤٠٦ هـ) حتى وصل العدد في المجلس الواحد في مسجده في الدروس العلمية إلى أكثر من ستمائة تلميذ على اختلاف مستوياتهم في التحصيل ، وتجد الحضور ما بين دكتور في الجامعة أو عميد كلية أو طبيب أو مهندس أو موظف حكومي أو تلميذ في المدرسة أو عمال في مهن مختلفة ، أو مفرّغين

لطلب العلم أو غير ذلك) (١).

ولقد كان لحسن تعليم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وصبره على طلابه، ومتابعته وتعاهدهم ثمرة كبيرة لازالت الأمة تنتفع بها، حيث تخرَّج عليه جملة من المشايخ الفضلاء الذين تعددت منابرهم في التعليم في سائر الأقطار، وعدد تلاميذ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كثير ومن أبرزهم:

- إبراهيم بن علي العبيد .
- إبراهيم بن محمد الديان .
- أحمد بن عبدالرحمن القاضي .
- أحمد بن محمد الخليل .
- أحمد بن محمد العبيد .
- أمين بن يحيى الوزان .
- بندر بن نافع العبدلي .
- حمد بن إبراهيم العثمان .
- خالد بن سليمان المزيني .
- خالد بن عبدالله المصلح .
- خالد بن علي المشيقح .
- سامي بن محمد الصقيير .
- سليمان بن عبدالله بن حمود أبا الخيل .
- عبدالرحمن بن سعود الكبير آل سعود .

(١) « الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٥٠-٥١) .

- عبدالرحمن بن صالح الدهش .
- عبدالله بن محمد الطيار .
- عصام السناني^(١) .



(١) « الجامع لحياة العلامة محمد صالح العثيمين » (٥٤ ٥٧) .

المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته

مسيرة العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ العلمية والعملية تركت للأمة في الواقع المعاصر مثلاً حياً لما ينبغي أن يكون عليه العالم الرباني من العلم والتعليم والدعوة إلى الله تعالى ، فمن تأمل سيرة شيخنا رَحِمَهُ اللهُ العلمية والدعوية وجده ملاً الأرض بفتاواه ، وبَسَطَ علمه ، وتنوّع مؤلفاته ، ولقاءاته الدعوية الأسبوعية منها والشهرية والسنوية مع أطراف المجتمع على تنوعهم ، إضافة إلى لقاءاته التي تُبَثُّ عبر الإذاعة فتصل إلى أصقاع المعمورة ، هذا - وغيره مما سيأتي - أورثه مكانة كبيرة في نفوس الناس داخل المملكة العربية السعودية وخارجها ، وانتشاراً لمؤلفاته المتنوعة والتي تتميز بسلامة المعتقد وتقرير عقيدة السلف الصالح ، وسهولة العبارة ، وحسن التقسيم ، وثراء القيمة العلمية .

أولاً : مكانته العلمية والدعوية :

لقد كان لطول فترة التدريس التي تولّاها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ - والتي تجاوزت السبع والأربعين سنة كما تقدّم - أثراً كبيراً ومكانة جسيمة في الأمة ، ففي عام (١٣٧١ هـ) التحق بالمعهد العلمي وبعد سنتين تخرج ، وعُيِّن مدرساً في معهد عنيزة العلمي مع مواصلة الدراسة انتساباً في كلية الشريعة بالرياض ، وذلك لرغبته البقاء في عنيزة والنهل من علم شيخه السعدي رَحِمَهُ اللهُ ، حتى تخرج من كلية الشريعة عام (١٣٧٧ هـ) وتولّى إمامة الجامع والتدريس فيه ، وبالمكتبة الوطنية الملحقة به التي كان أسسها الشيخ علي الصالحي ، وذلك في عام (١٣٧٦ هـ) بعد وفاة شيخه السعدي رَحِمَهُ اللهُ ، ثم انتقل من التدريس بالمعهد إلى التدريس بكليتي الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام

ذاع صيت الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ بوقت مبكر ليس في المملكة العربية السعودية فحسب بل في البلدان المجاورة حتى ملأت مكانته العالم الإسلامي ، وهو إلى جانب تدريسه في الكلية استمر في تدريسه بالجامع والبيت بل وحتى أثناء ذهابه وإيابه من بيته إلى المسجد الذي يعد أكثر من ألف متر ، فكان مما أدركته ورأيته آنذاك في ذهابه وإيابه أن كانت تُعرض عليه الفتاوى. ممن يسير معه ، وكان يُقرأ عليه بعض شروحات الدروس العلمية التي شرحها بعد تقييدها ليتم تنقيحها ، ويخصص وقت الظهر للردّ على استفسارات الناس وما يَرِدُ من الفتاوى عن طريق الهاتف ، ويستمر على هذا إلا في موسمي رمضان والحج حيث كان ينتقل إلى مكة المكرمة للتعليم والفتوى ، وفي الإجازات الصيفية يكتثف التدريس والمحاضرات والدورات العلمية ، بالإضافة إلى مشاركته المكثفة في الفتاوى عن طريق الرد على رسائل المراسلين بالإذاعة ضمن برنامج (نور على الدرب) ، أو بالردّ على السائل خطيباً ومشاركته في الندوات في الدعوة والإرشاد ، كل هذا جعل مكانته العلمية تتجلى بشكل ظاهر في نفوس الناس الذين لا يفتأون عن التردد عليه والتزود من علمه على كافة الأصعدة وأطراف المجتمع ، حتى بلغ من سمو مكانته العلمية في قلوب الناس أن جعل مجالس علمية خاصة بمن لهم مشاركة علمية ودعوية فاعلة في المجتمع ؛ لإلحاحهم في الطلب أن يشاركهم الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ هذه المجالس ، ومجالسه الدورية كما يلي :

المجلس الأول : مجلس هيئة كبار العلماء : والذي انضمَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيه بالقرار الصادر من مجلس الوزراء والصادر من المقام السامي برقم (أ / ٢٨٥) وتاريخ (١١ / ٧ / ١٤٠٧هـ) وكان ذلك في حياة العلامة المحدث ابن باز رَحِمَهُ اللهُ ، وبعد وفاة الشيخ ابن باز كان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ من أبرز الأعضاء في ذلك المجلس ، واستمر الشيخ فيه حتى وفاته رَحِمَهُ اللهُ ، وكان آخر مجلس حضره بتاريخ (٢ / ١١ / ١٤٢١هـ) بمدينة الرياض .

المجلس الثاني : مجلس القضاة : وهو مجلس خصصه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لقضاة منطقة القصيم ، وهو مجلس أسبوعي بدأ في عام (١٤٠٧هـ) ، واستمر إلى العام الذي توفي فيه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، يحضره قرابة عشرين قاضياً ، وتمَّ في الجلسة قراءة كتاب (الطرق الحكمية) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ ، وبعدما أتموه شرعوا بقراءة كتابا الوقف والوصايا فقط من كتاب (الإقناع) في فقه الإمام أحمد لمؤلفه الحجاوي الدمشقي ، وبعد الفراغ منهما شرعوا بقراءة كتاب (أعلام الموقعين) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ ، يتناوب القضاة على قراءة الكتاب ويُعلِّق الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على الكتاب ويجب على أسئلة القضاة في تلك الجلسة .

المجلس الثالث : لبعض البارزين من طلابه : وكانت بدايته في عام (١٤١٣هـ) تقريباً ، وهو مجلس أسبوعي عقده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعدما ألحَّ عليه مجموعة من أساتذة الجامعة ، والسابقين في الطلب عند الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ؛ رغبة منهم أن يخصَّص لهم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مجلساً يتم فيه تحرير ومناقشة بعض المسائل الشرعية ، وقرئ في ذلك المجلس من كتاب (الإقناع) ثم كتاب (المتتهى) ثم كتاب (الكافي) ، واستمر إلى العام الذي مات فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللهُ .

المجلس الرابع : مجلس أعضاء هيئة التدريس بقسم العقيدة : وهو مجلس شهري ابتداء عام (١٤٠٩هـ) لأعضاء هيئة التدريس في قسم العقيدة بفرع جامعة الإمام بالقصيم ، وكانت القراءة فيه من كتاب (حادي الأرواح) لابن القيم الجوزية رحمه الله ، ثم بعد هذا الكتاب استمر المجلس بلا كتاب مخصص ، وإنما تطرح فيه المسائل والفتاوى والاستشارات ، واستمر المجلس إلى العام الذي توفي فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رحمه الله .

المجلس الخامس : مجلس الدعاة في بريدة : والذي ابتداء عام (١٤١٤هـ) وكانت نهايته في عام (١٤١٧هـ) ، وهو مجلس شهري يطرح فيه الدعاة قضاياهم التي تخصهم في جانب الدعوة إلى الله تعالى ، ويستمر المجلس ساعتين ، وكان الشيخ رحمه الله حريصاً على هذا المجلس إلا أن مشاغله والمسافة بين بريدة وعنيزة حالت دون الاستمرار فيه .

المجلس السادس : مجلس خاص ببعض المشايخ : وهو مجلس يعقده الشيخ رحمه الله كل أسبوعين لجملة من المشايخ الفاعلين في البلاد الذين ترأسوا مناصب دعوية حكومية تهتم بشأن العامة ، ومن جملة من يحضره ذلك الوقت ، مدير عام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقصيم ، ومدير عام فرع وزارة الشؤون الإسلامية بالقصيم ، ورئيس قسم العقيدة في جامعة الإمام بالرياض ، ورئيس قسم العقيدة بجامعة الإمام بالقصيم ، وغيرهم ، وابتداء المجلس في عام (١٤١٦هـ) واستمر إلى مرض الشيخ قبيل وفاته بأشهر رحمه الله ، فُرى فيه جملة من الكتب كان آخرها (المختارات الجليلة) للعلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله .

المجلس السابع : مجلس خطباء مدينة عنيزة : وهو مجلس شهري ابتداء عام (١٤١٨هـ) إلى شهر صفر من العام الذي توفي فيه الشيخ عام

(١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللهُ ، وكانت القراءة فيه من كتاب (زاد المعاد) لابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ ، ويزيد حضور هذا المجلس على عشرين خطيباً ، وتُطرح فيه القضايا الدعوية المستجدة والتي يحتاجها العامة ، كما يتمخض في هذا اللقاء اختيار الخطب المناسبة لكل شهر .

المجلس الثامن : مجلس أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وهو مجلس شهري يخص به الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة ، وابتدأ اللقاء في عام (١٤١٢هـ) ، واستمر إلى العام الذي توفي فيه الشيخ عام (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللهُ ، وكان عدد الحاضرين فيه يزيد على الأربعين ، وتم في هذا المجلس قراءة كتاب (الحسبة) لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ثم غيره من الكتب ، كما تُطرح فيه بعض القضايا والمشاكل التي يعانها أهل الحسبة .

لقاءات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الدورية .

للشيخ رَحِمَهُ اللهُ لقاءات عامة لعموم الناس ، كاللقاء الأسبوعي لقاء الباب المفتوح في صباح كل خميس في بيته مفتوحاً للجميع ، واللقاء الشهري في الجامع الكبير في عنيزة ، وهناك لقاءات ليست علمية وإنما إدارية مثل اللقاء الأسبوعي لأعضاء إدارة جمعية التحفيظ القرآن في عنيزة ، ولقاؤه بالطلبة المقيمين في السكن وذلك كل أول أحد من كل شهر ، هذه اللقاءات وغيرها من اللقاءات الطارئة تبين مكانة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ العلمية والدعوية وحاجة الناس على اختلاف أعمالهم وتوجهاتهم العلمية والدعوية للشيخ وعلمه وتوجيهه ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يخصّ الدعاة والخطباء والأمينين بالمعروف والناهين عن المنكر بلقاءات خاصة كما تقدم - مهتماً رَحِمَهُ اللهُ بما ينزل بالواقع من قضايا دعوية ، موجهاً لهم بما ينبغي أن يكون عليه الداعية سواء كان ذلك عبر اللقاء

بهم ، أو الإجابة على تساؤلاتهم ومشكلاتهم ، أو بكتب مطبوعة يخص بها جانب الدعوة ككتاب (زاد الداعية إلى الله) و (رسالة في الدعوة إلى الله) ، مهتماً بشأن الأمة دعاة ومدعويين ، مخاطباً المسؤولين وولاة الأمر بما تحتاجه الدعوة إلى الله في البلاد ، متابعاً لقضايا المسلمين في العالم الإسلامي ، متحلياً بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومراعاة المصالح والمفاسد ، وإجلال كلمة الحق ، عاملاً بما فيه مصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم ، كما كان لفضيلته نشاط كبير في تبصير الدعاة في كل مكان عبر لقاءاته في البلدان والمراكز المختلفة داخل المملكة العربية السعودية ، ومشاركته في المؤتمرات الإسلامية كمؤتمر رسالة المسجد والدعوة والدعاة ، ومؤتمر الفقه الإسلامي ، ومؤتمر مكافحة المخدرات ، وغيرها من المؤتمرات ، بالإضافة إلى المحاضرات التي يلقيها عبر الهاتف في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم ، ولأجل هذه الجهود الدعوية التي جعلت للشيخ قيمة ومكانة علمية ودعوية قل نظيرها في خدمة الإسلام والمسلمين ، حصل الشيخ رحمه الله على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام (١٩٩٤ م) ، وهو رحمه الله مع جهوده العلمية والدعوية ترك موروثاً علمياً كبيراً في شتى الفنون لا زال العالم الإسلامي يتفياً ظلالة ، وينهل من معينه ، وبعد وفاة الشيخ رحمه الله تمثلت هذه المكانة في نفوس المسؤولين فتوالى برقياتهم بالتعزية بفقد الشيخ رحمه الله ، وكذا العلماء وطلبة العلم والدعاة وعامة الناس في كل مكان ، فجاؤ المسلمون من كل مكان يشيعون جنازته ويورون جسده الثرى ، وارتسمت لقاءات العلماء عبر وسائل الإعلام يتحدثون عن مكانته وفضله وعلمه ، وانتهالت خطابات التعزية من أصقاع المعمورة ينعون فقده ، وامتلات الصحف بالحديث عن أخلاقه وخدمته لدين الله تعالى ، وألقت الكتب في سيرته ، وفاضت قرائح

الشعراء بكثير من القصائد التي تنعیه وتحدث عن مآثره وأخلاقه وبذله لعلمه ودعوته ونفسه في خدمة دين الله تعالى فرحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته .

يقول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية : « إن الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، أحد العلماء الأفاضل الذين خدموا العلم ، وساروا في دروبه خلال الفترة الزمنية السابقة ، وترك الكثير من العلم مثلاً في فتاواه ومؤلفاته ، والدروس والمحاضرات ، وكان مثلاً للعالم الباحث عن الدليل ولذلك انتشر علمه بشكل كبير بين الناس وعُرف رَحِمَهُ اللهُ بالعطاء الجيد والحرص على عمل الخير . . » .

ويقول الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد الرئيس العام لشؤون الحرمين آنذاك : « أحسن الله عزاءنا وعزاء الأمة الإسلامية لوفاة فقيدها سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، فبفقدته ثلّمت في الإسلام ثلّمة ، فهو إمام من أئمة المسلمين ، وعالم من علماء الأمة ، نفع الله به ونشر نوره وتلقى العلم عنه خلق كثير من داخل البلاد وخارجها ... » ^(١) .

ثانياً : مؤلفاته .

لقد برز الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في عدد من العلوم حفظاً وتأليفاً وتعليماً وتطبيقاً ، حتى إذا ما تحدث أو ألّف في فن من الفنون قلت : هو من أهل هذا الفن ، ومن العلوم التي درّسها وألّف فيها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : التوحيد ، والفقه ، والأصول ، والتفسير ، والحديث ، والفرق والمذاهب ، واللغة ، والنحو ، وغيرها ، حتى

(١) « ابن عثيمين الإمام الزاهد » للدكتور ناصر الزهراني (٨٤ ٩٨) ، وانظر : « الجامع لحياة الشيخ ابن عثيمين » (١١٣-١٢٢) ، و« حياة الشيخ محمد صالح العثيمين » (٣٩-٤٣) و(٨٣) .

السور من الفاتحة وحتى الآية (٥٣) من سورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة يس ، وسورة الصافات ، وسورة ص ، والسور من الحجرات إلى

الحديد ، وجزء عم ، وأحكام القرآن - وهذه ثمانية عشر مجلداً وهي محور الدراسة - ، فوائد التقوى من القرآن الكريم .

ثانياً : في الحديث .

- ١- شرح رياض الصالحين .
- ٢- شرح الأربعين النووية .
- ٣- شرح بلوغ المرام .
- ٤- شرح حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ .
- ٥- شرح حديث جابر في صفحة حجة النبي ﷺ .
- ٦- التعليق على المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ .
- ٧- التعليق على صحيح مسلم .

ثالثاً : في العقيدة .

- ١ . شرح العقيدة الواسطية .
- ٢ . القول المفيد شرح كتاب التوحيد .
- ٣ . شرح ثلاثة الأصول .
- ٤ . شرح كشف الشبهات .
- ٥ . شرح العقيدة السفارينية .
- ٦ . عقيدة أهل السنة والجماعة .
- ٧ . القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی .
- ٨ . فتح رب البرية بتلخيص الحموية .
- ٩ . نبذة في العقيدة الإسلامية .

- ١٠ . شرح لمعة الاعتقاد .
- ١١ . مذكرة على العقيدة الواسطية .
- ١٢ . تقريب التدمرية .
- ١٣ . منهاج أهل السنة والجماعة .
- ١٤ . أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها .
- ١٥ . رسالة في القضاء والقدر .
- ١٦ . الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع .
- ١٧ . التمسك بالسنة النبوية وآثاره .
- رابعاً : في الفقه .
- ١ - الشرح الممتع على زاد المستقنع .
- ٢ - رسالة في حكم تارك الصلاة .
- ٣ - رسالة في مواقيت الصلاة .
- ٤ - رسالة في سجود السهو .
- ٥ - ٧٠ سؤالاً في أحكام الجنائز .
- ٦ - بحوث وفتاوى في المسح على الخفين .
- ٧ - من الأحكام الفقهية في الطهارة والصلاة والجنائز .
- ٩ - ٦٠ سؤالاً في أحكام الحيض والنفاس .
- ١٠ - رسالة الحجاب .
- ١١ - رسالة في زكاة الحلبي .
- ١٢ - رسالة في الدماء الطبيعية عند النساء .

- ١٣- مجموعة أسئلة في بيع وشراء الذهب .
- ١٤- الزواج ومجموعة أسئلة في أحكامه .
- ١٥- مجموعة أسئلة تهتم الأسرة المسلمة .
- ١٦- مجالس شهر رمضان .
- ١٧- فصول في الصيام والتراويح والزكاة .
- ١٨- ٤٨ سؤالاً في أحكام الصيام .
- ١٩- الصيام ومجموعة أسئلة في أحكامه .
- ٢٠- التعليق على رسالة حقيقة الصيام .
- ٢١- شرح دعاء القنوت .
- ٢٢- المنهج لمريد الحج والعمرة .
- ٢٣- مناسك الحج والعمرة .
- ٢٤- صفة الحج .
- ٢٥- أخطاء يرتكبها بعض الحجاج .
- ٢٦- أحكام الأضحية والزكاة .
- ٢٧- تلخيص أحكام الأضحية والزكاة .
- ٢٨- تسهيل الفرائض .
- ٢٩- تلخيص فقه الفرائض .
- ٣٠- المدائنة .
- ٣١- رسالة في أحكام الميت وغسله .
- ٣٢- رسالة في أن الطلاق الثلاث واحدة ولو بكلمات .

٣٣- رسالة في قصر الصلاة للمبتعثين .

٣٤- رسالة في الوصول إلى القمر .

٣٥- رسائل فقهية .

خامساً : في الأصول وعلوم الآلة .

١ . أصول في التفسير .

٢ . شرح مقدمة التفسير .

٣ . الأصول من علم الأصول .

٤ . منظومة الشيخ رحمه الله في أصول الفقه وقواعده .

٥ . شرح نظم الور رحمه الله أصول الفقه .

٦ . مصطلح الحديث .

٧ . شرح البيقونية في مصطلح الحديث .

٨ . شرح الأجرومية .

٩ . مختصر مغني اللبيب .

١٠ . شرح ألفية ابن مالك .

سادساً : في الخطب .

الضياء اللامع من الخطب الجوامع

سابعاً : الفتاوى .

١ - فتاوى أركان الإسلام .

٢ - فقه العبادات .

٣ - فتاوى الحج والعمرة .

- ٤- فتاوى في التعزية .
- ٥- الفتاوى الاجتماعية .
- ٦- فتاوى الصيد .
- ٧- فتاوى منار الإسلام .
- ٨- الفتاوى النسائية .
- ٩- الفتاوى المكيّة .
- ١٠- فتاوى وتوجيهات في الإجازة والرحلات .
- ١١- فتاوى ورسائل في الأفراح .
- ١٢- الفتاوى الذهبية في الرقى الشرعية .
- ١٣- مجموع الفتاوى .
- ثامناً : موضوعات عامة .
- ١ . المنتقى من فرائد الفوائد .
- ٢ . كتاب العلم .
- ٣ . التعليق على السياسة الشرعية .
- ٤ . الخلاف بين العلماء .
- ٥ . مكارم الأخلاق .
- ٦ . رسالة في الدعوة إلى الله .
- ٧ . حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة .
- ٨ . من مشكلات الشباب .
- ٩ . الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات .

١٠ . زاد الداعية إلى الله .

١١ . دور المرأة في إصلاح المجتمع .

١٢ . الزواج^(١) .

ولا زالت مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تعمل على إخراج نتاج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، وتفرغ المواد الصوتية وم رَحِمَهُ اللهُ وتنقيحها، ولقد حدثني القائمون على النتاج العلمي في المؤسسة - حين زيارتي لهم - سواء المقروء أو المسموع أن مواد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وشروحاته لا زالت تتابع من طلابه، وفي كل فترة يأتي أحدهم بشروحات - لاسيما التسجيل القديم الذي لم يكن بحوزة الكثير - هي عند أفراد طلبة العلم السابقين للطلب عند الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، ثم تعمل المؤسسة على تنقيحها وترتيبها، ومن تأمل كثرة المؤلفات للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عَلِمَ ما بلغه الشيخ من العلم والرسوخ فيه، وبذل نفسه للتدريس حتى بلغ نفعه أرجاء العالم الإسلامي، ولا زال طلبة العلم يترقبون كل جديد لهذا العالم الجهبذ رحمة الله تعالى عليه .



(١) انظر: «ابن عثيمين الإمام الزاهد» (٣٢-٣٥)، و«حياة الشيخ محمد صالح العثيمين» (٤٣-٤٨) .

المبحث الثاني

أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة .

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلى القرآن الكريم وتفسيره .

المطلب الثالث : منهج الشيخ رحمه الله في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية .

المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة

إن تميُّز الدعوة ومضمونها يرجع إلى تميُّز ركائزها التي تعتمد عليه ، وإذا كانت ركائز الدعوة ومصادرها سماويةً بوحىٍ منزلٍ من عند الله تعالى ، تكلم به جل وعلا ، وأنزله على رُسوله ﷺ ، فإن الدعوة حينئذ تكون أصيلة المنبع ، بالغة التأثير ، ولقد جاءت النصوص متضافرة في أهمية تمثُّل الدعوة بالقرآن الكريم بأن يكون هو أساسها ومنطلقها في جميع مضامينها أصولاً ومجالاتٍ وأساليبٍ ووسائلٍ ، وسائر متعلقاتها ، وهكذا الدعوة لن تكون على نهج سلف الأمة ، ولن يدين لها المدعوون على اختلاف أصنافهم إلا إذا جعلت كتاب الله تعالى هو منهاجها ؛ لأن الدعوة إنما تكون لشرع الله تعالى القائم على الكتاب والسنة ، وقد جاء الأمر بالدعوة إلى هذا الشرع صراحة في نصوص القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الرسول ﷺ وغيره ، وقوله : ﴿ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما هو سبيل الله ؟ سبيل الله تعالى شرعه ؛ لأنه طريق يوصل إلى الله عَزَّجَلَّ ؛ ولأن الله تعالى هو الذي شرعه فأضيف إليه ، فيكون الشرع مضافاً إلى الله لوجهين : الوجه الأول : أنه موصل إلى الله . والوجه الثاني : أنه هو الذي شرعه لعباده وبينه لهم حتى يصلوا إلى الله عَزَّجَلَّ » (١) .

(١) مادة صوتية بعنوان : (من دروس وفتاوى الحرم المدني لعام ١٤١٦ هـ) مقتبسة من صفحة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في موقع إسلام ويب .

وتأمل قول شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللهُ في بيان الإرشادات التي جاءت بآية الدعوة السابقة حيث جعل المقصود في الآية هو الدعوة إلى كتاب الله تعالى حيث قال : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ادْعُ ﴾ يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ، يقول : إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه ، وهو الإسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ ﴾ يقول بوحى الله الذي يوحى إليك وكتابه الذي ينزله عليك ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، يقول : وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه ، وذكرهم بها في تنزيله ، كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حججه ، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه » (١) .

ويقول العلامة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي : « وقوله سبحانه ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ هذه الآية نزلت بمكة ، أمر عليه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة » (٢) .

وقد جعل الله تعالى في القرآن الكريم من الخصائص ما يجعله رأس الدعوة إلى الله تعالى ، ومن ذلك أنه :

١- رباني : من الرب جل وعلا ، ليس للبشر فيه أي سبب ، فهو مُحَكَّم وحُكَم ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَفَسَّمْتُوْا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الواقعة : ٧٥ - ٨٠] .

٢- كامل : فلا يعتريه نقص ولا عيب ؛ تكلم به من له الأسماء الحسنی

(١) « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري (١٤ / ٤٠٠) .

(٢) « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » (٣ / ٤٤٨) .

والصفات العلى ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ نَزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٢] .

٣- عملي : صالح لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، وهذا من إعجازه أن جعله الله منهاجاً يرجع إليه الناس في مصالح دينهم ودنياهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَكَا هَلْ أَلِكْتُبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] .

٤- ثابت متواتر ، محفوظ ، وصل إلينا بالتواتر كما نزل على رسول الله ﷺ ، تكفل الله تعالى بحفظه ، محفوظ من كل تغيير أو تبديل أو نقص أو زيادة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

٥- واضح : فيه تبيان كل شيء مما يحتاجه الناس على مر العصور إلى قيام الساعة ، قال تعالى : ﴿ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا رِيحُهُمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

٦- شامل : يستوعب كل شرائح المجتمع : العالمين والجاهليين ، والأغنياء والفقراء ، والمؤمنين والكافرين ، ولا يختص بجنس معين بل هو متوجه لكل البشر ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] .

٧- معجز ، في آياته ، وأحكامه وتشريعه ، وأخباره ، تحدثى الله به العرب ، ولا يزال التحدي باقياً إلى يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿[الإسراء: ٨٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الرسول الخاتم للرسالة محمد ﷺ فإنما كان معظم ما آتاه الله وحيا منه إليه منقولا إلى الناس بالتواتر، ففي كل حين هو كما أنزل، فلهذا قال: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا»، وكذلك وقع، فإن أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لعموم رسالته ودوامها إلى قيام الساعة، واستمرار معجزته؛ ولهذا قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تحداهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]» (١).

وكتاب هذه من خصائصه لَزِمَ لزوما قطعيا أن تنطلق الدعوة منه وإليه، وإلا كانت الدعوة جوفاء بلا عمق ولا أثر، والدعوة بالقرآن هي السبيل الذي دعا به النبي ﷺ أمته، وهي المنهج الذي سار عليه الصحابة والتابعون من بعده؛ ذلك أن القرآن هو الفرقان الذي نزل به الله تعالى على عبده ليدعو به الأنس والجن، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

(١) «تفسير ابن كثير» (١ / ٢٠)، وانظر في الكلام على خصائص القرآن: «دراسات في علوم القرآن» محمد بكر إسماعيل (١١) و«مباحث في علوم القرآن» مناع الفطان (١ / ٣٣).

المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلى القرآن الكريم وتفسيره

القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الأول ، فتاريخ الدعوة في هذه الأمة بدأ منذ تنزيل الوحي من الله تعالى على نبيه ﷺ ، جاء أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالدعوة فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] فاقترنت الدعوة بالقرآن الكريم منذ أول الإسلام ؛ لأنه منهاجها ومُحَكِّمُها ، فكانت دعوته ﷺ ومجالسه إنما هي في التنزيل وتفسيره وما تضمنه من متعلقات الدعوة ؛ لأن الله تعالى أوجد الخليقة على هذه البسيطة ليعبدوه حقَّ عبادته ، فقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والقرآن هو الداعي الأول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى حق المعرفة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وفيه إرشاد العبيد إلى التوحيد والهداية ، وما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

وجاء التوجيه الرباني من الله تعالى لأن يكون هذا القرآن هو مادة الدعوة إلى الله ويتضح ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : الأمر بالتذكير والوعظ بالقرآن الكريم :

وتعددت الآيات في هذا الأمر توجيهاً وإرشاداً ، وبشارةً ونذارة ، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية الكريمة : الفائدتان الأولى والثانية : وجوب الإنذار بالقرآن ، ويتفرع على هذا أن خير ما يُنذر به هو القرآن ، يعني هو أبلغ المواعظ في الإنذار ، لكن كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] » (١) .

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ﴾ يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك القوم ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]» (١).

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَبِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠].

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وأما قوله: ﴿وَذَكَّرَبِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾، فإنه يعني به: وذكر يا محمد بهذا القرآن هؤلاء الموليين عنك وعنه» (٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَذَكَّرَبِهِ﴾ أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة» (٣).

وقال تعالى: ﴿لَنْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَّرِ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] أي: ليكون هذا القرآن موعظة في قلوب من يخاف وعيد الله تعالى (٤).

ثانياً: ذم من أعرض عن الدعوة بالقرآن والإنكار عليهم:

لما كان القرآن هو أساس الدعوة، ذكر الله تعالى المعرضين عن الاهتداء به والتحاكم إليه وتطبيق الشرع الذي نزل به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِشُرَاءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

(١) «جامع البيان» (٩ / ٢٥٧).

(٢) «جامع البيان» (٩ / ٣٢٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢٧٩).

(٤) انظر: «الجواهر الحسان» للثعالبي (٩ / ١٠٨) و«الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» للواحدي (١ / ١٠٢٦).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: « يقول تعالى ذكره: وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتاب الله الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات واضحات على الحق دالات . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١] يقول: قال الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالمعاد إلينا ولا يصدقون بالبعث لك: ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] بقول: أو غيره . ﴿قُلْ لَّهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ [يونس: ١٥] أي من عندي . والتبديل الذي سألوه فيما ذكر ، أن يحول آية الوعيد آية وعد وآية الوعد وعيدا والحرام حلالا والحلال حراما ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه ، وأن ذلك إلى من لا يرد حكمه ولا يتعقب قضاؤه ، وإنما هو رسول مبلغ ومأمور متبع . وقوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ يقول: قل لهم: ما أتبع في كل ما أمركم به أيها القوم وأنهاكم عنه إلا ما ينزله إلي ربي ويأمرني به «^(١) ، وهذا فيه دلالة واضحة على أن دعوة النبي ﷺ إنما هي التنزيل ، وهكذا ينبغي للدعاة أن يمثلوا في دعوتهم القرآن الكريم .

وقال تعالى مبينا أن أصل الدعوة بالرسالة هو تبليغهم هذا القرآن الكريم : ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ آلَ ذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: « يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة: ﴿لَتَتَلَوْا عَلَيْهِمُ آلَ ذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبليغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قبلك ، فلك بهم أسوة «^(٢) .

(١) « جامع البيان » (١٢ / ١٣٦) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٤ / ٤٥٩) .

ثالثاً : القرآن ميزان الدعوة في بيان خطر الإعراض عن الدعوة .

لما كان الإنسان في الحياة عرضة للأهواء التي تجعله يجانب الصواب ، جعل الله تعالى الدعوة بالقرآن والنظر في آياته وتأملها ملاذاً من شبهات القلب التي تزيغ به عن سواء الصراط ، وعِظَةً وذكرى لأولي الألباب ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ : « يعني أو لم يكفهم من الآيات القرآن يتلى عليهم ، إن في ذلك ، في إنزال القرآن ، لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، أي تذكيراً وعظة لمن آمن وعمل به »^(١) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : « أي : أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً ! »^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] فيه بيان - لأرباب الدعوة دعاة ومدعويين - أن القرآن الكريم هو المأمن والمعتصم لمن تفكر في آياته ممن أراد الهداية إلى الصراط المستقيم من غوائل الكفر ، وهو باقٍ بين أظهر الناس رحمةً ونعمةً لهم^(٣) .

وإذا كان القرآن الكريم هو مدار الدعوة عِظَةً وذكرى ، بشارة ونذارة ،

(١) « معالم التنزيل » (٣ / ٥٦٣) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٦ / ٢٨٧) .

(٣) « معالم التنزيل » للبغوي (١ / ٤٧٨) .

وميزاناً للهداية ، فقد استودع الله فيه مضامين الدعوة وكل ما يحتاجه الداعية زاداً في دعوته ، من مجالات وأساليب ووسائل ، فجاءت فيه العقائد والعبادات والمعاملات والمصالح والتحذير من كل ما فيه مفسدة للعبد ، وجاءت فيه أساليب الترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، والعبر التي أمر الله تعالى نبيه ﷺ وأمرته من بعده أن يتفكروا ويتعظوا بأخبار الأمم السابقة ؛ لتكون من أمثل الأساليب تأثيراً على المدعويين ، ولقد أثنى الله تعالى على الدعاة حفظه القرآن الذين يحملون آيات الله تعالى في صدورهم فقال : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ إِسَائِنَتَنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] .

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ : « والذين أوتوا العلم : المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وحملوه بعده »^(١) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي : هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق ، أمراً ونهيًا وخبراً ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢) »^(٣) .

وجاء الثناء على الداعية على وجه الخصوص حين يدعو إلى الله تعالى المتضمن للدعوة إلى كتابه جل وعلا ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣] .

(١) « زاد المسير في علم التفسير » (٣ / ٤١٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢) .

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٦ / ٢٨٦) .

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، قال: تلا الحسن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إني من المسلمين، فهذا خليفة الله»^(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، مما يبتغى به وجه الله، وعمل هو في نفسه صالحا، وقال قولا صالحا، فلا أحد أحسن حالا من هذا»^(٢).

وإذا تقرر أهمية القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى أهمية بالغة، فإن كل سبب موصل إلى هذه الأهمية فهو بمنزلة من الأهمية، ولذا الداعية إلى الله تعالى بحاجة إلى التعمق في كتاب الله تعالى وفهم معانيه، وذلك بالاطلاع على كتب التفسير، إذ أن شرف العلم بشرف المعلوم، ولا يمكن الوصول إلى تمام المقصود إلا بتمام الفهم المراد، بل إن تفهم معاني القرآن من المحتتمات على العاملين في ميدان الدعوة إلى الله تعالى.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «فأول العلم حفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وَتَفَهُمُهُ وَكُلُّ مَا

(١) «جامع البيان» (٢٠ / ٤٢٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١ / ٦٨).

- (۱) « جامع بیان العلم وفضله » (۲ / ۱۱۲۹) .
- (۲) « مجموع الفتاویٰ » (۱۳ / ۴۰۳) .
- (۳) أخرجه الإمام أحمد « المسند » (۳۸ / ۴۶۶) (۲۳۴۸۲) بسند حسن .
- (۴) « مجموع الفتاویٰ » (۱۳ / ۳۰۸) .
- (۵) « الإتيقان في علوم القرآن » (۴ / ۱۹۹) .

المطلب الثالث : منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية

تنوّع منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لتنوّع المحافل العلمية التي ألقى فيها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تفسيره ، وعليه يتنوّع طرحه للقضايا الدعوية في هذه الدراسة التي مصدرها ثمانية عشر مجلداً مطبوعة من مؤسسة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ الخيرية ، من أول القرآن إلى سورة الأنعام عشرة مجلدات ، ثم سورة الكهف في مجلد ، ثم سورة يس في مجلد ، ثم سورة ص في مجلد ، ثم سورة الصافات في مجلد ، ثم السور من الحجرات إلى الحديد في مجلد ، ثم جزء عم في مجلد ، بالإضافة إلى أحكام من القرآن مجلدين ، ويمكن تقسيم الكلام على منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره وتناوله لقضايا الدعوة في هذا التفسير الذي هو محل الدراسة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : أحكام من القرآن الكريم :

وهو عبارة عن تفسير للشيخ عبر برنامج إذاعي ابتدأه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من سورة الفاتحة ووصل فيه إلى الآية الحادية والثلاثين من آل عمران ، طُبِع تحت عنوان : (أحكام من القرآن الكريم) في مجلدين مجموعهما (٩٧٨) صفحة ، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا التفسير على نحو ما يلي :

١- الشرح ليس خاصاً بآيات الأحكام كما هو ظاهر عنوانه ، وإنما فسر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيه جميع الآيات ، ولذا قال في مقدمته : « وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد الدينية والدينية والفردية والاجتماعية »^(١) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٧) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٩).

مجلدات ، وآل عمران مجلدان ، والنساء مجلدان ، والمائدة مجلدان ، والأنعام مجلد ، ومنهجه في هذا التفسير ما يلي :

١- تقرير مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله في العقيدة عند تفسيره للآيات ذات موضوع الاعتقاد ، والرد على المخالفين من المبتدعة لاسيما في باب الأسماء والصفات بالتفصيل وبالأدلة النقلية والعقلية .

٢- يحتوي تناوله لتفسير الآيات على ثلاثة محاور : الكلام في اللغة والوجوه الإعرابية ومعاني الكلمات ، ثم التفسير التحليلي مع إيراد القراءات في الآية وتوجيهها ، وخلاف المفسرين ، ثم الفوائد المستنبطة من الآية ويستطرد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيها كثيرا مما يدل على سعة علمه ، بحيث يستوعب الآية وما تتضمنه .

٣- ذكر الفوائد الفقهية المتعلقة بالآية ، ويرجّح ما يدل عليه الدليل دون التزام مذهب معين .

٤- إيراد بعض العناوين الجانبية سواء كانت استفهاما أو افتراضا أو مسألة أو تنبيها .

وهذا القسم من التفسير أثراه -بشكل موسّع- الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بالقضايا الدعوية سواء في الحديث عن موضوعات الدعوة ومجالاتها في الاعتقاد والعبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق ، أو في بناء الداعية وتأهيله العقدي والعلمي والعملية والأخلاقي ، أو في أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم ومراعاة أحوالهم ، أو في الأساليب والوسائل الدعوية ، وسيأتي خلال الدراسة بيان ذلك والوقوف على جملة من النماذج لهذه المضامين الدعوية .

القسم الثالث : التعليق على تفسير الجلالين .

والمطبوع من هذا التفسير ثلاثة مجلدات ، سورة يس في مجلد ، وسورة

وهذا القسم من التفسير حظي بكثير من القضايا الدعوية بشكل عام ، إلا أنها لم تكن كسابقتها في التوسع ، لاختلاف منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وطريقته في الشرح ، وأبرز ما في هذا القسم هي القضايا الدعوية التي تتعلق بالاعتقاد ، وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة ، والرد على المخالفين لاسيما المبتدعة ، وكيفية التأهيل العقدي للداعية .

القسم الرابع : تفسير أجزاء وسور متفرقة .

وهذا القسم من التفسير كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يلقيه أثناء افتتاحه للقاء الباب المفتوح (وهو لقاء أسبوعي كان وقته ضحى الخميس في بيت الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يبدأه بتفسير آيات يسيرة ثم يستمع لأسئلة الحاضرين العامة) ولم يكن اللقاء خاصا بطلبة العلم ، وكانت هذه الآيات التي يلقوها في افتتاحه للقاء ابتداءها من جزء عم حتى ختمه وطُبع في مجلد واحد ، ثم ابتداء من الحجرات ومات رَحِمَهُ اللهُ ولم يتمه حيث وصل فيه إلى الآية السادسة عشرة من سورة المجادلة ، وطُبع في مجلد واحد من سورة الحجرات إلى آخر سورة الحديد ، ويُلاحق بهذا القسم ، تفسير سورة الكهف الذي طُبع في مجلد واحد مختصر ، وكان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فسّر سورة الكهف في دورة صيفية مسائية عام (١٤١٩ هـ) لمدة أسبوع ، وهذه الثلاثة مجلدات قوام صفحاتها مجموعة (٩٧٠) صفحة ، ومطبوعة بنفس الاسم السابق للقسم الثاني والثالث (تفسير القرآن الكريم) ، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا القسم من التفسير كما يلي :

- ١- يعتني الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بالمعنى العام للآية بأسلوب ميسر للمخاطبين .
- ٢- يعتني الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيه بالجانب السلوكي والوعظي .
- ٣- لم يتعرض الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيه لإعراب الآيات إلا نادرا .
- ٤- لم يكن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على عادته في هذا النوع من التفسير في استنباط الفوائد مستقلة ؛ لأنه أراد به الاختصار بما يناسب المخاطبين ، وبما يناسب قصر المقام .
- ٥- اعتنى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بذكر المناسبات بين الآيات ، واكتفى بالقول الراجح في الآية ، وذكر الخلاف عند الحاجة .



(١) انظر مزيداً في بيان منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: « جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن » للدكتور أحمد البريدى (١٤٦٥).

المبحث الثالث

مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلى الله .

المطلب الثاني : أهمية الدعوة إلى الله .

المطلب الثالث : حكم الدعوة إلى الله .

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلى الله .

المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلى الله

لقد عني علماء الإسلام بالدعوة ومفهومها وما يتعلق بها منذ القدم ، إذ أنها وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي بها تصل الرسالة للأمم ، واجتهد علماء الأمة في بيان مفهوم الدعوة نظراً ، وتسطيره على أرض الواقع عملاً ، فجاءت كتبهم موضحة لمفهوم الدعوة وما يتعلق بها ، وتراجمهم مبينة كيف تُطبَّق الدعوة على منهاج الرسالة المحمدية ، وممن اعتنى بالدعوة علماً وعملاً شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ، في كتبه وتفسيره على وجه الخصوص ؛ وذلك لورود كثير من آيات القرآن الكريم تدور حول الدعوة ومفهومها ، وما قام به الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من دعوة أقوامهم ، وليتضح مفهوم الدعوة نُعَرِّف بالدعوة لغةً واصطلاحاً .

الدعوة في اللغة :

الدعوة مشتقة من : « دعا : يدعو ، دعاء ودعوة ، وبعض العرب يؤنث الدعوة بالألف فيقول : الدعوى^(١) .

والدال والعين والحرف المعتل : أصل واحد ، وهو أن تُميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك ، تقول : دعوت ، أدعو ، دعاء^(٢) .

وللدعوة في اللغة معانٍ أخرى ، منها :

الاستغاثة ، والدعاء ، والنداء ، والسؤال ، وتداعى القوم ؛ أي : دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا . والدَّعوة إلى الطعام بالفتح ، والدَّعوة في النسب بالكسر .

(١) « تاج العروس من جواهر القاموس » للزبيدي (٣٨ / ٤٦) مادة (دعو) .

(٢) « معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (٢ / ٢٧٩) مادة (دعو) .

والدعاة : قوم يَدْعُونَ إلى بيعة هدى أو ضلالة ، واحدهم داع . ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء فيه للمبالغة . والنبي ﷺ ، داعي الله تعالى ... وداعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته . قال الله عزَّ وجلَّ مخبرا عن الجن الذين استمعوا القرآن : ولوا إلى قومهم منذرين قالوا : ﴿ يَفْقَهُمْ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٣١] (١) .

ومعاني الدعوة تدور على معنى الطلب ، والداعية يطلب من المدعويين الامتثال لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ .

الدعوة في الاصطلاح :

ذكر أهل العلم للدعوة في الاصطلاح الشرعي عدة تعريفات وكلها ترجع إلى مفهومي :

الأول : تُطلق الدعوة على الإسلام نفسه .

والثاني : الدعوة بمعنى النشر والبلاغ (٢) .

أما على المعنى الأول : فقد عُرِّفت الدعوة ببعض التعريفات ، ومنها :

الدعوة إلى الله هي : النظام العام ، والقانون الشامل لأُمُور الحياة ، ومناهج السلوك للإنسان ، التي جاء بها محمد ﷺ من ربه ، وأمره بتبليغها إلى الناس ، وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة .

الدعوة هي : الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحياً على

(١) انظر : « لسان العرب » لابن منظور (٢٥٧ / ١٤) و « تاج العروس » للزبيدي (٤٦ / ٣٨) ، مادة (دعو) .

(٢) انظر « المدخل إلى علم الدعوة » للبيانوني (١٨١٦) .

رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم ، وبيتها السنة النبوية^(١) .

وأما على المعنى الثاني فقد عرفت الدعوة بتعريفات عدة ، منها :

الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصدقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ..^(٢) .

الدعوة هي : تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في واقع الحياة^(٣) .
الدعوة هي : حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل^(٤) .

ومما سبق : يتضح أن هذه التعريفات الاصطلاحية متقاربة يُكْمَل بعضها الآخر ، وأن الدعوة تشمل كل ما ذكر ؛ لأنها ذات معنى شمولي يستوعب الإسلام والدعوة إليه أجمع من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وآداب وسائر ما يشمل الإسلام ، لا تختص بمسار دون آخر ولا بقطر ولا زمان ، بل الدعوة إلى أمور الخير الدينية والدنيوية ، وإلى هذا المفهوم العام أشار الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] حيث قال : « كل ما جاء به الشرع فهو خير ، ويشمل ما كان خيراً في الدين وما كان خيراً في الدنيا ، أما ما كان خيراً في الدين فأمره ظاهر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) « الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها » أحمد غلوش (١٠) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١٧٥) .

(٣) « المدخل إلى علم الدعوة » (١٧) .

(٤) « هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة » علي محفوظ (١٧) .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧]﴾ ، وأما ما كان من أمر الدنيا فلأن ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة «^(١)» .



(١) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٦) .

ولما كانت رسالة محمد ﷺ خاتم الرسالات ، جعله الله تعالى نبيّ هذه الأمة مبعوثاً للناس كافة بما أوحى الله إليه من كتاب هيمن على الكتب السماوية كلها كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر : ٣٢] ، وعلى الأمة حينئذ من واجب الدعوة إلى الله تعالى أكثر مما يجب على من سبقها من الأمم ؛ ذلك لأن الله تعالى ميّزها وأعطاه ما لم يعط أمة من الأمم ، وجعل خيريتها مناطة بشأن الدعوة إلى الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: « هذه الأمة فَضَّلَتْ غيرها بالخيرية لوصف ليس في غيرها ، وهي أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأما من سبقها فلا ، يقول الله تعالى في بني إسرائيل : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٩] » (١) .

وقد كُلِّفَتْ هذه الأمة بما كُلِّفَ به رسولها ﷺ من القيام بدعوة البشرية إلى الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : « يقول الله تعالى لعبد ورسوله إلى الثقلين : الإنس والجن ، أمرا له أن يخبر الناس : أن هذه سبيله ، أي طريقه ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه ، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي » (٢) .

وأخبر سبحانه وتعالى أن الدعوة إلى الله هم أحسن الناس قولاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣] .

قال الحافظ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ : « يقول تعالى ذكره : ومن أحسن أيها الناس قولاً ممن قال ربنا الله ثم استقام على الإيمان به ، والانتهاه إلى أمره

(١) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٥٣) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٤ / ٤٢٢) .

ونهيهِ ، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به من ذلك» (١) .

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ : « والأولى حمل الآية على العموم كما يقتضيه اللفظ ويدخل فيها من كان سببا لنزولها دخولا أوليا ، فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم فلا شيء أحسن منه ، ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله » (٢) .

ولقد جاءت نصوص متضافرة في بيان أهمية الدعوة ، وفي بيان فضل الدعوة وذلك لسمو مكانتها وأهميتها في الشريعة ، ويتضح ذلك بتأمل ما يلي :

* أن الدعوة إلى الله تعالى جهاد في سبيل الله : فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بَقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ » (٣) .

وفي تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أي في الجهاد في سبيل الله ، ويحتمل أن يكون المعنى أعم من الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والعلم ، فمن قتل

(١) « جامع البيان » (٢٠ / ٤٢٩) .

(٢) « فتح القدير » (٤ / ٥٩١) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٠) .

لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله ؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه « (١) » .

* الدعوة إلى الله تعالى سبيل خيرية الأمة : كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآية : « من فوائد الآية : أنه متى زال هذا الوصف الذي به فضّلت هذه الأمة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال كونها خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لأن الحكم المعلل بعلة يوجد بوجودها وينتفي بانتهائها ، ويقوى بقوتها ويضعف بضعفها .

ومنها : أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ترتب الخيرية عليه يدل على أهميته .

ومنها : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما وجد في الأمة وجد الخير فيها ، وكلما ضعف فيها ضعف فيها الخير ، ولهذا لما كانت الأمة قوية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلادنا كانت البلاد على خير ما يرام ، ولما ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فات هذه البلاد من الخير بقدر ما فاتتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « (٢) » .

* الدعوة إلى الله تعالى سبيل لتحصيل الأجور العظيمة : عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ

(١) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٣٥٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٥٣) .

أَثَامَ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَثَامِهِمْ شَيْئًا ^(١) .

وعن أبي مسعود الأنصاري ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » ^(٢) .

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : « سواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك » ^(٣) .

* الدعوة إلى الله أحسن الأعمال عند الله تعالى : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣٣] ، وهذا النص يقرر : أن الدعوة إلى الله المقرونة بالعمل الصالح ، من أجل الأعمال ، وأفضل العبادات ، وهي شهادة لصاحبها : أنه من أحسن الناس دينًا ، وأقومهم طريقًا .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فجمع بين الدعوة إلى الله سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة من تعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك ، مما يبتغى به وجه الله ، وعمل هو في نفسه صالحًا ، وقال قولًا صالحًا ، فلا أحد أحسن حالًا من هذا » ^(٤) .

* الدعوة إلى الله تعالى سبيل الفلاح : قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية من فوائد هذه الآية : « فضيلة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففي الآية

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣) .

(٣) « شرح مسلم » (١٦ / ٢٢٧) .

(٤) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٦٨) .

دليل على فضيلة هذه الخصال ، قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، إذا خسر الناس فهو لاء هم المفلحون الرابعون^(١) .

* ترك الدعوة إلى الله سبيل للتفرق : لأن الله تعالى أعقب الآية السابقة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « وقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ ، أتى بها بعد قوله : ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لأن الأمة إذا تركت الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد أن تتفرق ؛ لأنه لا يكون لهم في هذه الحال كلمة جامعة ، كل واحد يعمل على هواه ؛ لأنه ما يدعى إلى الخير ، والنفوس لها نزعات متباينة مختلفة ، وكذلك أيضا إذا لم يكن أمر بمعروف ولا نهي عن منكر تفرق الناس ولا بد ؛ لأن هذا يريد الزنا ، وهذا يريد شرب الخمر ، وهذا يريد السرقة ، وهذا يريد أشياء غير الأولى فيحصل التفرق ، فإذا أمروا بالمعروف صاروا كلهم على المعروف ، وإذا نهوا عن المنكر صاروا كلهم على ترك المنكر^(٢) .

* وترك الدعوة كما أنه سبب للتفرق فهو سبب للتعرض للعقوبة واللعن والإبعاد عن رحمة الله تعالى والعياذ بالله ، قال تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٨-٧٩] ، فعدم تناهيهم عن المنكر أحل بهم اللعنة والبوار ، والذي لعن بني إسرائيل رسولان كريمان داود وعيسى ابن مريم ، وداود من

(١) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٨-٩) .

أنبياء بني إسرائيل ، لكنه ليس آخرهم ، آخرهم هو عيسى ابن مريم) ، فتكون لعنتهم في أول الرسالات ، وفي آخر الرسالات ^(١) .

* والدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى اتباع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، صراط الله الذي وضعه لعباده موصلاً إليه ومصلحاً لأموال دينهم ودنياهم ، وبهذا الاتباع تنقطع طرق الابتداع التي يضل مبتدعوها بعضهم بعضاً ، وتنفرد بهم الأهواء عن دين الله ويتبعون غير ما أمرهم به مولاهم في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، ويقعون فيما نهاهم الله عنه من التفرق ، حيث يقول سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ^(٢) .

* والدعوة إلى الله هي طريق المؤمنين الصادقين ، وضدها سبيل المنافقين وهديبهم : قال تعالى في مدح المؤمنين على هذا السبيل وبيان ثوابهم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١ ﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة : ٧١-٧٢] ، وقبلها بآيات بين الله تعالى أن السير على غير هذا الهدى هو هدي المنافقين والمنافقات الذين وصفهم الله تعالى بالمخالفة في هذا الباب ، وتوعدهم باللعة والعذاب الشديد فقال تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ

(١) انظر : « تفسير سورة المائدة » للشيخ ابن عثيمين (٢ / ٢٣٧) .

(٢) « رسالة في الدعوة إلى الله » للشيخ ابن عثيمين (٨) .

وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَافِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ [التوبة: ٦٧-٦٨].

وما استودع الله تعالى في الشريعة الغراء هذه الفضائل والأهمية في شأن الدعوة إلى الله تعالى إلا لأن بها تُقام الشريعة، وتُحفظ الحدود، ويستقيم الحال، ويؤمن المال، وترتفع راية الإسلام، وتُعظم دولة أهله؛ لأنهم ساروا على منهج الحق، وورثوا وظيفة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقاموا بها حق قيام، ولئن كانت الحاجة للدعوة ظاهرة على الإطلاق على مرِّ العصور بنصِّ النصوص الشرعية، فهي في زماننا اليوم أكثر حاجة وأهمية؛ فالدعوة في زمن كثرت فيه الفتن، واشتدت المحن، وتكالت صروف الدهر ونوائبه على أمة الإسلام، وماجت عهود الناس ومواثيقهم، واستشرى الجهل بالدين، وتميعت عقيدة المسلمين؛ تبرز أهميتها أكثر، لاسيما مع نشاط دعاة الشر والضلالة، عبر وسائل التواصل المتعددة المسموعة والمرئية والمقروءة، ببث شبهات التضليل والإلحاد والتشكيك في العقائد تارة، وفتح نار الشهوات والمجون واستباحة الأعراض تارة أخرى مستخدمين كل وسيلة للصد عن سبيل الله، والواقع خير شاهد على ذلك، مما يستدعي نشاط دعاة الإسلام اليوم، واستشعارهم لخطورة افتقار بعض أقطار وأحوال المسلمين وحاجتهم الماسة، فيقوموا بالدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ على بصيرة، وإصلاح أوضاع الناس بالحكمة، وتصحيح معتقداتهم، وغرس القيم والمفاهيم الصحيحة في قلوبهم، وسد الطريق على المفسدين في الأرض، والمنتسبين للإسلام زوراً ليشككوا في عقائد الناس وينشروا البدع والخرافات، فيحفظ دعاة اليوم على الناس

عقائدهم ، ويرشدونهم لما فيه صلاحهم ، فيشرفوا بوظيفة الأنبياء عليهم السلام ،
ويفوزوا بثمرتها ، سائرین علیٰ منهاجهم الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ اَدْعُ إِلَىٰ
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو
إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .



المطلب الثالث : حكم الدعوة إلى الله

لما كان شأن الدعوة إلى الله تعالى عظيمًا احتفت بكثير من النصوص الدالة على فضلها وأهميتها - كما تقدم - وجاءت النصوص بالأمر بها كقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ حَسَنَاتٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْتِزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٧] ، وقوله : ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧] ، وقوله : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥] ، وقوله : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »^(١) .

واتفق العلماء على وجوب الدعوة إلى الله ، واختلفوا في نوعية الوجوب ، هل هو على التعيين أو الكفاية :

القول الأول : أن الدعوة إلى الله تعالى واجبة وجوبا عينيا ، فيلزم كل مكلف أن يقوم بها .

واستدلوا بأدلة منها :

١ . قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) أخرجه مسلم (٤٩) .

الْمُنْكَرُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ووجه الدلالة: أن (من) هي للبيان والتبيين، وليست للتبويض، وعليه فتوجيه الخطاب بالدعوة إلى جميع المكلفين، فتكون الدعوة واجبة على كل فرد مسلم بقدر استطاعته.

٢. عموم قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ووجه الدلالة: أن الآية دلت على أن الدعوة سمة من سمات الأمة المسلمة قامت عليها الخيرية، والخيرية مرادة ومقصود الأمة، فتكون واجبة عليها جميعا.

٣. قول النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١)، ووجه الدلالة: أن (من) من ألفاظ العموم فيعم الحكم جميع المكلفين.

وأصحاب هذا القول قيدوا الوجوب بالاستطاعة، كما هي الواجبات تسقط بالعجز لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وعليه فمن لم يكن عالمًا بحكم المنكر لا يُعَدُّ مستطيعًا بالاتفاق، وكذلك من كان عاجزًا عن تغيير المنكر سقط عنه الوجوب، فلا يترتب على القول بالوجوب العيني حرج على أحد لم يستطع.

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «يتفق المسلمون على أهمية الدعوة إلى الله، ويتحدث كثيرون عن وجوبها على المسلمين، ونحن مع هؤلاء في وجوب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، وتذكير الناس ووعظهم ونصحهم... إن هذا واجب على جميع المسلمين، على اختلاف مستوياتهم، ولكن هذا الواجب يتفاوت بتفاوت

المسلمين علماء وفطنة وأسلوباً ومركزاً وعملاً ووقتاً.. وهذا الوجوب مستفاد من آيات كثيرة صريحة في القرآن . كما في قول الله تعالى : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَ هِيَ أَحْسَنُ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿يَبْنِي أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] « (١) .

والقول الثاني : أن الدعوة إلى الله تعالى واجبة وجوبا كفائياً ، فلا تلزم كل مكلف أن يقوم بها ، يكفي أن يقوم بها بعض من يكفي فيسقط الحكم عن البقية ، وبه قال جمهور العلماء .

واستدل العلماء القائلون بالوجوب الكفائي بأدلة ، منها :

١ . قوله تعالى : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ، ووجه الدلالة : أن (من) في الآية ، هي للتبويض ، وعليه قيام بعض من يكفي يسقط الحكم عن البقية .

٢ . قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] ، ووجه الدلالة : أن الآية صريحة في أن قيام طائفة بالتفقه في الدين وإنذار القوم كافٍ في إيصال الدعوة .

٣ . عللوا : بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمل يحتاج إلى علم

وبصيرة بالشروط والأحوال ، وهذا لا يتوفر في جميع المسلمين ، فيكون الواجب على من توفر فيه الشرط ، فإذا قام بواجب الدعوة من توفرت فيهم الشروط سقط الإثم عن الباقيين .

وأصحاب هذا القول يتفقون مع أصحاب القول الأول بأنه إذا لم تحصل الكفاية لم يسقط الحكم عن الباقيين ، ويبقى الخطاب متوجهاً إلى الجميع حتى تتحقق الكفاية ، وإذا لم تتحقق الكفاية أثم الجميع ، ويرى الباحث : أن ليس ثمة بُعد كبير بين القولين - لاسيما في واقعنا المعاصر الذي فشت فيه كثير من المنكرات - فالجميع متفقون على الوجوب ، والجميع متفق على وجوبه في حق من يستطيع لاسيما مع عدم كفاية القائمين^(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في فوائد قوله تعالى : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] : « وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لقوله : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، وهل هو فرض كفاية أو فرض عين ؟ ينبغي على الخلاف في (مِنْ) هل هي تبعية أو لا ؟ ولا شك أننا إذا رأينا منكراً وجب علينا أن ننكره وننهى عنه ، لكن لا يجب على كل واحد أن ينهى عن منكر معين ، مثلاً لو أن شخصاً اغتاب عندنا ونحن عشرة ، هل نقول : كلنا ننهى عنه أو إذا نهى واحد وحصلت به الكفاية كفى ؟ لكن لو أنه نهاه ولم ينته وجب على الآخرين أن يكونوا معه »^(٢) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وكل واحد من الأمة يجب عليه أن

(١) انظر أيضاً في هذه المسألة ما يلي : « أحكام القرآن » لابن العربي (١ / ٣٤٩) ، و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٤ / ١٦٥) ، و « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » للألوسي (٢ / ٢٣٨) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ١٢) .

يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطالب به . وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ... وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ؛ لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره «^(١) .

والمأمل بعين البصيرة لواقعنا اليوم يدرك حجم المسؤولية الكبيرة للقيام بالدعوة إلى الله وصد المنكرات التي فشت في المجتمعات ، وقيام فرضية العين في كثير منها ، وهذه الفرضية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فواجب العامة يختلف عن واجب العلماء والمسؤولين ، وهذا ما يقتضيه فقه هذه الشعيرة العظيمة ؛ لاختلاف العلم والسلطة الذي تختلف باختلافه القدرة المناطة بهذه الشعيرة .

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ : « وفي وقتنا اليوم قد يسر الله عزَّجَلَّ أمر الدعوة أكثر ، بطرق لم تحصل لمن قبلنا ، فأمور الدعوة اليوم متيسرة أكثر ، من طرق كثيرة ، وإقامة الحججة على الناس اليوم ممكنة بطرق متنوعة : عن طريق الإذاعة ، وعن طريق التلفزة ، وعن طريق الصحافة ... ومن طرق شتى .

فالواجب على أهل العلم والإيمان ، وعلى خلفاء الرسول أن يقوموا بهذا الواجب ، وأن يتكاتفوا فيه ، وأن يبلغوا رسالات الله إلى عباد الله ، ولا يخشوا في الله لومة لائم ، ولا يحابوا في ذلك كبيرا ولا صغيرا ولا غنيا ولا فقيرا ، بل يبلغون أمر الله إلى عباد الله ، كما أنزل الله ، وكما شرع الله ، وقد يكون ذلك فرض عين إذا كنت في مكان ليس فيه من يؤدي ذلك سواك ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه يكون فرض عين ، ويكون فرض كفاية ، فإذا كنت في

(١) « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١٦٦) ، وانظر : « أحكام القرآن » لابن العربي (١ / ٣٨٣) .

مكان ليس فيه من يقوى على هذا الأمر ، و يبلغ أمر الله سواك ، فالواجب عليك أنت أن تقوم بذلك ، فأما إذا وجد من يقوم بالدعوة والتبليغ ، والأمر والنهي غيرك ، فإنه يكون حينئذ في حقتك سنة ، وإذا بادرت إليه وحرصت عليه كنت بذلك منافسا في الخيرات ، وسابقا إلى الطاعات ، ومما احتج به على أنها فرض كفاية قوله جل وعلا : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند هذه الآية وجماعة ما معناه : ولتكن منكم أمة منتصبة لهذا الأمر العظيم ، تدعو إلى الله ، وتنشر دينه ، وتبلغ أمره سبحانه وتعالى ، ومعلوم أيضا أن الرسول ﷺ دعا إلى الله ، وقام بأمر الله في مكة حسب طاقته ، وقام الصحابة كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم - بذلك حسب طاقتهم ، ثم لما هاجروا قاموا بالدعوة أكثر وأبلغ ، ولما انتشروا في البلاد بعد وفاته (قاموا بذلك أيضا رضي الله عنهم وأرضاهم كل على قدر طاقته وعلى قدر علمه ، فعند قلة الدعاة ، وعند كثرة المنكرات ، وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته ، وإذا كان في محل محدود كقرية ومدينة ونحو ذلك ، ووجد فيها من تولى هذا الأمر ، وقام به وبلغ أمر الله كفى ، وصار التبليغ في حق غيره سنة ؛ لأنه قد أقيمت الحجة على يد غيره ونفذ أمر الله على يد سواه .

ولكن بالنسبة إلى بقية أرض الله ، وإلى بقية الناس ، يجب على العلماء حسب طاقتهم ، وعلى ولاية الأمر حسب طاقتهم ، أن يبلغوا أمر الله بكل ما يستطيعون ، وهذا فرض عين عليه على حسب الطاقة والقدرة .

وبهذا يعلم أن كونها فرض عين ، وكونها فرض كفاية أمر نسبي يختلف ، فقد تكون الدعوة فرض عين بالنسبة إلى أقوام وإلى أشخاص ، وسنة بالنسبة

إلى أشخاص وإلى أقوام ؛ لأنه وجد في محلهم وفي مكانهم من قام بالأمر وكفى عنهم^(١) .



(١) « الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة » (١٦-١٨) .

المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلى الله

للدعوة إلى الله تعالى مكانة كبيرة في الإسلام ، والدعاة إلى الله تعالى لا بد لهم من مورد يستقون منه الدعوة إلى الله ، وهو الذي يصدر عن الدعوة ومعالجة قضاياها ، والمصادر : جمع مصدر ، وهو مصدر ميمي من الصَدَرَ بالتحريك من قولك صَدَرْتُ عن الماء وعن البلاد ، ويكون أيضاً اسم مكان أي الموضع الذي يُصدر منه ، ومنه مصادر الأفعال أي الأصول التي أُخِذَتْ منها ، و(الصدر) بفتح الدال الاسم من قولك : (صدر) عن الماء وعن البلاد من باب نصر ودخل^(١) ، ومصادر الدعوة هي الأصول التي تؤخذ منها الدعوة إلى الله تعالى ، وهي كما يلي :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

لا شك أن كتاب الله تعالى هو المَعِينُ الأوَّل الذي يصدر عنه الداعية ، ويأخذ منه زاد دعوته ، وكلما كانت الدعوة مستندة إلى كتاب الله تعالى كانت أكثر تأصيلاً وعمقاً وتأثيراً في المدعوين ، وكانت العاقبة الحسنة . للداعية لتمسكه بكتاب الله تعالى ، وكان الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يؤكد هذا المعنى في تفسيره مبيناً أن هذا هو طريق الاهتداء في الدعوة إلى الله تعالى ، حيث قال : « ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق ، ولهذا فإنني أحثكم على أن تمسكوا بهذا القرآن العظيم ، وإذا تمسكتم به عقيدة ، وعملاً ، وهدياً فستكون العاقبة لكم ، ولا تظنوا أنكم قليلون - لو كنتم قليلين -

(١) انظر : « لسان العرب » لابن منظور (٤ / ٤٤٨) و « مختار الصحاح » للرازي (١ / ١٧٤)

فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن يجذب الناس للمهتدي به حتى يكثروا شيئاً فشيئاً ، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله ، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق»^(١).

وفي موضع آخر بيّن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أهمية التزود والصدور عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه للدعاة على وجه الخصوص وأنه أول زاد يستقي منه الداعية ، وأن الانكفاف عن التزود من كتاب الله تعالى يحوّل مسار الداعية من معول بناء وهداية إلى معول هدم وضلالة ، فيقول : « وإن أول زاد يتزود به الداعية إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون على علم مستمد من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ ، الصحيحة المقبولة ، وأما الدعوة بدون علم فإنها دعوة على جهل ، والدعوة على الجهل ضررها أكبر من نفعها ، لأن هذا الداعية قد نصب نفسه موجهاً ومرشداً فإذا كان جاهلاً فإنه بذلك يكون ضالاً مضلاً والعياذ بالله ، ويكون جهله هذا جهلاً مركباً ، والجهل المركب أشد من الجهل البسيط ، فالجهل البسيط يمسك صاحبه ولا يتكلم ، ويمكن رفعه بالتعلم ، ولكن المشكلة كل المشكلة في حال الجاهل المركب ، إن هذا الجاهل المركب لن يسكت بل سيتكلم ولو عن جهل وحينئذ يكون مدمراً أكثر مما يكون منوراً »^(٢).

وكذا كتب التفسير تعدّ من المصادر الملازمة لكتاب الله تعالى يستقي منها الداعية البيان والتوضيح ، وجمع المتفرقات من الأدلة في موضوع واحد ، وكذا الأخبار وأقوال المفسرين من السلف ومن بعدهم ، لتكون زاداً للداعية

(١) « تفسير سورة يس » (٢٤٨-٢٤٩) عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الرَّحُوف : ٤٤] .

(٢) « زاد الداعية إلى الله » ضمن كتاب « الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين » (١١) .

في موضوعاته الدعوية ، ويزداد بها المدعو تبصرةً وإيضاحاً لكلام الله تعالى ، ويعتبر تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ثرياً بالجوانب الدعوية كما سيظهر في هذه الدراسة - ولقد اعتنى الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالتفسير عناية خاصة ، وكثيراً ما يحث ويدعو إلى الاهتمام بالتفسير ، ومن ذلك قوله : « وتعلم التفسير واجبٌ لقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ أَرْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَالَ الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ، ويتعظوا بما فيه .

والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها فإذا لم يكن ذلك ، فأتت الحكمة من إنزال القرآن ، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها ؛ ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه ، ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم ، وعدم وصول الخير إليها ^(١) .

وقال أيضاً ناصحاً الدعاة أن يرجعوا إلى التفسير مبيناً أهميته : « ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه ، فيكون تفسير القرآن ، مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه ، والغرض من تعلم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة ، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله ؛ ليعبد الله بها على بصيرة ^(٢) .

(١) « أصول في التفسير » لشيخنا ابن عثيمين (٢٣) .

(٢) « أصول في التفسير » (٢٤) .

ولقد تعاهد العلماء هذا المصدر المهم من عصر السلف إلى يومنا هذا بالنهل من كتاب الله تعالى وتفسيره ، واستخراج المضامين والموضوعات والجوانب الدعوية ، ولا تكاد تجد داعية إلا وهو يتردد على هذا المصدر ليأخذ منه دلالات الآيات لما فيه مصلحة المدعويين في دينهم ودنياهم .

المصدر الثاني : السنة النبوية :

السنة النبوية هي المصدر التشريعي والوحي الثاني من مصادر الدين الإسلامي ، وما أجمله القرآن من الشريعة فيبانه تفصيلاً في السنة ، ولقد اهتم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره بالكتاب والسنة ، سواء كان ذلك في ذات تفسيره حين يفسر القرآن بالقرآن أو القرآن بالسنة ، أو فيما تضمنته الآيات من دلائل شرعية ودعوية فإن أول ما يستشهد لها من الكتاب والسنة ، وكثيراً ما يربط في تفسيره ويرشد لربط حياة الناس دعاء ومدعويين بالكتاب والسنة ، وأن فيهما بيان كل شيء فيقول : « قال تعالى : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن ، لكن وجوده في القرآن : إما أن يكون على وجه صريح ، أو على وجه ظاهر ، أو على وجه الإيماء والإشارة ، أو على وجه الشمول والعموم ، أو على وجه اللزوم ، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء ، تارة يذكر الدليل على المسألة ، وتارة يذكر التوجيه إلى الدليل ، فمثلاً : هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات ، وتقدير أنصبة الزكاة ، وما يجب فيها ، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَاءَ أَنْتُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَاتِهِمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ ﴾ [الحشر: ٧] ، فهذه الآية إذا وجهتها إلى السنة شملت

جميع السنة ، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسنة «^(١) .

وبيّن في موضع آخر أن الدعوة لن تكون صحيحة ولن ينتصر الداعية فيها إلا إذا كان على منهاج الكتاب والسنة ، فيقول : « فمن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً لشريعة الله ثم مات أو قُتِل ، لكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده ، فهو في الحقيقة انتصار له »^(٢) .

المصدر الثالث : أقوال السلف :

لأقوال السلف أهمية بالغة فيما يتعلق بالكتاب والسنة ؛ ذلك أنهم أقرب للتنزيل فهم أقرب للحق والإصابة واتباع السنة والفهم الصحيح لكتاب الله تعالى . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « وحيثُ ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم »^(٣)

ولقد عني الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره بهذا المصدر عناية منقطعة النظر ، لا سيما في الدعوة إلى مسائل الاعتقاد وتقريرها ، فهو يناقش المخالفين لا سيما في آيات الصفات ويردُّ بفهم سلف الأمة ولا أحسب أن تفسيراً أوسع من تفسيره ولا أطول نفساً منه في هذا الباب - وقد قرَّر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أن الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم في التفسير وفي أحكام المكلفين والعقائد حيث قال : « ولهذا كان الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم لا في التفسير ، ولا في أحكام أفعال المكلفين ، ولا في العقائد أيضاً ؛ لأن

(١) « تفسير سورة يس » (٢٥٠) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٨٣) .

(٣) « مقدمة في أصول التفسير » لابن تيمية (٤٠) .

الهداية للحق علقّت بالإيمان ؛ ولا شك أن الصحابة أقوى الناس إيماناً ؛ قال الرسول ﷺ : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » (١) « (٢) .

ويقرر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في موضع آخر كيف يكون العبد وكذا الداعية على المنهج الصواب في طريقه إلى الله تعالى ، وأن علامة الصواب هو الأخذ بالمصادر الثلاثة السابقة ، فيقول : « إذا قال قائل : ما الذي يدل الإنسان على كونه على صواب أم لا ؟

الجواب : أن يرجع إلى الكتاب والسنة وإلى هدي السلف الصالح ومنهجهم ، فيعرف أنه على صواب أو على خطأ » (٣) .

المصدر الرابع : اللغة :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : ٤] ، والنبى ﷺ عربي ، ولذا نزل القرآن يخاطب العرب بلغتهم التي يفهمونها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] ، ولأهمية اللغة في أن تكون مصدراً للدعوة أهمية بالغة ، فأشرف العلوم التي يدعو لها الداعية كتاب الله تعالى وما يتعلق به كالتفسير ؛ لأن القرآن هو المستقى الأول في الدعوة إلى الله كما تقدم - ولن يستخرج الداعية عميق دلالات القرآن ومعانيه حتى يكون عالماً باللغة ، يقول مجاهد رَحِمَهُ اللهُ : « لا يحلُّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذالم يكن عالماً بلغات العرب » (٤) ، ويقول مالك بن أنس :

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٥) .

(٣) « تفسير سورة الأنعام » (١٤٤) .

(٤) « البرهان في علوم القرآن » للزركشي (١ / ٢٩٢) .

« لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ يَفْسِّرُ كِتَابَ اللَّهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ إِلَّا جَعَلْتَهُ نَكَالاً »^(١).

ولقد عني الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره باللغة أيما عناية ، ويظهر هذا من خلال بيان الأوجه الإعرابية في الآيات التي يختلف معناها باختلاف إعرابها ، والأمثلة في تفسيره كثيرة ، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ، حيث قال : « اختلف أهل الإعراب في إعراب (ما) فقال بعضهم : إن (ما) مصدرية ظرفية ، أي : مدة دوام عدم مسكهم لهن ؛ وقال بعضهم : إن (ما) شرطية ، فهو من باب دخول الشرط على الشرط ؛ أي : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء إن لم تمسوهن ؛ وهذا يأتي في اللغة العربية كثيراً ... (ثم اختار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ المعنى الثاني) »^(٢).

وكذا له عناية بالاستشهادات الشعرية في اللغة والنحو والصرف ، ومن أمثلة ذلك عند تفسيره قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧] ، قال : « المراد بالجهالة هنا السفاهة ، ومنه قول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(٣)

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، قال : « قوله تعالى : ﴿ يَدْعُ ﴾ فَعِيل بمعنى مُفْعِل ؛ أي مُدْبِع ؛ ولها نظير في اللغة

(١) المرجع السابق .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٦٦) ، ولمزيد من الأمثلة : انظر « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٢٥) ، و « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٥) ، و « تفسير سورة الصافات » (١٦٣) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١ / ١٣٧) ، ولمزيد من الأمثلة انظر : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٨٢) ، ٣٥٨ و (٣ / ٧٦ ، ٢٤٦) ، و « تفسير سورة الصافات » (١٥٦) و « تفسير سورة جزء عم » (٣٠٢) .

العربية ، مثل قول الشاعر :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤْرِقْنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعُ
فَالسَّمِيعُ بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ ^(١) .

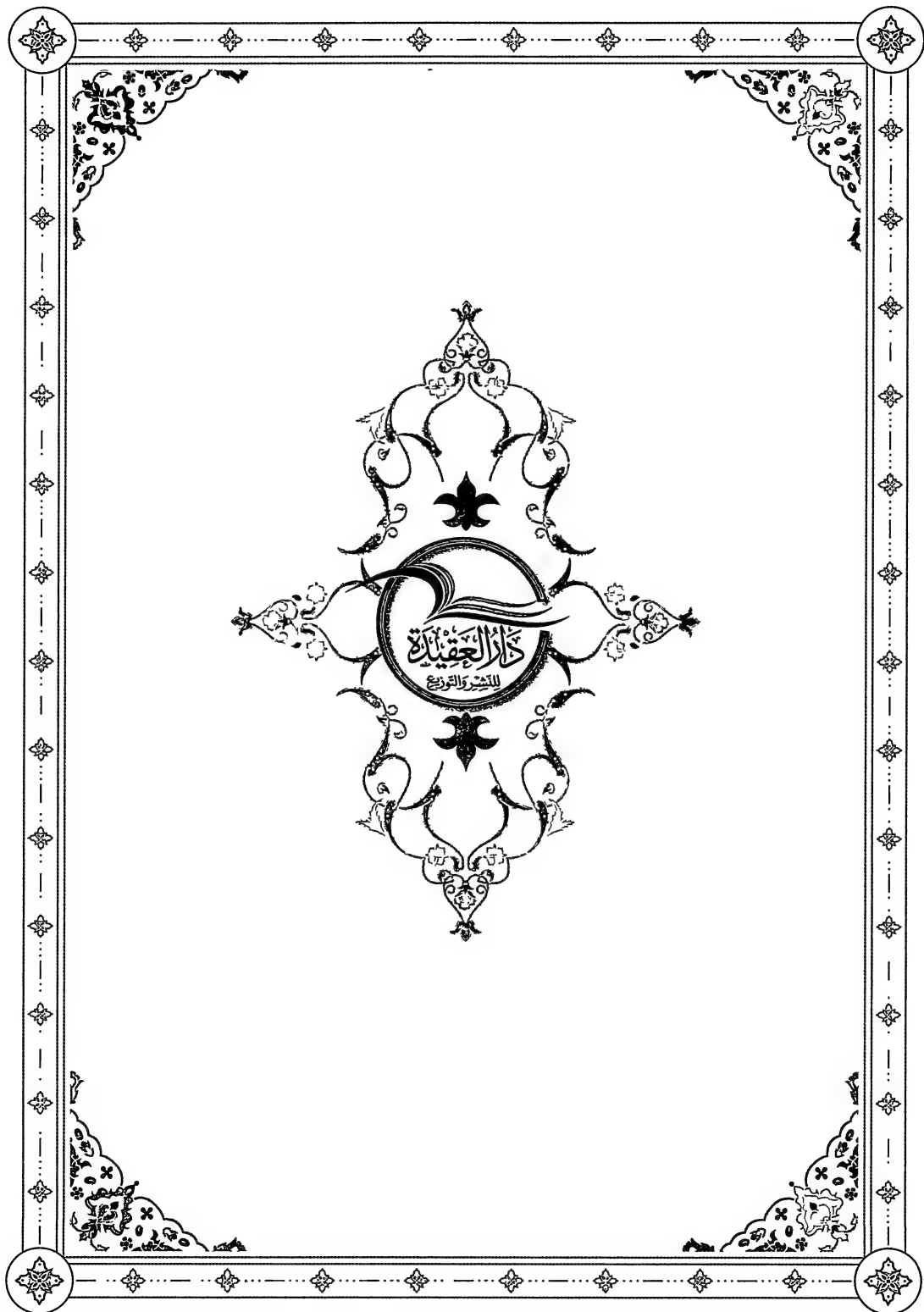
وهو في تفسيره أيضاً يهتم ببيان المعنى اللغوي مع بيانه للمعنى الشرعي ومن أمثلة ذلك : عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] ، قال : « والهجر في اللغة الترك ، ومنه : (هجرت فلاناً) إذا لم تكلمه ، وفي الشرع له معنيان : عام ، وخاص ، فأما العام فهو هجر ما حرم الله عز وجل ، كما قال النبي ﷺ : « وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ^(٢) ، وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله ... والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين : العام والخاص » ^(٣) .



(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٦٢) ، ولمزيد من الأمثلة انظر : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩١) ، (٣٢٨ ، ٢٦١) و (٢ / ٢٤٧) و (٣ / ٦٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦) .



الفصل الأول

الدعوة إلى عقيدة التوحيد

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة التوحيد بأنواعه .

المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد .

المبحث الثالث : الدعوة إلى أركان الإيمان .

المبحث الرابع : الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (١١ / ٢٨٠).

الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه »^(١) .

وكما أن التوحيد هو أول ما أمر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالدعوة إليه ، فهو أول ما أمر النبي ﷺ الدعوة من بعده أن يدعو إليه ، عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « أن رسول الله ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرْدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ »^(٢) .

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ تعليقاً على هذا الحديث وأهمية البداءة بالشهادتين في الدعوة : « ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما ، فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين ، ومن كان موحداً فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة ، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضي الإشراك أو يستلزمه كمن يقول ببنوة عزيز أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم »^(٣) .

وسار على هذه الأوليّة في الدعوة دعاة الإسلام في كل زمان ، يدعون إلى التوحيد ، ويحذرون من كل ما ينافيه ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فقد كانت الدعوة في مجال العقيدة بارزةً بجلاء في جميع كتبه ، وفي تفسيره على وجه الخصوص ، بل أحسب أن تفسيره هو أوسع التفاسير في الدعوة إلى موضوعات العقيدة ومعالجة القضايا المتعلقة بالتوحيد ، ولقد برز هذا الجانب

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٣٧٦) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٣) « فتح الباري » (٣ / ٣٥٨) .

في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بِشَكْلٍ قَلَّ نَظِيرُهُ ، فقد كان في تفسيره يذكر ما تدل عليه الآيات من موضوعات عقدية سواء كان بدلالة المطابقة أو دلالة الالتزام أو دلالة التضمن ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في تفسير سورة الفاتحة حيث قال : « في هذه السورة العظيمة سورة الفاتحة - التي سماها رسول الله ﷺ أم الكتاب ، وأم القرآن دليل على مضمون ما جاء به القرآن ؛ فهي أمُّ وفاتحة ؛ لأنها تشتمل على أنواع التوحيد ، وتشتمل على الإشارة إلى الشرائع ، وتشتمل على الإشارة إلى الرسل والملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وعلى اليوم الآخر ، وعلى أقسام الناس ؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة ، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية :

ففيها من توحيد الألوهية قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ؛ فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين .

وفيه من توحيد الربوبية قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ والربوبية تكون عامة وتكون خاصة ، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَمَّا نَبُذَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ [الأعراف : ١٢١-١٢٢] ؛ فربوبية الله تعالى لموسى وهارون) ، وأمثالهما من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ليست كربوبيته لفرعون وهامان وقارون ؛ لأن ربوبيته لموسى وهارون) ، وأمثالهما من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ربوبية خاصة ، بها عناية وتوفيق لأمر لم يُوفَّقَ له أكثر الخلق .

أما الأسماء والصفات ففيها أي سورة الفاتحة - الألوهية والرحمة والوصف بالحمد والثناء ، كل هذا من أجل كمال صفات الله عَزَّوَجَلَّ .

أما اليوم الآخر ففي قوله : ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] .

وأما العبادة والاستعانة ففي قوله : ﴿ يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وهي تشمل جميع الشريعة من أقوال وأفعال واعتقادات ؛ إما شيء يُطلب إيجاده ، وإما شيء يُطلب اجتنابه ، وكلها داخلة ضمن قوله : ﴿ يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ

نَسَعَيْتُ ﴿١﴾؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئاً إلا بمعونة الله ، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله .

وأما الإيمان بالملائكة ؛ فإنه يؤخذ من قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ ﴾ [الفاتحة : ٧] ؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل (لأنه موكل بالوحي ، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة .

وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره ، وقضائه ، وقدره .

وأما أقسام الناس فيما أوحى الله إلى رسله فقد تضمنها قوله : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (١) .

هذا وغيره مما سيأتي في المضامين الدعوية يبين أهمية العقيدة والدعوة إليها ، وجعل موضوعها أول ما يدعى إليه ، ويهتم به ، ويحذر مما ينافيه من الشرك بأنواعه ، وسيأتي في المباحث القادمة تفصيل وبيان لما يتعلق بالدعوة إلى العقيدة .



المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة التوحيد بأنواعه

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره أنواع التوحيد وما يتعلق بها والدعوة إليها في مواضع عدة ، وأنواع التوحيد كما يلي :

النوع الأول : توحيد الربوبية :

جاء في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ توحيد الربوبية وما يتعلق به في آيات عديدة ، واشتمل تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على تعريف لتوحيد الربوبية وتأصيل وتقعيد .

- المضامين الدعوية في توحيد الربوبية :

أولاً : عرّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ توحيد الربوبية بقوله : « هو أفراد الله عَزَّجَلَّ بالخلق ، والملِك ، والتدبير »^(١) .

وقال في موضع آخر : « وأما الإيمان بربوبيته : فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبّر له »^(٢) .

ثانياً : هذا النوع من التوحيد لم تنكره طائفة معروفة من بني آدم ، جميع الطوائف استجابت لدعوة توحيد الربوبية^(٣) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ بل كانوا مُقرّين به ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ

(١) « القول المفيد على كتاب التوحيد » لشيخنا ابن عثيمين (١ / ١٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٣) ، وعرّف توحيد الربوبية في « تفسير سورة الحديد » (٣٩٦) ، بقوله : « الإيمان بربوبيته ، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور ، فلا خالق إلا الله ، ولا مدبر للكون إلا الله ، ولا مالك للكون إلا الله عَزَّجَلَّ » .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٣ / ٩٦) .

سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿الزخرف: ٩﴾ . فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر ، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم ، فلم يقل أحد من المخلوقين : إن للعالم خالقين متساويين ، فلم يجحد أحد توحيد الربوبية ، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك ، إلا ما حصل من فرعون ؛ فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة ، فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده ، قال تعالى حكاية عنه : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ، وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الربَّ غيره ، كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: من الآية ١٤] ، وقال تعالى حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَام وهو يناظره : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاسراء: من الآية ١٠٢] فهو في نفسه مُقَرَّرٌ بأن الربَّ هو الله عَزَّوَجَلَّ .

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس ، حيث قالوا : إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور ، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين . فهم يقولون : إن النور خير من الظلمة ؟ لأنه يخلق الخير ، والظلمة تخلق الشر ، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر ، وأيضاً : فإن الظلمة عدم لا يضيء ، والنور وجود يضيء ، فهو أكمل في ذاته ، ويقولون أيضاً بفرق ثالث ، وهو : أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة ، واختلفوا في الظلمة : هل هي قديمة ، أو محدثة ؛ على قولين ^(١) .

ثالثاً : استدل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لتوحيد الربوبية بأدلة متنوعة ، فقال مستدلاً على وجود الله تعالى بالشرع والحس ، والعقل ، والفطرة ، ثم بين أن هذه أدلة على ربوبية

(١) « القول المفيد » (١ / ٨ - ١١) ، وانظر : « تفسير سورة الأنعام » (١٣٠) ، و « تفسير سورة ص » (٢٣ ، ٧٨) .

الله تعالى أيضاً ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْإِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى أَمْالًا عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « أما الإيمان بوجوده : فإنه دل عليه الشرع ، والحس ، والعقل ، والفطرة :

أ- دلالة الشرع على وجوده سبحانه وتعالى واضحة من إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وإنزال الكتب .

ب- دلالة الحس : فإن الله سبحانه وتعالى يدعى ، ويجيب ؛ وهذا دليل حسي على وجوده تبارك وتعالى - كما في سورة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وغيرها من إجابة دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فور دعائهم ، كقوله تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء : ٧٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] .

ج- دلالة العقل : أن ما من حادث إلا وله مُحْدِث ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] ؛ هذا الكون العظيم بما فيه من النظام ، والتغيرات ، والأحداث لا بد أن يكون له موجد مُحْدِث يُحْدِث هذه الأشياء وهو الله عَزَّوَجَلَّ ؛ إذ لا يمكن أن تحدث بنفسها ؛ لأنها قبل الوجود عدم ؛ والعدم كاسمه لا وجود له ؛ ولا يمكن أن يحدثها مخلوق لما فيها من الْعِظَمِ وَالْعَبَرِ .

د- دلالة الفطرة : فإن الإنسان لو ترك وفطرته لكان مؤمناً بالله ؛ والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] ؛ حتى غير الإنسان مفطور على معرفة الرب عَزَّوَجَلَّ .

وأما الإيمان بربوبيته : فهو الإيمان بأنه وحده الخالق لهذا الكون المالك له المدبر له ؛ وقد دل عليه ما سبق من الأدلة على وجوده ^(١) .

رابعاً : الاستجابة لدعوة توحيد الربوبية والإقرار بها لا يكفي في تصحيح العقيدة ودخول الإسلام ، بل صاحبه وإن أقر بالربوبية فهو باقٍ على كفره حتى يستجيب لدعوة توحيد الألوهية كما سيأتي .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « الإقرار بالربوبية لا يُخرج الإنسان من الكفر إذا كان لم يقر بتوحيد الألوهية ؛ لأن هؤلاء أي المشركين - مُقرُّون بالربوبية ، وأن الله هو الخالق الرازق والمنفرد بالخلق والرزق ، لكنهم يشركون به في العبادة ، يعبدون معه غيره ، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام » ^(٢) .

خامساً : الربوبية على قسمين : ربوبية خاصة وربوبية عامة ، وأورد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذين القسمين في أكثر من موضع في تفسيره ، حيث قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ : « ومن فوائدها : إثبات الربوبية الخاصة ؛ لقوله تعالى : ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين : عامة ؛ وخاصة ؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق ، وتقتضي التصرف المطلق في العباد ؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له ، وتقتضي عناية خاصة ؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ [الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢] : فالأولى ربوبية عامة ؛ والثانية خاصة بموسى ، وهارون) » ^(٣) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٧٨) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩٩) ، وانظر : « تفسير سورة يس » (٩٢ ، ١٦٥ ، ٢٠٩) .

سادساً : ذكر الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ جَمَلَةً من المسائل والضوابط المتعلقة بتوحيد الربوبية يحسُن بالدعاة معرفتها وتعليمها الناس ، ومن ذلك :

- إضافة الربوبية إلى شخص معيّن تعني أن الربوبية ربوبية خاصة .

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (١٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴿ [الذاريات : ٣٠-٣١] : ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ حيث أضاف الربوبية هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة ، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها ؛ لأن إضافة الربوبية إلى الشخص المعين تكون ربوبية خاصة ، والربوبية العامة لكل أحد ^(١) .

- ربوبية الله تعالى مبنية على الرحمة الواسعة الواصلة للخلق .

قال في تفسير سورة الفاتحة : « ومن فوائدها : أن ربوبية الله عزَّجَل مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة ؛ لأنه تعالى لما قال : ﴿ رَبِّ ائْتِنِي ﴾ كأن سائلاً يسأل : « ما نوع هذه الربوبية ؟ هل هي ربوبية أخذ ، وانتقام ؛ أو ربوبية رحمة ، وإنعام ؟ » قال تعالى : ﴿ اَرْحَمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٢) .

- من أعظم أنواع التوسل إلى الله تعالى التوسل بربوبيته ، وهو توسل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

- كل ما يتعلق بأفعال الرب هو من مقتضيات الربوبية .

قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] : « من فوائده الآية : أن التوسل إلى الله بربوبيته من آداب الدعاء التي يتوسل بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لقوله تعالى : ﴿ رَبِّ ﴾ ؛ لأن إجابة

(١) تفسير سورة الذاريات ، ضمن « تفسير الحجرات إلى الحديد » (١٣٨) .

(٢) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة » (١ / ١١) .

الدعاء من مقتضيات الربوبية ؛ إذ إنه فعل ؛ وكل ما يتعلق بأفعال الرب فهو من مقتضيات الربوبية ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر يمد يديه إلى السماء : « يقول : يا رَبِّ ! يا رَبِّ ! »^(١) ؛ ولو تأملت أكثر أدعية القرآن لوجدتها مصدرة بـ « الرب » ؛ لأن إجابة الدعاء من مقتضيات الربوبية^(٢) .

- جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

« ومن فوائد الآية : جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية لإسكات الناس حتى لا يحصل منازعة ؛ إذا قال أحد : لماذا كذا؟ قلت : الله ربك يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ؛ لماذا أحل كذا ، وحرم كذا؟ تقول : لأنه ربك ؛ لماذا توجه الناس من المشرق إلى المغرب ؛ من المغرب إلى المشرق ؛ من بيت المقدس إلى الكعبة؟ » قلت : لأن ذلك بمقتضى ربوبية الله : ﴿قُلْ لِلَّهِ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١٠١٥) ، ولفظه : عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] ، وَ قَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يُمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغَدْيِي بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ »

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٣٠٢-٣٠٣) ، وقال في موضع آخر : « ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب ، مثل الربوبية التي بها الخلق ، والتدبير ؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية ، مثل : « ربنا » ، ومثل : « رب » اهـ « تفسير سورة البقرة » (٣/ ٤٥٧) .

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴿١﴾ .

- النظر في مقام الربوبية يختلف عن النظر في مقام الألوهية

قال في تفسير آية الدّين : « ومن فوائد الآية : أنه يجب على هذا الذي أوّمن ألا يغتر بثقة الناس به ، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَيْتَقَى اللَّهَ رَبُّهُ﴾ ؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يتقي الله : قال تعالى : ﴿وَلَيْتَقَى اللَّهَ رَبُّهُ﴾ ، وأردفها بقوله تعالى : ﴿رَبُّهُ﴾ ؛ فيه فائدة وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية ؛ فنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبداً لله سبحانه وتعالى ، وتقرباً له ؛ ونظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة ؛ لأن الرب هو الذي له الخلق ، والملك ، والتدبير ؛ فلا بد أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية ، ومقام الربوبية » (٢) .

وهذه المضامين الدعوية في توحيد الربوبية تبين أهمية توحيد الربوبية في حياة المسلم وعقيدته ؛ لأن إفراده الله تعالى بالخلق والملك والتدبير ، يقوده لتعظيم الله جل وعلا-وعبوديته ، ولِعَظَمَ هذا النوع من التوحيد جاءت سائر الدلالات مثبتة له شرعاً وحسّاً وعقلاً وفطرةً ، وعلى العبد أن يسعى لتحقيق الربوبية الخاصة فيها لتحقيق الرعاية والحفظ والولاية والعناية الخاصة للعبد ، وهو ما ينشده العبد في هذه الحياة ، ولن يكون كذلك حتى يُخَلِّصَ اعتقاده من كل شائبة ، ويحقق كمال التوحيد لله تعالى .

وعلى العبد داعية أو مدعوّاً- أن يتعرّض لرحمات الله تعالى ، فإن ربوبيته جل وعلا مبنية على الرحمة الواسعة ولقوة هذا المعنى في ربوبية الله تعالى أثبتته جل

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٠٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٠٢) .

وعلا في أعظم سورة من كتابه جل وعلا ، فقال : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ ﴾^(١) الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ﴿ ، وَذَكَرُ الرِّحْمَةِ بعد الربوبية دلالة واضحة لاشتمال الربوبية عليها . ومن خلال المضامين السابقة تبين أن الربوبية هي أعظم توسُّلٍ توسَّلَ به الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وللعبد لا سيما الداعية في دعوته - في الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أعظم أسوة حيث كان توسلهم بربوبية الله تعالى ملازماً لهم في دعوة أقوامهم إلى الله تعالى .

والدعوة إلى توحيد الربوبية دعوة لها مستلزماتها ، فلا يمكن أن تصحَّ عقيدة مسلم إلا بالإيمان بما يستلزمها من توحيد الألوهية والأسماء والصفات كما سيأتي .

النوع الثاني : توحيد الألوهية :

توحيد الألوهية هو مفتاح دعوة الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ومَقْصِدُ رسالتهم ، وَمَحَطُّ اهتمامهم الأوَّل ، وَمَحَكُّ الخلاف بينهم وبين أُمَمِهِمْ ، ومن تتبَّع قِصَصَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القرآن بانت له هذه الدعوة من التوحيد ؛ فقد زاعت كثير من الطوائف بعد دعوة رسلهم لتوحيد الألوهية ، وقد تَكَرَّرَتْ على لسان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلمة ﴿ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، كما أَنَّ الله سبحانه - جعل الدعوة لتوحيد الألوهية هي رسالة كلِّ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وكذا رسالة نبيِّنا محمد ﷺ فقد كانت الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله أوَّلَ ما بدأ به ﷺ وبقي ثلاثة عشر عاماً في مكَّة لا همَّ له بالليل أو النهار إلاَّ غَرْسُ

توحيد الألوهية في القلوب ، وإخلاص العبادة لله وحده ؛ امتثالاً لأمر الله ، كما قال سبحانه عن نبيه : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ١١] .

وحينما بعث ﷺ أصحابه إلى البلاد مُعَلِّمين ودُعاة إلى الله تعالى ، كان أوّل وأهمّ ما أمرهم به هو الحرص على دعوة الناس إلى توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة ؛ ففي قصة بعث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن قال النبي ﷺ : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ »^(١) ، ولمّا نزل به مرض الموت ﷺ كان من أهمّ ما يشغله صيانة جانب التوحيد ، وسدّ الذرائع المؤدية إلى الشرك ، عن عائشة ، وعبد الله بن عباس ، قالاً : « لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ : « لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَدِّثُ مَا صَنَعُوا »^(٢) .

- المضامين الدعوية في توحيد الألوهية :

أولاً : عرّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ توحيد الألوهية بقوله : « وأما الإيمان باللوحيته : فهو الإيمان بأنه لا إله في الوجود حق إلا الله عَزَّ وَجَلَّ وكل ما سواه من الآلهة باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] ، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الحق »^(٣) .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٥٣١) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٣) ، وعرّفه في « تفسير سورة الحديد » (٣٩٦) بقوله : « الألوهية : هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، أي : لا معبود بحق إلا الله عَزَّ وَجَلَّ وعبادة الأصنام غير حق ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ إذن =

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره ذكر توحيد الألوهية وما يتعلق به من مسائل في مواضع كثيرة كما سيأتي - وما ذاك إلا لأهمية هذا النوع من التوحيد ؛ ذلك أن كثيراً من الطوائف اليوم إنما زاغوا عنه ، ووقعوا فيما ينافيه من حيث لا يشعرون ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره الآية الكرسي : « وتوحيد الألوهية أخلَّ به كثير من الناس اليوم ، فتجد الرجل يقول : إنه مسلم ، وتجده يصلي ، ويصوم ، ويحج ويعتمر ، لكن لا يُقبل منه ؛ لأنه مشرك ، ولهذا لا يغفر الله الشرك إلا بتوبة ، ولا يقبل الله عملاً مع الشرك إلا بتوبة من الشرك » (١) .

ثانياً : قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مبيناً أهمية توحيد الألوهية والدعوة إليه : « ومن العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية ، وكأنما يخاطبون أقواما ينكرون وجود الرب وإن كان يوجد من ينكر الرب - لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة !!

ولهذا ينبغي أن يركز على هذا النوع من التوحيد ؛ حتى نخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون ، وهم مشركون ولا يعلمون » (٢) .

ثالثاً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره أركان توحيد الألوهية ، وأن له ركنين أساسيين هما : النفي والإثبات ، فلا يتم الإيمان بتوحيد الألوهية إلا بهذين الركنين اللذين اشتملت عليهما كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ أَدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٠] : « التوحيد مبني على نفي

الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود حق إلا الله عَزَّجَلَّ وما عبد من دونه فهو باطل ، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله » .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٥٠) .

(٢) « القول المفيد على كتاب التوحيد » (١ / ١٦) .

وإثبات ؛ لأن النفي المجرد تعطيل محض وعدم ، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة ... التوحيد لا بد له من هذين الأمرين : النفي ، والإثبات ، ولكن بماذا يبدأ؟ يبدأ أولاً بالنفي ليرد الإثبات على مكان خالٍ من الشوائب ، خالص صالح لاستقرار الإثبات فيه ، ولهذا يبدأ بالنفي ثم بالإثبات وهذا في القرآن الكريم كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزحرف: ٢٦-٢٧] ، فتراً أولاً من كل معبود ، ثم أثبت العبادة لله وحده الذي فطره ^(١) .

رابعاً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جملة من المسائل والضوابط المتعلقة بتوحيد الألوهية والدعوة إليه ينبغي للدعاة التنبه لها والدعوة إليها ، ومن ذلك ما يلي :

- توحيد الألوهية هو توحيد العبادة

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « العبادة والألوهية معناهما واحد ؛ لكن العبادة باعتبار العابد ؛ والألوهية باعتبار المعبود ؛ ولهذا كان أهل العلم يسمون التوحيد توحيد العبادة ؛ وبعضهم يقول : توحيد الألوهية » ^(٢) .

(١) « تفسير سورة يس » (٢١٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٨٠) ، وذكر هذا التقرير أيضاً في « تفسير سورة يس » (٧٥) ، كما ذكره بشيء من التفصيل في « القول المفيد » (١ / ١٤ - ١٥) حيث قال : « القسم الثاني : توحيد الألوهية :

ويقال له : توحيد العبادة باعتبارين ؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمي : توحيد الألوهية ، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمي : توحيد العبادة . وهو أفراد الله عَزَّجَلَّ بالعبادة . فالمستحق للعبادة هو الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ [لقمان : الآية ٣٠] ، والعبادة تطلق على شيئين :

الأول : التعبد بمعنى التذلل لله عَزَّجَلَّ بفعل أو امره واجتناب نواهيه ؛ محبة وتعظيماً .
 الثاني : المتعبد به ؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : اسم جامع لكل ما يحبه =

- التفسير الصحيح لمعنى لا إله إلا الله :

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] : « وقوله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود حق إلا هو ؛ وعلى هذا تكون (لا) نافية للجنس ؛ وخبرها محذوف ؛ والتقدير : لا إله حق إلا هو ؛ وإنما قدرنا « حق » ؛ لقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج : ٦٢] ؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذه الآلهة : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم : ٢٣] ؛ وقد زعم بعضهم أن تقدير الخبر « موجود » ؛ وهذا غلط واضح ؛ لأنه يختلف به المعنى اختلافاً كبيراً من وجهين :

الوجه الأول : أن هناك آلهة موجودة سوى الله ؛ لكنها باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج : ٦٢] ، وكما قال تعالى : ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود : ١٠١] ، وكما قال تعالى : ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

الوجه الثاني : أنه يقتضي أن الآلهة المعبودة من دون الله هي الله ، ولا يخفى فساد هذا ؛ وعليه فيتعين أن يكون التقدير : « لا إله حق » ، كما فسرناه ^(١) .

= الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

مثال ذلك : الصلاة ؛ ففعلها عبادة ، وهو التعبد . ونفس الصلاة عبادة ، وهو المتعبد به .
فإفراد الله بهذا التوحيد : أن تكون عبداً لله وحده تفردة بالتذلل ؛ محبة وتعظيمًا ؛ اهـ ، وانظر قول شيخ الإسلام ابن تيمية في « العبودية » (٤٤) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٠٧) .

وقد ردَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على قول من يقول أن معنى لا إله إلا الله هو : « إخراج اليقين الصادق عن ذات الأشياء ، وإدخال اليقين الصادق على ذات الله » ، فقال : « هذا التفسير باطل لم يعرفه السلف الصالح ، وليس المراد به أن تتيقن بالله عزَّجَل وتخرج اليقين من غيره لأن هذا لا يمكن فإن =

وقد ردَّ الشيخ رحمه الله على المتكلمين وبين فساد تفسيرهم لكلمة التوحيد موضحاً ما وقعوا فيه من خلل في ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْناً قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، حيث قال: «ومن فوائد الآية: بطلان ما ذهب إليه كثير من المتكلمين في تفسير التوحيد، حيث قالوا في تفسير التوحيد: «أن تؤمن بأن الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في أفعاله لا شريك له، واحد في صفاته لا شبيه له»، فإن هذا لم يتعرضوا فيه لذكر الألوهية إطلاقاً، قالوا: إن الله واحد في ذاته لا قسيم له... إلخ هذا هو التوحيد عند عامة المتكلمين، ولا شك أن هذا التوحيد لم يدخل فيه توحيد الألوهية الذي جاءت الرسل عليهم السلام بتحقيقه وإثباته والقتال عليه، لم يقولوا واحد في ألوهيته لا يُعبد غيره، أسقطوا هذا نهائياً، ولا شك أن هذا قول باطل في أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم السلام، بل هذا من التوحيد الذي دعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس هو التوحيد كله، بل فيه أيضاً إجمال في قولهم: واحد في صفاته لا شبيه له»^(١).

- توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان :

فمن آمن بتوحيد الربوبية لزمه أن يؤمن بتوحيد الألوهية، ولذا استدل أهل العلم على المشركين الذين لم يستجيبوا لدعوة توحيد الألوهية بإيمانهم بتوحيد الربوبية، فإن آمنوا وإلا فإن إيمانهم بالربوبية دون الألوهية إيمان متناقض، يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في فوائد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

= اليقين ثابت في غير الله ﴿لَرَوُتَ الْجَحِيمَ﴾ ① ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿[سورة التكاثر، الآيتان ٦، ٧] . وتيقن الأشياء الواقعة الحسية المعلوم لا ينافي التوحيد اهـ « شرح كشف الشبهات » لشيخنا ابن عثيمين (٣٢) ، وانظر: « مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (٨٣ / ١) .

(١) « تفسير سورة ص » (٧٨-٧٩) .

خَلَقَكُمْ ﴿البقرة: ٢١﴾: «الإقرار بتوحيد الربوبية مستلزم للإقرار بتوحيد الألوهية ؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾»^(١)، ويقول في فوائد قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾^(٢) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿[الصافات: ٤ - ٥]: «ومن فوائدها: التلازم بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فإن قوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، بعد قوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ، كالدليل على توحيده بالألوهية ، وذلك أنه إذا كان متوحداً بالربوبية لزم أن يكون متوحداً في الألوهية ، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ، فكيف تعبدون غيره ممن لم يخلقكم ولا خلق أحداً؟ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَعِزُّوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] .

ولهذا قال أهل العلم: من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يُقر بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقضاً ؛ لأنه يقال له: كيف تقر بأن الله وحده هو الرب الخالق ثم تعبد معه من لا يخلق؟ وهل هذا إلا تناقض؟!

وهذه الآية وما شابهها من آيات الكتاب العزيز تدل على التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية ، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يُقر بتوحيد الألوهية ولكن كيف تلزمه؟ لأنه إذا قال: إن الله سبحانه وتعالى واحد في الخلق فيجب ألا يعبد غيره»^(٢) .

– أقسام العبودية والفرق بينهما :

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ قسمي العبودية والفرق بينهما فقال: «تنقسم إلى عبودية عامة ، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ؛ وخاصة كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

(١) «تفسير سورة البقرة» (١ / ٧٣) .

(٢) «تفسير سورة الصافات» (٢٣) ، وانظر: «تفسير سورة البقرة» (٣ / ٤٣٠) .

عَلَى عَبْدِهِ ﴿[الفرقان : ١]﴾ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني ؛ والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي ؛ وعلى هذا فالكافر عبد الله بالعبودية العامة ؛ والمؤمن عبد الله بالعبودية العامة ، والخاصة «(١)» .

وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ مضامين كثيرة في توحيد الألوهية ، وما تقدم نماذج على أهم ما يتعلق بتوحيد الألوهية الذي هو أصل دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وهو الفاصل بين أهل الحق والباطل عند جميع الملل ، وهو التوحيد الذي ذكر الله تعالى من أجله قصص دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأمم السابقة ، وزلّت دونه ملل الشرك ، وقاتل من أجله المؤمنون الصادقون ، ولئن كانت الحكمة من وجود البشرية على هذه الأرض هو إقامة العبودية لله تعالى ، فإن توحيد الألوهية هو توحيد العبادة فهو المقصود بعمارة الأرض ، ولا يتم التوحيد الخالص لله تعالى إلا بنفي العبودية عن كل معبود والكفر بكل طاغوت ، مع إثبات العبودية لله تعالى وحده لا شريك له ، والزلل في توحيد الألوهية زللٌ يوقع المرء في أحوال الشرك والشرك أعظم الظلم ، ومن لا يعرف الشرك يقع فيه لا محالة ؛ ولذا خافه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحون على أنفسهم وذرياتهم وأقوامهم ، بدءاً من إمام الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قال الله تعالى عنه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ، وقال تعالى عن لقمان : ﴿وَلِذَلِكَ لَقَمْنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يُعْطِي يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] ، والحذر من منافاة توحيد الألوهية هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] ، نسأل الله تعالى أن يعيذنا من الشرك وغوائله ، وأن يحفظ علينا التوحيد الخالص لله تعالى .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ركن من أركان التوحيد الذي لا يتحقق إلا به^(١)، بل الإيمان بكتاب الله لا يتحقق إلا بالإيمان بالأسماء والصفات ؛ لأن القرآن المجيد عُمِدته ومقصوده الإخبار عن صفات الربِّ سبحانه - وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه ، والإنباء عن عظمته وعزّته وحكمته ، وأنواع صنعه والتقدّم إلى عبادته بأمره ونهيه على السّنة رسله^(٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في بيان أهمية توحيد الأسماء والصفات : « والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله أكثر ممّا فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنّة ، والآيات المتضمّنة لذكر أسماء الله وصفاته أعظم قدرًا من آيات المعاد ، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمّنة لذلك ، وأفضل سورة سورة أمّ القرآن ، وفيها من ذكر أسماء الله وصفاته أعظم ممّا فيها من ذكر المعاد »^(٣) .

ولقد اعتنى الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بتقرير توحيد الأسماء والصفات والدعوة إليه والرد على المخالفين فيه ، ويظهر هذا بجلاء في تفسيره على وجه الخصوص ؛ لكثرة التأويل في أسماء الله تعالى وصفاته عند المفسّرين ، مما جعله يقرر مذهب أهل السنة والجماعة في مواطن كثيرة من تفسيره ويبيّن بطلان تأويل بعض المفسّرين ويردُّ عليهم ، بالإضافة إلى تنكّب البعض من المسلمين في هذا النوع من التوحيد عن سواء الصراط ، الأمر الذي جعل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يهتم به ويبيان مذهب أهل السنة والجماعة ، يقول رَحِمَهُ اللهُ : « وهذا القسم من التوحيد هو

(١) انظر « تفسير سورة الصافات » (١٦) .

(٢) « طريق الهجرتين وباب السعادتين » لابن القيم (١٤٥) .

(٣) « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية (٥ / ٣١٠) .

الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية ، وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة»^(١)
ويقول أيضاً في موضع آخر : « لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو :
القسم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات ، هذا هو الذي كثر فيه الخوض ،
فانقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ، وهم : مُمَثِّلٌ ، ومُعْطَلٌ ، ومُعْتَدِلٌ ، والمُعْطَلُ :
إما مُكْذِبٌ أو مُحَرِّفٌ »^(٢) .

– المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات :

أولاً : عرّف الشيخ رحمه الله توحيد الأسماء والصفات مبيناً ركني هذا التوحيد
فقال : « هو إفراد الله عزّ وجلّ بما له من الأسماء والصفات ، وهذا يتضمن شيئين :
الأول : الإثبات ، وذلك بأن ثبت لله عزّ وجلّ جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها
لنفسه في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

الثاني : نفي المماثلة ، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته ، كما
قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] »^(٣) .

ثانياً : قال الشيخ رحمه الله في بيان حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات : « وأما
الإيمان بأسمائه ، وصفاته : فهو الإيمان بما أثبتته الله سبحانه وتعالى لنفسه ،
أو أثبتته له رسوله من الأسماء والصفات إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل
على حد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ؛ ودليل ذلك
قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] ؛ وقوله تعالى :
﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل : ٦٠] ووجه الدلالة : تقديم الخبر

(١) « القول المفيد » (١ / ١٧) .

(٢) « شرح العقيدة الواسطية » لشيخنا ابن عثيمين (٢٩) .

(٣) « القول المفيد » (١ / ١٦) ، وانظر : « فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (٣ / ٣ ، ٧٤) .

في الآيتين ؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ^(١) .

ثالثاً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره جملة من المسائل والقواعد المتعلقة بتوحيد الأسماء والصفات التي تهم الداعية والمدعو ، ومن ذلك :

- باب الصفات كالأسماء الأصل فيه التوقيف ، يجب تلقيه من كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ ليس للعقول مدخل في تفصيله .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « أسماء الله عَزَّجَلَّ توقيفية ، فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص ، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه ، فقد أَلْحدت وملت عن الواجب ، وتسمية الله بما لم يسم به نفسه سوء أدب مع الله وظلم وعدوان في حقه ، لأنه لو أن أحداً دعاك بغير اسمك أو سماك بغير اسمك ، لاعتبرته قد اعتدى عليك وظلمك هذا في المخلوق ، فكيف بالخالق؟! »

إذاً ، ليس لك حق أن تسمي الله بما لم يسم به نفسه ، فإن فعلت ، فأنت ملحد في أسماء الله ^(٢) .

وقال أيضاً : « إذا قال قائل : هل الصفات توقيفية كالأسماء ، أو هي اجتهادية ، لمعنى أن يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالى بشيء لم يصف به نفسه .

فالجواب أن نقول : إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم ، كالأسماء ، فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه ^(٣) .

وقرر هذا المعنى في تفسيره أثناء الكلام على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى الواردة في الآيات في أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله : « أما القول على

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٣) .

(٢) « شرح العقيدة الواسطية » (١٢٠) .

(٣) المرجع السابق (١٤٢) .

الله في أسمائه : فيشمل أن يُثبت الإنسان لله أسماء لم يُسمَّ بها نفسه ^(١) .

وقال أيضاً : « وإذا لم يصف الله شيئاً إلى نفسه حرم أن نضيفه إليه ؛ لأننا لو أضفناه إليه وهو لم يصف إليه لكننا نقول على الله بلا علم » ^(٢) .

وقال أيضاً : « هاهنا شيان : الأول : ما يتعلق بذات الله عزَّ وجلَّ وصفاته ، والثاني : ما يتعلق بمخلوقاته ، وكلاهما لا نعلمه إلا بما علَّمناه عزَّ وجلَّ ولذلك يجب علينا الكفُّ عن الكلام في ذات الله تعالى وصفاته إلا ما وصل إلينا علمه » ^(٣) .

- الإسم المتعدي لا يتم الإيمان به إلا بإثباته إسمًا من أسماء الله تعالى ، وإثبات ما تضمنه من صفة ، وإثبات الأثر المترتب عليه .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [النحل : ١١٥] : « من فوائد الآية : إثبات اسمين من أسماء الله ؛ وهما « الغفور » و « الرحيم » ، وما تضمنناه من صفة .

- ومنها : إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها ؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم ، والصفة ، والأثر الذي هو الحكم المترتب عليه - والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر وهو الحكم - لأنه لكونه غفوراً رحيمًا غفر لمن تناول هذه الميثة لضرورته ، ورحمه بحلها ؛ فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عزَّ وجلَّ تدل على « الذات » الذي هو المسمى ؛ و « الصفة » ؛

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٤١) ، وانظر : « تفسير سورة الحديد » (٣٩٤ - ٣٩٨) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٢٦٥) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٥٢) .

و « الحكم » ، كما قال بذلك أهل العلم ^(١) رَحِمَهُمُ اللهُ ^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨] ، ذكر من فوائدها : « إثبات اسمين من أسماء الله وهما : ﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ، ويؤخذ منهما أيضاً : إثبات صفتين تتضمنهما وهما العزة والعلم ، ويؤخذ منهما أيضاً : إثبات الأثر ، أو الحكم وهو أنه غالب لكل أحد ، وعليم بكل شيء » ^(٣) ، وهذه القاعدة عمل بها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في مواطن عدة في تفسيره ^(٤) .

- صفات الله تعالى تُثَبَّتُ على حقيقتها بإجماع السلف

الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي نثبتها على حقيقتها من غير تحريف ، ومن غير تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل كما هي طريقة السلف رَحِمَهُمُ اللهُ وقد أجمعوا على هذه الطريقة .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء » ^(٥) .

(١) انظر : « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (١٣ / ٣٣٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٥٩) .

(٣) « تفسير سورة يس » (١٤٠) .

(٤) انظر فقط في : « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٢١ ، ١٣٦ ، ١٩٠) و (٢ / ١٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ،

١٢١ ، ١٩٨ ، ٣١١ ، ٤٣١) و (٣ / ١١ ، ٩٢ ، ١٨٨ ، ٣٠٧ ، ٣٥٠) وغيرها كثير .

(٥) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » (١٢٣) ، وقال في الصفدية : « ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه =

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ والكلام على صفة الرضا: « فالرضا من صفات الله عَزَّوَجَلَّ التي يثبتها أهل السنة والجماعة على وجه الحقيقة ، يقولون : إن الله يرضى ويكره ويغضب ، ورضاه من صفات كماله عَزَّوَجَلَّ ، وهو سبب للثواب ، إذا رضي الله عن العبد أثابه ، وحمل أهل التعطيل الرضوان على أنه الثواب ، وقالوا : إنه مجاز عن الثواب عُبِّرَ به لأنه سببه ، فهو من التعبير عن بالسبب عن المسبب ، فيقال : ما المانع أن نثبت الرضا لله عَزَّوَجَلَّ ، وقد أثبت الله لنفسه الرضا في القرآن ، وأثبتته النبي ﷺ في السنة « إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا »^(١)

والنصوص في هذا كثيرة ، وأجمع عليه سلف الأمة ، وطريق إجماعهم أنه لم يرد عنهم ما يخالف ذلك وهم يقرؤون الكتاب والسنة ولم يرد عن واحد منهم أنه فسّر الرضا بالثواب ، وهذا طريق ينبغي أن يتفطن له الإنسان ؛ لأنه قد يقول قائل : ما الدليل على أن السلف أجمعوا على أن الرضا على معناه الحقيقي ؟ نقول : الدليل هو أنهم يتلون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بهذا اللفظ ،

= به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يثبتون له الأسماء والصفات وينفون عنه مماثلة المخلوقات إثبات بلا كمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] « (١ / ١٠٣) ، وانظر : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية » (٢ / ١٤٢) و (٣ / ١٧) .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: « وأنه سبحانه مستو على عرشه وفوق جميع خلقه كما أخبر في كتابه وعلى ألسنة رسله ﷺ من غير تشبيه ولا تعطيل ، ولا تحريف ولا تأويل ، وكذلك كل ما جاء من الصفات نمره . كما جاء من غير مزيد عليه ، ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ونسكت عما سكتوا عنه وتناول ما تناولوا وهم القدوة في هذا الباب . « اجتماع الجيوش الإسلامية » لابن القيم (٢ / ١٧٦) ، وانظر له : « الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعتلة » (٢ / ٤٢٦) .

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥) .

ولم يرد عنهم حرف واحد يدل على أنه غير مراد» (١).

- باب الأخبار عن الله تعالى أوسع من باب الصفات ، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، من فوائدها : « إثبات اسمين من أسماء الله ، وهما (الرؤوف) و (الرحيم) ، وإثبات ما تضمنناه من صفة ؛ فإن كل اسم من أسماء الله ، فإنه متضمن لصفة من صفاته ، ولهذا نقول : الصفات أوسع من الأسماء ؛ لأن كل اسم من أسماء الله متضمن لصفة من صفاته ، وليس كل صفة من صفات الله يُشتق له منها اسم ، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وباب الأخبار عن الله أوسع من باب الصفات أيضاً ؛ فالأسماء والصفات أخبار ، فمثلاً : الاسم يتضمن الصفة ، والصفة لا يُشتق منها الاسم ، والأخبار يُخبر بها عن الله بالشيء الذي لا يمكن أن يُوصف به ، فتقول مثلاً : إن الله شيء ، لكن لا تصفه بذلك ؛ قال الله تبارك وتعالى - : ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] » (٢).

- أقسام المضاف إلى الله تعالى ومتى يكون صفة من صفاته .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٤] ، من فوائده الآية : « شرف المساجد ؛ لإضافتها إلى الله ؛ لقوله تعالى : ﴿مَسْجِدَ اللهِ﴾ ؛ والمضاف إلى الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام : إما أن يكون أوصافاً ؛ أو أعياناً ؛ أو ما يتعلق بأعيان مخلوقة ؛ فإذا كان المضاف إلى الله

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٨ - ٢٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٨٥) .

وصفاً فهو من صفاته غير مخلوق ، مثل كلام الله ، وعلم الله ؛ وإذا كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسها فهو مخلوق وليس من صفاته ، مثل مساجد الله ، وناقة الله ، وبيت الله ؛ فهذه أعيان قائمة بنفسها إضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق لخالقه على وجه التشريف ؛ ولا شيء من المخلوقات يضاف إلى الله عز وجل إلا لسبب خاص به ؛ ولولا هذا السبب ما حُصَّ بالإضافة ؛ وإذا كان المضاف إلى الله ما يتعلق بأعيان مخلوقة فهو أيضاً مخلوق ؛ وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] ؛ فإن الروح هنا مخلوقة ؛ لأنها تتعلق بعين مخلوقة » (١) .

- كل صفة مُرتَّبة على سبب فهي من الصفات الفعلية ؛ لأنها توجد بوجود هذا السبب وتنتفي بانتفائه .

ذكر الشيخ رحمه الله هذه القاعدة في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [النساء : ٩٣] ، قال من فوائدها : « إثبات الغضب لله عز وجل ، والغضب صفة من الصفات الفعلية التي تقع بمشيئة الله تعالى ، وكل صفة مرتبة على سبب فهي من الصفات الفعلية ؛ لأنها توجد بوجود ذلك السبب وتنتفي بانتفائه » (٢) .

وقال في موضع آخر : « كل صفة لله تكون لسبب فهي من الصفات الفعلية » (٣) .
- كل ما نفاه الله تعالى عن نفسه من الصفات فلا يُراد به مجرد النفي وإنما إثبات كمال ضده .

وهذه القاعدة قررها الشيخ رحمه الله في أكثر من موطن في تفسيره ، ومن ذلك

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٨ - ٩) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٨٦ - ٨٧) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٩) .

قوله : « صفات الله تعالى ثبوتية ، ومنفية ؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى ؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي ؛ ففي قوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه ؛ وفي قوله تعالى : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه ؛ وعلى هذا فقس ؛ فالضابط في الصفات التي نفاه الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة ، وعلى ثبوت كمال ضدها »^(١) .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٨٥] : « ومن فوائدها إثبات الصفات المنفية في صفات الله عزَّ وجلَّ بمعنى أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي ، في قوله تعالى : ﴿وَمَا اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، لكن ليعلم أن الصفات المنفية عن الله عزَّ وجلَّ لا يُراد بها مجرد النفي ؛ وإنما يُراد بها بيان كمال ضدها ؛ فإذا قال : ﴿وَمَا اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، كان دالاً على كمال علمه ، وكمال مراقبته لعباده عزَّ وجلَّ وأنه ليس بغافل عنهم »^(٢) .

وقال أيضاً : « وكل ما نفاه الله عن نفسه ، فالمراد به نفي ما نفاه مع إثبات ما

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٧٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٤٢) ، وقال أيضاً في الفوائد عند تفسيره لآية الكرسي : « إثبات الصفات التي يُسمونها الصفات السلبية ، يعني : المنفية ؛ لقوله : ﴿لَا تَأْخُذُ بِهِ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، ومعنى إثباتها : أن الله يُوصف بالنفي كما يوصف بالإثبات ، ولكن يجب أن نعلم أن النفي الذي يتصف الله به ، إنما يُنفَى عنه لكمال ضده ، فمثلاً : إذا قال الله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، فالمعنى : أنه لا يظلم لكمال عدله ، لا لأنه عاجزٌ عن الظلم ، لو شاء الظلم ، لكن لكمال عدله لا يظلم ، ولهذا جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » ، كذلك حين يقول هنا : ﴿لَا تَأْخُذُ بِهِ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، هل المراد نفي النوم عن الله عزَّ وجلَّ والسَّنة التي هي النعاس ؟ أو المراد لكمال حياته وفيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم عزَّ وجلَّ ؟ الثاني هو المتعين ؛ يعني : أنه لكمال حياته وفيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم عزَّ وجلَّ » . « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٥١) .

تضمّنه من كمال الصفة التي هي ضد ذلك النفي ، فلم يَنْفِ عن نفسه الظلم إلا لكمال عدله ، ولا العجز إلا لكمال علمه وقدرته ، ولا الغفلة عن أعمال العباد إلا لكمال علمه ومراقبته ، وهلمّ جرّاً^(١) .

- التلازم بين أنواع التوحيد الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

فلا يكمل إيمان عبد وتوحيده إلا بالإيمان بها جميعاً ، قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] : « ومن فوائد الآية : إثبات ما دلّ عليه هذان الاسمان ؛ وهما « الله » ، و « الرب » ؛ فالأول فيه إثبات الألوهية ؛ والثاني فيه إثبات الربوبية ؛ لأن المعبود لا بد أن يكون أهلاً للعبادة ؛ والرب لا بد أن يكون أهلاً للربوبية ؛ ولا يتحقق ذلك إلا بكمال الصفات ؛ ولهذا نقول : توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ؛ والتوحيدان يستلزمان كمال الأسماء ، والصفات ؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] »^(٢) .

وفي موضع آخر قال : « فمن لم يؤمن بوجود الله فهو ليس بمؤمن ، ومن آمن بوجوده ولم يؤمن بربوبيته على وجه عام شامل ، فهو لم يؤمن بالله . ومن آمن بالله وربوبيته ولكن لم يؤمن بالألوهية فليس بمؤمن ، ومن آمن بذلك كله ولم يؤمن بأسمائه وصفاته فليس بمؤمن ، لكن الأخير فيه تفصيل ، قد يخرج من الإيمان بالكلية ، وقد لا يخرج »^(٣) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٩١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٣٠) .

(٣) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٨٣) ، وقال في موضع آخر : « الذين يؤمنون بوجود الله ، وربوبيته ، وألوهيته لكن في الأسماء والصفات لا يؤمنون - إما أن ينكروا الأسماء ، والصفات ؛ وإما أن ينكروا الأسماء دون الصفات ؛ وإما أن ينكروا بعض الصفات هؤلاء لم يؤمنوا بالله حق =

هذه المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات اشتملت على أصول لا بد للعبد من فقها واعتقادها ، وما ضَلَّ مَنْ ضَلَّ من أهل البدع والمذاهب المنحرفة إلا بعدما خاضوا في هذا الباب وأدخلوا فيه ما ليس منه ، وأمسكوا عما فيه مما أثبتته الله تعالى لنفسه ، وتقدّم في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ما يشير إلى أن عقيدة الأسماء والصفات تسلتزم إثباتا ونفيا ، إثبات ما أثبتته الله تعالى في كتابه أو سنة نبيه ﷺ من الأسماء والصفات على حقيقته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل ، ونفي ما نفاه عن نفسه جل وعلا من الصفات وإثبات كمال ضدها له جلّ وعلا- وفي الخوض في هذين الأصلين جارت كثير من الفرق الضالة عن الصواب المراد ، وإن من قواعد الاعتقاد بالأسماء والصفات أن الأصل في هذا الباب هو التوقيف ، وليس للعقل فيه أي اجتهاد .

ولقد تعددت مذاهب الفرق المنحرفة وتباينت في بعدها عن الصواب بقدر بعدها عن الإيمان بهذا الأصل العظيم توحيد الأسماء والصفات بما جاء في الكتاب والسنة ، وحينما أرخى كثير منهم لعقله أن يستحسن ما استحسنته في هذا الباب جار عن الحق الذي أراده الله تعالى في هذا التوحيد ، والذي لا يكمل إيمان عبد وتوحيده إلا به ، فتوحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات أنواع متلازمة لا بد من الإيمان بها جميعا .



المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد

إن الغاية التي خلق الله من أجلها الخلق هي إفراده جلّ وعلا - بالعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وإن أظلم الظلم أن يشرك العبد مع الله غيره بعد أن خلقه واصطفاه ، وسخر له المخلوقات ، وأرسل إليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وأنزل عليه الكتب ، وإن من شفقة الدعاة على عباد الله اهتمامهم بهذا الشأن بتحذير الناس من الوقوع في أعظم الظلم وهو الشرك ، ودعوتهم إلى التوحيد الخالص السالم من كل شائبة .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « يقول تعالى مخبرا عن وصية لقمان لولده ... وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ، ثم قال محذرا له : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ، أي : هو أعظم الظلم » ^(١) .

ولقد أنزل القرآن العظيم وفيه أعظم رسالة وهي الدعوة للتوحيد والتحذير من الشرك ، وفيه تحذير المشركين من شركهم ؛ ليأخذ بأيديهم إلى التوحيد والهداية والنجاة ، ﴿فَقَرِّءُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] ، وكل رسول كان يأمر بالتوحيد ، ويحذّر من الشرك وأن يُعَدَّلَ بالله تعالى مخلوقاته ، فكل رسول يقول لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

أَمَّا رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦] .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك » ^(١) .

ولم يقتصر التحذير من الشرك على الكفار فقط ؛ بل حذر الله المؤمنين منه ، وأمرهم بالإيمان مع إيمانهم ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦] .

ولعظيم أمر الشرك ، لا يكتفي القرآن بتحذير المشركين والمؤمنين منه ؛ بل يحذر الله الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الوقوع في الشرك ، وهم معصومون منه : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ [الحج: ٢٦] .

وبعد أن ذكر الله تعالى جملة من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في كتابه قال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] ؛ ذلك أن الله تعالى تولى قلوبهم فهداها لسواء الصراط وجعلها مشغولة بتبليغ رسالة التوحيد والتحذير من غوائل الشرك .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ٨٨] ، أي : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] ، تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملاسته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِحَبْطَ عَمَلِكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ

فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَبِيدِينَ ﴿[الرُّخُوف: ٨١]﴾^(١).

وهذا إمام الحنفاء إبراهيم (يخبر الله تعالى عنه فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. إبراهيم عليه السلام الذي كسر الأصنام بيده، وتبرأ من قومه من أجل تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك، فجعله الله تعالى أسوة للموحدين فقال تعالى: ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقد أخبر الله تعالى أنه أمة وحده، ونفى عنه الشرك: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «ومن فوائد الآية: أن الشرك ممتنع في حق الأنبياء عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]: «من فوائد الآية: أن التوحيد وصية الأنبياء عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ﴾ [البقرة: ١٣٣]... ومن فوائدها: أهمية التوحيد، والعناية به؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾^(٣).

إن الاهتمام بشأن التوحيد والتحذير من الشرك كان ظاهرا في تفسير الشيخ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣ / ٢٩٩).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٨٥).

(٣) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٧٩).

ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، ولقد احتوى على مضامين عدّة في هذا الباب .

- المضامين الدعوية في التحذير من الشرك :

الجانب الأول : التحذير من شأن الشرك عموماً وبيان خطره وعاقبته ، قال رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لسورة (ق) : « الشرك أمره عظيم ، وخطره جسيم ، حتى الرجل إذا تصدق بدرهم وهو يلاحظ لعل الناس يرونه ليمدحوه ويقولون : إنه رجل كريم . يعتبر مشركاً مرئياً ، والرياء شرك ، وأخوف ما خاف النبي ﷺ على أمة الشرك الخفي ، وهو الرياء ^(١) » ^(٢) .

وقال رَحِمَهُ اللهُ في بيان أهمية التوحيد والحد من الشرك : « (علم التوحيد) أشرف العلوم ، وأجلها قدراً ، وأوجبها مطلباً ؛ لأنه العلم بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وحقوقه على عباده ؛ ولأنه مفتاح الطريق إلى الله تعالى ، وأساس شرائعه ؛ ولذا أجمعت الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الدعوة إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وشهد لنفسه تعالى بالوحدانية ، وشهد بها له ملائكته ، وأهل العلم ، قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، ولما كان هذا شأن التوحيد ، كان لزاماً على كل مسلم أن يعتني به تعلماً ، وتعليماً ، وتدبراً ، واعتقاداً ، ليبني دينه على أساس

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٧ / ٣٥٤) (١١٢٥٢) ، وابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث

أبي سعيد رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ ، مرفوعاً بلفظ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ؟ » قال : قُلْنَا : بَلَى ، فقال : « الشُّرْكُ الْخَفِيُّ ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي ، فَيَزِينُ صَلَاتَهُ ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (١ / ٥٠٩) .

(٢) « تفسير سورة ق » (١٠٢) .

سليم ، واطمئنان ، وتسليم يسعد بثمراته ، ونتائجه »^(١) .

الجانب الثاني : في التحذير من أنواع الشرك وبيانها ، وما يضاد التوحيد ، ففي تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ اهتمام بالغ في التحذير من أنواع الشرك حيث ذكر جملة من أنواع الشرك وحذّر منها ، ومن ذلك :

أولاً : التحذير من الشرك بدعاء غير الله تعالى .

قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] : « ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أي : لا معبود حق إلا هو عَزَّجَلَّ فكل المعبودات من دونه فهي باطلة ، قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] ، فمن دعا ملكاً من الملائكة ، أو رسولا من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، أو نبيا من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، أو صديقا من الصديقين ، أو شهيدا من الشهداء ، أو ولياً من الأولياء ، أو صالحاً من الصالحاء ، فقد أشرك بالله ؛ لأنه جعل الله إلهاً آخر ، وتعلّق بباطل لا ينفعه ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] »^(٢) .

ثانياً : دعاء الموتى لجلب النفع أو دفع الضرر .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

(١) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٥ / ٩٩) ، وانظر تفسير الآية في « تفسير سورة آل عمران » (١ / ١٢٢) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٤٣١) .

أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتُمْ خَدَّاهُمُوطًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿البقرة: ٦٧﴾ .

« ومن فوائد هذه الآيات الكريمات : أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يلجأون إلا لله سبحانه وتعالى وإذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا ملجأ لهم إلا الله ؛ فما بالك بمن دونهم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس ، حينما يلتجئون إلى الموتى من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، أو ممن يزعموهم أولياء ، يلتجئون إليهم ، ويستعينون بهم ، ويستعينون بهم ؛ فإن الاستعاذة بغير الله عَرَجَلٌ في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك ، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضا »^(١) .

ثالثاً : بناء القبور في المساجد وسيلة من وسائل الشرك .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤] : « ومن فوائد الآية : أنه لا يجوز أن يوضع في المساجد ما يكون سبباً للشرك ؛ لأن (مساجد الله) معناها موضع السجود له ؛ فإذا وضع فيها ما يكون سبباً للشرك فقد خرجت عن موضوعها ، مثل أن نقبر فيها الموتى ؛ فهذا محرم ؛ لأن هذا وسيلة إلى الشرك »^(٢) .

وقال في تفسير سورة الكهف : « قال تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف: ٢١] ، وهم أمراؤهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ، بدل من أن نبني بنياناً نحو طهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر أي لنجعلن عليهم مسجداً نتخذه مصلى ، والظاهر أنهم فعلوا لأن القائل هم الأمراء الذين لهم الغلبة .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٠٦) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٩) .

هذا الفعل ، اتخاذ المساجد على القبور ، من وسائل الشرك وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي ﷺ قال وهو في سياق الموت : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحذَر ما صنعوا^(١) »^(٢) .

رابعاً : اتخاذ الأنداد لله تعالى .

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] : « ومن فوائد الآية : تحريم اتخاذ الأنداد لله ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ ؛ وهل الأنداد شرك أكبر ، أو شرك أصغر ؛ وهل هي شرك جلي ، أو شرك خفي ؛ هذا له تفصيل في علم التوحيد ؛ خلاصته : إن اتخذ الأنداد في العبادة ، أو جعلها شريكة لله في الخلق ، والملك ، والتدبير فهو شرك أكبر ؛ وإن كان دون ذلك فهو شرك أصغر ، كقول الرجل لصاحبه : « ما شاء الله وشئت »^(٣) .

خامساً : الاستعانة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

قال الشيخ رحمه الله : « فإن قال قائل : وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال ؟

فالجواب : لا ؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) ، ومسلم (٣٧٧ / ١) برقم (٥٣١) من حديث عائشة ، وعبد الله بن عباس ي ، قالاً : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ه طَفِقَ يَطْرُحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ : « لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحذَرُ مَا صَنَعُوا .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٤١) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٧٩) .

قادراً عليها ؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به : كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام ؛ بل شرك أكبر ؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً ؛ فكيف يعينه ! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه ، مثل أن يعتقد أن الولي الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده ، فهذا أيضاً شرك أكبر ؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك ^(١) .

سادساً : الاستغاثة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] : « ومن فوائد الآية : أن من استغاث بالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، أو غيرهم من المخلوقات فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فقد ضل في دينه ، وسفه في عقله ، وأتى الشرك الأكبر ^(٢) .

ومواضع التحذير من الشرك وما يتعلق به ووسائله في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عديدة مما يدل على اهتمامه ببيان خطورة هذا الأمر الذي يُذهب برأس الدين وهو التوحيد ، وكان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كثيراً يؤكد على تزكية النفس وتطهيرها من الشرك ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: ١٤] : « إذن تَزَكَّى » ، يعني تطهر ظاهره وباطنه ، يتزكى أولاً من الشرك بالنسبة لمعاملة الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، لا يرائي ، ولا يسمع ، ولا يطلب جاهاً ، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله عَزَّوَجَلَّ ، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة . تزكى في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يبتدع في شريعته لا بقليل ولا كثير ، لا في الاعتقاد ، ولا في الأقوال ولا في الأفعال ، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول ﷺ ، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تماماً إلا على الطريقة السلفية طريقة أهل السنة

(١) « تفسير جزء عم » (١٩) ، وذكر نحواً من هذا في « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٣٠) .

والجماعة»^(١).

وقال في تفسير سورة الشمس : « ﴿مَنْ زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩] ، أي : من زكى نفسه ، وليس المراد بالتزكية هنا التزكية المنهي عنها في قوله : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] ، المراد بالتزكية هنا : أن يزكي نفسه بإخلاصها من الشرك وشوائب المعاصي^(٢) .

ومن قوله رَحِمَهُ اللَّهُ في صلاح القلب وسلامته بالتوحيد والبعد عن الشرك وشوائبه ، ما ذكره في تفسير سورة الطارق حيث قال : « الإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل ، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه ، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها ، وعقائدها ، واتجاهاتها ، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع ، والحقد والبغضاء ، وكرهه ما أنزل الله على رسوله وكرهه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه »^(٣) .

والتحذير من الشرك وأنواعه سار عليه علماء الإسلام اقتداء بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى عصرنا الحاضر ، ولقد كانت دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما ذكرها الله تعالى في كتابه إنما هي لإنقاذ الأمم من غوائل الشرك ودقائقه التي ربما لا يشعر بها العيد ، وكثير من الناس يظن أن الشرك إنما هو في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي الأمم السابقة وما علم أن سريان الشرك إلى القلوب التي لم تتشبث بالتوحيد الخالص سريع وخفي^(٤) ، ولذا خافه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أنفسهم وذرياتهم وأقوامهم ،

(١) « تفسير جزء عم » سورة الأعلى (١٦٧) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة الشمس (٢٢٣) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الطارق (١٥٠) .

(٤) انظر : « مدارج السالكين » لابن القيم (١ / ٣٥١) ، وانظر : « الشرك في القديم والحديث »

ولا زالت الأمة تحارب الشرك وأهله حتى قيام الساعة ، وعيش الإنسان في هذه الحياة وابتلاؤه حتى يفارقها إنما هو من أجل إقامة التوحيد الخالص والهرب من الشرك ولو دق ؛ حتى تقوم العبودية الخالصة لله تعالى ، ولقد امتلأت كتب العلماء في بيان الشرك وأنواعه ، ومنها تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كما تقدّم ، وما هذه المضامين إلا دعوة للعبد أن يفقه عقيدته ، ويؤمن بها كما أراد الله تعالى ، ويتفحصها ويراقبها ألا تزيج عن الصواب ويقع في فتنة الشرك الذي هو أعظم الظلم وأرداه .



المبحث الثالث : الدعوة إلى أركان الإيمان

الإيمان هو أصل الدين ، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويُفَرِّق بين السعداء والأشقياء ؛ ولذا تكرر في القرآن والسنة أكثر من سائر الألفاظ ، وجاء بيانه وما يتعلق به أعظم بيان وأوضحه ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « فالنبي ﷺ قد بين المراد بلفظ الإيمان - بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك ؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف ؛ بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول »^(١) .

ولقد اعتنى العلماء ببيان معنى الإيمان وتوضيح متعلقاته أيما عناية في كتبهم ، ومن ذلك ما جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ .

- المضامين الدعوية المتعلقة بالإيمان وأركانه .

الجانب الأول : معنى الإيمان وما يتعلق به .

أولاً : معنى الإيمان :

لقد عرّف أهل السنة والجماعة الإيمان بأنه قول وعمل ، قول القلب وقول اللسان وعمل القلب وعمل الجوارح ، وقد حكى غير واحد منهم الإجماع على ذلك كابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في « التمهيد » وغيره^(٢) .

(١) « مجموع الفتاوى » (٧ / ٢٨٧) .

(٢) « التمهيد » (٩ / ٢٤٣) .

وانظر : « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٧ / ٣٠٨ ، ١٢ / ٤٧٢) و« تفسير القرآن العظيم » =

وقد تلقى أهل السنة هذا التعريف بالقبول والتسليم ؛ اتباعاً لنصوص الكتاب والسنة الصحيحة الدالة على أن الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : « أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن ، والمراد به ذلك ، كما قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ٦١] ، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال ؛ كقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة ، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص »^(١) .

ولقد حرر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ معنى الإيمان وأنه لا يكتفى بالمعنى اللغوي وهو التصديق ، فقال عند تفسيره قوله تعالى : ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة : ١٢٦] ، قال : « والإيمان في اللغة : التصديق ؛ وفي الشرع : التصديق المستلزم للقبول ، والإذعان »^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٦٢] .

= لابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (١ / ١٦٥) و « فتح الباري » لابن حجر (١ / ٤٧) و « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » للالكائي (١ / ١٩٧) و « شرح السنة » للبغوي (١ / ٣٨) .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ١٦٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٥٢) .

« قوله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ١٦٢] ، الإيمان بالله ليس هو التصديق فقط ؛ لأن مجرد التصديق لا يُسمى إيماناً ، ولهذا لم يكن أبو طالب مؤمناً مع كونه مصداقاً للرسول (بل الإيمان هو : الإقرار التام المستلزم للقبول والإذعان ، فلا بد من إقرار القلب بالإقرار التام ، ولا بد من قبول ما جاءت به الشريعة ، ولا بد من الإذعان حتى يتم الإيمان »^(١) .

وبين أن مجرد التصديق لا يكفي لصحة الإيمان وتحقيقه ، فقال في تفسير قوله تعالى : قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥] : « قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ، أي بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به ، ورسوله ؛ وقد بين الرسول ﷺ أصول الإيمان بأنها الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق بها ؛ بل لا بد من قبول ، وإذعان ؛ وإلا لما صح الإيمان »^(٢) .

ثانياً : يرى الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ دخول الأعمال في مسمى الإيمان : من المسائل التي قررها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ اتباعاً لعلماء السلف وبيان منهجهم دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، ومن ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] ، ذكر من فوائدها : « أن

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧١) ، وكرّر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا التنبيه في أكثر من موضع في تفسيره ، انظر مثلاً : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٨٦) و (٣ / ٣٠) ، و (٣ / ٦٢) ، و « تفسير جزء عم » سورة الإنشقاق (١٢١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩٠) ، وانظر مزيداً في معنى الإيمان : « نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف » لمحمد الوهيبي (٣١) و « نواقض الإيمان القولية والعملية » لعبد العزيز العبد اللطيف (١٤) .

الأعمال داخلة في الإيمان ، لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ ، والمذكور في هذه الآية أعمال ، فدل ذلك على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، وهذا هو ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة ، أن الأعمال من الإيمان ، وله دليل من الكتاب والسنة ، دليله من القرآن قال الله تبارك وتعالى حين ذكر توجيه الناس إلى المسجد الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، قال المفسرون : أي صلاتكم إلى بيت المقدس .

وأما من السنة فقال النبي ﷺ : « الإِيْمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » هذا قول ، « وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » وهذا فعل ، « وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ »^(١) ، وهذا انفعال النفس من أثر القلب وهو من أعمال القلوب ، فدل هذا على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان ، لكن إذا قُرنَت الأعمال بالإيمان صارت الأعمال علانية والإيمان في القلب ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَذْيَبَ ءَامَتْوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] «^(٢) .

وأراد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا بيان منهج السلف رَحِمَهُمُ اللهُ وتقرير معتقدهم والردّ على من خالفهم ، وهم المرجئة الذين يرون أن الإيمان هو التصديق ، وأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان ، وقد ردّ عليهم علماء الإسلام ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، وذكر أدلة أهل السنة والجماعة على أن العمل داخل في مسمى الإيمان ، ووضح منهج أهل السنة والجماعة والرد على مخالفينهم بجلاء وتفصيل^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (٣٥) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٨٣) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٢١) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوى » (٧ / ٢٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٩ ، ٤٤٠ ، ٥٥١ ، ٥٦٣) و (١٠ / ٤٣٩) .

ثالثاً : زيادة الإيمان ونقصانه .

وهذه من مسائل الإيمان التي ذكرها شيخنا ونصرها رَحِمَهُ اللهُ ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

قال : « ومن فوائد الآية : تفاوت الذنوب ؛ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ؛ وتفاوت الذنوب يتفاوت الإيمان ؛ لأنه كلما كان الذنب أعظم كان نقص الإيمان به أكبر ، كما قال النبي ﷺ : « لَا يَزِنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ^(١) ؛ فيكون في ذلك رد على من أنكروا زيادة الإيمان ، ونقصانه ؛ وللناس في ذلك ثلاثة أقوال ؛ منهم من قال : إن الإيمان يزيد ، وينقص ؛ ومنهم من قال : إن الإيمان لا يزيد ، ولا ينقص ؛ ومنهم من قال : إن الإيمان يزيد ، ولا ينقص ؛ وبحث ذلك على وجه التفصيل ، والترجيح في كتب العقائد ؛ والراجع أن الإيمان يزيد ، وينقص » ^(٢) .

وقال في موضع آخر أكثر بياناً للزيادة والنقصان في الإيمان مستنداً إلى أدلة الكتاب والسنة النبوية : « إثبات زيادة الإيمان في القلب ؛ لقوله تعالى : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ؛ ففيه رد على من قال : إن الإيمان لا يزيد ، ولا ينقص ؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف ؛ لأن الواقع يكذبه ؛ والنصوص تكذبه أيضاً ؛ ففي القرآن قال الله تعالى : ﴿ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ؛ وفي السنة : « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ »

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ، ومسلم (٥٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٥٨-٥٩) .

إِحْدَاكُنَّ»^(١)؛ فالإيمان يزيد كمية ، وكيفية ؛ فمثال زيادة الكمية : أن الذي يسبح عشراً أزيد إيماناً من الذي يسبح خمساً ؛ والذي يصلي عشر ركعات أزيد إيماناً من الذي يصلي ستاً ؛ وأما زيادة الكيفية فمثالها : رجل صلى ركعتين بطمأنينة ، وخشوع ، وتأمل فيإيمانه أزيد ممن صلاهما بسرعة ؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب : كلما كثرت الآيات لدى الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوة ، ورسوخاً ؛ اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ [الحج : ١١] أي على طرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] : هذا إيمانه ضعيف مهزوز : إن لم تأت فتنه فهو مستقر ، وإن أتته فتنه شبهة ، أو شهوة - انقلب على وجهه »^(٢) .

الجانب الثاني : بيانه لأركان الإيمان على وجه التفصيل في تفسيره .

وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تعالى معنى الإيمان وحرره ، وبين المقصود به وما يتعلّق به ، فقد ذكر أركان الإيمان وما يتعلّق بها على وجه التفصيل ، وهي كما يلي :

أولاً : الإيمان بالله :

الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بأربعة أمور ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده ، وبربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه وصفاته ، وتفرد في ذلك »^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ﴿ إِنَّ ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ ، ومسلم (٧٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧١) ، وتقدّم الكلام على الإيمان بأنواع التوحيد الثلاثة في الفصل السابق .

الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿١﴾، أي آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وقد بين النبي ﷺ ذلك في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » (١) ، أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ : أي تؤمن به عَزَّوَجَلَّ رَبًّا ، وتؤمن به إلهًا ، وتؤمن به موصوفًا بصفات الكمال ، وهذه الأركان الثلاثة للإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ فهو الرب الإله الكامل الأوصاف (٢) .

ومدار أركان الإيمان على الإيمان بالله تعالى فهو أصلها ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « لا بد من الإيمان بالله ، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فالإيمان بالله متضمن لخمس أركان من الإيمان » (٣) .

وقال ضمن فوائده قوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ١٦٢] .

« من فوائده الآية فضيلة الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ لقوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، ونص على الإيمان بهذا مع أنه داخل في قوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [البقرة : ٤] ، لأهميته ؛ لأن مدار الإيمان كله على الإيمان بالله ؛ لأننا نؤمن بأن الرسل رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وأن الكتب كتب الله ، وأن الملائكة عباد الله ، وهلم جرا ، فالركيزة الأولى هي الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ، وما بعده يعتبر فروعا

(١) أخرجه مسلم (٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٢٤) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٦٦) .

أو جهات متعددة من الإيمان بالله»^(١).

ثانياً : الإيمان بالملائكة .

وهو الركن الثاني من أركان الإيمان ، وقد قرره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره في مواضع عدة ، فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الكهف : ٥٠] .

قال : « وقوله : ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ هم عالم غيبي خلقهم الله من نور كما أعلمنا النبي ﷺ أن الله خلقهم من نور^(٢) ، وأعلمنا الله تعالى في القرآن أنه خلق الجن من نار ، وأنه خلق البشر من طين^(٣) ، إذاً المخلوقات التي نعلمها هي ، الملائكة من نور ، والجن من نار ، والإنسان من طين ، فالملائكة إذاً عالم غيبي والإيمان بهم أحد أركان الإيمان ، والملائكة على خلاف الشياطين كما يتبين من الآية ، وهم أقدر من الشياطين وأطهر من الشياطين ، ولهم من النفوذ ما ليس للشياطين ، فالشياطين لا يمكن أن يلجؤا إلى السماء ، بل من حاول أتبع بالشهاب المحرق ، والملائكة يصعدون فيها ، فهم يصعدون بأرواح بني آدم إلى أن تصل إلى الله ، وهم أيضاً قد ملأوا السموات ، فيجب علينا أن نؤمن بالملائكة إيماناً لا شك فيه ، وأنهم عالم غيبي ، لكن قد يكونون من العالم المحسوس بقدرة الله ، كما

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧٦) .

(٢) الحديث الدال على هذا أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِّمَّا وَصِفَ لَكُمْ » .

(٣) قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ ١٥ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ۝ ١٦ ﴾ [الحجر : ٢٦-٢٧] .

كان جبريل ، فقد رآه النبي ﷺ مرتين له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق^(١) وهو واحد وهذا يدل على عظمة خلقته ، وعظمة خلقه جبريل تدل على عظمة الخالق جلَّ وعلا ، أحياناً يأتي جبريل الذي هذا وصفه وهذا خلقه على صورة إنسان ، ولكن ليس تقلبه هكذا بقدرته هو ، ولكن بقدره خالقه جلَّ وعلا ، والله أعطاه القدرة على الثقل والتكيف بقدره الله جلَّ وعلا - «^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، قال : « ومن فوائد الآية : أن الإيمان بالملائكة من البر ، ويشمل الإيمان بذواتهم ، وصفاتهم ، وأعمالهم إجمالاً فيما علمناه إجمالاً ، وتفصيلاً فيما علمناه تفصيلاً ، واعلم أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام منهم من عُيِّنَ لنا ، وعرفناه باسمه ، ومنهم من لم يُعَيَّن ، فمن عُيِّنَ لنا وجب علينا أن نؤمن باسمه كما عُيِّن ، مثل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وإسرافيل ؛ ومالك خازن النار- ، ومنكر ونكير إن صح الحديث بهذا اللفظ ففيه نظر- ، وميكائيل ؛ وملك الموت ولكننا لا نعرف اسمه- بعض الناس يقولون : عزرائيل ، ولكن لم يصح هذا ؛ وهاروت ، وماروت ، ثم كذلك أعمالهم منهم من علمنا أعماله ، ومنهم من لم نعلم ، لكن علينا أن نؤمن على سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون ، وممثلون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله ، منهم الموكل بالقطر ،

(١) الحديث بهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٣٢٧٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : « وَلَكِنَّهُ

رَأَى - أي النبي - ﷺ - جبريل ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ ، وَمَرَّةً

فِي جِيَادٍ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ » وقد ورد الحديث بدون لفظ « مرتين »

وأخرجه البخاري (٤٨٥٦) ، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٨٧-٨٨) .

والنبات ، والموكل بالنفخ في الصور ، وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة ، وملائكة موكلة بكتابة أعمال بني آدم ، وملائكة موكلة بحفظ بني آدم ؛ كما قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] ؛ لكن كل هذا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وبإذنه ، وليس لهم منازعة لله عَزَّوَجَلَّ ، ولا معاونه في أي شيء من الكون ، قال الله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ ٢٢ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] فنفي جميع ما يتعلق به المشركون : ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ : ٢٢] انفراداً ؛ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ﴾ [سبأ : ٢٢] مشاركة ؛ ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ : ٢٢] معاونه ؛ ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ : ٢٣] : فنفي الشفاعة ، والوساطة إلا بإذنه ، ثم قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ : ٢٣] : وهم الملائكة إذا سمعوا الوحي صبعقوا ؛ فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون ، لكنهم يمثلون أمر الله عَزَّوَجَلَّ ٢١ . وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] : « ومن فوائد الآية : أن الملائكة ذوو عقول ، ووجهه أن الله تعالى وجه إليهم الخطاب ، وأجابوا ؛ ولا يمكن أن يوجه الخطاب إلا إلى من يعقله ، ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلام ، والجواب عليه ، وإنما نبهنا على ذلك ؛ لأن بعض أهل الزيغ قالوا : إن الملائكة ليسوا عقلاء ٢٢ .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصفات : ١] : « المراد بالصفات الملائكة ... فإذا قال قائل : من الملائكة؟

فالجواب : أنهم عالم غيبي خلقوا من نور ، واستعبدتهم الله سبحانه وتعالى في

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٧ ٢٨٥) ، وانظر : « تفسير جزء عم » (٣٠٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١١٦) .

طاعته ، فقاموا بها على أتم وجه ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
فإن قال قائل : هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى ، فإن النبي ﷺ رأى
جبريل على صورته التي خلق عليها ، وله ستمائة جناح قد سد الأفق^(١) ، وأحياناً
يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب : أن هذا على سبيل النادرة ، وما كان نادراً فإنه لا يخرم القاعدة ،
أو لا يبطل التعريف ، والنادر كما يقول العلماء : ليس له حكم^(٢) .
ما تقدم هو مجمل ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في عقيدة الإيمان
بالملائكة على مذهب أهل السنة والجماعة .

ثالثاً : الإيمان بالكتب المنزلة .

وهو الركن الثالث من أركان الإيمان الستة ، وقد بيّنه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في
تفسيره وما يتضمنه ، فعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْإِلَٰهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ
قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَٰهَ مِنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

قال : « قوله تعالى : ﴿وَالْكِتَابِ﴾ ؛ المراد به الجنس ؛ فيشمل كل كتاب
أنزله الله عزَّجَلَّ على كل رسول .

ومن فوائد الآية : أن الإيمان بالكتب من البر ، وكيفيته أن نؤمن بأن كل كتاب
أنزله الله على أحد من رسله فهو حق : صدق في الأخبار ، وعدل في الأحكام ،
ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه ، واعلم أنه ما من
رسول إلا معه كتاب ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (١٠ - ١١) .

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴿[الحديد: ٢٥]﴾ أي مع هؤلاء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وقوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ؛ فما من رسول إلا معه كتاب ؛ والكتب المعروفة لدينا هي التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وصحف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والقرآن الكريم ، وصحف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها ، فمنهم من قال : إنها غيرها ، ومنهم من قال : إنها هي ، وأما ما لم نعلم به فنؤمن به إجمالاً ، فتقول بقلبك ، ولسانك : آمنت بكل كتاب أنزله الله على كل رسول ، ثم إن المراد أن نؤمن بأن الله أنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتاباً يسمى التوراة ، وعلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كتاباً يسمى الإنجيل ؛ وعلى داود كتاباً يسمى الزبور ، أما أن تؤمن بالموجود منها الآن فليس بواجب عليك ؛ لأنه مُحَرَّفٌ ، ومُغَيَّرٌ ، ومُبَدَّلٌ ، لكن تؤمن بأن له أصلاً نزل على هؤلاء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿١﴾ .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، قال : « قوله تعالى : ﴿وَكُتُبِهِ﴾ ؛ وفي قراءة : (وكتابه) ، ولا منافاة ؛ لأن المفرد المضاف يعم ، والكتب المنزلة على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ؛ ولكن مع ذلك فنحن لا نعرف على التعيين إلا عدداً قليلاً منها : القرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وصحف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إن كانت غير التوراة ، وإن كانت هي التوراة

فالأمر ظاهر ، نعرف هذه الكتب ، ونؤمن بها على أعيانها ؛ والباقي نؤمن بها على سبيل الإجمال ؛ ولكن كيف الإيمان بهذه الكتب ؟ نقول : الإيمان بالقرآن هو الإيمان بأنه كلام الله منزل على محمد ﷺ بلسان عربي مبين ؛ ونصدق بكل أخباره ، ونلتزم بكل أحكامه ، وأما الإيمان بالكتب السابقة فهو أن نؤمن بأن الله أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وآتى داود الزبور ، وأنزل صحفاً على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأن كل ما جاء فيها من خبر فهو حق صدق ، وأما الأحكام فما جاءت شريعتنا بخلافه فالعمل على ما جاءت به شريعتنا ؛ لأنه منسوخ ، وأما ما لا يخالف شريعتنا فاختلف العلماء في العمل به ، والصحيح أنه يعمل به ، وبسط ذلك في أصول الفقه ، وليعلم أن التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ، والإنجيل الذي بأيدي النصارى لا يوثق بهما ؛ لأنهم حَرَفُوا ، وبدلوا ، وكتَمُوا الحق ^(١) .

وقد سئل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن عقيدة السلف الصالح في القرآن الكريم ؟ فأجاب قائلاً : « عقيدة السلف في القرآن الكريم كعقيدتهم في سائر أسماء الله وصفاته وهي عقيدة مبنية على ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكلنا يعلم أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن الكريم بأنه كلامه ، وأنه منزل من عنده قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا أَمَرَهُ ﴾ [التوبة : ٦] . والمراد بلا ريب بكلام الله هنا القرآن الكريم وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] ، فالقرآن كلام الله تعالى لفظاً ومعنى ، تكلم الله به حقيقة وألقاه إلى جبريل الأمين ، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ ، ليكون من المندرين بلسان عربي مبين .

ويعتقد السلف أن القرآن مُنَزَّل نَزَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، منجماً أي مفزاً- في ثلاث وعشرين سنة حسب ما تقتضيه حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ، ثم إن النزول يكون ابتدائياً ، ويكون سببياً بمعنى أن بعضه ينزل لسبب معين اقتضى نزوله ، وبعضه ينزل بغير سبب ، وبعضه ينزل في حكاية حال مضت للنبي ﷺ ، وأصحابه ، وبعضه ينزل في أحكام شرعية ابتدائية على حسب ما ذكره أهل العلم في هذا الباب ، ثم إن السلف يقولون : إن القرآن من عند الله ابتداءً وإليه يعود في آخر الزمان هذا قول السلف في القرآن الكريم ، ولا يخفى علينا أن الله تعالى وصف القرآن الكريم بأوصاف عظيمة ، وصفه بأنه حكيم ، وبأنه كريم ، وبأنه عظيم ، وبأنه مجيد ، وهذه الأوصاف التي وصف الله بها كلامه تكون لمن تمسك بهذا الكتاب وعمل به ظاهراً وباطناً فإن الله تعالى يجعل له من المجد ، والعظمة ، والحكمة ، والعزة ، والسلطان ، ما لا يكون لمن لم يتمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ولهذا أدعو من هذا المنبر جميع المسلمين حكماً ومحكومين ، علماء وعامة إلى التمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ظاهراً وباطناً حتى تكون لهم العزة ، والسعادة ، والمجد ، والظهور في مشارق الأرض ومغاربها ، وأسأل الله تعالى أن يعيننا على تحقيق ذلك» (١) .

ما تقدّم هو مجمل ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في عقيدة الإيمان بالكتب المنزلة على مذهب أهل السنة والجماعة .

رابعاً : الإيمان بالرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

والإيمان بالرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو الركن الرابع من أركان الإيمان ، وقد جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تقرير هذا الركن كما هي عقيدة أهل السنة

والجماعة ، وذكر مسائل متعلقة بهذا الركن ، وهي كما يلي :

- الفرق بين الرسول والنبي .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « و (الرسول) كما قال العلماء هو من أوحى إليه بشرع ، وأمر بتبليغه ؛ هذا الذي عليه أكثر أهل العلم ، و (النبي) هو الذي لم يؤمر بتبليغه^(١) ما لم يدل الدليل على أن المراد به الرسول ؛ ففي القرآن الكريم كل من وصف بالنبوة فهو رسول ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] إلى قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ؛ ولقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِحَاثِيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [غافر : ٧٨] »^(٢) .

(١) بين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كيف يُوحى إليه بشرع ولا يؤمر بتبليغه بقوله : « أوحى الله إلى النبي بالشرع من أجل إحياء الشرع بمعنى أن من رآه واقتدى به واتبعه دون أن يلزم بإبلاغه » . « مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (١ / ٣١٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٤٢) ، وفي مسألة التفريق بين الرسول والنبي أقوال ، ويرى الباحث أن أظهرها والله أعلم : أن الرسول والنبي كلاهما مأمور بالتبليغ ، فكلاهما مَرْسَل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج : ٥٢] ، وأن الفرق بين الرسول والنبي : أن الرسول أُرسل بشرع جديد ، وأنزل عليه كتاب ، فإن أُرسل بشريعة من قبله فهو نبي ، واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ، فقال : « فالنبي هو الذي ينبت الله ، وهو نبي ، بما أنبأ الله به ؛ فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليلبغه رسالة من الله إليه ؛ فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يُرسل هو إلى أحد يُلبّغه عن الله رسالة ؛ فهو نبي ، وليس برسول ... »

إلى أن قال : « فقله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ، دليل على أن النبي مرسل ، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق ؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين =

- وجوب الإيمان بجميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]: «ومن فوائد الآية: أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، على حد سواء في أصل الإيمان، وأما الشرائع فلكل منهم جعل الله شرعة ومنهاجاً، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فنحن مأمورون باتباع شريعة محمد ﷺ التي نسخت جميع الأديان، أما في الإيمان بأنهم رسل من عند الله، وأنهم صادقون بما جاءوا به فإننا لا نفرق بين أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ؕ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ؕ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ ؕ وَكُتُبِهِ ؕ وَرُسُلِهِ ؕ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]»^(١)

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]: «فالذين علمناهم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يجب علينا أن نؤمن بهم بأعيانهم؛

= بما يعرفونه أنه حق؛ كالعالم». «النبوات» لابن تيمية (٢ / ٧١٤-٧١٨).

وهو اختيار الشيخ الشنقيطي حيث قال: «آية الحج هذه يقصد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبي هو من أوحى إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحى إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، يدل على أن كلا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تباين واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول، هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة». «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» (٥ / ٢٩٠).

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٩٠).

والذين لم نعلمهم نؤمن بهم إجمالاً ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وقد ذكر في القرآن أربعة وعشرون رسولاً ، قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ [الأنعام : ٨٤] أي إبراهيم عليه السلام : ﴿ اسْحَقْ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَطُوشَ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٦] ؛ فهؤلاء ثمانية عشر ، ويبقى شعيب ، وصالح ، وهود ، وإدريس ، وذو الكفل ، ومحمد ﷺ (١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحديد : ١٩] : « أما الإيمان بالرسول عليهم السلام فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلى آخرهم بما أخبروا به ، إذا صح عنهم ، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة ، لقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، وقول النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يعني أمة الدعوة - يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار » (٢) (أولئك) ، أي : الذين آمنوا بالله ورسوله (هم الصديقون) » (٣) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٨) .

(٢) أخرجه مسلم (١ / ١٣٤) برقم (١٥٣) من حديث أبي هريرة ، بلفظ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

(٣) « تفسير سورة الحديد » (٣٩٩ ٣٩٨) .

- إثبات رسالة محمد ﷺ .

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ، قال : « من فوائد الآية : إثبات رسالة النبي ﷺ من وجهين : أولاً : وصفه بالرسول .

ثانياً : جعل طاعته كطاعة الله عزَّوجلَّ »^(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣] ، قال : « من فوائد الآية : العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ ؛ لأن الله تعالى أقسم عليها ، وأكدها زيادة على القسم بأن واللام .

ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر ؛ لأنه مكذب لله ، ورسوله ، وإجماع المسلمين »^(٢) .

- عموم رسالة النبي ﷺ .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] : « من فوائد الآية : عموم رسالة النبي ﷺ لجميع البشر ، لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ ، ويتفرع على ذلك الرد على النصارى الذين زعموا أن محمداً ﷺ رسول إلى العرب خاصة ؛ لأننا نقول لهم : أنتم الآن تؤمنون بأنه رسول ، وأنه من عند الله ، وقد قال الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ ، فيلزمكم على إقراركم بأنه رسول بأن تقرؤا بأن رسالته عامة ، وإلا فقد كذبتموه ، فمتى أقررتم بأنه رسول ولو إلى العرب لزمكم أن تقرؤا بأنه رسول إلى كافة الناس »^(٣) ، هذا

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٨) .

(٢) « تفسير سورة يس » (١٦) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١ / ٥٦٥ - ٥٦٦) .

إجمال ما قرره الشيخ رحمه الله في الإيمان بالرسول عليهم السلام^(١).

خامساً : الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وقد تطرق إليه الشيخ رحمه الله في تفسيره من خلال المحاور الآتية :

- أهمية الإيمان باليوم الآخر .

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُؤْفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣-٤] .

قال : « نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته ؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور ... [ثم قال : ومن فوائد الآيتين] أهمية الإيمان بالآخرة ؛ لأن الإيمان بها هو الذي يبعث على العمل ؛ ولهذا يقرن الله تعالى دائماً الإيمان به عز وجل ، وبالיום الآخر ؛ أما من لم يؤمن بالآخرة فليس لديه باعث على العمل ؛ إنما يعمل لدنياه فقط : يعتدي ما دام يرى أن ذلك مصلحة في دنياه : يسرق مثلاً ، يتمتع بشهوته ، يكذب ، يغش ... ، لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فالإيمان بالآخرة حقيقة هو الباعث على العمل »^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٦٢] .

قال : « لا بد من الإيمان بالله ، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه

(١) للشيخ كلام مفصل عن الإيمان بالرسول عليهم السلام انظره في « مجموع الفتاوى » (٥ / ١٢٤) ، و (٥ / ٢٩٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٤) .

ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فالإيمان بالله متضمن لخمس أركان من الإيمان ، والحكمة من ذلك أن الأركان الأربعة أجملت تحت الإيمان بالله ، وخصَّ الإيمان باليوم الآخر ؛ لأنه هو الذي يحمل الإنسان على العمل ، إذا كان الإنسان في شك من اليوم الآخر والعباد بالله ، لن يعمل ، ماذا يرجو وماذا يخاف ؟ فلا يمكن الإيمان حقيقة إلا بالإيمان باليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل على القيام بشريعة الله »^(١) .

وقال أيضاً : « وكثيراً ما يقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح ، وأن يتعد عن العمل السيئ لأنه يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته »^(٢) .

ومواضع بيان أهمية الإيمان باليوم الآخر كثيرة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ؛ لما تضمنه اليوم الآخر من مراحل غيبية يمر بها الإنسان جاءت فيها نصوص كثيرة ، ولذا كان الوعظ به مؤثراً بالنفوس داعياً لها للعمل بما أمر الله تعالى ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُم يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] : « من فوائد الآية : أهمية الإيمان باليوم الآخر ، وأنه هو الذي تحصل به الموعظة ، بل هو الذي يحصل به الاتعاظ ؛ لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُم يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ؛ لأن من آمن بالله حقاً - خاف منه ، فكل من كان بالله أعرف كان منه أخوف »^(٣) ، وبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ سبب

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٦٦) .

(٢) « تفسير سورة الحديد » (٣٢٧) . .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٦٣ - ١٦٤) .

تسمية يوم القيامة باليوم الآخر ؛ لأنه لا يوم بعده ^(١) .

- دلالة العقل على الإيمان باليوم الآخر .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ إِذَا جُمِعَ لَهُمْ يَوْمٌ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٥] .

« الله عَزَّجَلَّ يخبر عن هذا اليوم بأنه لا ريب فيه ، أي : لا ريب في وقوعه ، وهذا اليوم قد دلَّ عليه الكتاب والسنة والعقل :

أما الكتاب : فما أكثر الآيات التي فيها إثبات اليوم الآخر ، وما أكثر الأمثال التي يضربها الله عَزَّجَلَّ لإثبات هذا اليوم يبعث الخلائق ، وأما في السنة فكثير أيضاً إثبات هذا اليوم .

وأما في العقل : فلأن العقل يدل بالضرورة على أن هذه الخليفة لا بد أن يكون لها معاد تحاسب فيه على ما أمرت به ؛ لأنه ليس من المعقول أن ينشئ الله الخليفة ، يأمرها وينهاها ، ويبعث إليها الرسل ، وينزل عليها الكتب ، وتستباح دماء من لم يُنْقِذْ هذه الكتب ، ويتبع هؤلاء الرسل ، ثم تكون النتيجة أن تموت هذه البشرية ولا تُبعث ، وتكون تراباً ، لو وقع هذا الفعل من أي أحد لقليل هذا سفه ، من أسفه السفه ، ولو أن الإنسان صنع ثوباً ثم خاطه وأتقنه ، ثم في النهاية أحرقه ، فتلغى ولم يبق له أثر ؛ لعدَّ الناس كلهم هذا سفهاً ، فكيف بهذه الخليفة التي خلقها الله عَزَّجَلَّ وأنزل عليها الكتب وأرسل إليها الرسل ^(٢) .

وأما حكم من كفر باليوم الآخر أو شكَّ فيه : قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض فوائد الآية السابقة : « ومن فوائد الآية : أن من كفر باليوم الآخر أو شكَّ فيه فهو

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٤) ، وانظر : « تفسير جزء عم » (٢٩) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ١٥١-١٥٢) .

كافر ؛ لأنه مكذب لقوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة : ٢] «^(١) .

- معنى الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه .

قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ إِلَهِ إِلَّا أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَدَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : ١٧٧] : « ومن فوائد الآية : أن الإيمان باليوم الآخر من البر ، ويشمل كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، كفتنة القبر ، ونعيمه ، وعذابه ، وقيام الساعة ، والبعث ، والحساب ، والصراط ، والميزان ، والكتب باليمين ، أو الشمال ، والجنة ، وما ذكر من نعيمها ، والنار ، وما ذكر من عذابها ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب ، والسنة عن هذه الأمور مفصلاً أحياناً ، ومجماً أحياناً .

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح ، ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به تعالى كثيراً لأن نتيجة هذا الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالى ، فالذي يقول : إنه مؤمن باليوم الآخرة ، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة ، ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد ، كما أنه لو قيل مثلاً لإنسان عنده حَبٌّ : إنه سينزل اليوم مطر ، فظلل الحَبُّ ، معلوم أن الذي لا يؤمن بهذا الكلام لن يغطيه ، كذلك لو قيل : سيأتي اليوم عدو ، فشدد في الحراسة ، إذا آمن بأنه سيأتي عدو شدد في الحراسة بجميع ما يمكن ؛ فإذا لم يشدد في الحراسة علمنا أنه لم يؤمن به «^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى﴾ [النجم : ٢٧] : « فالإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور : الأول :

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١٥٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٤ ٢٨٥) .

الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لابد كائن ، الثاني : الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من : أهوال ، وحساب ، وموازين ، وصراط ، وجنة ، ونار لابد من هذا ، الثالث : الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر ، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة ؟ نعم كثير من الناس ، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة ، حتى إن الله سبحانه وتعالى قال في الإنسان : ﴿ أَوَلَمْ يَرَأِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ ٧٧ ﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴿ [يس : ٧٧ - ٧٨] ، يعجزنا فيه ﴾ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ [يس : ٧٨] ، ما أحسن قوله : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ ﴾ قبل أن يقول مقالة هذا الإنسان ، يعني هذا الإنسان قال : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ ﴾ ، ما هو خلقه ؟ إنه لم يكن شيئاً ، خلق من ماء دافق ، فصار عظماً وعصباً ولحمًا ، وصار إنساناً ينطق ويخاصم ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ [يس : ٧٨ - ٧٩] ، وذكر الأدلة على إمكان ذلك ، فمن الناس من ينكر اليوم الآخر ، ويقول : لا بعث ! وهذا من سفهه في عقله وضلاله في دينه ، وإلا فهل من الحكمة أن تخلق هذه الخليقة وتبتلى بالأمر والنهي ، ويحصل الجهاد وقاتل الأعداء ، واستحلال دمائهم وأموالهم ، ونسائهم ثم يكون نتيجة هذا لا شيء ، هذا لا يمكن ، وتآباه الحكمة ^(١) .

وقد جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ما يتضمنه اليوم الآخر مما يجب على المؤمن اعتقاد والإيمان به ، ومما تناوله الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :

- حياة البرزخ ، نعيم القبر وعذابه :

فقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءُ ۖ ۝ ٢٠٩ ﴾

(١) « تفسير سورة الحديد » (٢٢١) ، وانظر : « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٤٩) ، و (٢ / ٤٧١) .

وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ١٥٤﴾ : « ومن فوائد الآية : إثبات الحياة البرزخية ؛ لقوله تعالى : ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ ؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا دفن الإنسان رد الله عليه روحه ، وجاءه ملكان يسألانه عن ربه ، ودينه ، ونبيه .

- ومنها : إثبات نعيم القبر ؛ لقوله تعالى : ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ .

- ومنها : أن أحوال البرزخ ، وعالم الغيب غير معلومة لنا ، ولا نشعر بها إلا ما علمنا الله ورسوله « (١)

وقال في نعيم القبر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦] : « يستفاد من هذه الآية الكريمة إثبات نعيم القبر ، لقوله : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ، مع أن الساعة لم تقم بعد ، ولم يدخل الناس الجنة ، ويدل على ذلك آيات من القرآن كقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ نُوفَقُهُمْ أَلْمَلَكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ﴾ [النحل: ٣٢] ، توفاهم الملائكة ﴿طَيِّبِينَ﴾ ، حال من الهاء ، و﴿يَقُولُونَ﴾ ، حال من الملائكة ، يعني حال كون الملائكة يقولون حين توفاهم ادخلوا الجنة ، فيستفاد من هذه الآية نعيم القبر « (٢) .

- وإثبات البعث :

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ضمن فوائد هذه الآية :

« ومن فوائد الآية : إثبات البعث ؛ لقوله تعالى : ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؛ والبعث أنكره من أنكره من الناس ، واستبعده ، وقال : ﴿مَنْ يُحْيِي

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٧٧) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٩٥ - ٩٦) .

الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ : [يس : ٧٨] ؛ فأقام الله تبارك وتعالى على إمكان ذلك ثمانية أدلة في آخر سورة « يس » :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس : ٧٩] : هذا دليل على أنه يمكن أن يحيي العظام وهي رميم ؛ وقوله تعالى : ﴿أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ، دليل قاطع ، وبرهان جلي على إمكان إعادته كما قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٩] يعني : كيف يعجز عن إعادتها وهو سبحانه وتعالى بكل خلق عليم : يعلم كيف يخلق الأشياء ، وكيف يكونها ، فلا يعجز عن إعادة الخلق .

الدليل الثالث : قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس : ٨٠] : الشجر الأخضر فيه البرودة ، وفيه الرطوبة ، والنار فيها الحرارة ، واليبوسة ؛ هذه النار الحارة اليابسة تخرج من شجر بارد رطب ، وكان الناس فيما سبق يضربون أغصاناً من أشجار معينة بالزند ، فإذا ضربوها انفدحت النار ، ويكون عندهم شيء قابل للاشتعال بسرعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس : ٨٠] تحقيقاً لذلك ، ووجه الدلالة : أن القادر على إخراج النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر مع ما بينهما من تضاد قادر على إحياء العظام وهي رميم .

الدليل الرابع : قوله تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ [يس : ٨١] ، ووجه الدلالة : أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، والقادر على الأكبر قادر على ما دونه .

الدليل الخامس : قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس : ٨١] ؛ فـ (الخلق) صفته ، ووصفه الدائم ، وإذا كان خلاقاً ، ووصفه الدائم هو الخلق فلن يعجز

عن إحياء العظام وهي رميم .

الدليل السادس : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] : إذا أراد شيئاً مهما كان ، و (شيئاً) : نكرة في سياق الشرط ، فتكون للعموم ؛ (أمره) أي شأنه في ذلك أن يقول له كن فيكون ، أو (أمره) الذي هو واحد « أوامر » ؛ ويكون المعنى : إنما أمره أن يقول : « كن » ، فيعيده مرة أخرى ، ووجه الدلالة : أن الله سبحانه وتعالى لا يستعصي عليه شيء أراد .

الدليل السابع : قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨٣] : كل شيء فهو مملوك لله عزَّ وجلَّ : الموجود يعدمه ، والمعدوم يوجده ؛ لأنه رب كل شيء ، ووجه الدلالة : أن الله سبحانه وتعالى نزه نفسه ، وهذا يشمل تنزيهه عن العجز عن إحياء العظام وهي رميم .

الدليل الثامن : قوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، ووجه الدلالة : أنه ليس من الحكمة أن يخلق الله هذه الخليقة ، ويأمرها ، وينهاها ، ويرسل إليها الرسل ، ويحصل ما يحصل من القتال بين المؤمن ، والكافر ، ثم يكون الأمر هكذا يذهب سدئ ، بل لا بد من الرجوع ، وهذا دليل عقلي .

فهذه ثمانية أدلة على قدرة الله على إحياء العظام وهي رميم جمعها الله عزَّ وجلَّ في موضع واحد ، وهناك أدلة أخرى في مواضع كثيرة في القرآن ، وكذلك في السنة ^(١) .

- والنفخ في الصور .

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ومن فوائد الآية : إثبات النفخ في

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٠٦ - ١٠٨) ، وفسر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذه الآيات في آخر سورة

يس بتفصيل أكثر ، انظر : « تفسير سورة يس » (٢٩٤) وما بعدها .

الصور، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها دون التعرض لكيفيتها»^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١]: «أي انتظر لهذا النداء الذي يكون عند النفخ في الصور وحشر الناس، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، من القبور»^(٢).

وما تقدّم أمثلة على ما ذكره الشيخ رحمه الله فيما يدخل ضمن الإيمان باليوم الآخر، كما ذكر الشيخ رحمه الله الميزان^(٣) والشفاعة^(٤) والجنة^(٥) والنار^(٦)، ورؤية الله تعالى^(٧) وغيرها من أحوال يوم القيامة المتعلقة باليوم الآخر.

سادساً: الإيمان بالقدر خيره وشره

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وقد قرره الشيخ رحمه الله في تفسيره على مذهب أهل السنة والجماعة، وتناوله بما يلي:

- تعريف القضاء والقدر عند الشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

قال الشيخ رحمه الله: «القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير»^(٨)؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ

(١) «تفسير سورة يس» (١٨٣).

(٢) «تفسير سورة ق» (١١٢).

(٣) انظر: «تفسير جزء عم» سورة الزلزلة (٢٩٢، ٢٩٤).

(٤) انظر: «تفسير سورة البقرة» (١٧٣، ١٧٤)، و(٢ / ٣٨-٤٠)، و(٣ / ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٠).

(٥) انظر: «تفسير سورة البقرة» (١ / ٢٦٣، ٢٦٦)، وجزء عم، سورة النازعات (٥٤).

(٦) انظر: «تفسير سورة البقرة» (١ / ٨٥) وما بعدها.

(٧) انظر: «تفسير جزء عم» سورة المطففين (١٠٠).

(٨) انظر: «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٥ / ٦٢)، و«لسان العرب» لابن منظور

(٥ / ٧٤)، مادة (قدر).

شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدْرِ [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣] .

وأما القضاء ، فهو في اللغة : الحكم ^(١) .

ولهذا نقول : إن القضاء والقدر متباينان إن اجتماعا ، ومترادفان إن تفرقا ؛ على حد قول العلماء : هما كلمتان : إن اجتمعتا افترقتا ، وإن افترقتا اجتمعتا . فإذا قيل : هذا قدر الله ؛ فهو شامل للقضاء ، أما إذا ذكرا جميعا ؛ فلكل واحد منهما معنى .

فالتقدير : هو ما قدره الله تعالى في الأول أن يكون في خلقه .

وأما القضاء ؛ فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وعلى هذا يكون التقدير سابقا .

فإن قال قائل : متى؟ قلنا : إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير ، وإن القدر سابق عليه إذا اجتماعا ؛ فإن هذا يعارض قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] ؛ فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق؟

فالجواب على ذلك من أحد وجهين :

- إما نقول : إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي ، وإنما قدم الخلق على التقدير لتناسب رؤوس الآيات ، ألم تر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل من هارون ، لكن قدم هارون عليه في سورة طه في قوله تعالى عن السحرة : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ [طه: ٧٠] ؛ لتناسب رؤوس الآيات ، وهذا لا يدل على أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة .

(١) انظر : «معجم مقاييس اللغة» (٥ / ٩٩) و«لسان العرب» (١٥ / ١٨٦) و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي (١ / ١٣٢٥) ، مادة (قضي) .

- أو نقول : إن التقدير هنا بمعنى التسوية ؛ أي خلقه على قدر معين ؛ كقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى : ٢] ؛ فيكون التقدير بمعنى التسوية ، وهذا المعنى أقرب من الأول ؛ لأنه يطابق تماما لقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ؛ فلا إشكال ^(١) .

- مراتب القضاء والقدر .

مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة أربعة هي : العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والخلق .

قال الشيخ رحمه الله : « الركن السادس من أركان الإيمان : الإيمان بالقدر خيره وشره ، والإيمان بالقدر لا بد فيه من أمور أربعة :

- ١- أن تؤمن بأن الله عليم بكل شيء .
- ٢- أن تؤمن بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء .
- ٣- أن تؤمن بأن كل شيء بمشيئة الله ، لن يخرج عن مشيئته شيء .
- ٤- أن تؤمن بأن كل شيء خلقه الله عز وجل أي مخلوق لله عز وجل فلا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بهذه الأربعة ، وإذا تم الإيمان بهذه الأربعة فقد تم الإيمان بالقدر .

وقوله (خيره وشره) ؛ لأن المقدور قسمان : قسم فيه خير ، وقسم فيه شر ، فتؤمن بهذا وهذا ، وأن كله من عند الله عز وجل ^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٨١] ، قال الشيخ رحمه الله : « في الآية رد على القدرية ،

(١) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٨ / ٥٣٩ - ٥٤٠) ، وانظر « شرح العقيدة الواسطية » (٢ / ١٨٧) وما بعدها .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٢٧) .

والجبرية ، وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر ، فالجبرية غلو في إثبات القدر ، وفرطوا في أفعال العباد ، والقدرية غلو في إثبات فعل العبد ، وفرطوا في علم الله ، وإرادته ، والوسط هو الخير ، فأهل السنة ، والجماعة يثبتون لله العلم ، والكتابة ، والمشیئة ، والخلق ، كما يثبتون للإنسان إرادة ، وقدرة لكن ذلك تابع لإرادة الله ، وخلقـه ، وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد»^(١) .

- المخالفون لأهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر والردّ عليهم .

المخالفون لأهل السنة والجماعة في القَدَر هم القَدَرِيَّة والجبريَّة وهما طائفتان غاليتان في هذا الباب وعلى طرفي نقيض ، وردَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على المخالفين في هذا الباب كثيرا في تفسيره^(٢) ، ويُسهب أحيانا ويختصر في مواضع ، وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ [البقرة: ١٨١] ، قال : « ومن فوائد الآية : الرد على الجبرية ، وعلى القدرية ، فالجبرية يقولون : إن الإنسان مجبر على عمله ، ولا قدرة له ، ولا اختيار ، فأنكروا حكمة الله تعالى ؛ لأنه إذا قيل بهذا القول الباطل انتفت حكمة الأمر ، والنهي ، والثواب ، والعقاب ، وصار من فعل ما أمر به ، أو ترك ما نُهي عنه ليس أهلاً للمدح ؛ لأنه كالألة ليس عنده قدرة ، ولا اختيار ، وكذلك أبطلوا حكمة الله في الجزاء ؛ لأنه على أصلهم - يجزي المحسن وهو غير محسن ، ويعاقب العاصي وهو غير عاصٍ ، والرد عليهم في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ ؛

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣١٢) ، وللاستزادة والتفصيل في مراتب القضاء والقدر انظر : « شرح العقيدة الواسطية » (٢ / ١٩٣) وما بعدها ، و« مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (٢ / ٨٠) وما بعدها .

(٢) قال في أحد المواضع : « وليعلم أن مثل هذا الدليل في الرد على الجبرية كثير في القرآن ، وإنما نذكره عند كل آية ليتفهم بذلك من يريد إحصاء الأدلة على هؤلاء ؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق » اهـ . « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٤٢) .

فأضاف التبديل إلى الإنسان .

وأما القدرية فيقولون : « إن الإنسان مستقل بعمله ، ولا تتعلق به إرادة الله ، ولا قدرته ، ولا خلقه » ، وغلاتهم ينكرون العلم والكتابة ، يقولون : « إن أفعال العباد غير معلومة لله ، ولا مكتوبة عنده » ؛ وقالوا : « إن الأمر أنف أي مستأنف لم يكن الله يعلم شيئاً مما نفعله ، إلا إذا وقع علمه بعد رؤيته ، أو سمعه » ؛ وجه الرد عليهم إثبات العلم لله .

قال الشافعي ، وغيره من السلف : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن أنكروه كفروا ، فإما إذا قالوا : إن الله لا يعلم فكفرهم واضح لتكذيبهم القرآن ، وأما إذا قالوا : إنه يعلم لكن لا يقدرها ، ولا يخلقها ، قيل لهم : هل وقعت على وفق معلومه ، أو على خلاف معلومه ؟ فيقولون : « على وفق معلومه » ، وإذا كان على وفق معلومه لزم أن تكون مرادة له ، وإلا لما وقعت .

فالحاصل أن في الآية رداً على القدرية ، والجبرية ، وكل منهم غلا في جانب من جوانب القدر ؛ فالجبرية غلو في إثبات القدر ، وفرطوا في أفعال العباد ، والقدرية غلو في إثبات فعل العبد ، وفرطوا في علم الله ، وإرادته ، والوسط هو الخير ، فأهل السنة ، والجماعة يثبتون لله العلم ، والكتابة ، والمشية ، والخلق ، كما يثبتون للإنسان إرادة ، وقدرة لكن ذلك تابع لإرادة الله ؛ وخلقهم - ، وتفاصيل ذلك مبسوط في علم العقائد ^(١) .

- أقسام الناس في العمل وعلاقته بالقدر .

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٩] ، قال : « ومن

فوائد الآية : إضافة العمل إلى الإنسان ، فيكون فيه رد على الجبرية ؛ لقوله تعالى : ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ؛ ولا شك أن الإنسان يضاف إليه عمله ، وعمله : كسبه إن كان في الخير واكتسابه إن كان في الشر كما قال تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

والناس في هذه المسألة أعني مسألة أعمال العباد - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من يرون أن الإنسان مجبر على العمل ؛ لا يفعل شيئاً باختيار أبداً ، وما فعله الاختياري إلا كفعله الاضطراري : فمن نزل من السطح على الدرج درجة درجة هو كمن سقط بدون علمه من أعلى السطح ؛ وهذا مذهب الجبرية من الجهمية ، وهو مذهب باطل ترده الأدلة السمعية ، والعقلية .

القسم الثاني : من يرون أن الإنسان مستقل بعمله ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يصرف العبد إطلاقاً ، فالعبد له الحرية الكاملة في عمله ، ولا تعلق لمشيئة الله به ، ولا تعلق لتقدير الله ، وخلق الله بعمل الإنسان ، وهذا مذهب المعتزلة القدريّة ، وهو مذهب باطل للأدلة السمعية ، والعقلية . وكلا القسمين مع بطلانهما يلزم عليهما لوازم باطلة .

القسم الثالث : يرون أن فعل العبد باختياره ، وله تعلق بمشيئة الله ، فمتى فعل العبد الفعل علمنا أن الله تعالى قد شاءه ، وقدره ، وأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لا يريد ، بل كل ما وقع فهو مراد الله مخلوق له ، ووجه كون فعل العبد مخلوقاً لله : أن الإنسان مخلوق لله ؛ وفعله كائن بأمرين : بعزيمة صادقة ، وقدرة ، والله عزَّوجلَّ هو الذي خلق العزيمة الصادقة ، والقدرة ؛ فالإنسان بصفاته ، وأجزائه ، وجميع ما فيه كله مخلوق لله عزَّوجلَّ .

هذا القول الوسط هو الذي تجتمع فيه الأدلة جميعاً ؛ لأن الذين قالوا : « إن

الإنسان مجبر» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا من أيديهم الدليل الآخر، والذين قالوا: «إنه مستقل» أخذوا بدليل واحد، وأطلقوا الدليل الثاني من أيديهم؛ لكن أهل السنة، والجماعة والحمد لله - أخذوا بأيديهم بالدليلين، وقالوا: الإنسان يفعل باختياره، ولكن تصرفه تحت مشيئة الله عز وجل؛ ولهذا إذا وقع الأمر بغير اختياره رُفع عنه حكمه: فالنائم لا حكم لفعله، ولا لقوله، والمكره على الشيء لا حكم لفعله، ولا لقوله، بل أبلغ من ذلك: الجاهل بالشيء لا حكم لفعله مع أنه قد قصد الفعل، لكنه لجهله يعفى عنه، كل ذلك يدل على أن الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده»^(١).

ما تقدم هو مجمل كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على أركان الإيمان والدعوة إليها وما يتعلق بها، وعند تأملها وغيرها من المواضع نجد عناية الشيخ رحمه الله الفائقة فيما يتعلق بتقرير أركان الإيمان على مذهب أهل السنة والجماعة وبيان ما يتعلق بها من مسائل تهم المؤمن، مع الرد على المخالفين ببيان ما وقعوا فيه من خلل، وتوجيه أقوالهم بموضوعة مستندة لنصوص الكتاب والسنة.

ومن خلال هذه المضامين في معنى الإيمان وأركانه تبين أن المفهوم الحقيقي للإيمان هو الإيمان الجازم بهذه الأصول الستة وما يتفرع عنها مما يجب على المسلم اعتقاده في حق الله تعالى، من الأمور الغيبية وجميع ما ورد في الكتاب والسنة، فليس الإيمان مجرد التصديق القلبي، ولا الكلام اللفظي، دون عمل وتطبيق مع الاعتقاد الجازم، فالأعمال هي دليل الإيمان؛ لأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولا بالدعوى الجوفاء التي يطلقها الزاعمون، فإن الله تعالى سمى أولئك مخادعين لأنفسهم بعدما نفى عنهم الإيمان بمجرد زعمهم، وفي هذا دلالة على أهمية العمل بالاعتقاد الجازم،

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ١٥٢ - ١٥٣).

فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿[البقرة: ٨-٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: « ونحن نقول الإيمان هو التصديق ، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقادا صدق المخبر دون الانقياد له ، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدا رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين »^(١).

والإيمان بأصول الإيمان الستة وما يتعلق بها التي جاء تفصيلها في المضامين السابقة هي المحكُّ الحقيقي لصدق العبد في إيمانه ؛ لأن المؤمن ينعقد قلبه على الحق ولو كان غيباً ، وذلك لتصديقه بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، والإيمان هو الحياة الحقيقية للإنسان ، وهو الذي بسببه يكون له وزن ومنزلة عند الله تعالى ، فعلى العبد معرفة حقيقة الإيمان ، وما يكمله وما يزيده ، وما ينقصه ، وما يدخل فيه وما يخرج منه ، والعلم بتفاصيل أركانه الستة ، ومدارسة الإيمان ما أمكن ، فإن الإنسان ما خُلِقَ إلا لِيَتَلَى بالإيمان ، وما كانت الدنيا والآخرة والبعث والجزاء إلا لأجل الإيمان ، وما أنزل القرآن إلا ليدلنا الله تعالى به على الإيمان ؛ وكل آياته في الإيمان ، إما دعوة إليه ، أو تحذيرا من ضده ، أو بيانا لأجزائه وأحكامه ، أو ذكر عاقبة محققه وتاركه ، فالإيمان هو علة وجود العبد ، وسبب ابتلائه ، وجزاء ثوابه أو عقابه ، فلزاماً على العبد أن يحقق الإيمان ويحفظه عما يناقضه .

المبحث الرابع : الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة

أكرم الله تعالى الأمة الإسلامية بتمام الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه العبد في دنياه ، وما يبتغيه في آخره ، فجعل تمام الشريعة من أجل النعم على العباد فقال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، وجاءت الشريعة سابعة على حياة العباد وعلاقتهم بالله تعالى ، فلم تترك خيراً إلا دلت العباد عليه ولا شراً إلا حذرتهم منه ، وإن من الشرور التي جاءت الشريعة بنبذها والتحذير منها الابتداء في هذا الدين ؛ ذاك أنه يخالف السمة العظيمة التي اتسمت بها الشريعة وهي الكمال فلم تدع لأحد مجالاً أن يزيد ؛ إذ الزيادة نقصان ؛ لأنه لا أتم من النهج الرباني الذي شرعه الله تعالى لعباده ، ولذا أنكر الله تعالى على من يأت في الشرع بما لم يأذن به الله تعالى ، فقال : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] .

وجاءت نصوص السنة حاضرة على التمسك بالسنة ونبذ البدعة والتفكير منها وجعلت غياهب الضلالة ملازمة للبدعة ، عن عائشة قالت : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ ، فَهُوَ رَدٌّ »^(١) ، ولمسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »^(٢) ، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النبي ﷺ في خطبة الجمعة : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ »^(٣) ، وعن العَرَبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧) .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال : « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » ^(١) .

وعلى هذا النهج سار علماء الصحابة ومن بعدهم من علماء الإسلام إلى عصرنا الحاضر ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، فقد كانت الدعوة لاتباع السنة والحث عليها والتزامها ونشرها بين الناس ، ونبد البدعة وبيان بطلانها وضلالتها سمة ظاهرة في مؤلفاته ، ومن ذلك تفسيره لكتاب الله تعالى ، ومن تتبع علم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ علم حرصه على ما جاءت به الشريعة والتزامه الدليل ، والبعد عن كل ما خالفه ، ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللهُ : « ما جاءت به الشريعة شريعة محمد ﷺ - هو الحق ؛ وعلى هذا فيكون ما سواه باطلاً ، ويتفرع على هذه الفائدة : بطلان البدع بجميع أنواعها ؛ لأن البدع مخالفة لما جاء به النبي ﷺ ، فإن البدعة المذمومة هي : التعبد لله تعالى بما لم يشرعه ، من عقيدة أو قول أو عمل ، فكل بدعة فهي باطلة ؛ لأنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ » ^(٢) ، وتعددت المواضع في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في الحث على التزام السنة والتحذير من البدعة .

- المضامين الدعوية في الدعوة للالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

أولاً : تعريف البدعة .

بضدها تتمايز الأمور ، فمن عرف حدَّ البدعة وأمثلتها واجتنبها ، سار على سنة المصطفى ﷺ .

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، الترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) ، وصححه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٤٦٠٧) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٠٠) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (٣٢ / ٢) .

والبدعة في اللغة : تأتي مادة (بدع) في اللغة^(١) بمعنى الشيء المخترع على غير مثال سابق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] .
وأما البدعة في الشرع فقد جاء تعريفها في كتب العلماء بمضمون متقارب ، ومن ذلك :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب »^(٢) .

وقال الإمام الشاطبي : « البدعة طريقة في الدين مخترعة ، تضاهي الشرعية ، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية »^(٣) .

وقال ابن رجب الحنبلي : « والمراد بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه ، فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة »^(٤) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « البدعة شرعاً ضابطها : التعبد لله بما لم يشرعه الله ، وإن شئت فقل : التعبد لله تعالى بما ليس عليه النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون ، فالتعريف الأول مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا

(١) انظر : « مختار الصحاح » للرازي (١ / ٣٠) و« معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (١ / ٢٠٩) و« لسان العرب » لابن منظور ، (٨ / ٦) و« النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، (١ / ١٠٦) ، مادة (بدع) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤ / ١٠٧) .

(٣) « الاعتصام » (١ / ٤٧) .

(٤) « جامع العلوم والحكم » (٢ / ١٢٧) ، وانظر تعريف ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ للبدعة في « فتح الباري » (١٣ / ٢٥٣) ، وانظر مزيداً في معنى البدعة وضوابطها : « أقسام البدعة وأحكامها » لأحمد عبد الكريم نجيب (٢٥) ، و« معيار البدعة » للجيزاني (١٥) ، و« البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم » لأحمد آل عبد الكريم (١٦) .

لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴿[الشورى: ٢١]﴾ ، والتعريف الثاني مأخوذ من قول النبي ﷺ : « عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور »^(١) فكل من تعبد لله بشيء لم يشرعه الله ، أو بشيء لم يكن عليه النبي ﷺ ، وخلفاؤه الراشدون فهو مبتدع سواء كان ذلك التعبد فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته أو فيما يتعلق بأحكامه وشرعه . أما الأمور العادية التي تتبع العادة والعرف فهذه لا تسمى بدعة في الدين وإن كانت تسمى بدعة في اللغة ، ولكن ليست بدعة في الدين وليست هي التي حذر منها رسول الله ﷺ ، وليس في الدين بدعة حسنة أبداً^(٢) .

وقال أيضاً : « كل من تقرب إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم ، لا يقبل الله منه تعبد ، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٣) »^(٤) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] ، قال : « ومن التقدم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها ، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل هي أشد التقدم ؛ لأن النبي ﷺ قال : « عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، وإياكم ومحدثات الأمور » ، وأخبر بأن « كل بدعة ضلالة »^(٥) ، وصدق (فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات ، مما يدعي أنه شرع ، كأنه يقول : إن الشريعة

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٢ / ٢٩٢) .

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

(٤) « تفسير سورة الحجرات » (١١) .

(٥) تقدم تخريجه .

لم تكمل ، وأنه كملها بما أتى به من البدعة ، وهذا معارض تماماً لقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] .

فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع : أهذا الذي فعلته كمال في الدين ؟ إن قال : نعم ، فإن قوله هذا يتضمن أو يستلزم تكذيب قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] ، وإن قال : ليس كمالاً في الدين ، قلنا : إذن هو نقص ؛ لأن الله يقول : ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] ، فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله ، وأنه ناقص ، وأن هذا المبتدع كمله بما ادعى أنه من شريعة الله عَزَّجَلَّ فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولم يبالوا بهذا النهي حتى وإن حسن قصدهم ، فإن فعلهم ضلالة ، وقد يُثاب على حسن قصده ، ولكنه يؤزر على سوء فعله ، ولهذا يجب على كل مبتدع علم أنه على بدعة أن يتوب منها ، ويرجع إلى الله عَزَّجَلَّ ويلتزم سنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ^(١) .

ثانياً : ما يتحقق به اتباع السنة .

أكثر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في تفسيره من الحث على ما يتعلق بالتمسك بالشريعة واتباع السنة استناداً للدليل ، ليتحقق البعد عن الابتداع في الدين ، وبذلك تُحفظ الشريعة من زيادات المبتدعة وإضلالهم ، فقال في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] ، بعدما ذكر شرطي قبول العمل الصالح : الإخلاص والمتابعة ، قال : « ولا تتحقق المتابعة إلا إذا وافق العمل الشريعة في أمور ستة ، الأول : السبب ، والثاني : الجنس ، والثالث :

(١) « تفسير سورة الحجرات » (٩٨) .

النوع ، أو الكيفية والتعبير بالكيفية أوضح ، والرابع : القَدْر ، والخامس : المكان ، والسادس : الزمان ، فلا بد أن تكون الموافقة للشريعة هذه الأمور الستة .

فمن تعبدَ لله عبادةً علَّقها بسبب لم يجعله الله ورسوله سبباً ، فالعبادة باطلة ؛ لأنها بدعة مردودة ، مثال ذلك : أن يقول المرء كلما لبس ثوباً : اللهم صلِّ على محمد ، فقيل له : لماذا؟ قال : أتذكر لبس النبي ﷺ للثوب فأصلي عليه ، فنقول له : هذه العبادة بدعة ؛ لأنها لم تَرِدْ عن النبي ﷺ ، ولا عن أصحابه أنهم كانوا يصلون على النبي إذا أرادوا اللباس .

ولا بد أيضاً أن يكون موافقاً للشرع في جنس العبادة ، فإن تعبدَ لله بما لم يشرع جنسه فالعبادة مردودة عليه ، ومثال ذلك : أن يضحي بفرس بدلاً عن البقرة ، فنقول : هذه الأضحية غير مقبولة ؛ لأنها ليست من جنس ما شرع الله ورسوله فلا تُقبل .

وأيضاً لا بد أن يكون موافقاً في النوع أو الكيفية ، وهو أخص من الجنس ، فمن تعبدَ لله عَزَّجَلَّ بعبادة لم يشرع نوعها ، فإنها لا تُقبل ، كما لو أحدث أذكاراً مشروعة من حيث الجنس ، لكنها لنوع آخر فإنها لا تُقبل ؛ لقول الرسول ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ »^(١) ، وكما لو سجد قبل الركوع فإنها لا تُقبل ؛ لمخالفة الشريعة في الكيفية ، وتقدّم أننا أحياناً نُعَبِّرُ بالنوع وأحياناً بالكيفية ، فالنوع هو الكيفية .

كذلك أيضاً لا بد أن يكون العمل موافقاً للشرع على قَدْر العبادة ، فلو تعبدَ الله تعالى بعبادة زائدة أو ناقصة لم تُقبل منه ، كما لو صلى الظهر خمساً أو صلاها ثلاثاً لم تُقبل ؛ لمخالفة الشريعة في العدد .

ولابد من أن يكون العمل موافقاً للشرع في مكان العبادة ، كما لو اعتكف الإنسان في بيته بدلاً عن المسجد وانقطع للعبادة في البيت ، فإنها لا تُقبل ؛ لأنها غير موافقة للشرع في المكان .

ولابد من موافقة العمل للشرع في زمان العبادة ، كما لو صام الإنسان في غير رمضان عن رمضان ، لم تُقبل ؛ لأنه في غير الزمن المشروع ، وكذلك لو وقف بعرفة في غير يوم عرفة ، أو رمى الجمرات في غير موسم الحج وما أشبه ذلك ، إذاً العمل الصالح هو ما وافق الشريعة في هذه الأمور الستة ^(١) .

وقال في تفسيره مبيناً علامة اتباع الحق والسنة في العمل الصالح - لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] : « ومن فوائدها : أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحاً ، والصالح أن ينبنى العمل على أمرين : الإخلاص لله عزَّ وجلَّ وضده الشرك ؛ والمتابعة - وضدها البدعة ، فمن أخلص لله في شيء ، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه ، ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه ، وأدلة هذا معروفة » ^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قِيمَا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ٢] ، قال : « الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٥٣ ١٥٥) ، وذكر الشيخ رحمه الله هذه الأمور الستة في موضع آخر مع ذكر أمثلة أخرى في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] ، « تفسير سورة النساء » (٢ / ٢٤٨ ٢٥٠) ، وانظر : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٧ / ٣٣٧ ٣٣٤) ، و« الاعتصام » للشاطبي (٢ / ٦٩ ٧٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٨١) .

الصَّلَاحَاتِ ﴿١﴾ ، يعني يعملون الأعمال الصالحات ، ومتى يكون العمل صالحاً؟

الجواب : لا يمكن أن يكون صالحاً إلا إذا تضمن شيئين :

١ . الإخلاص لله تعالى : بإلّا يقصد الإنسان في عمله سوى وجه الله والدار الآخرة .

٢ . المتابعة لشرعية الله : ألا يخرج عن شريعة الله سواء شريعة محمد ﷺ أو غيره .

ومن المعلوم أن الشرائع بعد بعثة الرسول ﷺ كلها منسوخة بشريعته ﷺ .

و ضد الإخلاص : الشرك ، والاتباع ضد الابتداء ، إذا البدعة لا تقبل مهما ازدانت في قلب صاحبها ومهما كان فيها من الخشوع ومهما كان فيها من تزيين القلب لأنها ليست موافقة للشرع ؛ ولهذا نقول : كل بدعة مهما استحسنتها مبتدعها فإنها غير مقبولة ، بل هي ضلالة كما قاله النبي ﷺ ، فمن عمل عملاً على وفق الشريعة ظاهراً لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد الإخلاص ، ومن عمل عملاً خالصاً على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل ، إذاً لا بد من أمرين : إخلاص لله ، واتباع لرسول الله ﷺ وإلّا لم يكن صالحاً»^(١) .

ثالثاً : أنواع البدع .

بعدما قرّر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن البدعة لا تكون إلا مذمومة فليس هناك بدعة حسنة كما يردد البعض ، وتقدّم قوله : « وليس في الدين بدعة حسنة أبداً »^(٢) ، ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره أنواع البدع من حيث موضوعها ، فقال : « والبدعة

(١) « تفسير سورة الكهف » (١١) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٢٣) .

(٢) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٢ / ٢٩٢) ، وانظر : « أحكام من القرآن الكريم »

(١٨٨ - ١٨٩) ، و « تفسير سورة الكهف » (١١) .

أنواع كثيرة : بدع في العقيدة ، وبدع في الأقوال ، وبدع في الأفعال .

أما البدع في العقيدة ، فإنها تدور على شيئين :

إما تمثيل ، وإما تعطيل . فالتمثيل أن يثبت لله تعالى الصفات ، لكن على وجه المماثلة ، فإن هذا بدعة ؛ لأنه لم يكن من طريق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وخلفائه الراشدين ، فيكون بدعة ، فمثلاً يثبت أن لله وجهاً ويجعله مماثلاً لأوجه المخلوقين ، أو أن لله يداً ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين ، وهلم جرا ، فهؤلاء مبتدعة بلا شك ، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ، ولقوله : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ، ولقوله تعالى : ﴿هَلْ يَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] .

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه ، فإن كان إنكار جحد وتكذيب ، فهو كفر ، وإن كان إنكار تأويل فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله ، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب ، فمثلاً إذا قال إنسان : إن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ، والمراد باليدين النعمة نعمة الدين ونعمة الدنيا ، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ، فهذا تحريف ؛ لأن النعمة ليست واحدة ، ولا ألف ولا ملايين ، ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨] ، فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع ، فيكون هذا تحريفاً وبدعة ، لأنه على خلاف ما تلقاه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه ، والأئمة الهداة من بعدهم .

أما البدعة في الأقوال : فمثل أولئك الذين يتدعون تسييحات أو تهليلات أو تكبيرات ، لم ترد بها السنة ، أو يتدعون أدعية لم ترد بها السنة ، وليست من الأدعية المباحة .

وأما بدع الأفعال : فمثل الذين يصفقون عند الذكر ، أو يهزون رؤوسهم

عند التلاوة تعبدًا ، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع ، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني ، وكذلك الذين يتمسحون بحجرة النبي ﷺ ، حجرة قبره الشريف ، وكذلك الذين يتمسحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي ، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك .

والبدع كثيرة : العقدية والقولية والفعلية ، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله ، وكلها معصية لله ورسوله ، فإن الله يقول : ﴿ لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١] ، والنبي ﷺ يقول : « إياكم ومحدثات الأمور »^(١) .

ومن البدع ما يُصنع في رجب ، كصلاة الرغائب التي تُصلى ليلة أول جمعة من شهر رجب ، وهي صلاة ألف ركعة يتعبدون لله بذلك ، وهذا بدعة لا تزيدهم من الله إلا بعدًا ؛ لأن كل من تقرب إلى الله بما لم يشرعه فإنه مبتدع ظالم ، لا يقبل الله منه تعبده ، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٢) «^(٣) .

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره نماذج من البدع الاعتقادية والعملية غير ما تقدّم ، واجتهد في التحذير منها بمنهج علمي مقرون بالدليل والمثال ؛ ليكون المسلم منها على بال ، فيحذرهما ، ومن جملة البدع التي حذّر منها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره قوله ما يلي :

- « وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة سورة الفاتحة - بدعة ،

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) « تفسير سورة الحجرات » (١١١٠) .

فصاروا يختمون بها الدعاء ، ويتدثون بها الخطب ويقرؤونها عند بعض المناسبات ، وهذا غلط ، تجده مثلاً إذا دعا ، ثم دعا قال لمن حوله : « الفاتحة » ، يعني اقرؤوا الفاتحة ؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه ، أو في أحواله ، وهذا أيضاً غلط ؛ لأن العبادات مبناه على التوقيف ، والاتباع ^(١) .

- « ومن ابتدع في دين الله ما ليس منه كما لو رتب أذكراً معينة في وقت معين فإن ذلك لا يقبل منه ، حتى ولو كان ذكر الله لو كان تسييحاً ، أو تحميداً ، أو تكبيراً ، أو تهليلاً ولكنه رتبه على وجه لم ترد به السنة فإن ذلك ليس مقبولاً عند الله عز وجل ؛ لأنه عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله » ^(٢) .

- « أيضاً ما أحدثه بعض الناس عند الدفن وذلك بأن يقوم أحدهم خطيباً ، ويخطب ويعظ الناس هذا أيضاً من البدع ؛ لأن الرسول ﷺ لم يفعل هذا ، وغاية ما ورد عن الرسول ﷺ أنه انتهى إلى القبر مع أصحابه ولمّا يلحد ، يعني : ما تم تلحيد القبر ، فجلسوا وجلس النبي ﷺ معهم ، وجعل ينكت بمخصرة معه ، ينكت بها الأرض ، ويحدثهم عن حال الإنسان عند الموت وبعد الدفن ^(٣) ، وهذه ليست خطبة ، هذه موعظة وليست راتبة ، لم يفعلها الرسول كلما دفن أحداً ، بل فعلها لأنه ينتظر التلحيد ، فبدلاً من أن يسكت أو يتكلموا في شيء غير مناسب تكلم ﷺ » ^(٤) .

(١) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة » (١ / ٣ - ٤) ، وانظر أيضاً : « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٠) .

(٢) « تفسير سورة البروج » (١٣٥) .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٦٢) ، ومسلم (٢٦٤٧) .

(٤) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٥٧) .

رابعاً : التأثير بالبدعة لا يسوّغها .

قد يغتر بعض المُبتَلين بالبدعة إلى استحسانها بسبب ما تحدثه في القلب من تأثير وخشوع ، فيزيّن الشيطان بدعته في قلب المبتدع من هذا الباب ، حتى يظن أن هذه علامة حق لصحة العبادة التي تعبد بها من غير دليل ، وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تحذير من هذا المدخل الشيطاني ، وأن التأثير بالبدع لا يسوّغ قبولها أو يدل على صحتها ، والشرعية ردت هذا الباب وجعلت الأصل في العبادة المنع إلا بدليل ؛ لأن تسويغ صحة العبادة بناء على استحسانها قدح في كمال الشريعة ، وسبب في تفرق الناس وتناحرهم ، ولقد بين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عاقبة هذا الأمر الذي قد يصدر ممن حسنت نيتهم فيوردهم المهالك ، وعدم توفيق الله تعالى لهم ، وأوضح وجوب الإنكار على المبتدع ، وبيان طريق السنة واتباعها لمن وقع في مثل هذا المنزلق ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩] ، ذكر من فوائدها : « أن من عمل عملاً يتعبد به لله على غير وفق الشرع فهو مردود ؛ لأنه إذا لم يكن موافقاً للشرع لم يكن من الإسلام فلا يقبل ، ولكن لا يعني ذلك أن فاعله يكفر ؛ لأن هذا له تفاصيل معروفة عند أهل العلم ، ويؤيد هذا الحكم قول النبي ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(١) ... وعلى هذا فما يحدثه أهل البدع من عبادات قولية أو فعلية يجب أن نعرضها على السنة ، فإن كانت السنة تؤيدها فهي حق بالسنة ، وإن لم تكن تؤيدها فهي باطلة مردودة على صاحبها لا تزيده من الله إلا بُعداً ؛ لأن النبي ﷺ حذر من البدع وقال : « كل بدعة ضلالة »^(٢) قد يزيّن

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

الشیطان لأهل البدع بدعهم ، ويحدث في قلوبهم رقة ، وفي أعينهم دمة ، ولكن ذلك لا ينفعهم ؛ لأنهم على خلاف الشرع .

فإذا قال قائل : ما تقولون : هل الأصل في العبادات أن يتعبد الإنسان لله تعالى بما يستحسنه ؟ أو الأصل في العبادات المنع والتحريم حتى يثبت أنها مشروعة من عند الله إما في الكتاب أو السنة أو الإجماع ؟

الجواب : أن الأصل في العبادات المنع ، فلا يتعبد لله إلا بما علمنا أنه شرعه أو غلب على ظننا أنه شرعه بمقتضى طرق الاستدلال : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] لو كان كل إنسان يستحسن شيئاً يتعبد الله به صار عبادة لتفرق الناس ، وصار كل طائفة لهم دين ، وكل أهل بلد لهم دين ، وكل أهل زمان لهم دين ، ومسوخ الدين الإسلامي ، لكن هنا قواعد .

وعلى هذا فلو رأيت شخصاً يتعبد لله عزَّ وجلَّ بخلاف ما تعرف أنه شرع له : لماذا تفعل كذا ؟ لماذا تفعل كذا ؟ هل هذا وارد ؟ إذا قال : نعم وارد ، نقول له : هل ورد على وجه صحيح ؟ إن ثبت ذلك على وجه صحيح ، قلنا : الحمد لله جزاك الله خيراً ، وزادك من التمسك بدين الله ، وأرشدتنا إلى شيء كنا نجهله .

أما إذا كان ما أورده لا يصح عن النبي ﷺ أو كان يصح عنه لكنه فهمه على غير ما أراد الرسول ﷺ ؛ فإننا لا نقبله ، وما أكثر الأحاديث الموضوعة الباطلة التي يحتج بها بعض أهل البدع وهي لا أصل لها .

فعليك يا أخي بهذا الأصل ، أي إنسان يتعبد لله بشيء قل له : ما الدليل ؟ فإن أتى بدليل فعلى العين والرأس ، ويجب علينا قبول ذلك ، وإن لم يأت بدليل نصحنه وخوفناه من الله عزَّ وجلَّ ، وقلنا : لا تجعل نفسك شريكاً مع الله تُشرِّع العبادة بدون إذن من الله ، والواجب على كل مسلم تبين له الحق أن يتبعه ،

وتبين له الضلال يجتنبه ، حتى يكون مسلماً حقاً مستسماً لله عزَّ وجلَّ»^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا﴾ [المائدة: ٦٩]: « من فوائد هذه الآية : أن العمل الذي لا يكون موافقاً لشريعة الرسول ﷺ لا يُقبل حتى وإن كان بنية خالصة ، ليس فيها شرك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٢) .

وبناء على ذلك فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها ، مهما كثرت ، ومهما أثرت من لين القلب ودمع العين فإنها لا تنفعهم عند الله عزَّ وجلَّ ؛ لأنها على غير صراط الله ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ٥٣] ، فأَيُّ إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الدليل على أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ﷺ وإلا فإن عمله سيكون هباء ، ويكون وبالاً عليه ؛ لأنه ابتدع في دين الله ؛ فقد النبي ﷺ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »^(٣) .

والبدع مهما حُسنت في قلوب مبتدعيها- فإنها سيئة ؛ لأن النبي ﷺ قال كلمة عامة شاملة : « كل بدعة ضلالة » ، ولم يستثن النبي ﷺ شيئاً ، والبدع وإن حُسنت في قلوب مبتدعيها- فإنها شر ؛ تفرِّق الناس في دين الله ، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرى ، ويكون كل حزب بما لديهم فرحون ، كما هو الواقع الآن ؛ لما انتشرت البدع في الأمة الإسلامية ، ومنذ زمن بعيد

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٤٣٧-٤٣٩) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

صارت الأمر الإسلامية متفرقة يُضَلَّل بضعها بعضاً ، وربما يصل الأمر إلى أن يُكْفَر بعضهم بعضاً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا مِنْهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] .

وانني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلى إخواني المسلمين أن يحرسوا على أن تكون أعمالهم كلها مبنية على شريعة الله ، على ما جاء عن رسول الله ﷺ ، فإن هذه خير الهدى ، وما خرج عن هديه فهو ضلال ، وفتنة ، وبدعة ، وأن يحرسوا أيضاً - على الإخلاص لله عزَّ وجلَّ فلا يفعلوا العبادة من أجل مراعاة الخلق أو سماع الخلق ؛ لأن الخلق لا ينفعونهم ، فلا ينفعهم إلا الخالق عزَّ وجلَّ ^(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ رُسُلَنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .

قال : « ﴿ ابْتَدَعُوهَا ﴾ يعني من عند أنفسهم ، كما فعلت بعض فرق المسلمين ، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، لكن معهم رقة ورحمة ... ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي : كثير من هؤلاء النصاري فاسق ، أي : خارج عن طاعة الله عزَّ وجلَّ ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا يوفق لإقامتها ، فيكون ضالاً في الأصل ، وضالاً في الفرع ، حتى لو اجتهد ، حتى لو خشع ، إنك تجد كثيراً من الناس الذين ابتدعوا أذكاراً ، أو صلوات ، أو

أدعية ، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين ، قلوبهم باكية ، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك ، لأنهم على ضلال ، نسأل الله السلامة والعافية»^(١) .

خامساً : ردُّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره على المبتدعة وتفنيدهم شبهاتهم .

إن مما تميَّز به تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن بقية التفاسير المصنَّفة ، تفنيده لشبهات المبتدعة بعد بيان معتقدتهم وما استندوا إليه ، لاسيما في باب الأسماء والصفات^(٢) ، بل إن تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من أوسع التفاسير في هذا الباب ، ولربما كرَّر الرد كلما تكررت الآيات المناسبة في بيان منهج المبتدعة ، ولذا قال في أحد المواضع : « وليُعلم أن مثل هذا الدليل في الرد على الجبرية كثير في القرآن ، وإنما نذكره عند كل آية ليتتفع بذلك من يريد إحصاء الأدلة على هؤلاء ؛ وإلا فالدليل الواحد كافٍ لمن أراد الحق »^(٣) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُوهَا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] ، قال : « من فوائدها : تحريم لبس الحق بالباطل ؛ لأن الله تعالى نهى عنه بنى إسرائيل ، وما نُهي عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهى عنه سائر الأمم ، ويتفرع عن هذه الفائدة : التحذير مما يصنعه أهل البدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم في قلوب الناس ، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم ، ولكن عند التأمل يتبيَّن أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل ؛ ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة ؛ فيقولون مثلاً : إن الله تعالى ليس في حيِّز ، وليس في جهة ، وليس بجسم ، وما أشبه ذلك من العبارات

(١) « تفسير سورة الحديد » (٤٢٨ ٤٢٩) .

(٢) وسيأتي مزيد بيان ونماذج في الفصل الرابع : أصناف المدعوين وخصائصهم وفيه : (دعوة أهل البدع) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٤٢) .

التي يريدون بها التوصل إلى إنكار صفات الله عَزَّوَجَلَّ وإنكار علوه على خلقه ، فإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام ، وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله فوقه حساباً ، والله سريع الحساب ، إذا قرأ القارئ هذا الذي كتبوا ظنَّ أن هذا هو الصواب « (١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، قال : « ومن فوائدها : إبطال بدعتين ضاليتين ، إحداهما بدعة الحلولية القائلين بأن الله تعالى في كل مكان بذاته ، فإن قول هؤلاء باطل يبطله السمع ، والعقل ، والفطرة أيضاً ، الثانية : قول النفاة المعطلة الذين يقولون : إن الله لا داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوق العالم ، ولا تحته ، ولا يمين العالم ، ولا شمال العالم ، ولا متصل بالعالم ، ولا منفصل عن العالم ، وهذا القول ، قال بعض أهل العلم : لو قيل لنا : صفوا لنا العدم ما وجدنا وصفاً أدق من هذا » (٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] ، قال : « ومن فوائد الآية وأحكامها : إثبات صفتي السمع والعلم لله عَزَّوَجَلَّ ؛ لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم ، فلا بد أن يتضمنا هذه الصفة ، ولا نقول كما قال أهل البدع : إنه سميع بلا سمع ، وعليم بلا علم » (٣) .

ومما يوضحه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب هو الاستدراك على المفسرين وتنبيهه على ما وقع من بعض المفسرين من أخطاء عقدية تتعلق بتأويل الأسماء

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٥) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٤٢) .

والصفات أوردوا فيه كلام المبتدعة ، ومن ذلك تعقبه على تفسير الجلالين^(١) في سورة (ص) عند قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « قال المؤلف : » ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ : أي أجريت » ، وكأنه رَحِمَهُ اللهُ أَوَّلَ النفخ بالإجراء ، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية ، فظاهر الآية أن الله تعالى نفخ فيه من روحه ، وهذا النفخ نشبهه على ظاهره ، لكن بدون أن يكون مماثلاً لنفخ المخلوقين^(٢) .

ويؤخذ من هذه المضامين الدعوية المتعلقة بالتمسك بالسنة والحذر من البدعة ، أهمية هذا الباب عند علماء الإسلام ، وشدة منافحتهم عن السنة ، وبيانها ووجوب التمسك بها ، ونبذ البدع وطرائقه التي لازالت في كل عصر تتجدد بتجدد الفرق الضالة المستحسنة لعبادات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وما إنكار العلماء للبدعة والقرب منها إلا صيانة للشريعة التي أكملها الله تعالى ، فعلى العبد أن يتعبد لله تعالى بما شرع لا بما تمليه العقول وتستحسنه النفوس ، ولا يكون العبد على السنة حتى يأتي بشرطي قبول العمل بالإخلاص والمتابعة ، والمتابعة لا تتحقق إلا إذا وافق العمل الشريعة في السبب والجنس والكيفية والقدر والمكان والزمان ، ومن لزم السنة سلم من ظلمات البدعة وضلالاتها التي عبَّت في أوساط كثير من الشعوب اليوم في العقائد والأقوال والأفعال وتقدَّم في المضامين أمثلتها- وكل ذلك بسبب الحيدة عن صراط

(١) نسبة إلى مؤلفيه : جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي ، ابتداءً الجلال المحلي : من سورة الكهف إلى الناس مع سورة الفاتحة ثم مات سنة ٨٦٤ هـ ، ثم أكمله الجلال السيوطي من سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، في مستهل شهر رمضان سنة ٨٧٠ هـ وانتهى منه في العاشر من شوال من نفس السنة ، وتوفي سنة ٩١١ هـ ، انظر : « طبقات المفسرين » للداودي (١ / ١٠١) ، و « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد (٩ / ٤٤٨) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٣٥) .

السنة والتزامه ، والتأثر بالبدعة واستحسانها حتى كثرت أنواعها وكل فرقة ضلّت أو غلت في أصناف من البدع ، وما برح علماء الإسلام يردّون عليهم ويبينون شريعة الله تعالى التي أنزلها في كتابه جل وعلا وعلى لسان رسوله ﷺ ، وواجب الردّ على دعاة الإسلام اليوم أعظم لفشو البدع وتنوّعها لاسيما مع وسائل العصر التي أصبح نقل البدع من خلالها أكثر سهولة وأسرع انتشارا والواقع خير شاهد ، فعلى الدعاة نشر السنّة وبيان أهميتها ، وحث الأمة على التزامها ، والتحذير من البدع ومزالق المبتدعة مع بيان عوار منهجهم وسبب انحرافهم عن جادة السلف الصالح وعقيدة أهل السنة والجماعة ؛ لتستقيم حياة الناس بصواب تعبدتهم لله تعالى بما شرع ، لا بما ابتدع من ضل عن سواء الصراط ، نسأل الله تعالى أن يثبتنا على السنّة ويجنبنا البدع بأنواعها إنه سميع مجيب .



الفصل الثاني

مجالات الدعوة الأخرى والقضايا الدعوية المعاصرة

في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرى ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلى العبادات .

المطلب الثاني : الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

المطلب الثالث : الدعوة إلى ما يتعلق بالمعاملات .

المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقُدوة الحسنة .

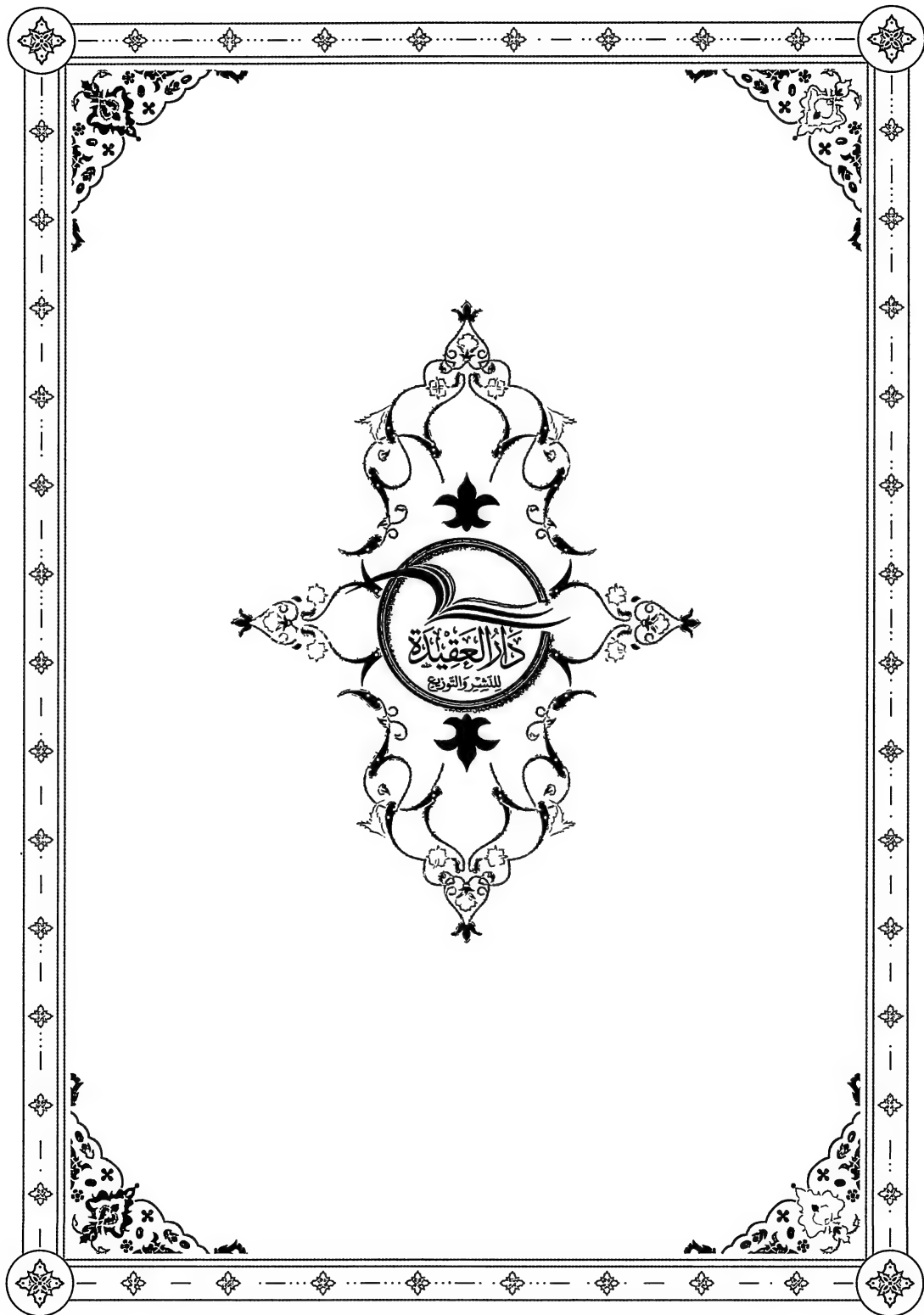
المبحث الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة في تفسير الشيخ

ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير ابن

عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لها .



المبحث الأول مجالات الدعوة الأخرى

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : الدعوة إلى العبادات .

المطلب الثاني : الدعوة إلى مكارم الأخلاق .

المطلب الثالث : الدعوة إلى ما يتعلق بالمعاملات .

المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة .

المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرى في تفسير

ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

لم يكن تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مقصوراً على جانب من جوانب الدعوة دون غيره، فمن تأمل تفسيره عرف شمولية احتوائه على مجالات الدعوة ومناقشتها والحث عليها، فبعد ذِكر جوانب الدعوة في العقيدة التي تناولها تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، جاء الحديث عن الجوانب الدعوية الأخرى في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره يؤكد على استيعاب القرآن لجميع مجالات الدعوة إلى الله تعالى؛ لأن القرآن الكريم هو منهج حياة الإنسان، ولطالما أكد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على شمولية القرآن بل آياته لمجالات الدعوة كاملة، ومن أمثلة ذلك قوله: « وإذا نظرنا إلى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، وجدنا أن الله تعالى بيّن كل شيء، بيّن ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في هذا كله، حتى قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً »^(١)، وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي: علمكم نبيكم حتى الخراءة، قال: أجل علمنا حتى الخراءة^(٢)، يعني: حتى

(١) أخرجه أحمد في «المستد» (٣٥ / ٢٩٠) (٢١٣٦١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٣ / ٨): رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة .

(٢) أخرجه مسلم (٥٧) من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةِ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلٌ «لَقَدْ نَهَاَنَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ»

آداب قضاء الحاجة علمها النبي ﷺ أمته ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿أَيُّومَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] « (١) .

ولا تكتمل الدعوة إلا بالدعوة إلى مجالات الشريعة بأكملها ؛ لترابط مجالاتها من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات وتربية ارتباطا وثيقا ، ولما كانت عبادة الله تعالى هي الحكمة العظمى من إيجاد الخليقة على هذه البسيطة ذكرها الله جل وعلا بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، وتوحيد العبادة إنما يكون بالعقائد أولاً كما تقدّم بيانه في الفصل السابق ، ولذا كانت العقيدة رأس أركان الإسلام ثم عبادة الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وهذه العبادات وإن كانت في أصلها لتحقيق العبودية لله تعالى إلا أن من ثمراتها التربية على مكارم الأخلاق ، ففي الصلاة قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، وفي الصوم قال ﷺ : « إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي أُمِرْتُ بِصَائِمٍ » (٢) ، وفي الزكاة قال تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ، وفي الحج قال تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، والمعاملات الدائرة بين الخلق اليوم إنما تفسد بفساد الأخلاق ، فما انتشر الغش في البيع والشراء ، والكذب في سائر العقود وفسادها إلا بعدما فسدت الأخلاق ، وعندها كانت تربية النفس وتربية الرعية التربية الحسنة من أهم ما يستقيم به

= بِالْيَمِينِ ، أَوْ أَنْ نُسْتَجِي بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ ، أَوْ أَنْ نُسْتَجِي بِرَجِيعٍ أَوْ بَعْظَمٍ .

(١) « تفسير جزء عم » سورة الليل (٢٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١٦٣) .

الحال ، ويصلح به المعوج ، ويعمُّ به الرخاء والحياة الطيبة المنشودة في الدنيا ، وحسن المآل في الأخرى .

وإن من فريضة الأمر على الخلق استشعارهم بأن الحياة الطيبة التي يقصدونها لا تتحقق إلا بالإتيان بشرائع الله كما ينبغي ، وأن هذا الدين بجميع مجالاته نعمة عظيمة يتجلّى فيه أطيب العيش وأزكاه ، فهو الملاذ الذي تحتاجه القلوب والنفوس المطمئنة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً أهمية الأخذ بمجالات الدعوة كاملة المتمثلة في الشريعة الغراء ، وربطها بحياة الناس : « لا يمكن أن تستقيم حياة الخلق التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة إلا بالشرائع : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] . فالمؤمن العامل بالصالحات هو الذي له الحياة الطيبة في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة » ^(١) .



المطلب الأول : الدعوة إلى العبادات

العبادة في اللغة هي الطاعة مع الخضوع^(١)، وقيل : العبادة : الطاعة مع الخضوع والتذلل^(٢)، والعبودية : إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل^(٣).

وفي الاصطلاح : عَرَّفَ العبادة جمع من العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ ومنهم شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بقوله : « العبادة : هي التذلل لله عَزَّوَجَلَّ بالطاعة ؛ وذلك بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه »^(٤).

ومن أجمع التعريفات للعبادة، تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ حيث قال : « العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة ؛ وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه ؛ والتوكل عليه ؛ والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة

(١) انظر : « تهذيب اللغة » للأزهري (٢ / ١٣٨) ، مادة (عبد) .

(٢) انظر : « المَطْلَعُ عَلَى أَلْفَاظِ الْمُقْنَعِ » للبعلي (١١٨) ، وانظر : « الكَلِّيَّاتُ » للكفوي (٩٠٣) ، وانظر : « التوقيف على مهمات التعاريف » للمناوي (٢٣٥) .

(٣) « الكليات » (٥٨٣) .

(٤) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٤٧) .

الله ، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ^(١) ، ومن خلال تعريف شيخ الإسلام الشامل وما يدخل في مضمون العبادة تلحظ ذكره لجملة من العبادات الظاهرة والباطنة ودخولها في مفهوم العبادة ، وفي تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ جملة من الدعوة إلى العبادات الظاهرة والباطنة ، التي سيأتي الكلام على أضرب منها .

ولقد جاءت النصوص متضافرة على الحث على عبادة الله التي من أجلها قامت الدعوة إلى الله تعالى في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧] ، وقال : ﴿ يَنْعَبُدِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ، وقال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥] ، وقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ [فريش: ٣] .

وعن أنس بن مالك ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل ، قال : كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُوْخِرَةُ الرَّحْلِ ، فَقَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل » ، قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قال : « هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ ؟ » قال : قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : « فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَل » قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَعْدَيْكَ ، قال :

« هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ » قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ »^(١) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي حَدِيثِهِ هَذَا : أَنَّ أَنَسًا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنَّا حَيٌّ مِنْ رِبِيعَةٍ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارٌ مُضَرٌّ ، وَلَا نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحُرْمِ ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا ، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَصُومُوا رَمَضَانَ ، وَأَعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنِ الدُّبَاءِ ، وَالْحَتَمِ ، وَالْمَرْفَتِ ، وَالنَّقِيرِ »^(٢) .

والنصوص في الحث على العبادة ومضمونها وشأنها وأنواعها وشرائطها وأركانها وما يتعلق بها أكثر من أن تُحصَر ، ولما كانت العبادة هي المقصودة في هذه الحياة لزم الصبر عليها والمجاهدة على تحقيقها كما ينبغي ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، في بيان هذا المعنى : « كثير من الناس يكون فيه كسل عن الصلاة مع الجماعة مثلاً : لا يذهب إلى المسجد يقول أصلي في البيت وأديت الواجب فيكسل فقال له : يا أخي أصبر نفسك ، احبسها كلفها على أن تصلي مع الجماعة . كثير من الناس إذا رأى زكاة ماله كثيرة شحَّ وبخل وصار يتردد . أخرج هذا المال الكثير ، أو أتركه وما أشبه ذلك . فيقال له : يا أخي اصبر نفسك على أداء الزكاة ، وهكذا بقية العبادات فإن العبادات كما قال الله تعالى في الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] . أكثر عباد الله تجد أن العبادات عليهم

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦) ، وأما البخاري فرواه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٥٣) .

ثقيلة ، فهم يتواصون بالصبر على الطاعة»^(١)

- المضامين الدعوية المتعلقة بالعبادات الظاهرة والباطنة .

١- الدعوة إلى الصلاة .

والصلاة لغة : الدعاء^(٢) ، وقيل : الصلاة في اللغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة^(٣) .

وفي الاصطلاح : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « واعلم أن ﴿الصَّلَاةَ﴾ من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي ؛ فمعناها في اللغة : الدعاء ، كما قال تعالى : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، أي ادْعُ لهم بالصلاة ، فقل : صلى الله عليكم ؛ ولكنها في الشرع : عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة ، مفتوحة بالتكبير ، ومختتمة بالتسليم »^(٤) .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصلاة :

أولاً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أهمية الصلاة عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم : ٦٢] ، حيث قال : « اسجدوا لله خضوعاً وذللاً ، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها ، وليس الركن الخاص الذي هو السجود ، وليس أيضاً سجود التلاوة بل هو عام في كل الصلوات ، ﴿وَاعْبُدُوا﴾ ، هذا عام لكل

(١) « تفسير جزء عم » سورة العصر (٣١٢) .

(٢) انظر : « مختار الصحاح » للرازي (١٧٨) وانظر : « لسان العرب » لابن منظور (١٤ / ٤٦٥) ، مادة (صلا) .

(٣) « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » للفيومي (١ / ٣٤٦) ، مادة (صلي) وانظر : « تاج العروس » للزبيدي (٣٨ / ٤٣٩) ، مادة (صلو) .

(٤) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٧٨) ، وانظر : « تفسير جزء عم » سورة الأعلى (١٦٩) .

العبادات ، وخص الصلاة بالذكر وقَدَّمَهَا ؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين ، وعلى هذا فيكون العطف في قوله : ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ ، على قوله : ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ ، من باب عطف العام على الخاص ^(١) .

ثانياً : ذكر فضيلة الصلاة وأنها عونٌ للعبد في حياته ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ، قال : « ومن فوائد الآية : فضيلة الصلاة ، حيث إنها مما يستعان بها على الأمور ، وشؤون الحياة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالصَّلَاةُ﴾ ؛ ونحن نعلم علم اليقين أن هذا خبر صدق لا مرية فيه ؛ وقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر صلى ^(٢) ؛ ويؤيد ذلك اشتغاله لله في العريش يوم بدر بالصلاة ، ومناشدة ربه بالنصر ^(٣) .

فإن قال قائل : كيف تكون الصلاة عوناً للإنسان؟

فالجواب : تكون عوناً إذا أتى بها على وجه كامل ، وهي التي يكون فيها حضور القلب ، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلب ؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبر يفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجيس التي لا فائدة منها ؛ ولذلك من حين أن يسلم تنجلي عنه ، وتذهب ؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله ،

(١) « تفسير سورة النجم » (٢٥٨) .

(٢) أخرجه أحمد في « المسند » (٣٨ / ٣٣٠) (٢٣٢٩٩) ، وأبو داود (١٣١٩) ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ : « أخرجه أبو داود بإسناد حسن » . « فتح الباري » (٣ / ١٧٢) ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (٢ / ٣٥) .

ومدار الحديث : على محمد بن عبدالله ، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : « تفرد بالرواية عنه عكرمة بن عمار اليمامي ، ولم يوثقه أحد ، فهو مجهول » .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٥) ، ومسلم (٥٨) .

وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يسلبوها عن كل هم ؛ لأنه اتصل بالله عز وجل الذي هو محبوبه ، وأحب شيء إليه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « جعلت قرة عيني في الصلاة »^(١) ؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها ، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له ؛ لأنها صلاة ناقصة ؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَتُلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّكَ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ؛ وكثير من الناس يدخل في الصلاة ، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر ، هو على ما هو عليه ، لا لأن قلبه لذكر ، ولا تحول إلى محبة العبادة »^(٢) .

ثالثاً : ذكر حكم تارك الصلاة ، وذلك عند تفسيره لأول الحجرات ، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١] ، قال الشيخ رحمه الله : « ترك الصلاة مثلاً ترتفع به التقوى نهائياً ؛ لأن تارك الصلاة كافر ، كما دلّ على ذلك كتاب الله تعالى وستة رسوله ﷺ ، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم ، حتى إن بعض العلماء حكى إجماع الصحابة على أن تارك الصلاة كافر كفاً مخرجاً عن الملة ، ومنهم التابعي المشهور عبد الله بن شقيق رحمه الله حيث قال : « كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة »^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٩ / ٣٠٥) (١٢٢٩٣) ، والنسائي (٣٩٣٩) وصححه ابن حجر « فتح الباري » (٣ / ١٥) ، وقال الألباني في « صحيح النسائي » (٧ / ٦١) : حسن صحيح .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٦٣ - ١٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢) ، وصححه الألباني .

وكذلك نقل إجماعهم إسحاق بن راهويه^(١)، ولم يصح عن أي صحابي أنه قال عن تارك الصلاة: إن تارك الصلاة في الجنة، أو إنه مؤمن، أو ما أشبه ذلك»^(٢).

رابعاً: ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ طَرَفًا من ثمرات الصلاة فقال: « الصلاة المفروضة عندما تتوضأ وتسبغ الوضوء ثم تخرج إلى الصلاة لا يخرجك من بيتك إلا الصلاة فما الثمرات التي تحصل عليها؟ كل خطوة تخطوها يرفع الله لك بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، فخطواتك لا يحصيها إلا الله عَزَّجَلَّ، مع أن المقصود شيء واحد وهو الصلاة، لكن سعيك إلى الصلاة فيه أجر ما دمت خرجت من بيتك لا يخرجك إلا الصلاة، وتأهبت في بيتك، أسبغت الوضوء في بيتك، فأنت لا تخطو خطوة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة، والخطوات لا يحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصليت ما شاء الله، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يكتب لك أجر المصلي، (لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة)^(٣)، وهذا أحسن من أعمالنا ولهذا قال: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ٣١]، أي بما هو أحسن وأكثر

(١) انظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٩٩٠).

(٢) «تفسير سورة الحجرات» (١٢)، وانظر: «تفسير سورة البقرة» (١ / ١٢٦)، و«تفسير جزء عم» (١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢١١٩)، ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بَضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْسِبُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ».

من عملهم ، وهذا يدل على سعة فضل الله عزَّ وجلَّ وإحسانه وكمال عدله ^(١) .

ومن خلال هذه المضامين الدعوية يتبيَّن عِظَم شأن الصلاة في الإسلام وأهميتها ، فهي أول أركان الصلاة العملية ، وبه يتحقق فلاح العبد وصلاحه في الدنيا والآخرة ، وكلما جاء العبد في هذه الصلاة بما هو أكمل وأتم كلما كانت هذه الصلاة أقوم له وأكثر عوناً في الدنيا ، وأزكى لنفسه بالبعد عن الفحشاء والمنكر ، وأعظم لأجره عند الله تعالى بعد قبولها قبولاً حسناً ، قال الله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ، وقال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، ولِعِظَم شأن الصلاة كان الوعيد العظيم بالحكم على تاركها بالكفر ثابتاً بالنص والإجماع ، ولقد رتب الله تعالى على الصلاة ثمرات عظيمة ونوائل جسيمة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين : قال رسول الله ﷺ : « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ ، بضعاً وعشرين دَرَجَةً ، وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ ، يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ

(١) « تفسير سورة النجم » (٢٣٠) ، وقد ذكر الشيخ رحمه الله الصلاة وشأنها وأهميتها والدعوة إليها في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصراً : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٢) ، (١ / ١٥٦) ، (١ / ١٦٠) ، (١ / ١٦٥) ، (١ / ٢٧١) ، (١ / ٣٦٤) ، (٢ / ٤٥) ، (٢ / ٥٠) ، (٢ / ١٢٥) ، (٢ / ١٦٨) ، (٢ / ٢٩٠) ، (٢ / ٤٢٥) ، (٣ / ١٨١) ، (٣ / ٣٢٨) ، و« تفسير جزء الحجرات » (٣٤٩) ، (٢٥٩) و« تفسير جزء عم » (١٢) ، (١١٩) ، (١٢١) ، (١٨٧) ، (٣١٢) ، (٣٢٧) ، (٣٥١) .

ارْحَمَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ» (١).

وعلى الداعية إلى الله تعالى تعظيم شأن الصلاة في نفوس المدعوين لما احتفت به هذه العبادة من الفضائل العظيمة والنصوص الدالة على شرفها وفضلها وأهميتها أسوة بنبينا ﷺ، والصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمة الذين استفاضت نصائحهم وخطبهم ورسائلهم ومؤلفاتهم في بيان هذه الشعيرة العظيمة (٢).

٢- الدعوة إلى الزكاة.

الزكاة لغة: الطهارة والنماء والبركة (٣)، وقال ابن الأثير: «وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح، وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث» (٤). وفي الإصطلاح: عرفها العلماء، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيره حيث ذكر معنى الزكاة لغة واصطلاحاً مبيناً فضلها وعلاقتها بالأخلاق، فقال: «و «الزكاة» في اللغة النماء، والزيادة؛ ومنه قولهم: «زكا الزرع» إذا نما، وزاد؛ وفي الشرع هي دفع مال مخصوص لطائفة مخصوصة تعبداً لله عَزَّوَجَلَّ؛ وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي الإنسان في

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) ومن أبرز المؤلفات وأشهرها في شأن الصلاة، انظر: «تعظيم قدر الصلاة»، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، وللشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب لطيف بعنوان: «حكم تارك الصلاة»، يبين فيها قدر الصلاة وشأنها وحكم تاركها.

(٣) «العين» للفراهيدي (٣٩٤ / ٥) و«المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» للفيومي (٢٥٤ / ١)، وتاج العروس (٢٢٠ / ٣٨)، مادة (زكو).

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣٠٧ / ٢)، مادة (زكا).

أخلاقه ، وعقيدته ، وتطهره من الرذائل ؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخلاء إلى حظيرة الأجواد ، والكرماء ؛ وتكفر سيئاته »^(١) .

وقال في موضع آخر بعدما ذكر نحوه من التعريف السابق : « وسميت زكاة ؛ لأنها تنمي الخلق وتنمي المال ، وتنمي الثواب ؛ تنمي الخلق بأن يكون الإنسان بها كريماً من أهل البذل ، والجود ، والإحسان ؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعاً ، وعادة ؛ وتنمي المال بالبركة ، والحماية ، والحفظ »^(٢) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الزكاة :

أولاً : الدعوة إلى عبادة الزكاة وذكر ثمراتها ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ، حيث قال : « من فوائد الآية : الثناء على الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله سواء كان ليلاً ، أو نهاراً ، أو سراً ، أو جهاراً .

ومنها : كثرة ثوابهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى أضاف أجرهم إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ والثواب عند العظيم يكون عظيماً .

ومنها : أن الإنفاق يكون سبباً لشرح الصدر ، وطرد الهم ، والغم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ؛ وهذا أمر مجرب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يتبغي بها وجه الله انشرح صدره ، وسرت نفسه ، واطمأن قلبه ؛

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٦٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٧٨) ، وانظر : (٣ / ١٣٧) ، و« تفسير جزء عم » (٤٦) .

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد أن ذلك من أسباب انشراح الصدر ^(١) « (٢) » .

ثانياً : بيان فضل الله تعالى على عباده في تشريعه للإنفاق في سبيله ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] : « ﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ ، الإنفاق البذل ، ﴿ وَمِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ ، يعني المال ؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملَّكنا إياه ، فلا منة لنا على الله بما نفق ، بل المنة لله علينا بما أعطى ، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق ، ولولا أن الله شرع لنا أن نفق لكان الإنفاق ضياعاً وبدعة ، ولكن شرع لنا أن نفق ، فلهه تعالى المنة أولاً فيما ملَّكنا من المال ، وله المنة ثانياً بما شرع لنا من إنفاقه ، وله المنة ثالثاً بالإثابة عليه » ^(٣) .

ثالثاً : دعا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى إنفاق الأحب والأنفس من المال وأنه علامة على قوة الإيمان ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَنْ نَأْثَرُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « ولكن كلما كان المال أحب كان إنفاقه أقوى إيماناً ، وأدل على محبة الإنسان للخير ؛ لأن الشيء الذي تكون الرغبة فيه قليلة يسهل على الإنسان أن ينفقه ، لكن الشيء الذي تتعلق به النفس كثيراً هو الذي تشح النفس في إنفاقه ، فإذا أنفق الإنسان مع قوة تعلق نفسه به كان ذلك دليلاً على قوة إيمانه ؛ لأنه لا يدفع القوي إلا بما هو أقوى منه .

لما نزلت هذه الآية قام أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فجاأ إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، إن الله تعالى أنزل : ﴿ لَنْ نَأْثَرُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، وإن أحب

(١) انظر : « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم (٢ / ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٧٣) .

(٣) « تفسير سورة الحديد » (٣٧٥) ، و (٣٨٥) .

مالي إلي « بيرحاء »^(١)، وكانت نخلاً مستقبلة المسجد، يعني قريبة من مسجد النبي ﷺ، وكان فيها ماء عذب طيب، يأتي إليه النبي ﷺ ويشرب منه ويتطهر به، وهذا مما يزيد رغبة أن الرسول ﷺ يأتي إليه ويشرب منه، ويتطهر به، قال: فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: « بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح »، ثم قال: « أرى أن تجعلها في الأقربين »، فجعلها أبو طلحة في أقاربه، في بني عمه، وأقاربه^(٢). وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به، يتأول قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٣)، أما نحن فإذا أعجبنا شيء من مالنا جعلناه في الصناديق، واستعملنا الرديء، وتركنا الباقي لورثتنا، فلا يكون لنا، ولكن هكذا الشح نعوذ بالله -.

أما الذين يريدون الآخرة فهم يرون أن مالهم هو الذي يقدمونه. ولهذا لما سأل النبي ﷺ أصحابه ذات يوم قال: « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه؟ »، قالوا: يا رسول الله، ما متاً أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه، قال: « فإن

(١) قال ابن الأثير: « بيرحاء: بفتح الباء وكسرهما، وبفتح الراء وضمهما والمد فيهما، ويفتحهما والقصر، وهي اسم مال وموضع بالمدينة ». النهاية (١ / ١١٤)، قال الحموي: « وهو قصر بني جديلة اليوم بالمدينة ». « معجم البلدان » (١ / ٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

(٣) عن عبد الله بن أبي عثمان، قال: كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التي يقال لها رميثة، وقال: إني سمعت الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإني والله إن كنت لأحبك في الدنيا، اذهبي فأنت حرة لوجه الله عز وجل.

وعن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] دعا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جارية له فأعتقها.

انظر: « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » لأبي نعيم (١ / ٢٩٥)، و« صفة الصفوة » لابن الجوزي (١ / ٢١٦).

ماله ما قدم ، ومال وارثه ما آخر»^(١) ، يعني معناه أنك إذا بخلت بالمال وأبقيته فإنك سوف تذهب عنه وسوف يورث من بعدك ، لكن إذا تصدقت به ، وأمضيته تجده أمامك ؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة ، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به لعله ينال هذا البر»^(٢) .

رابعاً : قال في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، من فوائد الآية : « فضيلة الإنفاق على كل حال ؛ لقوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ ، فإن قال قائل : إذا كان الإنسان في ضرورة هو وعائلته فهل ينفق ؟ نقول : لا ينفق على أجنبي بل ينفق على نفسه وعائلته ، وهو داخل في الآية ؛ لأن إنفاقه على نفسه وعلى أهله صدقة .

- الثناء على من أنفق في السراء والضراء ، وذلك لأن الإنفاق في السراء ليس بغريب ، كل إنسان يهون عليه أن ينفق إذا كان في سراء ، لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدل على أن الإنسان ينفق طلباً للأجر لا زهداً في المال»^(٣) .

وثناء الله تعالى على أهل الإنفاق في سبيله جل وعلا تعددت فيه النصوص وتقدم شيء منها في المضامين السابقة - وما ذاك إلا لعل مرتبة المتصدقين في

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٢) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٥٢٦٥٢٥) .

(٣) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ١٧٧-١٧٨) ، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الزكاة وشأنها وأهميتها والدعوة إليها في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصراً : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٣) ، (١ / ١٥٦) ، (١ / ٢٦٨) ، (١ / ٣٦٢) ، (١ / ٣٦٤) ، (١ / ٣٦٥) ، (٢ / ١٦٥) ، (٢ / ٢٧٧) ، (٣ / ٢٠٣) ، (٣ / ٣٤٢) ، (٣ / ٣٩٣) ، و« تفسير سورة آل عمران » (١ / ١١٤) ، و« تفسير سورة النساء » (١ / ٣٢٨) ، (٢ / ٤٧٦) ، و« تفسير سورة المائدة » (٢ / ٥٣) ، و« تفسير جزء عم » (٣١٢) (٣٣٤) .

سبيله جل وعلا ، ووعده لهم بمضاعفة الأجور ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٨] ، وللصدقة سواء كانت واجبة أو مستحبة أثر على النفس بانسراحه ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « مَثَلُ الْمُتَّقِ وَالْمُتَّصِدِّقِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ عَلَيْهِ جُبَّتَانِ أَوْ جُبَّتَانِ ، مِنْ لَدُنْ تُدِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَإِذَا أَرَادَ الْمُتَّقِ أَنْ يَتَّصِدَّقَ سَبَغَتْ عَلَيْهِ أَوْ مَرَّتْ ، وَإِذَا أَرَادَ الْبَخِيلُ أَنْ يُنْفِقَ ، قَلَصَتْ عَلَيْهِ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَوْضِعَهَا . »^(١) ، وكلما كان المال أحب للعبد كان إنفاقه في سبيل الله أعظم أجرا وأبلغ له في الوصول إلى البر المنشود ، كما أن الدعوة إلى إنفاق العبد في سبيل الله على تنوع الأحوال في السر والعلن والسراء والضراء والليل والنهار دليل على حث الإسلام على هذه الشعيرة مهما اختلفت أحوال العبد مراعيًا في ذلك المصلحة الشرعية في تنوع الحال .

٣- الدعوة إلى الصيام .

الصيام لغة : الإمساك^(٢) ، ويقال : صامت الخيل : إذا أمسكت عن السير . وصامت الريح : إذا أمسكت عن الهبوب . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم^(٣) .

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٣) ، ومسلم (١٠٢١) .

(٢) انظر : « مختار الصحاح » للرازي (١٨١) و « تاج العروس » للزبيدي (٣٢ / ٥٢٨) ، مادة (صوم) .

(٣) « المطلع على ألفاظ المقنع » للبعلي (١٨٢) .

– أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصيام :

أولاً: تعريف الصيام لغة واصطلاحاً ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، فقال : « قوله تعالى : ﴿كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ ، أي فرض ؛ والذي فرضه هو الله سبحانه وتعالى ؛ و﴿الصِّيَامُ﴾ ، نائب فاعل مرفوع ؛ وهو في اللغة الإمساك ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] ، يعني إمساكاً عن الكلام بدليل قولها : ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] ؛ وأما في الشرع فإنه التعبد لله بترك المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس »^(١) .

ثانياً: في بيان الحكمة من فرض الصوم ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] : « قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ؛ « لعل » للتعليل ؛ ففيها بيان الحكمة من فرض الصوم ؛ أي تتقون الله عَزَّوَجَلَّ ؛ هذه هي الحكمة الشرعية التعبدية للصوم ؛ وما جاء سوى ذلك من مصالح بدنية ، أو مصالح اجتماعية ، فإنها تبع .

الفوائد :

١- من فوائد الآية : أهمية الصيام ؛ لأن الله تعالى صدره بالنداء ؛ وأنه من مقتضيات الإيمان ؛ لأنه وجه الخطاب إلى المؤمنين ؛ وأن تركه مخل بالإيمان .

٢- ومنها : فرضية الصيام ؛ لقوله تعالى : ﴿كُنِبَ﴾ .

٣- ومنها : فرض الصيام على من قبلنا من الأمم ؛ لقوله تعالى : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

٤- ومنها : تسلية الإنسان بما ألزم به غيره ليهون عليه القيام به ؛ لقوله تعالى : ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

٥- ومنها : استكمال هذه الأمة لفضائل من سبقها ، حيث كتب الله عليها ما كتب على من قبلها لتترقى إلى درجة الكمال كما ترقى إليها من سبقها .

٦- ومنها : الحكمة في إيجاب الصيام ؛ وهي تقوى الله ؛ لقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

٧- ومنها : فضل التقوى ، وأنه ينبغي سلوك الأسباب الموصلة إليها ؛ لأن الله أوجب الصيام لهذه الغاية ؛ إذاً هذه الغاية غاية عظيمة ؛ ويدل على عظمها أنها وصية الله للأولين ، والآخرين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء : ١٣١] ^(١) .

ثالثاً : في بيان وقت الصيام الشرعي ، وما يتعلق به من أحكام الاعتكاف ، قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُ بَ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة : ١٨٧] :

« من فوائد الآية : أن الصيام الشرعي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ .

- ومنها : أن الصيام الشرعي ينتهي بالليل ؛ لقوله تعالى : ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ ؛ وقد فسر النبي ﷺ ذلك بقوله ﷺ : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣١٧-٣١٨) .

وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»^(١).

- ومنها : الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف ؛ لأن الله أقرّه ، ورتب عليه أحكاماً ، وقوله تعالى : ﴿ فِي الْمَسْجِدِ ﴾ بيان للواقع ؛ لأن الاعتكاف المشروع لا يكون إلا في المساجد»^(٢).

رابعاً : من مستحبات الصيام ومتعلقاته الدعاء ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] : « من فوائد الآية : أن الصيام مظنة إجابة الدعاء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في أثناء آيات الصيام ؛ ولا سيما أنه ذكرها في آخر الكلام على آيات الصيام .

وقال بعض أهل العلم : يستفاد منها فائدة أخرى : أنه ينبغي الدعاء في آخر يوم الصيام أي عند الإفطار - »^(٣).

دلت هذه المضامين على جُمَلٍ تتعلق بالصيام وأحكامه وحِكَمِهِ ، وإن أعظم حكمة من فرضية الصيام هي تحقيق التقوى لله تعالى التي من حققها حقق كل ما أمر الله تعالى به وانتهى عما نهى عنه جل وعلا ، والتي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] ، والله تعالى فرض الصيام من أجل تحقيق

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠٠) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٥٧) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٤٤) ، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الصيام شأنه وأهميته والدعوة إليه في مواضع كثيرة من تفسيره ، انظر مثلاً لا حصرأ : « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣١٩ - ٣٢٠) ، (٢ / ٣٢٥) ، (٢ / ٣٦٣) ، و« تفسير الحجرات الحديد » (٢٤٤) ، و« تفسير سورة الكهف » (١٩) ، و« تفسير جزء عم » (١٨٧) ، (٢٤٩) .

هذه الغاية العظيمة ، وجعل عبادة الصيام محفوفة بكثير من الفضائل والثمرات العظيمة التي من شأنها تحقق التقوى في النفس ، فمن تأمل الفضل الذي جعله الله تعالى في فضل شهر رمضان ليله ونهاره صيامه وقيامه وليلة القدر علم أن عبادة الصيام حُفَّتْ بذلك لعظيم منزلتها عند الله تعالى ، ولِعَظَمَ منزلة الصيام اصطفاها الله تعالى بقوله : « كُلَّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ .. »^(١) .

٤ - الدعوة إلى الحج .

الحج في اللغة : القصد ، وهو القصد إلى كل شيء ، فخصه الشرع بقصد معين ذي شروط معلومة ، وفيه لغتان : الفتح والكسر ، والحجة بالفتح : المرة الواحدة على القياس ، وقال جماعة : إنه القصد لمعظم ، والحج قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وسنة^(٢) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الحج :

أولاً : تعريف الحج لغة واصطلاحاً ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة: ١٥٨] ؛ حج في اللغة بمعنى قصد ؛ إذا ﴿حَجَّ الْبَيْتَ﴾ ، أي قصده لأداء مناسك الحج ؛ و﴿الْبَيْتَ﴾ ، هو بيت الله ؛ أي الكعبة »^(٣) .

(١) جزء من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ : كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَرَفُثُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْنَخُ ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ » أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

(٢) انظر مادة (حجج) : « لسان العرب » (٢ / ٢٢٦) ، و« تاج العروس » (٥ / ٤٥٩) ، و« مختار الصحاح » (٦٧) ، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » (١ / ٣٤٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٨٤) .

وفي الاصطلاح الشرعي: قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «هو في اللغة: القصد، وفي الشرع: التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بأداء المناسك على ما جاء في سنة رسول الله ﷺ» (١).

ثانياً: الدعوة إلى الحج وبيان وجوبه وشأنه، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، قال في فوائد الآية:

- وجوب حج البيت على من استطاع إليه سبيلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، كما قال الأصوليون ظاهرة في الوجوب.

- أن الحج لا يجب على غير المستطيع؛ لقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، والاستطاعة تكون بالمال أو البدن، أو بهما جميعاً.

- بيان رحمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث لم يفرض على عباده ما كان شاقاً عليهم ولا يستطيعونه؛ لقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

- أن من لم يحج فهو كافر؛ لقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، واختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ في هذا الكفر، هل هو نوع من الكفر، أو هو الكفر المطلق؟ على قولين لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد (٢).

ثالثاً: ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره تعظيم شأن الحج في الإسلام، والأخلاق التي تدعو إليها عبادة الحج، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي

(١) «الشرح الممتع على زاد المستقنع» لشيخنا العثيمين (٥ / ٧).

(٢) ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ القول الراجح وأنه نوع من الكفر وليس كفراً مطلقاً وهو قول جمهور العلماء، وقبلها ذكر الخلاف في وجوب الحج وأنه يجب مع الاستطاعة مبيناً معنى الاستطاعة، «تفسير سورة آل عمران» (١ / ٥٥٩).

الْحَجَّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى وَاتَّقُونِ يَسْأُولِي
 الْأَلْبَابِ ﴿البقرة: ١٩٧﴾، حيث قال: «من فوائد الآية: تعظيم شأن الحج،
 حيث جعل الله له أشهراً مع أنه أيام ستة أيام- وقد جعل الله له أشهراً ثلاثة حتى
 يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي
 قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يوماً فقط؛ لأنه إذا حج
 انتهى غرضه؛ فطلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله...

- ومنها: تحريم الفسوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾.

فإن قال قائل: الفسوق محرم في الإحرام، وغيره.

فالجواب: أنه يتأكد في الإحرام أكثر من غيره.

- ومنها: تحريم الجدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾؛ والجدال
 إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مستثنى
 من هذا العموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ وأما
 الجدل لغير هذا الغرض فإنه محرم حال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرماً في
 هذا، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟

فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد.

- ومنها: البعد حال الإحرام عن كل ما يشوش الفكر، ويشغل النفس؛ لقوله
 تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾؛ ومن ثم يتبين خطأ أولئك الذين يزاحمون على
 الحجر عند الطواف؛ لأنه يشوش الفكر، ويشغل النفس عما هو أهم من ذلك.

- ومنها: الحث على فعل الخير؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
 يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، يدل على أنه سيجازي على ذلك، ولا يضيعه؛ قال

تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] (١).

ونستنج من خلال هذه المضامين الدعوية أن أعظم مجمع إسلامي تجتمع فيه القلوب من كل فج عميق توحيداً لله تعالى هو الحج إلى بيت الله الحرام، أوجبه الله تعالى على عباده لمن استطاع لذلك سبيلاً، وشرع الله تعالى من أوله التلبية بالتوحيد له جل وعلا-، وجعل فيه من الأحكام الشرعية والتهديب الأخلاقي ما يسمو بنفس المؤمن إلى أعلى المراتب بعد تطهيره من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال تعالى في هذه الآية الجامعة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكَرَّذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فالحج عبادة قلبية بدنية مالية، رفع الله شأنها ومكانتها في الأمة؛ لتقفوا إلى بيت الله تعالى العتيق مجددة الإيمان في قلبها، ملبية بالتوحيد؛ استجابة لأمر الله تعالى لنبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، كل ذلك ليحقق العبد بحجّه بيت الله تعالى العظيم لله تعالى والتوحيد الخالص له جل وعلا، من خلال هذه العبادة العظيمة التي جاءت الدعوة إليها في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

ولقد دعا الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره إلى جملة من العبادات غير ما تقدّم من أركان الإسلام- الظاهرة والباطنة.

(١) «تفسير الفاتحة والبقرة» (٢ / ٤١٥-٤١٩)، وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الحج وشأنه وأهميته والدعوة إليه في مواضع كثيرة من تفسيره، انظر مثلاً لا حصراً: «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٤٤)، (٢ / ٤٨)، (٢ / ١٨٦)، (٢ / ٣٦٩)، (٢ / ٣٩٦٣٩٤)، (٢ / ٤٠١)، (٢ / ٤٠٧)، (٢ / ٤١٦)، (٢ / ٤٤١)، (٣ / ٤٥٦)، و«تفسير سورة الكهف» (١٥٢)، و«تفسير الحجرات الحديد» (٢٣٩)، و«تفسير جزء عم» (٢٤٩).

- ومما جاء في تفسيره من المضامين الدعوية ، الدعوة إلى العبادات الآتية :

- الدعوة إلى الإخلاص ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ، قال رحمه الله : « ومن فوائد الآية : أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم ؛ لقوله : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ؛ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل عليهم السلام ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] » ^(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٤٠] ، قال الشيخ رحمه الله : « من فوائد الآية الكريمة : إشارة إلى أن المخلص والمخلص وهما متلازمان إخلاصهم هم ، وإخلاص الله لهم - إلى أن عاقبتهم النجاة ، وجهه الاستثناء ، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، فإن هؤلاء عاقبتهم النجاة وعاقبتهم حميدة .

- ومن فوائدها : حث الإنسان على أن يكون من هؤلاء العباد لينجو .

- ومن فوائدها : فضيلة الإخلاص لقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ » ^(٢) .

- الدعوة إلى برّ الوالدين ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ، قال رحمه الله :

« ومن فوائد هذه الآية : وجوب الإحسان إلى الوالدين ؛ والإحسان يكون بالقول ، ويكون بالفعل ؛ فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله ، وأن

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٣٤) .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (١٦٩) .

يكون قولاً كريماً طيباً سمحاً ، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال ، وبخدمة البدن ، وغير ذلك مما يكون إحساناً ، والآية مطلقة ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم ؛ كما قال النبي ﷺ حين سئل : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أمك » قال : ثم من؟ قال : « أمك » قال : « أبوك »^(١) ، ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه ، بل له حق وللأم حق ، لكن لما كانت الأم أنثى والغالب عليها الضعف ، وأنها تحتاج إلى لين أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد »^(٢) .

- والدعوة إلى الهجرة والجهاد في سبيل الله تعالى والإخلاص فيهما ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « و (الهجر) في اللغة : الترك ؛ ومنه : هجرت فلاناً ، إذا لم تكلمه ؛ وفي الشرع له معنيان : عام ، وخاص ؛ فأما العام فهو : هجر ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ ، كما قال النبي ﷺ : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه »^(٣) ؛ وأما الخاص فهو أن يهجر الإنسان بلده ووطنه لله ورسوله ، بأن يكون هذا البلد بلد كفر لا يقيم فيه الإنسان دينه ؛ فيهاجر من أجل إقامة دين الله ، وحماية نفسه من الزيغ ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »^(٤) ؛ والمراد بالهجرة في الآية ما يشمل المعنيين : العام ، والخاص .

قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوفة على الصلة في ﴿وَالَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٣٥) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٤) ، ومسلم (١٩٠٧) .

هَاجَرُوا ﴿١﴾ ؛ ولم يعد الموصول ؛ لأن الهجرة والجهاد عملان مبنيان على الإيمان ؛ والجهاد في سبيل الله : هو قتال الكفار لتكون كلمة الله هي العليا ؛ والجهاد (الجهاد) هو بَذْلُكَ الجهد لأمر مطلوب ؛ والجهد معناه الطاقة ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة : ٧٩] ، يعني إلا طاقتهم ؛ وهو يغلب على بذل الجهد في قتال الأعداء ... ﴿١﴾ ، ثم ذكر فوائد الآية ، وقال :

- من فوائد الآية : فضيلة الإيمان ، والهجرة ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤُلِّيكَ رِجْونَ رَحِمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

- ومنها : أن الجهاد دون مرتبة الهجرة ؛ لأنه جعل الجهاد معطوفاً على الهجرة ؛ ولم يجعل له اسماً موصولاً مستقلاً .

- ومنها : مراعاة الإخلاص في الهجرة ، والجهاد ؛ لقوله تعالى : ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ؛ وأما بدون الإخلاص فهجرته إلى ما هاجر إليه ، واعلم أنه يقال : في كذا ، ولكذا ، وبكذا ، تقول مثلاً : جاهدت لله ، وجاهدت بالله ، وجاهدت في الله ، ف ﴿اللَّهُ﴾ : اللام لبيان القصد ، فتدل على الإخلاص ؛ و ﴿بِاللَّهِ﴾ : الباء للاستعانة ، فتدل على أنك جاهدت مستعيناً بالله ، و (في الله) : في للظرفية ، فتدل على أن ذلك الجهاد على وفق شرع الله لم يتعد فيه الحدود ﴿٢﴾ .

- الدعوة إلى التوبة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِهَكَايَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٧] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية الكريمة :

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٦٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٦٥) .

- بيان فضل الله عَزَّجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ بِإِيجَابِهِ التَّوْبَةَ عَلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

- وجوب المبادرة بالتوبة ، لقوله : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ ، ووجهه : أن المراد بالقرب هنا الموت ، والموت ليس معلوماً وقته ، وإذا كان كذلك كانت المبادرة بالتوبة واجبة ؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له ؛ ولأن الإنسان إذا أصرَّ عَلَى المعصية فإنه يقسو قلبه ، وتكون هذه الصغيرة من صفات الذنوب كبيرة ، ولهذا ذكر بعض العلماء : أن التهاون بالمعاصي والاستمرار في المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة ، فإذا فعل الإنسان صغيرة تهاوناً بالله ، وبأوامر الله ؛ صارت كبيرة ؛ لما قام بقلبه من التهاون بها ، وإذا فعل الكبيرة مع شدة تعظيمه لله عَزَّجَلَّ ، وخوفه منه ، وخجله منه ، لكن سولت له نفسه أن يفعلها ، فإن ذلك يجعلها صغيرة ، والرجل الذي كان يضرب في الخمر ، لما لعنه أحد الصحابة قال له النبي ﷺ : « إنه يحب الله ورسوله »^(١) ، فالإنسان العاصي قد يكون في قلبه من هبة الله تعالى وإجلاله وتعظيمه ؛ ما يجعله عند فعل المعصية خجلاً من الله ، مستحيماً منه ، فتتقلب الكبيرة صغيرة بما قارنها من خوف الله وتعظيمه وإجلاله ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات^(٢) ، والعكس بالعكس^(٣) .

- الدعوة إلى الدعاء وآدابه ، عند تفسيره : ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : سعة

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤] .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١/ ١٣٩-١٤٠) ، وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مسائل متعلقة في التوبة يحسن الرجوع إليها ، وانظر أيضاً : « تفسير سورة الكهف » (١٠٣) ، و« تفسير سورة الصافات » (٣٧٣) ، و« تفسير سورة ق » (٩٦) .

فضل الله عزَّجَلَّ وكرمه ، لقوله : ﴿وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ، فهو سبحانه لم يأمرنا بالسؤال إلا ليعطينا ؛ لأنه لو أمرنا بالسؤال من غير أن يعطينا لكان هذا عبثاً لا فائدة منه ، ولكنه عزَّجَلَّ كريم ، هو الذي يتعرض لعباده ويقول : اسألوني .

وينبغي في السؤال أن يكون على الأدب المطلوب :

أولاً : أن تسأل الله سبحانه سؤال مفتقر لا سؤال مستغن .

ثانياً : أن تسأل الله سبحانه سؤال من يثق بربه أنه قادر ، لا سؤال تجربة ، بل سؤال من يثق بوعد الله وأنه قادر على الإعطاء يعطي السائل ما سأل .

ثالثاً : ينبغي أن يختار الإنسان الأزمان والأماكن والأحوال التي تكون سبباً في الإجابة .

مثال الأزمان : آخر الليل ، وما بين الأذان والإقامة ، ومثال الأماكن : أن يكون في الأماكن الفاضلة ، ومثال الأحوال : حال السجود ، وحال السفر ، وحال نزول المطر ، فينبغي أن يختار الإنسان ما يكون أقرب إلى الإجابة .

رابعاً : أن يكون مجتنباً للحرام ؛ لأن أكل الحرام حائل يمنع من قبول الدعاء ؛ لأن النبي ﷺ قال : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، وقال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون : ٥١] ، ثم ذكر « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ! يا رب ! ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » ^(١) فقوله : ﴿إِنِّي﴾ ، هذه استفهام استبعاد ؛ أي : بعيد أن

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) .

يستجاب لهذا الرجل .

خامساً : أن لا يعتدي في الدعاء ، قال الله تعالى : ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، فإن اعتدى في الدعاء بأن سأل ما لا يحل له ، أو سأل ما يمتنع شرعاً أو قدراً ؛ فإنه لا يجاب .

فلو سأل إثماً ، بأن قال والعياذ بالله : اللهم يسر له امرأة يزني بها ، أو كأس خمر يشربه ؛ فهذا لا يستجاب له ؛ لأنه عدوان واستهزاء بالله عَزَّجَلَّ ، فهذا لا يحل شرعاً ولا يمكن قبوله لأنه محرم وممتنع شرعاً .

والممتنع قدراً مثل أن يقول : اللهم اجعلني نبياً ؛ لأن هذا ممتنع قدراً بخبر الله ، لا لأنه مستحيل لذاته ، فهو غير مستحيل ، لكن بخبر الله صار مستحيلاً لقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

كل هذه آداب ينبغي على الإنسان أن يراعيها في الدعاء »^(١) .

- الدعوة إلى التوكل وعلاقته بالإيمان بالله تعالى وفعل الأسباب ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ١١] ، قال رَحِمَهُ اللهُ :

« الفائدة الرابعة : وجوب التوكل على الله عَزَّجَلَّ ، لقوله : ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

الفائدة الخامسة : إخلاص التوكل لله عَزَّجَلَّ ، وجه ذلك : تقديم المعمول ، والقاعدة عند البلاغيين : أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر .

فإن قال قائل : هل التوكل يمنع فعل الأسباب ؟

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٧٥ - ٢٧٦) .

الجواب : لا ، بل التوكل لا يتم إلا بفعل الأسباب ، وأضرب لكم مثلاً بسيد المتوكلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومع ذلك كان يتوقى الحر ويتوقى البرد ويلبس الدروع في الحرب ، ولبس (في أحد درعين ، كل ذلك توقياً للسهام ، ففعل الأسباب النافعة الحقيقية لا ينافي التوكل ، بل هو من تمام التوكل .

ولهذا لو قال قائل : أنا لن أسعى في طلب الرزق ، يرزقني الذي رزق الثعابين في جحورها ، أنا متوكل على الله ؟

قلنا : هذا عجز وكسل . التوكل على الله : التفويض إذا لم تستطع الأسباب ، فإذا عجز الإنسان عن الأسباب فليس عنده إلا التفويض ، ولهذا تجد الكفار إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين أي : فوضوا الأمر إلى الله ، وكذلك الإنسان إذا ألم به شيء لا يستطيع دفعه تجده ليس له حول ولا قوة ، أما مع القدرة على فعل الأسباب فإنه لا بد من فعلها ، لو أن الإنسان قال : أنا أريد أن أسافر إلى مكة للحج ، قلنا : خذ معك نفقة قال : لا حاجة لذلك أنا متوكل على الله ، ماذا نقول في هذا؟ هذا عجز وتواني وكسل ، إذا كنت متوكلاً على الله حقيقة فافعل السبب ، خذ معك ما يكفيك للنفقة أو أجّر نفسك على بعض الناس تكون معهم ويكفونك المؤنة أو ما أشبه ذلك .

الفائدة السادسة : أن التوكل من الإيمان ، لقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، فوجه الأمر إلى المؤمنين ؛ لأنهم هم أهل التوكل .

الفائدة السابعة : أن ترك التوكل على الله نقص في الإيمان ، ولكن هل ينافي كمال الإيمان أو ينافي أصل الإيمان؟ فيه تفصيل فمن توكل على نبي ميت ، وكل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أموات إلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو حي في السماء فهذا

ينافي أصل الإيمان ، من توكل على قبر فهذا ينافي أصل الإيمان ، فمن اعتمد على سبب معلوم وهو سبب شرعي أو قدرى فذلك لا ينافي الإيمان ، لكن لا تجعل عمدتك هذا السبب بل اجعله سبباً والمسبب هو الله عَزَّوَجَلَّ ، ولهذا نجد الأسباب كثيراً ما تتخلف مسبباتها ؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) .

- والدعوة إلى الرجاء ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام : ١٧] .

« من فوائد الآية : قوة رجاء العبد بالله عَزَّوَجَلَّ إذا أصابه الضرر أن يزول عنه الضرر ، وجه ذلك قوله : ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، وكم من أضرار حدثت للإنسان حتى أوصلت إلى اليأس والقنوط فكشفها الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان أصيب بمرض حتى وصل إلى حافة القبر ثم شفاه الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان أصيب بالفقر حتى وصل إلى أن لا يجد قوت يومه فأغناه الله عَزَّوَجَلَّ ، وكم من إنسان كان وحيداً فرزقه الله ، وهلمَّ جراً ؛ لأن الله على كل شيء قدير » (٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَمَلَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص : ١٠] .

قال : « لا ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه إلا بالله عَزَّوَجَلَّ ، ولا يعلق رجاءه بمخلوق إلا في الحدود الضعيفة المرسومة . يجعل الرجاء كله والتعلق كله بالله عَزَّوَجَلَّ ، وإذا جعل هذا في الله ، سخر الله له المخلوقات ، حتى البشر يسخرهم له ، لكن إذا تعلق

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٦٧-١٦٨) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (٨٤) .

بغير الله وُكِّلَ إِلَى من تعلق به وضاع»^(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، قال: «ومن فوائد الآية: أنه لا ينبغي للإنسان أن يكون جازماً بقبول عمله؛ بل يكون راجياً؛ ولكنه يرجو رجاء يصل به إلى حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يغترون بأعمالهم؛ ولا يُدُلُّون بها على الله؛ وإنما يفعلونها وهم راجون رحمة الله»^(٢).

- والدعوة إلى تدبر القرآن، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِّيَذَّبُوا ءِثْمَهُ وَيَتَذَكَّرُوا أَلْوَالَآ لِنَبِّ﴾ [ص: ٢٩]، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فوائد هذه الآية: أن أعظم الحِكم في إنزال القرآن؛ تدبر القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِيَذَّبُوا ءِثْمَهُ﴾».

- ومن فوائدها: حث الإنسان على تدبر الآيات، وأن لا يُقرأ القرآن قراءة لفظية فقط، فإن الله تعالى قد ذمَّ هذا الجنس من الناس، أعني الذين يقرؤونه قراءة لفظية، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿أَمَانِي﴾: يعني قراءة لفظية فقط، فوصفهم الله بأنهم أميون؛ لأنهم لم ينتفعوا بالقرآن، إذ لا يمكن أن يُنتفع بالقرآن إلا بفهم معانيه، فإذا لم تُفهم معانيه، صار العربي والعجمي على حدٍّ سواء.

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن تدبر القرآن فرض؛ لأن العمل بالقرآن فرض، ولا يتم العمل إلا بالتدبر، وما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض.

ولكن هل التدبر فرض عين، أم فرض كفاية؟ حسب الحال، قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، فما لا يتم دين العبد إلا به، فهو فرض

(١) «تفسير سورة ص» (٥٥).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٣ / ٦٥).

عين ، وما زاد على ذلك ، فهو فرض كفاية ، ولا بد أن يكون في الأمة الإسلامية مَنْ يفهم القرآن « (١) » .

ولقد دعا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى حضور القلب وتدبر الذكر ليس في القرآن فحسب ، بل سائر الأذكار ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] .

« قوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي ما تهواه نفسه ، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي شأنه ، ﴿فُرُطًا﴾ أي منفراطاً عليه ، ضائعاً ، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء ، وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله ، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرُطاً عليه ، تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يحصل شيئاً ، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله » (٢) .

- والدعوة إلى الافتقار وحسن اللجوء لله تعالى والاستعانة به ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : لجوء الإنسان إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم ؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ؛ ومن اتباع للشريعة ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ؛ لأن ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الشريعة

(١) « تفسير سورة ص » (١٤٦-١٤٧) .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٦٢) .

التي جاء بها الرسول ﷺ»^(١).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] «إذا كان الله غنياً عن العالمين، لزم أن يكون العالمون مفتقرين إليه، وليس بهم غنى عن الله وهو كذلك، فإن الخلق مفتقرون إلى الله تعالى غاية الافتقار، ولهذا ينبغي لك أن تسأل ربك بلسان الحال أو لسان المقال، في كل أمورك، واستعن بالله في كل أمورك ﴿إِيَّاكَ تَعَبَّدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِيْثُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لا يغفل عن بالك تعلقك بالله سبحانه وتعالى في كل شيء، وقد جاء في الحديث: «ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»^(٢)، أي شراك النعل الزهيد الذي لا يساوي شيئاً، لا تغفل عن سؤال الله إياه، إما بلسان الحال، وإما بلسان المقال»^(٣).

- والدعوة إلى الرضا، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

«من فوائد الآية: إثبات الحكمة لله عزّ وجلّ، ويتفرع على هذا فائدة عظيمة مسلكية منهجية، وهي الرضا بقضاء الله وشرع الله، ترضى لأنك تعلم أن هذا عن حكمة، حتى وإن كان فيه فوات مالك أو ولدك، فاعلم أنه لحكمة، وأنت إذا آمنت بهذا فسوف تسهل عليك كل مصيبة، إذا علمت أن ما أصابك من الله،

(١) «تفسير جزء عم» سورة الفاتحة (١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٥ / ٥٨٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن حبان في صحيحه (٣ / ١٤٨)، واستشهد به ابن حجر في «الفتح» (٢ / ٣٠٠)، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم، وهو ثقة». «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (١٠ / ١٥٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٩)، وفي «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢ / ٩٥٨).

(٣) «تفسير سورة آل عمران» (١ / ٥٦١).

وَأَنَّ اللَّهَ ذُو حِكْمَةٍ عَظِيمَةٍ فِيمَا يُقَدَّرُ»^(١).

وفي سورة النجم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، قال في فوائد الآية: «الفائدة الأولى: الرضا بقضاء الله، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرف في السحاب يمطر أو لا يمطر، يمضي أو لا يمضي، ويتصرف في الشمس والقمر، ويتصرف في المخلوقات، يتصرف فيك أيضاً كما يشاء، إن شاء أعطاك صحة، وإن شاء سلبها، إن شاء أعطاك عقلاً، وإن شاء سلبك، إن شاء أعطاك مالاً، وإن شاء سلبك، أنت ملكه، فإذا آمنت بهذا رضيت بقضائه.

الفائدة الثانية: الرضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به، لأنك ملكه، إذا قال لك: افعل. فافعل، وإذا قال: لا تفعل، فلا تفعل، أرأيت لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يفعل، أو نهيته ففعل، فالسيادة ناقصة، إذا أنت إذا عصيت ربك: إما بفعل محرم وإما بترك واجب، فإنك خرجت عن مقتضى العبودية التامة؛ لأن مقتضى العبودية التامة أن تخضع لشرعه، كما أنك خاضع كرهاً أو طائعاً لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، أن يخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك»^(٢).

ما تقدّم ذكره أمثلة على الدعوة إلى العباداة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن أراد حصر ما ذكره في تفسيره - من أنواع العباداة وما يتعلق بها طال به المقام،

(١) «تفسير سورة النساء» (٢ / ٣٠٧).

(٢) «تفسير سورة النجم» (٢٢٨-٢٢٩).

لما تميّز به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من التفصيل في ذكر العبادات الواردة في الآيات وتعدادها وما يتعلّق بها ، ولربما كرّر الحديث عن العبادة بإسهاب كلما جاء ذكرها في الآيات^(١) ، وهذا يدل على اهتمام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الجانب من الدعوة ؛ لأن العبادة هي الحكمة التي خلق الله من أجلها الخلق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، ولأنها هي حق الله تعالى على عباده ، قال ﷺ : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »^(٢) .

وما تقدّم من مضامين دعوية في عبادات متنوعة إنما هي نماذج من الدعوة إلى العبادات الظاهرة والباطنة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وتأمّل المضامين السابقة نجد أن تفسيره احتوى على الدعوة إلى عبادات كثيرة وعظيمة تتفاوت مراتبها في الدين بين أركان وشروط وأعمال عظيمة واجبة وأخرى مستحبة ، والعبد المؤمن يُسَلِّمُ لشرع الله تعالى وينقاد لأمره ، ويتجنب نهيه ، مبتغيًا ما عند الله تعالى بمسابقته لطاعة الله تعالى ، مستجيبًا لأمر الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وقوله : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] ، وكلما كان العبد أكثر استجابة لأمر الله تعالى ، ودعوته لعبادته جل وعلا- ، وأعمر الأرض بالحكمة المقصودة من الخلق وهي العبادة ، كلما كان لله تعالى أقرب ، وعيشه في دنياه أهنأ وأطيب ، ومآله في آخره في أعلى الرتب ؛ لأن حقيقة العبادة هي كمال الذل مع كمال المحبة لله عَزَّجَلَّ ، ونهاية الخضوع والانقياد والاستسلام والتواضع والخوف والخشية

(١) انظر مثلاً الإحالات السابقة عند الحديث عن عبادة الصلاة والصيام والزكاة والصيام والحج .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (٤٨) .

والإنابة والرجاء والإذعان للعزیز المنان ، والجزاء من جنس العمل ، والشكور
 جل وعلا- يجازي عبده بأفضل مما يؤمل ، وعلى العبد داعية ومدعوا- أن
 يعلم بأن مفهوم العبادة شامل ومعناها واسع ، ولا يقتصر على بعض الطاعات
 والأفعال والفرائض ، فكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة
 والباطنة إذا صحت النية وأحبها الله وارتضاها فهي عبادة ، فالعبادة معنى عظیم
 يعيشه العبد في هذه الحياة يشاركه في جميع شؤونه وأحواله ، والعبد في غدوه
 في ميدان العبادة بين مسابق فيه ومقتصد وظالم لنفسه ، وليس له في أخراه إلا
 بما سعى .



المطلب الثاني : الدعوة إلى مكارم الأخلاق

لقد امتن الله تعالى على هذه الأمة بأن جعل الأخلاق رسالة وعلامة بُعث بها هذا الدين ، وبهذا جاءت رسالات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحياتهم في أقوامهم ودعوتهم تتمثل فيها أخلاق الفضلية والدعوة إلى تزكية النفوس من أوائلهم إلى دعوة نبينا محمد ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق ، ويطهرها من كل رذيلة ، كما قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(١) ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ : تنمية للأخلاق الفاضلة ، وتطهيراً من كل رذيلة ؛ فهو يأمر بالبر ، ويأمر بالمعروف ، ويأمر بالإحسان ، ويأمر بالصلة ، ويأمر بالصدق ، ويأمر بكل خير ، كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به وهذه تزكية - ، وينهى عن ضد ذلك ، ينهى عن الإثم ، والقطيعة ، والعدوان ، والعقوق ، والكذب ، والغش ، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضاً تزكية - .

وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تسأل ! شرك ، وكفر ، وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تسأل أيضاً عن حالهم ! القوي يأكل الضعيف ، والغني يأكل الفقير ، ويأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ، يُغَيِّرُ بعضهم على بعض ، يتعايرون بالأنساب ، يدعون بدعوى الجاهلية ... إلخ .

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٤ / ٥١٢) (٨٩٥٢) ، بلفظ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » وقال الهيثمي : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . « مجمع الزوائد » (١٨٨ / ٨) .

جاء الإسلام ، وهدم كل هذا ، ومن تدبر التاريخ قبل بعثته ﷺ وبعده ، علم الفرق العظيم بين حال الناس قبل البعثة ، وحالهم بعدها ، وظهر له معنى قوله تعالى : ﴿ وَزَكَّيْنَهُمْ ﴾ ^(١) .

ولقد تضافرت النصوص الدالة على عظيم منزلة الأخلاق في الدين ، فحسن الخُلُق من أكثر الأسباب الموصلة للجنة ، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ : تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ^(٢) .

وهو أثقل شيء في الميزان : عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ » ^(٣) .

بل جعل البرَّ كله في حسن الخلق ، عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » ^(٤) .

ولعظيم شأن الأخلاق كان من ماثور دعاء النبي ﷺ قوله : « اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٦٧ - ٦٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٥ / ١٥) (٩٦٩٦) والترمذي (٢٠٠٤) ، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ : « أخرجه الترمذي وابن حبان وصحَّاه ، وهو عند البخاري في « الأدب المفرد » . « فتح الباري » (١٠ / ٤٥٨) وحسنه الألباني « صحيح الأدب المفرد » (١٢٣) ، وانظر : « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٢ / ٦٦٩) برقم (٩٧٧) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) .

عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(١).

والنصوص في الحث على مكارم الأخلاق كثيرة، ورأسها ما جاء في «مسند الإمام أحمد»: من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا حديث مدني صحيح ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل فبذلك بعث ليتممه ﷺ»^(٣).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً على هذا الحديث: «فالشرائع السابقة التي شرعها الله للعباد كلها تحت على الأخلاق الفاضلة، ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما طبقت الشرائع على طلبه، ولكن الشريعة الكاملة جاء النبي ﷺ فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال»^(٤).

ولقد جعل الله تعالى من أهم ثمرات العبادات التي يقوم عليها الدين

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥١٢ / ١٤) (٨٩٥٢)، والحاكم في «المستدرک» (٤٢٢١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم. وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «حديث مدني صحيح». «التمهيد» (٣٣٤ / ٢٤)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١٨٨ / ٨).

(٣) «التمهيد» (٣٣٤ / ٢٤).

(٤) «مكارم الأخلاق» لشيخنا ابن عثيمين (١١)، وهو كتاب لطيف في خمس وخمسين صفحة، تكلم فيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأخلاق وكمال الشريعة من ناحية الأخلاق، ومجالات حسن الخلق، وقسم الكتاب إلى قسمين: الأول: حسن الخلق في معاملة الخالق وذكر تحته أنواعاً، والثاني: حسن الخلق في معاملة الخلق وذكر تحته أنواعاً.

هي تزكية الأخلاق ففي الصلاة قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفي الصوم قال ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَاءَ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي أَمْرُؤٌ صَائِمٌ»^(١)، وفي الزكاة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وفي الحج قال النبي ﷺ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولقد كان القرآن الكريم خير مربي على الأخلاق الفاضلة، ففي صحيح مسلم عن قتادة قال: قُلْتُ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أُبَيِّنِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»^(٢).

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «خُلُقُهُ يَعْنِي أَخْلَاقَهُ الَّتِي يَتَخَلَّقُ بِهَا بِأَخْذِهَا مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣).

وقال في موضع آخر مبيناً أهمية الأخلاق في القرآن: «القرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية، وتهذيب للأخلاق»^(٤).

ولربما جمعت الآية الواحدة أصول الأخلاق كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، (١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٦)، (١٣٩).

(٣) «تفسير جزء عم» سورة الماعون (٣٣٠).

(٤) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٤٥٠).

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعْظُمُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿[النحل: ٩٠] .

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: « قالت العلماء إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْظُمُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] »^(١) .

وقال فخر الدين الرازي: « وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن ، وإما أن يكون علما بتصفية الباطن أو رياضة القلوب ، وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره ، كقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النمل: ٩٠] »^(٢) .

وفي تعريف الأخلاق يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: « والخلق: هو السجية والطبع ، وهو كما يقول أهل العلم: صورة الإنسان الباطنة ، لأن الإنسان صورتين :

صورة ظاهرة: وهي شكل خلقته التي جعل الله البدن عليه ، وهذه الصورة الظاهرة منها جميل حسن ، ومنها ما هو قبيح سيء ، منها ما بين ذلك .

وصورة باطنة: وهي حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو

(١) « التمهيد » (٢٤ / ٣٣٤) .

(٢) « تفسير الرازي » (١٧ / ٢٥٣) .

شر، من غير حاجة إلى فكر وروية^(١).

وهذه الصورة أيضاً منها ما هو حسن إذا كان الصادر عنها خلقاً حسناً، ومنها ما هو قبيح إذا كان الصادر عنها خلقاً سيئاً، وهذا ما يُعبر عنه بالخلق، فالخلق إذن هو الصورة الباطنة التي طبع الإنسان عليها^(٢).

ومما دعا إليه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره مكارم الأخلاق عند تفسيره للآيات التي تضمنت الحث على الأخلاق الحميدة أو التحذير من الأخلاق الذميمة كما سيأتي.

- المضامين الدعوية المتعلقة بمكارم الأخلاق :

١- خُلِقَ الصبر.

الصبر من أعظم العطايا والهبات، ومن أُعطي الصبر فقد أُعطي خيراً كثيراً، ففي «الصحاحين» من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ

(١) قال ابن الأثير: «الخلق - بضم اللام وسكونها - : الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع». «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢ / ٧٠) مادة (خلق) وقال القسطلاني: «اعلم أن الأخلاق جمع خلق. بضم الخاء واللام ويجوز إسكانها. قال الراغب: الخلق - بالفتح وبالفهم في الأصل بمعنى واحد، كالشرب والشرب لكن خص الخلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق الذي بالفهم بالقوى والسجاي المدركة بالبصرة. انتهى» «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٢ / ١٠٠).

(٢) «مكارم الأخلاق» لابن عثيمين (٩-١٠).

مِنَ الصَّبْرِ»^(١)، وحث الله تعالى على الصبر في كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣] .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: « وقد ذكر الله الصَّبْرَ فِي كِتَابِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ تَسْعِينَ مَوْضِعاً »^(٢) .

وعن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنَّ أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ... »^(٣) .

- من أبرز المضامين المتعلقة بالصبر :

أولاً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ تَعْرِيفَ خُلُقِ الصَّبْرِ فَقَالَ : « والصبر في اللغة : الحبس ؛ ومنه قولهم : فلان قُتِلَ صَبْرًا أَي حَبَسًا - ؛ وأما في الشرع فإنه حبس النفس على طاعة الله ، أو عن معصيته ، أو على أقداره المؤلمة »^(٤) .

ثانياً : حثَّ على الصبر مبيِّناً فضيلته وأقسامه ، فقال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] : « ومن فوائد الآية : فضيلة الصبر ، وأن به العون على مكابدة الأمور ؛ قال أهل العلم :

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) .

(٢) « التحفة العراقية » (٥٤) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) .

(٤) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٧٩) و (٣ / ٩٥) .

والصبر ثلاثة أنواع ؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء ؛ الأول : الصبر على طاعة الله ؛ والثاني : الصبر عن معصية الله ؛ والثالث : الصبر على أقدار الله ؛ فالصبر على الطاعة هو أشقها ، وأفضلها ؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفّاً اختيارياً : فعل الطاعة ؛ وكفّ النفس عن التهاون بها ، وعدم إقامته ؛ فهو إيجابي إيجابي ؛ والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط ؛ لكنه أحياناً يكون شديداً على النفس ؛ ولهذا جعل النبي ﷺ الشاب الذي دعت امرأته ذات منصب ، وجمال ، فقال : « إني أخاف الله »^(١) في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وإن كان الإمام العادل أفضل ؛ لأن قوة الداعي في الشباب ، وكون المرأة ذات منصب وجمال ، وانتفاء المانع فيما إذا كان خالياً بها يوجب الوقوع في المحذور ، لكن قال : « إني أخاف الله » ؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات ؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس ؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو ؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية ؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله ؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله »^(٢) .

ثالثاً : يرى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن الصبر إذا لازمه حسن نية وانتظار للفرج كان ذلك عاملاً على تحمُّله ؛ لأن الإخلاص روح العبادة ، وانتظار الفرج عبادة ، فقال : « والصبر ثقل جداً على النفس ؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق ، أو بلاء ثقل عليه تحمله ، فاحتاج إلى الصبر ؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ : ﴿ تِلْكَ

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٦١ - ١٦٢) و « تفسير سورة آل عمران » (١ / ١١٠) و (٢ / ١٣٦) (٢ / ٥٢٣) ، و « تفسير جزء عم » سورة العصر (٣١٢) .

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [هود: ٤٩]؛ فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾، إشارة إلى أن هذا الوحي
الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع،
ويضاد، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تُطِعْ مَنْهُمْ إِنْ مَّا أَوْكَفُوكَ ﴿[الإنسان: ٢٣، ٢٤]؛ إذا الصبر شاق على النفوس، لكن
يجب على الإنسان أن يصبر؛ ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير، والذي
يصبر أيضاً غالباً ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية، وانتظار
الفرج عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن
الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً»^(١)؛ لأنه إذا كان منتظراً للفرج هان عليه
الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال، فإذا كان
يؤمل الأجر في الآخرة، ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيراً، وهذه لا
شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل
بالصبر، مهما بلغت الأمور أصبر، فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عوناً»^(٢).

والمؤمن من خلال هذه المضامين يعرف أن للصبر منزلة رفيعة في الشريعة
وأن كثيراً من الفضائل معلقة بهذا الخلق، الذي تكرر في النصوص فضله
والحث عليه، وعلى العبد أن يجاهد نفسه لأن يكون في عداد الصابرين الذين
وعدهم الله تعالى بوافر الفضل العميم بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ
أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وتقدم كلام الشيخ رحمه الله في أنواع الصبر الثلاثة

(١) أخرجه أحمد (١٨ / ٥) (٢٨٠٣)، وصححه الألباني «سلسلة الأحاديث الصحيحة»
(٥ / ٤٩٦) برقم (٢٣٨٢)، و«صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢ / ١١٥١) برقم
(٦٨٠٦).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ١٧٣-١٧٤).

وتفاضلها ومراتبها ، والعبد إن جمع مع صبره حسن ظنه بالله تعالى وانتظار
الفرج منه جل وعلا كان ذلك أعظم لأجره ، وأبلغ لصبره ، وأقرب لنيله مراده .

٢- خُلِقَ الْإِحْسَانُ .

والإحسان في المعاملة من أهم ما ينبغي للمؤمن أن يتخلق به ، والإحسان
مما أمر الله تعالى به في الآية الجامعة للأخلاق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في بيان هذا
الخلق : « (و) المحسن) اسم فاعل من : أَحَسَنَ أي قام بالإحسان ، وعمل به - ،
﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ هنا ما كان موافقاً للشرع ، فإذا قرن ﴿بِالْعَدْلِ﴾ صار المراد بـ
﴿الْإِحْسَانِ﴾ الفضل الزائد على العدل ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ؛ فـ ﴿الْإِحْسَانُ﴾ تارة يراد به موافقة الشرع ولو
كان شيئاً واجباً - ، وتارة يراد به ما زاد على الواجب ، وهذا إذا قُرِنَ ﴿بِالْعَدْلِ﴾
كما سبق «^(١) ، وهذا المثل الأول على مضمون خلق الإحسان .

ثانياً : من المضامين الدعوية بيان معنى الإحسان وأنواعه وفضله ،
قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَسَتَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٥٨] : « و﴿الْإِحْسَانُ﴾ نوعان :-

الأول : إحسان في عبادة الله ؛ وقد فسره رسول الله ﷺ بقوله : « أن تعبد الله
كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٢) .

والنوع الثاني : إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف ، وكفُّ الأذى ..

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) .

ومن فوائد الآية : أن الإحسان سبب للزيادة سواء كان إحساناً في عبادة الله ، أو إحساناً إلى عباد الله ؛ فإن الإحسان سبب للزيادة ؛ وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال : « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(١) ؛ وقال : « ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »^(٢) «^(٣) .

ثالثاً : قال الشيخ رحمه الله في بيان فضله أيضاً وحكمه ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَاحْسِنُوا إِلَى اللَّهِ يَحْسَبِ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] : « قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالإحسان ، ولو لم يكن من الإحسان إلا هذا لكان كافياً للمؤمن أن يقوم بالإحسان ...

ومن فوائد الآية : الأمر بالإحسان ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَاحْسِنُوا ﴾ ؛ وهل الأمر للوجوب ، أو للاستحباب ؟

الجواب : أما الإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب ، وأما الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب »^(٤) .

رابعاً : خلق الإحسان إلى عباد الله يتنوع بتنوع حال المحسن عليه ، ولأهمية الإحسان ذكر الله تعالى أصنافاً مما ينبغي للمؤمن أن يتخلق بالإحسان معهم ، سواء كان ذلك بالفعل أو القول الحسن ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَئِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] .

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٠١ ، ٢٠٤) .

(٤) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٨٩ ، ٣٩١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في فوائد هذه الآية :

« ومن فوائد هذه الآية : وجوب الإحسان إلى الوالدين ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، وإنما أوجب ذلك ؛ لأن نعمة الوالدين على ولدهما هي التي تلي نعمة الله عزَّ وجلَّ ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في سورة لقمان : ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ﴾ [لقمان : ١٤] ؛ فهما سبب وجودك ، وإمدادك ، وإعدادك ، وإن كان أصل ذلك من الله ، فلولا الوالدان ما كنت شيئاً ، والإحسان إلى الوالدين شامل للإحسان بالقول ، والفعل ، والمال ، والجاه ، وغير ذلك من أنواع الإحسان ، وضده أمران : أحدهما أن يسيء إليهما ، والثاني : أن لا يحسن ، ولا يسيء ؛ وكلاهما تقصير في حق الوالدين مناف لبرهما ، وفي الإساءة زيادة الاعتداء .

- ومن فوائد الآية : وجوب الإحسان إلى ذوي القربى أي قرابة الإنسان - وهم من يجتمعون به بالأب الرابع ، فما دون ، ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان يتفاوت ، فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان ؛ لأن الحكم إذا عُلّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف ، فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم ، ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال .

- ومنها : وجوب الإحسان إلى اليتامى ، وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم ، والإحسان في أموالهم ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

- ومنها : وجوب الإحسان إلى المساكين ، وذلك بإعطائهم ما يستحقون من الزكاة ، ودفع الضرورة ، وما أشبه ذلك .

- ومنها : وجوب القول الحسن ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ؛
 وضد القول الحسن قولان : قول سوء ، وقول ليس بسوء ، ولا حسن ، أما قول
 السوء فإنه منهي عنه ، وأما القول الذي ليس بسوء ، ولا حسن فليس مأموراً به ،
 ولا منهيّاً عنه ؛ لكن تركه أفضل ، ولهذا وصف الله عباد الرحمن بأنهم : ﴿ لَا
 يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْغَوَامِرِ وَكِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] ؛ وقال الرسول ﷺ : « من
 كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً ، أو ليصمت » ^(١) « ^(٢) .

وتبيّن من المضامين السابقة أن الإحسان مفهوم واسع يدخل فيه أنواع
 من البرّ ، منها الواجب والمستحب ، وبه ينال العبد محبة الله تعالى وكفى
 بهذه فضيلة ، وبالإحسان يسود بين المسلمين التوادُّ والتراحم والتعاطف ،
 والشارع الحكيم حث على الإحسان إلى أصناف من الناس بدأ بالوالدين ثم
 بذي القربى ثم اليتامى ثم المساكين ، والإحسان يكون بالفعل ويكون بالقول
 كما قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ، وإذا جمع العبد بين الإحسان بالفعل
 والإحسان بالقول فقد أخذ بحظّ وافر من الإخلاق التي حث عليها الإسلام .

٣- خُلُقُ العفو .

لقد أمر الله جلّ وعلا نبيه ﷺ بالعفو والصفح ، فقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وأمر الله تعالى المؤمنين ، بما أمر
 به المرسلين ، فقال جلّ وعلا : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، ورغب الله تعالى عباده بالعفو بأن تكفل بأجره دون
 بيان مقدار الأجر ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٧٠ ٢٧١) .

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجزيه أجراً عظيماً، وثواباً كثيراً... وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيئ على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام»^(٢).

– من أبرز المضامين المتعلقة بالعفو:

أولاً: بين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ معنى العفو ومفهومه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فقال: «وقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، العفو ترك المؤاخذه على الذنب، والمعنى هم الذين إذا أساء إليهم أحد قابلوا إساءته بالعفو، وخير من ذلك أن يقابلوه بالإحسان لكن بشرط أن يكون لديهم قدرة على الانتقام، أما من عفا لعدم القدرة على الانتقام فهذا عفو العاجز الذي لا يحمد عليه، بل يكون عفوّه هذا عجزاً مذموماً، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ بُدِّدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]، فأنتم إن عفوتم عن السوء قد تعفون عن قدرة وقد تعفون عن عجز. أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يعفو عن قدرة»^(٣).

ثانياً: للعفو فضله الذي جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٦٠).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢ / ٣٠٣).

(٣) «تفسير آل عمران» (٢ / ١٧٣).

الله ﷺ ، قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ ، إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » (١) .

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان العفو في الحديث وأهمية التخلق به وتربية النفس عليه : « ثم قال ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » ، إذا جنى عليك أحد وظلمك في مالك ، أو في بدنك ، أو في أهلِكَ ، أو في حق من حقوقك ، فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه ، وأن تأخذ بحقك ، وهذا لك . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدَّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

ولا يلام الإنسان على ذلك ، لكن إذا هم بالعفو وحدث نفسه بالعفو قالت له نفسه الأمانة بالسوء : إن هذا ذل وضعف ، كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك ؟!

فيقول الرسول ﷺ : « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » والعز ضد الذل ، والذي تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذلت أمام من اعتدى عليك ، فهذا من خداع النفس الأمانة بالسوء ونهيها عن الخير ، فإن الله تعالى يثيبك على عفوك هذا ، فالله لا يزيدك إلا عزاً ورفعاً في الدنيا والآخرة » (٢) .

ثالثاً : من ثمرات العفو عفو الله تعالى عن العافين عن الناس ، ففي تفسير قول الله تعالى : ﴿ إِنْ يُبَدُّوْا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائدها : « من فوائد الآية : الإشارة إلى أنك إذا عفوت عن الخلق عفواً في محله فأبشر بعفو الله ؛ لقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ يعني : فمتى عفوتم عفا الله عنكم ، وهذا له شواهد كثيرة في الشريعة ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » لشيخنا ابن عثيمين (٣ / ٤٠٨) .

منها قول الرسول ﷺ : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(١) ، ومنها : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »^(٢) ، ومنها : « الجزاء من جنس العمل »^(٣) ، والشواهد على هذا كثيرة^(٤) .

رابعاً : يرى الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أَنْ العفو ليس محموداً على الإطلاق ، بل له فقه وتفصيل ينبغي مراعاته ، فيقول : « ولكن لا نقول : إن العفو أفضل مطلقاً ، بل تبع المصلحة ، ولهذا قيد الله العفو في مكان آخر بقوله : ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) لم يرد بهذا اللفظ ، ولكن معناه صحيح ، قال العامري : « الجزاء من جنس العمل » لم يرد هكذا ولكن معناه صحيح ففي التنزيل ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] وفي الحديث « كما تدين تدان » إلى غير ذلك^١ . هـ « الجِدُّ الحديث في بيان ما ليس بحديث » (٨٢) وقال ابن تيمية : « الجزاء بذلك من جنس العمل كما قال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا ترحموا ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ، وكما قال ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على مُعسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » . وفي الحديث الصحيح الإلهي : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، ومن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » ، وقال ﷺ : « من كان له لسانان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة » ، وقال : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة » ، وقال : « لا تزال المسألة بالرجل حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم » . وقال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بُدْءَ خَيْرٍ أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] ، ومثل هذا في الكتاب والسنة كثير يبين فيهما أن الجزاء من جنس العمل » . « مجموع الفتاوى » (٤٨٢ / ٦) .

(٤) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٩١) .

وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴿الشورى: ٤٠﴾ فإذا كان في العفو إصلاح فهو أفضل ، وإن كان في العفو إفساد فالانتصار أفضل ، فمثلاً لو كان هذا الرجل شريراً ، فلو عفونا عنه لازداد في شره واعتدائه على الناس ، فهنا الانتصار أفضل ، أولاً : لإعطاء النفس حظها ؛ لأن النفس تحب أن تنتصر ولا شك .

• وثانياً : لكف شره عن الناس ، فيكون هنا الانتصار أفضل ، وأما إذا تساوى الأمران فلا شك أن العفو أفضل ، أولاً : لما فيه من الإحسان إلى المسيء .

وثالثاً : أن الله تعالى يحب العافين عن الناس ^(١) .

وهذه المضامين الدعوية في العفو دلت على أهمية امثال المسلم لهذا الخُلُق العظيم الذي من أعظم ثمراته نيل محبة الله تعالى ، وإذا استشعر العبد هذه الثمرة ومحبة الله تعالى لخلق العفو ، وتسمي الله تعالى بالعفو كان ذلك باعثاً له في تطبيق هذا الخُلُق في سائر حياته وعلى الوجه الذي يكون في العفو محموداً ؛ لأنه تقدّم في المضامين أن ليس كل عفو محمود ، وبالعفو يرتفع العبد في الدنيا وعند ربه جل وعلا عزّة ومكانة ، وينال به عفو الله تعالى .

٤ - خُلُق الصدق .

إن من أعظم الأخلاق التي أمر الله تعالى بها عباده في كتابه خُلُق الصدق ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] .

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ، ومخرجاً » ^(٢) .

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٩٠) .

(٢) « تفسير القرين العظيم » (٤ / ٢٣٠) .

وجاء الأمر الإلهي بالصدق والحث عليه ؛ لأن الصدق يقود لسائر الأخلاق والخير الكثير الذي يتضمنه البرُّ كما أخبر النبي ﷺ بذلك ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »^(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا أُمِرَ بِالصَّدَقِ عَاقِبَتَهُ فَقَالَ : « إِنْ الصَّدَقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ » ، الْبِرُّ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ، وَمِنْهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ : ﴿الْبِرُّ﴾ أَيُّ كَثِيرِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ عَزَّجَلَّ ، فَالْبِرُّ يَعْنِي كَثْرَةَ الْخَيْرِ ، وَهُوَ مِنْ نَتَائِجِ الصَّدَقِ »^(٢) .

- ومن أبرز المضامين المتعلقة بالصدق :

أولاً : عَرَّفَ الشَّيْخُ ابْنَ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللهُ الصَّدَقَ فِي تَفْسِيرِهِ ، فَقَالَ : « وَالصَّدَقُ هُوَ مِطَابَقَةُ الشَّيْءِ لِلْوَقْعِ ؛ فَالْمَخْبِرُ بِشَيْءٍ إِذَا كَانَ خَبْرُهُ مُوَافِقًا لِلْوَقْعِ صَارَ صَادِقًا »^(٣) ، وَبَيَّنَّ أَنَّ مَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ بِلَفْظِ الْحَقِّ إِذَا أُضِيفَ إِلَى الْخَبَرِ فَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقُ ، وَإِذَا أُضِيفَ إِلَى الْحُكْمِ فَالْمُرَادُ بِهِ الْعَدْلُ ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ كَرَّرَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ : « وَ (الْحَقُّ) مَعْنَاهُ الشَّيْءُ الثَّابِتُ ؛ فَإِنْ أُضِيفَ إِلَى الْخَبَرِ فَهُوَ الصَّدَقُ ؛ وَإِنْ أُضِيفَ إِلَى الْحُكْمِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (١ / ٢٩٤) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٨٠) .

فهو العدل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] « (١) .

ثانياً : دعا الشيخ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى خُلُقِ الصدق مَبِينًا درجة الصديقِيَّة عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، فقال : « الفائدة الخامسة : الحث على الصدق والترغيب فيه ؛ لأن ذكر كونه نافعا في ذلك الوقت الحَرَج يدل على الترغيب فيه والحث عليه ، وقد حث عليه النبي ﷺ في قوله : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » (٢) والصديقِيَّة : أعلى مراتب البشر بعد النبوة ، ويكفيك اقتناعاً بفائدته وثمرته ما حصل للثلاثة الذين خلفوا ، أي خلف أمرهم ولم يقص فيه بشيء حتى جاء الوحي وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، هؤلاء الثلاثة تخلفوا عن غزوة تبوك ، ولما رجع النبي ﷺ منها ، جاء المعذرون يعتذرون إلى النبي ﷺ ، وقد أخبر الله عنهم قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة ، وقال : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥ - ٩٦] ، أما الثلاثة فصدقوا وأخبروه بالصدق ، وأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم آيات تتلى في الصلاة وخارج الصلاة ويثاب على قراءتها ، وحث على أن نكون مثلهم فقال له بعد ذكر الآيات : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] « (٣) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٢٥) ، وانظر فيها مثلاً : (١ / ٣٥٨) ، (٢ / ٢٧) ، (٣ / ٢٣٤) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ، أخرجها البخاري (٤٤١٨) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .



لو قال قائل : أحياناً إذا أراد الإنسان أن يصدق فإن الصدق قد يدخله في إخراج ، كأن يطلب منه رجل ما لأقرضاً فيقول له : ما عندي لأنه يخاف المماطلة؟
الجواب : هذه سهلة ، يتأول ، وفي التأويل مندوحة عن الكذب ، يقول : ما عندي شيء أقرضك إياه ، ينوي هذا ، والنية تخصص العام ، وليأخذ طالب العلم هذه الفائدة وينتفع بها ، أن في التأويل لمندوحة عن الكذب «^(١) .

ثالثاً : أسهب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في بيان مواضع الصدق ، وبين أن الصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل وبين ذلك بالأمثلة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] ، فقال : «﴿أُولَٰئِكَ﴾ ، أي : الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي : البالغون في الصدق مبلغاً كبيراً ؛ لأن الصديق صيغة مبالغة ، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل .

فأما الصدق بالقصد فإن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالى لا يقصد غيره ، وإذا قصد بعبادته شيئاً غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم - في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢) .

الثاني : الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقاً فيما يخبر به ، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين ، وأمرنا أن نكون معهم ، فقال جل وعلا - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ، وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٥٦٩ - ٥٧١) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) .

آله وسلم- بالصدق وحث عليه ، ورغب فيه ، فقال : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »^(١) .

أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ لأن من كان صادقاً فيما يدعي من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، وقد سمي بعض السلف هذه الآية آية المحنة ، يعني الامتحان ، فمن ادعى حب الله ورسوله قلنا له : عليك باتباع الرسول ﷺ ، فإن اتبعه فهو صادق ، وإن خالفه فليس بصادق »^(٢) .

والمضامين في الصدق كثيرة ، وأهمية هذا الخلق في حياة العبد ظاهرة البيان ، دلت عليها نصوص الكتاب والسنة ، وحاجة الواقع والمواقف التي تعترى العبد فيجد ثمرة صدقه في حياته ، وانشراحه ، وما عند الله من منزلة الصديقية خير وأبقى ، بخلاف من كان على ضده فإنه يسوء حاله ومعاشرته والحديث معه ، ويعظم ريب الناس فيه ، وكفى بهذه مذمة ، والصدق يكون بالقصد والقول والفعل وتحت كل نوع منها للعبد مواقف يعظم فيها حال الصدق كما تقدم في المضامين .

٥- خُلق الأمانة .

من الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام خُلق الأمانة ، أمر الله تعالى بأداء

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « تفسير سورة الحديد » (٤٠٠ ٣٩٩) .

الأمانات إلى أهلها فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨] ، وأثنى على المؤمنين الذين من أخلاقهم رعاية الأمانة فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] ، وحذر الشارع الحكيم من الإخلال بهذا الخلق ، وجعله علامة من علامات النفاق ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ »^(١) .

- ومن أبرز المضامين المتعلقة بالأمانة :

أولاً: عرّف الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ الأمانة وبين مفهومها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ، فقال : « قوله : ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ الأمانات جمع أمانة ، وهي كل ما أؤتمن الإنسان عليه من أمتعة ، ونقود ، وأقوال ، وأفعال وغير ذلك ، تؤدّى إلى أهلها ، والضابط في أهلها هم الذين أُمِرَتْ بأدائها إليهم ، فمثلاً : إذا قال لك شخص : خذ هذه الدراهم وأدّها إلى فلان ، فالمؤتمن صاحب الدراهم ، وأهلها الذين أُمِرَتْ أَنْ تؤديها إليه ، يعني : فلا تؤدها إلى أحد غيره ، وقد تكون الأمانة بالقول ، فأقول لك مثلاً : بلغ سلامي فلاناً ، فإذا قلت : نعم ؛ فقد تحملت ، فلا بد أن تؤدها لي السلام ، أما إن قلت : إن ذكرت أو لا أتحمل فأنت بالخيار ، لكن إذا قال : بلغ سلامي فلاناً فقلت : نعم أبلغه فلا بد أن تبلغه ؛ لأن هذه أمانة ، وقد أمرك الله أن تؤديها إلى أهلها »^(٢) .

ثانياً : حكم أداء الأمانة فواجب ؛ لأمر الله تعالى المؤمنين بأدائها بذلك ، وفي

(١) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .
(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٣٩) .

قوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن فوائد الآية: وجوب أداء الأمانة على من أُؤتمِن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾؛ فإذا وجب أداء الأمانة حرمت الخيانة.

- ومنها: أنه لو تلفت العين بيد الأمين فإنه لا ضمان عليه ما لم يَتَعَدَّ، أو يُفَرِّط؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾؛ فسامها الله سبحانه وتعالى أمانة؛ والأمين يده غير متعدية؛ فلا يضمن إلا إذا حصل تعدُّ، أو تفريط؛ ومن التعدي إذا أعطي الإنسان أمانة للحفظ تصرف فيها كما يفعل بعض الناس - بيع، أو شراء، أو نحو ذلك؛ وهذا حرام لا يجوز؛ وإذا أردت أن تفعل فاستأذن من صاحبها؛ فإن أذن لك صارت عندك قرضاً.

- ومن فوائد الآية: أنه يجب على هذا الذي أُؤتمِن ألا يغتر بثقة الناس به، فيفرط فيما يجب عليه من أداء الأمانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾^(١).

ثالثاً: في بيان ضابط حفظ الأمانة قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]: «من فوائد الآية: وجوب حفظ الأمانات فيما تحفظ به عادة، فإذا أعطاك إنسان دراهم وجب عليك أن تحفظها فيما تُحفظ به عادة، ووجه ذلك: أنه من لازم أدائها حفظها؛ لأن من لم يحفظها لا يمكن أن يؤديها، فإذا أعطاك دراهم ووضعها في فرجة أو في رف وسرقت فأنت ضامن؛ لأن هذا تفريط في الواجب، فالواجب أن تحفظها في الصناديق.

وإذا أودع عندك بهيمة وتركتها للبرد أو للحر ، أو للجوع أو للعطش ، فأنت ضامن ؛ لأنك فرطت ، فإن الله أمرك أن تؤدي الأمانات إلى أهلها ومن لازم أدائها حفظها حتى تؤدي كما أخذت» (١) .

رابعاً : أداء الأمانة لا يختص بالأموال والأشياء العينية التي يتركها الناس عند الأمين ، بل هو لفظ عام يدخل تحته عدة أنواع ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ في فوائد الآية السابقة : « وجوب حفظ السر فيما يكون بينك وبين صاحبك من قول ، لقوله : ﴿الْأَمْنَتِ﴾ وهو عام في أمانات الأموال ، وأمانات الأقوال ، وأمانات الأحوال أيضاً ؛ ولهذا ورد الوعيد الشديد فيمن تفضي إليه زوجه وهو يفضي إليها ثم يصبح يتحدث بما جرى بينهما ، وأن هذا شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة .

- وجوب أداء الشهادة على الشاهد كما تحملها ؛ لأن الشاهد مؤتمن ، فيجب عليه أن يؤدي الشهادة كما تحملها من غير زيادة ولا نقص ، وهل يجوز أن يؤديها بالمعنى ؟

الجواب : نعم ، إذا كان عالمًا بالمعنى ، ولم يحدث ما يتغير به المعنى فإنه لا بأس أن يؤديها بالمعنى» (٢) .

دلت هذه المضامين على أن الأمانة خلُق من الأخلاق التي يحتاجها المسلمون فيما بينهم في حفظ حقوقهم ومما يحفظ روح التعاون والتكافل بين المسلمين ، وتكون الأمانة في الأعيان والأقوال والأفعال ، وتحملها مستحب عند القدرة ، وأداؤها واجب أوجبه الله تعالى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٤١) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٤٢) .

تُؤَدُّوْا الْأَمْنَتَ إِلَى أَهْلِهَا ﴿١﴾ ، وحفظ الأمانة يكون بما يُحفظ به في عادة الناس فمن تعدَّى أو فرط ضمن ، ومن محاسن الشريعة مشروعية الأمانة والحث عليها وجعلها من صفات المؤمن ، وخيانتها خُلَّةٌ من خلال النفاق .

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره كثيراً من مكارم الأخلاق ، وتتبع كل ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من مكارم الأخلاق يطول به المقام ، وحسبك أن القرآن كله تربية على الأخلاق والقيم .

- ومن المضامين المتعلقة بمكارم الأخلاق في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ :

٦- محبة المرء الخير للغير كما يحبه لنفسه ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] ، قال :

« ومن فوائدها : الإشارة إلى قاعدة إيمانية عامة ؛ وهي قول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) ، ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ، فالإنسان لا يرضى بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟! فإذا كنت أنت لو أعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إلا على إغماض ، وإغضاء عن بعض الشيء ، فلماذا تختاره لغيرك ، ولا تختاره لنفسك؟! وهذا ينبغي للإنسان أن يتخذه قاعدة فيما يعامل به غيره ؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح : « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ؛ وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »^(٢) ،

(١) أخرجه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) .

هذه قاعدة في المعاملة مع الناس ، ومع الأسف الشديد أن كثيراً من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم على هذا الوجه ؛ كثير من الناس يرى أن المكر غنيمة ، وأن الكذب غنيمة ^(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ، قال :

« ومن فوائدها : أنه ينبغي للإنسان ألا ينسى الفضل مع إخوانه في معاملته ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ؛ وقد جاء في الحديث : « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ؛ سمحاً إذا اشترى ؛ سمحاً إذا اقتضى » ^(٢) ؛ فإن هذا فيه من حسن المعاملة ما هو ظاهر ، والدين الإسلامي يحث على حسن المعاملة ، وعلى حسن الخلق ، وعلى البر كله » ^(٣) .

٧- وخلق المعاشرة بالمعروف ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنَبْنِيَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١] ، قال الشيخ رحمه الله في فوائدها :

« ومن فوائد الآية : وجوب المعاشرة بالمعروف حتى بعد الطلاق ؛ لقوله تعالى : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ لئلا يؤدي الإنسان زوجته بالقول ، أو بالفعل ، أو بمنع الحقوق ، أو ما أشبه ذلك ؛ ومما هو معروف أن ما يجري بين الأزواج أحياناً من المشاحنة ، وادعاء الزوج ما يكون لزوجته من

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٤٥) ، و« تفسير آل عمران » (١ / ٥٩٢) ، و« أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٦) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٧٦) .

الأمثلة التي أعطاها إياها في المهر ، أو فيما بعد ذلك حتى يطالبها بالحلي الذي أعطاها ؛ خلاف المعروف الذي أمر الله به .

- ومنها : عناية الله عز وجل بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق ، أو في حال الاختلاف ؛ لأن ذلك هو الذي يُقيم وحدة الأمة ، فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف بل بالمنكر ، والإساءة - تفرقت ، واختلفت ، فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ^(١) .

٨- الإصلاح بين الناس وترك النسيئة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا عُرْضَةً لِّإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة : ٢٢٤] ، قال الشيخ رحمه الله :

« ومن فوائد الآية : فضيلة الإصلاح بين الناس ؛ لقوله تعالى : ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ؛ فنص عليه مع أنه من البر ؛ والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدل على العناية به ، والاهتمام به ، ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رَأب الصدع ، ولم الشعث ، وجمع الشمل ، وهذا خلاف من يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس ، مثل النسيئة فهي توجب القطيعة بين الناس - ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام » ^(٢) ^(٣) .

٩- معاملة الناس بالظاهر وحسن الظن بهم ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَتَيَسَّرُوا

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٢٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٥) ، والبخاري (٦٠٥٦) بلفظ : « لا يدخل الجنة فتات » كلاهما من حديث حذيفة رضي الله عنه .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٩١) .

وَلَا نَقُولُ لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا ﴿٩٤﴾ [النساء: ٩٤] ، قال رَحِمَهُ اللهُ :

« من فوائد الآية : أن الواجب علينا معاملة الخلق بالظاهر ، لقوله : ﴿وَلَا نَقُولُ لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل : لست مسلماً ؛ لأنه ألقى السلام واستسلم ، لكن لا تقولوا : لست مؤمناً ، يعني : لم يدخل الإيمان في قلبك .

- ومنها التحذير من هؤلاء الناس الذين يتهمون المسلمين بأن عملهم رياء ، فبعض الناس والعياذ بالله ! إذا كره شخصاً وأُثني عليه عنده بأنه يعمل العمل الصالح قال : هذا مرائي ، فيكون بهذا القول وارثاً للمنافقين ؛ لأن المنافقين هم : ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] .

- ومنها : أنه لا يجوز لنا أن نتعدى الظاهر الذي يبدو من الإنسان ، حتى وإن وجدت قرائن تدل على خلاف ظاهره ، والدليل : ﴿وَلَا نَقُولُ لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَكُمْ لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ .

وقد وقع مثال تطبيقي لهذا في عهد النبي ﷺ ، فإن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعن أبيه وهو حب رسول الله ﷺ - أدرك رجلاً من المشركين فعلاه بالسيف ، فقال الرجل لما غشيه أسامة وأدركه : لا إله إلا الله ، ولكن أسامة قتله ؛ يظن أنه قالها خوفاً من القتل ، ولم يقلها من قلبه ، فأخبر بذلك النبي ﷺ ، فجعل يقول : « أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟ كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة » الله أكبر ! جعل يكرر هذا حتى قال أسامة : « تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ »^(١) يعني : تمنيت أن يكون هذا في حال كفري حتى أسلم فيغفر لي ما قد سلف ؛ لأن من أسلم غفر الله له ما سلف في كفره مهما كان .

فأقول : إن هذا يدل على التحذير من الحكم على الناس بما يخالف الظاهر ، ونحن لا نكلف ما لا نطبق ، ووالله ! لو أن الله جعل حكماً على الناس على حسب الباطن لهلكنا ، فمن يحقق الباطن ، لا يمكن أن يحققه أحد ، فنحن ليس لنا إلا الظاهر ^(١) .

١٠ - الإيفاء بالعهد والنذر ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَبْنَئُ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحُمُكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠] ، قال الشيخ رحمه الله في فوائد الآية :

« من فوائد الآية : أن من وفى لله بعهدته وفى الله له ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ، بل إن الله أكرم من عبده ، حيث يجزيه الحسنه بعشر أمثالها ، وفي الحديث القدسي : « إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ؛ وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ؛ وَإِذَا أَتَانِي مَشِيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » ^(٢) .

- ومن فوائد الآية : أن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد ، وذلك ؛ لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفى الله له ، فيكون المفهوم أن من لم يف فإنه يعاقب ، ولا يعطى ما وعد به ، وهذا مقتضى عدل الله عز وجل .

- ومنها : وجوب الوفاء بالنذر ؛ لأن الناذر معاهد الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥] ^(٣) .

والشيخ رحمه الله في تفسيره كما دعا إلى الأخلاق الحميدة من مكارم

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٩٥ - ٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٤٤) .

الأخلاق ، فإنه دعا إلى التحذير من الأخلاق الذميمة من مساوئ الأخلاق حيث قال في ختام تفسير سورة الهمزة : « حكى الله سبحانه وتعالى ذلك علينا وبينه لنا في هذه السورة لا لمجرد أن نتلوه بألستنا ، أو نعرف معناه بأفهامنا ، لكن المراد أن نحذر من هذه الأوصاف الذميمة : عيب الناس بالقول ، وعيب الناس بالفعل ، والحرص على المال حتى كأن الإنسان إنما خلق للمال ليخلد له ، أو يخلد المال له ، ونعلم أن من كانت هذه حاله فإن جزاءه هذه النار التي هي كما وصفها الله ، الحطمة ، تطلع على الأفتدة ، مؤصدة ، في عمد ممددة . نسأل الله تعالى أن يجيرنا منها ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستقامة على دينه »^(١) .

- ومن مضامين الأخلاق الذميمة التي جاء التحذير منها :

- خُلِقَ الكذب ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] ، قال : « من فوائد قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب ، وأن الكذب سبب للعذاب ، ولكن لاشك أن الكذب تتفاوت مراتبه ، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته ، فالكذب على الله ورسوله مثلاً أعظم من الكذب على غير الله ورسوله ، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك »^(٢) .

- خُلِقَ الحسد ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ، حيث قال : « ومن فوائد الآية : تحريم الحسد ؛ لأن مشابهة الكفار بأخلاقهم محرمة ؛

(١) « تفسير جزء عم » سورة الهمزة (٣١٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦١) .

لقول النبي ﷺ: « من تشبه بقوم فهو منهم »^(١)؛ واعلم أن الواجب على المرء إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة أن يسأل الله من فضله ، ولا يكره ما أنعم الله به على الآخرين ، أو يتمنى زواله ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] ؛ والحاسد لا يزداد بحسده إلا ناراً تتلظى في جوفه ، وكلما ازدادت نعمة الله على عباده ازداد حسرة ، فهو مع كونه كارهاً لنعمة الله على هذا الغير مضاد لله في حكمه ؛ لأنه يكره أن ينعم الله على هذا المحسود ، ثم إن الحاسد أو الحسود مهما أعطاه الله من نعمة لا يرى الله فضلاً فيها ؛ لأنه لا بد أن يرى في غيره نعمة أكثر مما أنعم الله به عليه ، فيحتقر النعمة »^(٢).

- وخلق الفخر ، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ، قال رحمه الله: « قال الله عز وجل في ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: إن الله لا يحب الذي كان مختالاً ، و﴿كَانَ﴾ هنا فعل ماضٍ لكنها مسلوقة الزمنية ، والمراد لا يحب من اتصف بالاختيال والفخر ، والمختال في هيئته ، والفخور بلسانه ، فالاختيال يكون بالفعل ، والفخر يكون باللسان ، فمن كان مختالاً في فعله فإن الله لا يحبه ، ومن كان فخوراً بقوله فإن الله لا يحبه أيضاً .

وختم الآية بهذه الجملة لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله ، وعن هذه

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٩ / ١٢٦) (٥١١٥) ، وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال ابن حجر رحمه الله: « أخرجه أبو داود بسند حسن . » «فتح الباري» (١٠ / ٢٧١) ، وقال الألباني: « حديث حسن صحيح » انظر: « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١٤ / ٢٤) ، و« صحيح الجامع الصغير » (٢ / ١٠٥٩) (٦١٤٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٥٩) .

الوصايا النافعة ، فالغالب عليه أنَّ فيه اختيلاً ، وفيه فخراً واستكفاً واستكباراً ،
 فلهذا ختم الله هذه الآية المشتملة على هذه الوصايا العظيمة بهذه الجملة ﴿إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ، فهذه الآية فيها بيان حقوق : حق الله ،
 وحق غيره من الناس ، وغير الناس ^(١) .

- وَخُلِقَ الْبَخْلُ ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
 بِالْبُخْلِ﴾ [النساء : ٣٧] ، قال :

« البخل هو إمساك ما يجب بذله من مال أو علم أو جاه أو عمل ، فكل ما
 يجب بذله من هذه الأشياء فمنعه بخل ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ :
 « البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي » ^(٢) اللهم صل وسلم عليه ، فهذا
 بخل بما يجب من عمل ، وما يجب من جاه ؛ كالشفاعة الواجبة إذا بخل بها
 الإنسان فإن هذا بخل ، وما يجب من مال وأعلاه الزكاة ، فهذا بخل بما يجب من
 المال ، والرابع : ما يجب من العلم ، فمنعه بخل ، وهو من أشد أنواع البخل قال
 الله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران :
 ١٨٧] وفي الحديث : « من سُئِلَ عن علم يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار يوم
 القيامة » ^(٣) ، فهذه أنواع البخل .

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٧ / ٣) (١٧٣٦) ، والترمذي (٣٥٤٦) من حديث الحسين بن علي بن
 أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » « المستدرک »
 (١ / ٧٣٤) ، وقال الألباني : « الحديث صحيح بلفظ : « البخيل من ذكرت ... » ؛ لشواهد له
 خرجتها في « إرواء الغليل » (١ / ٣٥ / ٥) انظر : « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة »
 (١٤ / ١١٧٨) ، و « صحيح الجامع الصغير » (١ / ٥٥٧) (٢٨٧٨) .

(٣) أخرجه أحمد (١٣ / ١٧) (٧٥٧١) ، وأبو داود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن
 ماجه (٢٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال الحاكم : « استحسنه أبو علي واعترف =

وأيضاً: البخل بالبدن إذا وجب عليك إعانة مسلم؛ كإنقاذه من حريق أو غرق أو هدم أو غير ذلك فلم تفعل، فإنك تكون من أهل البخل.

إذا: تعريف البخل: هو منع ما يجب بذله من مال أو علم أو عمل أو جاه أو بدن. وإن شئنا أدخلنا كلمة البدن بالعمل؛ لأنه في حقيقة الأمر هو عمل.

قوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: فيتعدى ضررهم إلى غيرهم، فإذا جاءهم من يستشيرهم في أمر فيه بذل قالوا: ليس له داع، ادخر مالك فربما تحتاجه في المستقبل! ...

- من فوائد الآية الكريمة: ذم البخل، وهو أنواع، والبخل بما يجب شرعاً أعظم من البخل بما يجب عرفاً، والبخل بالفضل دون البخل بالواجب، فالضيافة مثلاً تجب يوماً وليلة، فالبخل فيها أشد من البخل في كامل الضيافة وهو ثلاثة أيام، فمن بخل بيوم وليلة أشد ذمًا ممن بخل بثلاثة أيام^(١).

- وخلق الخيانة، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، حيث قال: «من فوائد الآية: أن الخيانة من كبائر الذنوب، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأنه إذا رتب على العمل عقوبة خاصة فهو من الكبائر، وهذا أحسن ما قيل في حد الكبيرة، وذكره شيخ الإسلام رحمه الله^(٢)، فكل شيء يرتب عليه عقوبة خاصة

= لي به، ثم لما جمعت الباب وجدت جماعة ذكروا فيه سماع عطاء من أبي هريرة، ووجدنا الحديث بإسناد صحيح لا غبار عليه، عن عبد الله بن عمرو. «المستدرک» (١ / ١٨٢)، وصححه الألباني «صحيح الجامع الصغير» (٢ / ١٠٧٧) (٦٢٨٤).

(١) «تفسير سورة النساء» (١ / ٣١٧-٣١٩)، و«تفسير سورة يس» (٢ / ١٧١).

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (١١ / ٦٥٠) وما بعدها، قال ابن تيمية رحمه الله: «أمثل الأقوال فيها هو=

فهو من الكبائر ، سواء كانت العقوبة لعنة ، أو غضباً أو نفي إيمان ، أو تبرأً منه ، أو غير ذلك .

- ومنها : التحذير من الخيانة ، لكون الله تعالى نفى محبته للخائن الأثيم ، والترغيب في أداء الأمانة ؛ لأنه إذا وقع الدم على وصف لزم أن يكون المدح في ضده» (١) .

- وحُلقِ اللمز ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحُجرات: ١١] ، قال رَحِمَهُ اللهُ : « وقوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فسر بمعنيين :

المعنى الأول : لا يلمز بعضكم بعضاً ، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان ، أخوك بمنزلة نفسك ، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك .

= المأثور عن السلف كابن عباس وأبي عبيد وأحمد بن حنبل وهو أن الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة ، وهو معنى قول القائل : كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر ... وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة ... وإنما قلنا : إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه : أحدها : أنه المأثور عن السلف ...

الثاني : أن الله تعالى يقول : ﴿إِنْ جَحَبْتُمْ كَبَابَرٍ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخَلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١] ، فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات واستحقاق المدخل الكريم ، وكل من وعد بغضب أو لعنة أو نار أو حرمان من جنة أو ما يقتضي ذلك فإنه خارج عن الوعد فلا يكون من مجتنب الكبائر ، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر ...

الثالث : أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب ؛ فهو حد يتلقى من خطاب الشارع ..

الرابع : أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف غيره ... وانظر مزيداً : « مدارج السالكين » لابن القيم (١ / ٣٢١-٣٢٧) .

والمعنى الثاني : إن المعنى لا تلمز أخاك ، لأنك إذا لمرت لمرك ، فلمرك إياه سبب لكونه يلمرك ، وحينئذ تكون كأنك لمزت نفسك ، وعليه قول النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » فقالوا : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » ^(١) وعلى كل حال في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضاً ، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خلقية أو صفة خلقية ، أما الصفة الخلقية التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه عز وجل فالذي خلق الإنسان هو الله عز وجل ، والذي جعله على هذه الصفة هو الله عز وجل ، والإنسان لا يمكن أن يكمل خلقته فيكون الطويل قصيراً ، أو القصير طويلاً ، أو القبيح جميلاً ، أو الجميل قبيحاً ؟ فأنت إذا لمزت إنساناً وعبته في خلقته فقد عبت الخالق في الواقع ، ولهذا لو وجدنا جداراً مبنياً مائلاً وعبنا الجدار فعيننا لباني الجدار ، إذن إذا عبت إنساناً في خلقته فكأنما عبت الخالق عز وجل فالمسألة خطيرة ، أما عيبه بالخلق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب ، شديد الانتقام ، بذيء اللسان ، فلا تعب ؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب ، ولهذا جاء في الأثر : « لا تظهر الشماتة بأخيكم فيعافيه الله ويبتليك » ^(٢) .

لكن إذا وجدت فيه سوء خلق فإلوجب النصيحة ، أن تتصل به إن كان يمكن

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) ، ولفظه : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب » من حديث واثلة بن الأسقع رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ ، وضعفه الألباني ، « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١١ / ٧٠٧) ، و« ضعيف الجامع الصغير » (٩٠١) (٦٢٤٥) .

الاتصال به ، وتبين له ما كان به من عيب ، أو أن تكتب له كتاباً : رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلاً»^(١) .

- وخلق التدابر ، حيث قال رَحِمَهُ اللهُ : « نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عن التدابر^(٢) ، والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلى وجه ، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة ، وإلا فمتى أمكن التقابل فهو أفضل ، فلو أن أحداً يكلمك وقد ولأك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلاً إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم »^(٣) .

ومما تقدّم من المضامين المتعلقة بالأخلاق نلحظُ منهجاً رصيناً في الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وما ينبغي أن يكون عليه خلق المؤمن ، وتبين كيف أن القرآن الكريم وسع مكارم الأخلاق ودعا لها بأسلوب بليغ مقرون بالترغيب وجذب الأفتدة لمحاسن الأخلاق ، وبكلمات بالغة التأثير في التحذير من مساوئ الأخلاق ، إشارة إلى أن المؤمن يتخذ من هذا القرآن منهج حياة لم يقتصر فيه على العقائد والأحكام فحسب ، بل فيه كما ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ - تربية النفس وتزكيتها ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق^(٤) ، والعبد إذا تخلّق بأخلاق القرآن كان أقرب أسوة بالنبي ﷺ الذي كان خلقه القرآن ، فالأخلاق شأنها رفيع ، والأمم إنما تسمو بأخلاقها ، والعبد فرد من

(١) « تفسير سورة الحجرات » (٤٠-٤١) .

(٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَبَاغُضُوا ، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أخرجه البخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٨) .

(٣) « تفسير سورة الواقعة » (٣٣٢) .

(٤) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٥٠) .

أمته ينشر أخلاق الإسلام بفعله وقوله ؛ لينال بذلك عظيم الفضائل ، وسمو الرُتَب ، ويكون داعية بفعله قبل قوله لأخلاق الإسلام ، وإذا تأمل العبد التأثير الحاصل على الناس بسبب الأخلاق أدرك بُعد النظر في قول سيد البشر ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ »^(١) ، فجعل من الأخلاق رسالة عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى ، وكم تحتاج الأمة إلى دعاة مخلصين يُرى عليهم أثر الأخلاق الإسلامية السامية ، والتي هي أقوى رسائل الدعوة إلى هذا الدين العظيم بما يحمله من مصالح للأمة ، وإن نشر مكارم الأخلاق في المجتمع من أعظم وسائل الترابط والتراحم وحلول الأمن والإيمان ، وعناية الله تعالى للأمة وحفظها ، وما زاغت كثير من المجتمعات إلا بعد أن ابتعدت عن هذه الأصول العظيم من أصول الرسالة ، ومن تأمل أصل الأخلاق وجدت مضامينه متعددة في كثير من أبواب الشريعة كما تقدّم بيانه ، نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو ، ويصرف عنا سيئها لا يصرف عنها سيئها إلا هو ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



المطلب الثالث : الدعوة إلى المعاملات

المعاملات : جمعُ معاملَةٍ ، وهي مصدر عامَلٌ على وزن فاعَل ، وفَاعَلَ صيغةٌ تدلُّ على المُشاركة كثيراً : ضَارَبَ ، وَقَاتَلَ ونحوها ، وفي المصباح المنير : وعاملته في كلام أهل الأمصار يُرادُ به : التَّصَرُّفُ من البيع ونحوه .

وأما في الاصطلاح : فإنهم يُطَلِّقُونَ هذه الكلمة « معاملات » على الأحكام الشرعية المتعلقة بأمر الدنيا كالبيع والشراء والإجارة والشركة والرهن والسلم والوكالة والكفالة وغير ذلك^(١) .

- وللمعاملات ضوابط تُبْنَى عليها أحكامها ، وأشهر هذه الضوابط هي :

الضابط الأول : الأصل في المعاملات الحل .

الضابط الثاني : الأصل في الشروط في المعاملات الحل .

الضابط الثالث : منع الظلم .

الضابط الرابع : منع الغرر .

الضابط الخامس : منع الربا .

الضابط السادس : منع الميسر^(٢) .

(١) انظر : « المصباح المنير » للفيومي (٢ / ٤٣٠) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٦٢٨) مادة (عمل) ، و « القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً » للدكتور سعدي أبو حبيب (٢٦٣) .

(٢) وذكر هذه الضوابط الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في مواضع متفرقة من كتابه : « الشرح الممتع على زاد المستقنع » ، انظر (٨ / ٢٣٦) ، (٩ / ١٨) ، (٩ / ٩٢) ، (٩ / ٤٤٤) ، وقال في (٩ / ١٣٤) : « المعاملات الممنوعة - كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ وقوله صحيح - مبناها على ثلاثة أشياء : الظلم ، والغرر ، والميسر » .

والم تأمل لتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يَلْحَظُ بروز مجال الدعوة إلى المعاملات ، وذلك عند تفسيره للآيات المتعلقة بالمعاملات وغيرها كما سيأتي .

- المضامين الدعوية المتعلقة بالمعاملات :

أولاً : أهمية المعاملات والدعوة إليها في القرآن الكريم ، وردَّ شبهة المعترضين على ذلك .

وذلك عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لآية الدين ، قال في أول فائدة منها : « في هذه الآية الكريمة فائدة عظيمة جداً ، وهي عناية القرآن الكريم بالبيع والشراء والديون ، فيكون فيه ردُّ لقول من يقول : « إن الإسلام إنما جاء لإصلاح ما بين العبد وبين ربه ، وهو العبادة ، وأما المعاملات الجارية بين الناس ، فإن الناس أعلم بما يصلح دنياهم) ، فإن هذا كذب وافتراء على القرآن .

القرآن فيه تفصيل كل شيء ، والسنة بينت المُجْمَل منه وفصّلته ، فنقول لهؤلاء الذين ادّعوا هذه الدعوى الكاذبة الباطلة ، نقول لهم : إنَّ أطول آية في كتاب الله جاءت في المعاملات ، مما يدل على عناية القرآن بالمعاملات »^(١) .

وفي موضع آخر قال : « ومن فوائد هذه الآية : بيان أن الدين الإسلامي كما يعتني بالعبادات التي هي معاملة الخالق - فإنه يعتني بالمعاملات الدائرة بين المخلوقين .

- ومنها : دحر أولئك الذين يقولون : إن الإسلام ما هو إلا أعمال خاصة بعبادة الله عزَّ وجلَّ ، وبالأحوال الشخصية ، كالمواريث ، وما أشبهها ؛ وأما المعاملات فيجب أن تكون خاضعة للعصر ، والحال ؛ وعلى هذا فينسلخون

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٤٦) .

من أحكام الإسلام فيما يتعلق بالبيع ، والإجازات وغيرها ، إلى الأحكام الوضعية المبنية على الظلم ، والجهل .

فإن قال قائل : لهم في ذلك شبهة ؛ وهو أن الرسول ﷺ حين قدم المدينة ، ورآهم يلحقون الثمار قال : « لو لم تفعلوا لصلح » فخرج شيصاً أي فاسداً- ؛ فمر بهم فقال : « ما لنخلكم ؛ قالوا : قلت كذا ، وكذا ؛ قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم »^(١) ؛ قالوا : والمعاملات من أمور الدنيا ، وليست من أمور الآخرة؟!

فالجواب : أنه لا دليل في هذا الحديث لما ذهبوا إليه ؛ لأن الحادثة المذكورة من أمور الصنائع التي من يمارسها فهو أدرى بها ، وتُدرك بالتجارب ؛ وإلا لكان علينا أن نقول : لا بد أن يعلمنا الإسلام كيف نصنع السيارات والمسجلات ، والطوب ، وكل شيء!! أما الأحكام الحلال ، والحرام- فهذا مرجعه إلى الشرع ؛ وقد وفي بكل ما يحتاج الإنسان إليه »^(٢) .

ثانياً : الدعوة إلى الكسب الطيب في المعاملات .

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : الإشارة إلى أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال على وجه طيب ، والطيب هنا ضد الخبيث ، والخبيث : كل ما يحرم ما يحرم من تصرّف ؛ ولهذا قال النبي ﷺ : « ثمن الكلب خبيث ، ومهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث » ، فيستفاد من هذا كما قلت أنه يجب أن يكون ما تأكله مما في الأرض من الحلال ، مُكْتَسَبًا على وجه مشروع »^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤١٠-٤١١) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٣٩) .

ثالثاً : التحذير من الكسب الخبيث في المعاملات وبيان أنواعه وأوجه كسبه .

قال الشيخ رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٠] : « من فوائد الآية : تحريم أكل الخبيث ، والخبيث نوعان : خبيث لذاته ، وخبيث لكسبه ، فالخبيث لذاته كالميتة ، والخنزير ، والخمر ، وما أشبهها ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ [الأنعام : ١٤٥] أي نجس خبيث ، وهذا محرم لذاته ، محرم على جميع الناس ، وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش ، أو عن طريق الربا ، أو عن طريق الكذب ، وما أشبه ذلك ، وهذا محرم على مكتسبه ، وليس محرماً على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح ، ويدل لذلك أن النبي ﷺ كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت ، ويأخذون الربا ، فدل ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب » (١) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٨٦] : « ومن فوائدها : التحذير من اختيار الدنيا على الآخرة ، ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة ؛ كالربا ، والغش ، والكذب ، وغير ذلك من أجل أن ينال عَرَضًا من الدنيا ؛ فإن هذا من السفه والخطأ ؛ لأن الدنيا زائلة فانية ، والآخرة هي الباقية ، وقد حذر النبي ﷺ من هذه الفتنة في قوله ﷺ : « إنها ستكون فتن ؛ كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي

مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا» (١) «(٢) .

رابعًا : سدّ باب الحِيل في المعاملات ، وأنه من التشبه باليهود .

وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ومن فوائد الآية : تحريم الحِيل ، وأن المتَحِيل على المحارم لا يخرج عن العدوان ؛ لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ ؛ بل الحِيل على فعل محرم أعظم إثمًا من إتيان المحرم على وجه صريح ؛ لأنه جمع بين المعصية ، والخداع ، ولهذا كان المنافقون أشد جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء ، قال أيوب السخيتاني رَحِمَهُ اللهُ في المتَحِيلين : « إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون » ؛ وصدق رَحِمَهُ اللهُ ؛ وللحيل مفسد كثيرة . راجع إن شئت كتاب « إغاثة اللهفان » لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (٣) وغيره (٤) .

(١) أخرجه مسلم (١١٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٤٢) .

(٣) انظر : « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » لابن القيم (١ / ٣٣٨) وما بعدها ، حيث قال : « فصل : ومن مكايده التي كاد بها الإسلام وأهله : الحيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه ، وهى من الرأى الباطل الذي اتفق السلف على دمه ... » ثم أسهب في بيان ذلك .
وانظر : « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (٣ / ١٢٩) .

(٤) قال ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٣٠ / ٢٢٣) : « وهذا يعلم من قاعدة إبطال الحيل فإن كثيرا منها يتضمن من الفساد والضرر أكثر مما في إتيان المنهي عنه ظاهرا كما قال أيوب السخيتاني : يخادعون الله . كأنما يخادعون الصبيان لو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون علي » .

وأنت إذا تأملت حيل اليهود في السبت ، وحيلهم في بيع شحوم الميتة وقد حرمت عليهم ، ثم أذابوها ، وباعوها ، وأكلوا ثمنها ؛ وتأملت حيل بعض المسلمين اليوم على الربا وغيره وجدت أن حيل بعض المسلمين اليوم على ما ذكر أشد حيلة من حيل اليهود ومع ذلك أحل الله بهم نعمته ، وقد نهانا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »^(١) ؛ فالمتحيل على المحرم واقع فيه ، ولا تنفعه الحيلة »^(٢) .

خامساً : التحذير من الربا في المعاملات ، والمسائل المعاصرة فيه .

تقدم في الضوابط بيان الأبواب الكبيرة من المحرمات التي يندرج تحتها المحظورات في المعاملات ، ولما كان الربا من أعظمها ، وأيسرها وقوعاً ، وكثرة من يفتتن بماله ، جاءت الآيات في التحذير منه أكثر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] ، قال الشيخ رحمه الله في فوائدها : « ومن فوائد الآية : وجوب ترك الربا وإن كان قد تم العقد عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ؛ وهذا في عقد استوفي بعضه ، وبقي بعضه .

- ومنها : أنه لا يجوز تنفيذ العقود المحرمة في الإسلام وإن عقدت في حال الشرك ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ ، ولقول النبي ﷺ في خطبته في عرفة عام حجة الوداع : « وربا الجاهلية موضوع ؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله »^(٣) ؛ ولكن يجب أن نعلم أن

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٦) ، ومسلم (١٥٨١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٣٠ - ٢٣١) .

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) .



العقود التي مضت في الكفر على وجه باطل ، وزال سبب البطلان قبل الإسلام فإنها تبقى على ما كانت عليه ، مثال ذلك : لو تباع رجلان حال كفرهما بيعاً محرماً في الإسلام ، ثم أسلما فالعقد يبقى بحاله ، ومثال آخر : لو تزوج الكافر امرأة في عدتها ، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها فالنكاح باق ، ولهذا أمثلة كثيرة .

- ومن فوائد الآية : تحريم أخذ ما يسمى بالفوائد من البنوك ؛ لقوله تعالى : ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ؛ وزعم بعض الناس أن الفوائد من البنوك تؤخذ لثلاث يستعين بها على الربا ، وإذا كان البنك بنك كفار فلثلاث يستعين بها على الكفر ، فنقول : أنتم أعلم أم الله !! وقد قال الله تعالى : ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ ؛ والاستحسان في مقابلة النص باطل .

فإن قال قائل : إذا كان البنك بنكاً غير إسلامي ، ولو تركناه لهم صرفوه إلى الكنائس ، وإلى السلاح الذي يقاتل به المسلمون ، أو أبقوه عندهم ، ونما به رباهم ؛ فنقول : إننا مخاطبون بشيء ، فالواجب علينا أن نقوم بما خاطبنا به ، والنتائج ليست إلينا ، ثم إننا نقول : هذه الفائدة التي يسمونها فائدة هل هي قد دخلت في أموالنا حتى نقول : إننا أخرجنا من أموالنا ما يستعين به أعداؤنا على كفرهم ، أو قاتلنا؟

والجواب : أن الأمر ليس كذلك ، فإن هذه الزيادة التي يسمونها فائدة ليست نماءً أموالنا ، فلم تدخل في ملكنا ، ثم إننا نقول له : إذا أخذته فأين تصرفه؟ قال : أصرفه في صدقة ، في إصلاح طرق ، في بناء مساجد تخلصاً منه ، أو تقريباً به ، نقول له : إن فعلت ذلك تقريباً لم يقبل منك ، ولم تسلم من إثمه ؛ لأنك صرفته في هذه الحال على أنه ملكك ، وإذا صرفته على أنه ملكك لم يقبل منك ؛ لأنه صدقة من مال خبيث ، ومن اكتسب مالاً خبيثاً فتصدق به لم يقبل منه ؛ لقول

النبي ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »^(١) ؛ وإن أخرجته تخلصاً منه فأى فائدة من أن تلتطخ مالك بالخبث ، ثم تحاول التخلص منه ، ثم نقول أيضاً : هل كل إنسان يضمن من نفسه أن يخرج هذا تخلصاً منه ؟! فربما إذا رأى الزيادة الكبيرة تغلبه نفسه ، ولا يخرجها ، أيضاً إذا أخذت الربا ، وقال الناس : إن فلاناً أخذ هذه الأموال التي يسمونها الفائدة ، أفلا تخشى أن يقتدي الناس بك ؟! لأنه ليس كل إنسان يعلم أنك سوف تخرج هذا المال ، وتخلص منه .

ولهذا أرى أنه لا يجوز أخذ شيء من الربا مطلقاً ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ؛ ولم يوجه العباد إلى شيء آخر^(٢) .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ، وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ، قال : « تبين مما ذكر من الآيتين أن المعاملة بالدين ثلاثة أقسام :

الأول : أن يأخذ به ربا ، وهذا محرم ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

الثاني : أن يكون المدينُ مُعْسِراً ، فلا تجوز مطالبته ، ولا طلب الدين منه حتى يوسر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ .

الثالث : أن يرى المُعْسِر من دينه ، وهذا أعلى الأقسام ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٨٥) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣٩٥) .

سادساً : الدعوة إلى حسن التعامل في المعاملات الدائرة بين الناس .

روى البخاري في « صحيحه » من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا :
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قال : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا
اِقْتَضَى »^(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جمع
فقال : رحم الله امرأً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى ،
وكذلك سمحاً إذا قضى ، فقلوه (: « رحم الله امرأً » أو : قال « رجلاً » هذا
خبر بمعنى الدعاء ؛ يعني : يدعو له بالرحمة إذا كان سمحاً في هذه المواضع
الأربعة : سمحاً إذا باع لا يشتد على المشتري ويكون سهلاً يواضعه ويضع
عنه ، سمحاً إذا قضى إذا قضى غيره كان سمحاً يعطيه في وقته ولا يماطل ،
كذلك سمحاً إذا اشترى ، وكذلك سمحاً إذا اقتضى إذا أخذ حقه فهذه الأحوال
الأربعة ، ينبغي للإنسان أن يكون سمحاً فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ »^(٢) .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « ولو أن الناس مشوا على تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا الباب لسلمت
أحوال الناس من المشاكل ؛ لكن نجد الغني يماطل : يأتيه صاحب الحق يقول :
اقضني حقي ، فيقول : غداً ، ويأتيه غداً فيقول : بعد غد ، وهكذا ، وقد ثبت عن
النبي ﷺ أنه قال : « مطل الغني ظلم »^(٣) ، ونجد أولئك القوم الأشحاء ذوي الطمع
لا يُنظرون المعسر ، ولا يرحمونه ؛ يقول له : أعطني ، وإلا فالحبس ، ويحبس
فعلاً وإن كان لا يجوز حبسه إذا تيقنا أنه معسر ، ولا مطالبته ، ولا طلب الدين ،
بل يعزر الدائن إذا ألح عليه في الطلب وهو معسر ؛ لأن طلبه مع الإعسار معصية ،

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (٥ / ٤٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٨٧) ، ومسلم (١٥٦٤) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٥٥).

كي لا يتحول نعمة ، أو يكون أداة قهر وظلم للناس بين بعضهم البعض ، أو غرر في كسبهم وأرزاقهم ، بل يكون نعمة كما أراد الله تعالى ، ينعم بها الإنسان في الدنيا ، وتدخر له الأجر يوم الحساب ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] ، في مجال التعامل بين الناس بالأموال نسب الله تعالى المال إلى البشر فقال : ﴿ أَمْوَالُكُمْ ﴾ ؛ كي يحرصوا عليه ويراعوا حق الله وحق الناس فيه ، بلا ظلم ولا غرر ولا ربا ، ولا تصرفٍ محرمٍ فيه بتبذير أو إسراف أو كسب خبيث ونحوه مما يناقض حفظ هذه النعمة ، والحفاظ على المقصود الشرعي في إباحتها ، ومن المشروع الذي حث عليه الإسلام الكسب الطيب لهذا المال كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، وحفظ الإسلام للأمة حسن التعامل بينهم في المعاملات وذلك بسد كل ما يفضي للنزاع وسلب الحقوق والحيل ، ودعا إلى السماح في البيع والشراء فقال ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى »^(١) ، وإذا سادت السماح وحسن التعامل في المعاملات بين الناس ، حُقق مصالحهم ، وحُفظت أموالهم ، وبذلوا أسباب عيشهم ورزقهم في هذه الأرض على الوجه الذي أراده الله تعالى وحث عليه ، مستجيبيين لأمره جل وعلا في قوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨] .

المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقدوة الحسنة

التربية الصالحة هي الأساس المتين في بناء الفرد الصالح والأسرة السليمة والمجتمع الفاضل ، وتخريج القدوة الحسنة في المجتمع ، والحاجة لها ماسة لاسيما والمربون اليوم- من آباء ومعلمين وعلماء وغيرهم يواجهون حرباً إعلامية ضارية ، ومؤثرات مجتمعية وفكرية داخلية وخارجية جديدة تعرقل مسيرة التربية الصحيحة ، ولقد حثَّ الإسلام على هذه التربية وحمل الآباء أمانة تربية الأبناء وتأديبهم وتعليمهم ما أوجهه الله عليهم ، وتهيئتهم للغاية التي خلقهم الله لأجلها ، دون تمييز بين الذكر والأنثى ، فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ، وقال تعالى أيضاً : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] .

ولأهمية التربية الصالحة جعل الإسلام كل فرد في المجتمع على اختلافهم واختلاف طبقاتهم- له نصيب من هذه التربية والمسؤولية سواء لنفسه أو لمن تحت يده ، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» ^(١) ، وحذّر الإسلام من تضييع هذه التربية وجعلها من ضمن الأمانات الواجب حفظها ، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » ، ولفظ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٩) ، ومسلم (١٨٢٩) .

البخاري: « مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً ، فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » (١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: « الخطاب للأمة جميعاً يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راع ومسؤول عن رعيته . والراعي هو الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحته فيهيئها له ، ويرعى مفاصله فيجنبه إيها ، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع حتى يذهب بالغنم إليه ، وينظر في المكان المجذب فلا يتركها في هذا المكان ، هكذا بنو آدم كل إنسان راع » (٢) .

ولقد حثَّ الله تعالى على التربية الصالحة في النفس وفي الغير بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: « ﴿ رَبَّيْنَ ﴾ نسبة إلى الربِّ ، ونسبة إلى التربية ، فالرباني هو من كان عبداً للرب عَزَّوَجَلَّ ، الرباني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة ، فالرباني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية ، فباعتباره مضافاً إلى الله ربوبية ، وباعتباره مضافاً إلى الإصلاح تربية .

﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ : أي مخلصين للرب متعبدين له .

﴿ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ : أي مربين للخلق على ما تقتضيه الشريعة .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ﴾ : الباء هنا للسببية ، أي بسبب تعليمكم الكتاب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ﴾ ؛ لأن الذي يعلم الكتاب مربِّ ، ولهذا كلما كثر

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٠) ، ومسلم (١٤٢) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (٣ / ١٤٩) .

الطلبة عند شخص كثرت تربيته للناس ؛ لأن المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جديلاً ؛ لأن هذا يمكن أن يدركوه بالكتب ، لكنه ينبغي أن يعلمهم تعليماً نظرياً وتعليماً تربوياً ، وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه- ، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليماً مقروناً بالتربية مصحوباً بها ، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك ، فلننظر مثلاً إلى سيرة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس ، ومنع المطلق ثلاثاً من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يردع الناس . فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علماً فحسب ، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علماً وأخلاقهم تربية» (١) .

والقرآن الكريم بأوامره ونواهيه ، وأحكامه وقصصه وعبره كتاب تربية يستقي منه المتربون والمربون مناهج تربيتهم الصالحة ، قال الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « فالقرآن ليس كتاب فقه ؛ ولكنه كتاب تربية ، وتهذيب للأخلاق » (٢) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والتي تساعد على تزكية النفس وتسمو بها نحو التربية الصالحة لتكون قدوة حسنة في المجتمع ، ما يلي :

أولاً : استشعار مراقبة الله تعالى لحياة العبد في كل جليلة ودقيقة ، قال الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٥] :

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٥٣ - ٤٥٤) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٥٠) .

« وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله عَزَّجَلَّ أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وهي صفة سلبية المراد بها بيان كمال علمه ؛ لأن الصفات المنفية لا يراد بها مجرد النفي ، وإنما يراد بها بيان كمال ضد ذلك المنفي .

والغرض من هذه الجملة تربية الإنسان نفسه في امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وأنت لا تظن أن عملك يخفى على الله ، بل هو معلوم له ، فعليك أن تقوم بطاعته وتجتنب معصيته . لا تقل : أنا في بيتي أو في غرفتي لا يطلع عليّ أحد ، فالله تعالى مطلع عليك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) .

ثانياً : إدراك أهمية التربية الصالحة وعظم المسؤولية ، والقيام بواجبها ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَهُمُ الرَّبَّيْنُوتُ ﴾ [المائدة : ٦٣] : « الفائدة السابعة : عظم مسؤولية المربين والعلماء لقوله : ﴿ لَوْلَا يَنْهَهُمُ الرَّبَّيْنُوتُ ﴾ فجعل الله اللوم على الربانيين والأخبار ؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب الله عليهم من نهْي هؤلاء عن قولهم الإثم وأكلهم السحت .

الفائدة الثامنة : أن الواجب على العلماء والمربين النهي عن المحرم ، لكن هل عليهم أن يهدوا الناس ؟

الجواب : لا ؛ لقول الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، ولقول الله تعالى : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، ولقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، فالإنسان إذا نهى أبرأ ذمته سواء امتثل من نهاه أم لم يمتثل » (٢) .

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٢٤) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٠٣) .

ثالثاً : تربية النفس على مخالفة الهوى وتذكر انحطاط وسوء عاقبة مرتبته ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٢٧] ، قال الشيخ رحمه الله في فوائدها : « الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يتبعون الشهوات ، حيث جعلهم الله أتباعاً تقودهم الشهوات ، ومن الذل أن يكون الإنسان تابعاً للشهوات ؛ لأن العزة أن يكون الإنسان متبوعاً ، فإذا كان تابعاً فمعناه أن شهواته ملكته حتى صار تابعاً ، وكأنه مجبر على ذلك .

- أن إرادة المتبعين للشهوات بنا لا تقتصر على أدنى ميل ، وتؤخذ من قوله : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ ، فإذا كان كذلك فإننا إذا ملنا قليلاً تابعوا حتى نميل ميلاً عظيماً ، نسأل الله السلامة!! » (١) .

رابعاً : التأسي بالقدوات الصالحة ، والتسلية بحالهم ومصابهم ، قال الشيخ رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران : ١٨٤] : « من فوائد الآية الكريمة :

- تسلية الرسول ﷺ ، ويتفرع عليها أن يتسلى الإنسان في كل ما أصاب غيره ، فمثلاً : الأمر بالمعروف أو الناهي عن المنكر قد يؤذى فليتسلى بأذى غيره ؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره أصيب بما أصيب به لا شك أنه ينسى الحزن ، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرأ :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يكون مثل أخي ولكن أُسَلِّي النفس عنه بالتأسي^(١)
 الشاهد هنا قولها : « أُسَلِّي النفس عنه بالتأسي » ، فالإنسان إذا نظر يميناً
 وشمالاً ، وإذا هذا مصاب بعقله ، وهذا مصاب ببدنه ، وهذا مصاب بأهله ،
 وهذا مصاب بماله ؛ يتسلى .

كذلك الرسول ﷺ إذا قال الله له : ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ فَاتِكَ ﴾ ، لا شك أنه
 تهون عليه المصيبة وأنه يتسلى بذلك ؛ لأنه بشر يلحقه من أحكام البشرية ما
 يلحق غيره^(٢) .

خامساً : الإيمان بأسماء الله الحسنى التي ختمت بها الآيات واستشعارها ،
 وتأمل آثارها الإيمانية والمسلكية .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « وهذه الأسماء التي تختم بها الآيات ينبغي للإنسان
 ألا يكون جامداً فيفهم منها المعنى فقط ، بل ينبغي أن يتربى عليها ، ويكون
 مسلكه على حسب ما تقتضيه هذه الأسماء ، فمثلاً : إذا علمت أن الله علام
 الغيوب ، ليس معناه أن تدرك بأن الله يعلم بكل شيء فقط ، فهذا الإدراك يستوي
 فيه الكافر والمسلم ، حتى الكفار الذين يعرفون اللغة العربية يعرفون مثل هذا
 اللفظ ، لكن المهم هو التربي بمقتضى هذا الوصف وهو علم الغيب ، وهذه
 مسألة مهمة لا يفطن لها كثير من الناس^(٣) .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا

(١) انظر : « ديوان الخنساء » (٦٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (٢ / ٥٠٩) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٨٦) .

فَقَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧﴾ ، قال : « ما الذي نستفيد من هذين الاسمين الكريمين : السميع ، والعليم ؟

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة ؛ وهي أن نحذر من أن نتكلم بما لا يرضي الله ؛ لأننا إن تكلمنا سمعه الله عَزَّوَجَلَّ ، ونحذر من أن نضمّر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى عنا ؛ لأنه سوف يعلمه ، ثم ينبئنا بما عملنا يوم القيامة » (١) .

سادساً : النظر للنفس بعين النقص والتقصير سبب في استدراك الخلل التربوي ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤] : « من فوائد الآية : أن الإنسان قد يغره ما هو عليه من الدين ؛ لقوله : ﴿ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ، فيغترّ بأنه يصلي ويزكي ويصوم ويحج ، ثم يقول في نفسه : لن أعذب ، وهذا قصور في النظر ؛ لأنه ليس الشأن أن تصلي أو تزكي أو تصوم أو تحج ، الشأن كل الشأن أن يقبل منك هذا العمل ، كم من عامل ليس له من عمله إلا التعب لوجود مبطل سابق أو لاحق .

فالسابق كعدم الإخلاص مثلاً ، واللاحق : كالأعجاب بالعمل ، والإدلال به على الله عَزَّوَجَلَّ ، وأن يرى الإنسان لنفسه حقاً على ربّه .

وقد يتلى الإنسان بالبدعة !! كم من أناس يحبون الخير وعندهم رغبة ومحبة لله ورسوله ، ولكن لجهلهم يتدعون في دين الله ما ليس منه ، فيكون عملهم مردوداً ؛ لأن من شرط قبول العمل أن يكون موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ؛

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٤٣) .

لقوله ﷺ: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(١) «^(٢) .

سابعاً : حمل النفس على التواضع في معاملة الآخرين ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] : « الفائدة السابعة والثامنة : الثناء على من كان ذليلاً على المؤمنين ، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتطامن ويتواضع ، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عَزَّجَلَّ ، عكس ذلك يؤخذ منه فائدة ثانية ، وهي أن ترفع الإنسان على إخوانه المسلمين ، ليس محموداً عند الله بل ولا عند الخلق ، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازدادت تواضعاً ، وكلما ازداد علمك ازدادت تواضعاً ، بعض الناس ، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم ، إذا ازداد علمه انتفخ وتكبر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه ، وصار إذا كلمه الناس يتجاهل ، يقول : ماذا تقول ، وهو يدري ، قد ملأ سمعه كلامه ، لكن من باب الاستكبار ، وهذا لا شك أنه نقص عظيم ؛ لأنه كلما كثر علمك ينبغي أن يكثر تواضعك »^(٣) .

هذه أبرز المعالم التي نصَّ عليها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في التربية الصالحة ، وأما الجوانب الإيمانية ، والآثار السلوكية التي احتوى عليها كتاب الله تعالى وبينها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره فكثير ، ذلك أن القرآن الكريم هو منهج التربية الصحيحة لمن رام تنشئة قدوة حسنة في المجتمع ، وكان المقصود من إيراد النماذج السابقة الوقوف على مضامين دعوية تتعلق بالتربية الصالحة ، وربما ناقش الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بعض نظريات

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ١٥٠) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٣) .

التربية التي يوردها المعاصرون ، ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ ذُشُورَهُمْ﴾ فَعِظُوهُمْ ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ﴾ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ ﴿[النساء : ٣٤] ، قال : « من فوائد الآية : بطلان قول بعض علماء التربية المعاصرين الذين يقولون : إنه لا تحصل التربية بالضرب ، تؤخذ من قوله : ﴿وَأَضْرِبُوهُمْ﴾ ، وفي السنة شاهد على ذلك أيضاً ، وهو قوله ﷺ : « واضربوهم عليها لعشر »^(١) ، وبهذا يبطل قول علماء التربية الذين قالوا : إن الضرب لا يفيد وإنما يقسي القلب »^(٢) .

والمسلم من خلال هذه المضامين يعرف أن تهية القدوة الحسنة في المجتمع لابد أن يسبقها تربية صالحة ؛ لأن القدوة الحسنة ثمرة التربية الصالحة ، وأشارت المضامين السابقة إلى أن القدوة لها دورٌ كبير في إعلاء الهمم وإصلاح المسلمين ، فمن كان عالي الهمّة اقتدى به غيره ، فأصلح نفسه وأصلح غيره ، ولن يتم له بنیان الاقتداء الحسن إلا بعد أن يهذب النفس بما يحبه الله تعالى ويرضاه مستشعراً مراقبة الله تعالى له في حياته ، مريياً نفسه على مخالفة الهوى ، واستشعار سوء عاقبته ، وانحطاط منزلته ، متأسياً بالقدوات الصالحة في واقعه أو في كتب التراجم التي تزخر بقدوات الأمة ، ومتأسياً بما لاقوه من الكبّد والعناء للوصول بالنفس إلى أعلى الرتب ، مدركاً أن هذا لا ينال إلا بالصبر واليقين ، وهو في إصلاحه لنفسه يجتهد في سدّ خللها وما

(١) أخرجه أحمد (٢٨٤ / ١١) (٦٦٨٩)، وأبو داود (٤٩٥) قال الألباني: «إسناده حسن صحيح». وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «إسناده حسن» انظر: «صحيح أبي داود» (٢ / ٤٠١)، و«صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢ / ١٠٢١) (٥٨٦٨)، و«إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (١ / ٢٦٦) (٢٤٧).

(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٩٩).

يعتريها من النقائص في مسيرته التربوية ، حاملاً نفسه على التواضع في معاشرته الآخرين ، داعياً الله جل وعلا أن يجعله قدوة صالحة كما قال تعالى عن عباد الرحمن في دعائهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ : « ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي : أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية ، درجة الصديقين والأكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الإمامة في الدين وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم يقتدى بأفعالهم ، ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون .

ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به ، وهذه الدرجة درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] ، فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين ، خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل ^(١) .

وإذا أدرك العبد حاجة الأمة إلى القدوات الحسنة ، وعرف أن طريق ذلك لا يكون إلا بتهديب النفس في علاقتها مع الله أولاً ، ثم في معاشرتها للخلق ، وذلك على نهج قدوات الأمة وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، سار إلى هذا الهدف العظيم ؛ ليجعل من نفسه أداة بناء في مجتمعه ، فالقدوة الحسنة نموذج إنساني حي ، يعيش ممثلاً ومُطَبِّقاً لذلك المنهج الرباني الذي جاء به القرآن ،

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥٨٨) .

وتقدّم من خلال الآيات السابقة مضامين مهمة في بناء القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي .



المبحث الثاني
القضايا الدعوية المعاصرة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير

ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لها .

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة

أنزل الله تعالى كتابه تبياناً وهداية لكل ما يحتاجه العباد من شأن الدنيا والآخرة ، وجعل الهداية والرحمة والبشر منامة بالتمسك بهذا الكتاب فقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، أي كُلُّ شَيْءٍ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم بيناه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه ^(١) .

قال ابن كثير رحمه الله : « وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم » ^(٢) .

فما من نازلةٍ إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حكمها ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله ، إما بنص الكتاب والسنة أو استنباط المجتهدين منهما ، أو مما تفرع عنهما من أصول الشريعة بالقياس ، أو بالتخريج على القواعد والأصول ، أو برده إلى المقاصد العامة للشريعة ؛ تحصيلاً للمصالح ، ودفعاً للمفاسد .

يقول الماوردي : « ليس من حادثةٍ إلا والله فيها حكمٌ قد بينه من تحليلٍ أو تحريم ، وأمر ونهي » ^(٣) .

(١) انظر : « زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي (٢ / ٥٧٨) ، و« محاسن التأويل » للقاسمي (٦ / ٤٤٧) .

(٢) « تفسير القرين العظيم » (٤ / ٥١٠) .

(٣) « أدب القاضي » (١ / ٥٦٥) .

ويقول الشاطبي: « فلا عمل يُفرض ولا حركة ولا سكون يُدعى إلا والشرعية عليه حاكمةٌ إفراداً وتركيباً »^(١).

والقضايا: جمع قضية وهي مأخوذة من قضى، وهي الأمر المتنازع عليه، وتعرض على المجتهد أو القاضي ليقضي فيها^(٢).

والقضايا الدعوية المعاصرة هي وقائع، تنزل بالفرد أو المجتمع، وهي إما وقائع معروفة من قبل واعتراها تغيير حادث، أو لم تكن معروفة قبل ذلك؛ نظراً لتطور العصر في المجالات الحياتية المختلفة، وبالتالي تتطلب تناولاً سريعاً يعتمد على الكتاب والسنة، لتعالج ما يحتاجه الناس من منظور دعوي، وأعلم الناس في هذا الباب هم العلماء الربانيون الذين أمرنا الله تعالى بالرجوع إليهم عند نزول أمر بالمؤمنين؛ لما عندهم من العلم وبعد النظر، وقوة الاستنباط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: « هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها... وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي أنه إذا حصل بحث في

(١) « الموافقات » (١ / ١٠٨)

(٢) انظر: « لسان العرب » لابن منظور (١٥ / ١٨٧)، و« النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير (٤ / ٧٨). مادة (قضى).

أمر من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله ، ولا يتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ» (١) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « وقوله : ﴿وَالْيَ أُولِيَ الْأَمْرِ﴾ ، أولوا الأمر هنا يتعيَّن أنهم العلماء ؛ لأنهم هم أهل العلم الذين ورثوا النبي ﷺ بعد موته ، والذين شاركوه فيما شاركوه فيه في حال حياته » (٢) .

إن من أمثل الشخصيات المعاصرة التي أولت القضايا الدعوية المعاصرة اهتماماً بالغاً الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وذلك في سائر مجالسه العلمية والدعوية وكتبه ولقاءاته ، وغالباً لا تكاد تقرأ في شيء من ميراثه العلمي إلا وجدت ربطه بواقع الناس ، مما جعل لشيخنا رَحِمَهُ اللهُ الأثر البالغ في واقع الناس وما ينزل بهم من وقائع حتى بعد وفاته ، ويظهر هذا جلياً في تفسيره للقرآن الكريم ، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ يحثُّ على ربط القرآن بحياة وواقع الناس ؛ ليجنوا أثر وبركة كتاب الله تعالى في الحياة إن عقلوه وجعلوه منهج حياة ، وعزا تخلف الناس اليوم في حياتهم إلى بعدهم عن كتاب الله تعالى وتطبيقه ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] : « من فوائد الآية : الحثُّ على فهم كتاب الله ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه ، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين اليوم على غير هذا المنهج ؛ أي : أنهم يقرأون القرآن للتعبد بلفظه فقط ، دون أن يفهموا معناه ، أو أن يطبقوا أحكامه ، وهذا بلا شك قصور عظيم ؛ ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين ؛ حيث تخلفوا كثيراً عما كان عليه السلف الصالح من

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (١٩٠) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٢٣) .

تطبيق القرآن لفظاً ومعنى وعملاً ، ففاتهم بذلك خير كثير ^(١) .

ولا يقتصر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تناوله للقضايا المعاصرة في تفسيره - على محيطه أو مجتمعه ، بل يربط واقع الأمة الإسلامية المعاصر وما يعتريه بكتاب الله تعالى ، ويبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أثر الابتعاد عن القرآن وتطبيقه على الأمة الإسلامية كما هو واقع المسلمين اليوم ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [آل عمران : ١٢] ، قال : « الذين آمنوا إيماناً حقيقاً مصداقاً بالعمل سوف يغلبون بلا شك الكفار .

ولكن إذا قال قائل : ماذا تقول في الأمة الإسلامية اليوم ، فإنها مغلوبة على أمرها ، والكفار يستذلونها غاية الذل ، ويحاربونها من كل وجه بكل أنواع السلاح ؟ فجوابنا أن نقول : إن الأمة الإسلامية ليس لهم من الإسلام إلا اسمه فقط ، ولا من القرآن إلا رسمه ، ولذلك تجد الواحد منهم يُعَظَّم القرآن تعظيماً متعدياً لحدود الشرع ، ولكنه تعظيم رسم ؛ يُقَبَّل القرآن ، يضعه على جبهته ، لكن لا يعمل بما فيه إلا نادراً ، حتى إنه ربما يفعل ذلك وهو يشرك بالله ويدعو غير الله ، أين العمل بالقرآن ؟ !

وإذا نظرت نظرة فاحصة في العالم الإسلامي اليوم وجدت أنه لا يمثل الإسلام حقيقة ، وجدت أنواعاً كثيرة من البدع العقدية والعملية ، وجدت أنواعاً كثيرة من نقض العهد والغدر والخيانة والكذب والغش ؛ فأين الإسلام ؟ ليس هو إلا اسم ، ومن ثم لم تغلب الذين كفروا ، بل الذين كفروا هم الذين غلبونا في الواقع ، وهم الذين لهم الآن السيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، فنحن

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٢٤ - ٢٢٥) .

(۲) «تفسير سورة يس» (۱۰۲-۱۰۳).

أ- التأصيل الشرعي للقضايا النازلة ، وذلك بربطها بالكتاب والسنة ، وكلما يورد رأياً في نازلة إلا وهي مقرونة بالأدلة ، مع اتباعها بدلالة العقل ؛ لطمأنة القلب بتوافر الأدلة ، وبيان عدم التعارض بين المنقول والمعقول .

ب- ربط المسائل المعاصرة بأصولها ، فكل نازلة في الأعم الأغلب لها أصول شرعية وقواعد ، فيُرجع هذه النازلة لأصولها مراعيًا المصالح والمفاسد والمآلات التي ربما تحصل في المستقبل .

ج- مراعاة حال الواقع المعاصر ، وذلك أثناء الحكم على النوازل بما يتناسب مع المصالح والمفاسد والمقاصد الشرعية ، والاستفادة مما ثبت بالتجربة والنظر في النتائج الحادثة ، مما جعل أحكامه محل قبول واطمئنان في المجتمع ؛ لأنها صادرة عن بَصَرٍ وُبُعدٍ نظر للقضايا النازلة بما يوافق الحال .

د- حسن التقرير والتفصيل والتقسيم ، ففي عرض الشيخ رَحِمَهُ اللهُ للمسائل المعاصرة لا تكاد تجد تداخلاً بين الأقسام التي يذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إن كانت النازلة تحتمل أكثر من وجه ، بما تقتضيه الأدلة ، مراعيًا التدرج في عرض المسألة وتقريرها ، وحسن التفريع عليها ، بأسلوب ميسر جامع مانع .

هـ- الاستفادة من أهل الخبرة والنظر في النازلة ، فقد راعى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الجانب في أحكامه وآرائه تجاه القضايا النازلة ، فيستفيد من أهل الاختصاص سواء كان في الطب أو الفلك أو أهل أي فنٍّ نزلت فيه نازلة تتطلب حكماً أو نهجاً شرعياً .

و- منهجه في الرد على المخالفين ، سواء كان ذلك في القضايا المعاصرة أو غيرها ، منهج أهل الحق والعدل دون تشهير بالمخالف أو تنقص منه ، بأسلوب

علمي مُحَكَّم مقترن بالعدل والإنصاف ، وإجلال النص^(١) .

هذا وغيره جعل لاختيارات الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تَمِيزاً وأثراً في القضايا المعاصرة ، مما حدا بكثير من الناس على اختلاف مستوياتهم يصدرون عنه في نوازلهم ، حتى ظهرت جملة من المؤلفات تتناول القضايا المعاصرة التي تناولها الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ من خلال كتبه وفتاواه ولقاءاته ومجالسه العلمية والدعوة^(٢) .



-
- (١) انظر : بحث محكم بعنوان : « النوازل العقدية عند الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ، المنهج والجهود » — (١١) ، للدكتور علي السحيباني ، و« جهود الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ في العقيدة » مقال للدكتور أحمد القاضي ، مجلة البيان عدد (١٦٠) ، وبحث محكم بعنوان : « منهج الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ في الرد على المخالفين في مسائل الاعتقاد » ، للدكتور علي القرعاوي ، و« جهود الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن » (٥٤٤) ، للدكتور أحمد البريدي .
- (٢) وفي هذا دلالة على وفرة القضايا المعاصرة التي تناولها الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ، ومن ذلك : « فتاوى معاصرة » لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ (٤٩٥ صفحة) ، جمع وترتيب : صلاح الدين محمود ، و« إعلام المعاصرين بفتاوى ابن عثيمين » (٥١١ صفحة) ، جمع وترتيب : يحيى مراد ، و« الفتاوى المهمة لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين » (١٠٤٣ صفحة) ، جمع وترتيب : صلاح محمود السعيد ، وأما تناول القضايا المعاصرة المتفرقة للشيخ في بطون كتبه الفقهية والعقدية والحديثية وكذا التفسير ومجموع فتاويه فكثيرة جداً ، يظهر ذلك جلياً لمن قرأ فيها .

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة
في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وبيان تأصيل
ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لها

اهتم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بقضايا عصره ، وما يلامس حاجة الناس ، وذلك بإيراده للقضايا المعاصرة بالتأصيل والتفصيل ، وحسن العرض ، والتأكيد على أن القرآن الكريم هو المنهج الأسْمَى لتجاوز عقبات العصر وقضاياها الحادثة ، ومعالجتها معالجة ناجعة ، ويظهر ذلك من خلال النماذج والتي يتبين من خلالها تنزيل الآيات وربطها بواقع الناس في موضوعات معاصرة مختلفة ، ومن ذلك ما يلي :

- المضامين الدعوية المتعلقة بالقضايا المعاصرة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :

أولاً : مضامين القضايا الدعوية المعاصرة المتعلقة بالدعاة ودعوتهم .

ظهر في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الاهتمام الواضح بالقضايا المعاصرة التي تؤرق الدعاة وتعرض دعوتهم ومن ذلك :

- مسألة طلب العلم من أجل الشهادة الدنيوية ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْرَوْا بِبَابِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَقْفُون ﴾ [البقرة: ٤١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « يشكل على كثير من الطلبة من يدخل الجامعات لنيل الشهادة : هل يكون ممن اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ؟ والجواب : أن ذلك حسب النية ؛ إذا كان الإنسان لا يريد الشهادة إلا أن يتوظف ويعيش ، فهذا اشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ؛ وأما إذا كان يريد أن يصل إلى المرتبة التي ينالها بالشهادة من أجل أن يتبوأ مكانًا ينفع به المسلمين فهذا

لم يشتر بآيات الله ثمناً قليلاً؛ لأن المفاهيم الآن تغيرت ، وصار الإنسان يوزن بما معه من بطاقة الشهادة»^(١) .

- ومسألة هجرة الداعية من بلد لا يتمكن فيه من الدعوة ، قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] : « وهل الدعوة من شعائر الدين التي يهاجر الإنسان بسببها إن لم يتمكن منها؟

الدعوة محل نظر ، فقد يقال : إن من أساسيات الدين الإسلامي الدعوة إلى

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٥٠) .

وسئل فضيلة الشيخ رحمه الله : يتخرج بعض طلبة العلم الشرعي عند قصدهم العلم والشهادة كيف يتخلص طالب العلم من هذا الحرج؟ فأجاب بقوله : يجاب عن ذلك بأمور :

أحدها : أن لا يقصدوا بذلك الشهادة لذاتها ، بل يتخذون هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقوق النافعة للخلق ؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات ، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة وبذلك تكون النية سليمة . الثاني : أن من أراد العلم قد لا يجده إلا في هذه الكليات فيدخل فيها بنية طلب العلم ولا يؤثر عليه ما يحصل له من الشهادة فيما بعد .

الثالث : أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنين حسن الدنيا ، وحسن الآخرة فلا شيء عليه في ذلك ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] ، وهذا ترغيب في التقوى بأمر دنيوي .

فإن قيل : من أراد بعمله الدنيا كيف يقال : بأنه مخلص؟

أجيب : أنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً فلم يقصد مراعاة الناس ومدحهم على عبادته بل قصد أمراً مادياً من ثمرات العبادة فليس كالمراعي الذي يتقرب إلى الناس بما يتقرب به إلى الله ويريد أن يمدحوه به ، لكنه بإرادة هذا الأمر المادي نقص إخلاصه فصار معه نوع من الشرك وصارت منزلته دون منزلة من أراد الآخرة . « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٢ / ٢٠٧-٢٠٨) .

الله عَزَّوَجَلَّ ، فإذا عجز الإنسان عنها فهو آثم ، وقد يقال : لا ، بل الدعوة فرض كفاية ، وأيضاً ليست متعلقة بشخص الإنسان ، فهي عندي محل نظر . والله أعلم .

وإذا كان المسلم لا يستطيع أن يقيم شعائر دينه في بلاده لكن يستطيع أن يقيمها في بلاد الكفر فهل يهاجر؟ نقول : الأولى ألا يهاجر ؛ لأن هذه الحال ربما لا تدوم ، فقد يغير الله الحال ، وهي إن شاء الله ليست دائمة بإذن الله ، وإذا هاجر أهل الخير عن البلد ، ولم يبق إلا المستضعف صار الأمل ضعيفاً في إصلاح البلاد ، لكن إذا بقي هؤلاء الأخيار وعالجوا الأمور بحكمة ، فالغالب أن الله يجعل لهم فرجاً ، نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين »^(١) .

- ومسألة تعامل الدعاة مع مَنْ يُؤَلَّب على ولاية الأمور ويتمنون زوالهم ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « لو قال قائل : بعض الناس خاصة من غير طلبة العلم ، هم ملتزمون ويريدون إظهار غيرتهم على الإسلام ، يتكلمون في ولاية الأمر ويتمنون زوالهم ، وما أشبه ذلك من الأمور التي تخالف الأدلة ، وتخالف مقتضى العقل ، فما هو الموقف السليم لطلبة العلم؟

فالجواب : الواجب على طالب العلم أن يبين ما يقتضيه الدليل مع السمع والطاعة لولاية الأمور إلا إذا أمروا بمعصية ، وكذا يبين ما تقتضيه الأدلة من وجوب الكف عن مساوئهم ، ومن أراد النصيحة فطريقها مفتوح ، لكن لو قيل : أنا إذا منعتهم تعودوا على الجبن وعلى الذل .

فالجواب : لا بأس ، عز النفس واجب لكن عز النفس لا بد أن يكون على مقتضى الشريعة حتى يكون مترناً وإلا لكان هذا يريد عز النفس ، وهذا يريد عز النفس ، وهذا يريد عز النفس ، وتكون فوضى عارمة يترتب منها فساد

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ١١٥ - ١١٦) .

عظيم ، فإذا واجه الإنسان أناساً على هذه الحال فالواجب النصيحة وأن تُضرب الأمثال لهؤلاء بما حصل من البلاء وإراقة الدماء وانتهاب الأموال فيمن سلك هذا المسلك منهم»^(١) .

- ومسألة المحاجة التي يواجهها الدعاة من العامة بغير علم ، وهي مسألة كثر وقوعها في زماننا ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] : « من فوائد الآية : ذم المحاجة بغير علم ؛ لقوله : ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا ، كثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم ، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة ، فيقول مثلاً : لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حراماً وكان هذا حلالاً؟ لماذا كان هذا واجباً وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك ، فيحاجون فيما ليس لهم به علم . وكثير من العامة الذين عندهم كَسَن وبيان ، وإن من البيان لسحراً- يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو ، بل مجرد مجادلة ومراء»^(٢) .

- ومسألة تعامل الدعاة مع كتب المُحدثين المعاصرين ، ففي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبٌ قَوِّمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « يجب على طالب العلم إذا رأى بعض كتب المُحدثين المعاصرين يقولون : الدين الإسلامي دين المساواة ، يقول : قف ، من قال هذا؟ هاتِ آية في إثبات التسوية ، وأنا آتي لك بآيات كثيرة

(١) « تفسير سورة الأنعام » (١٢٥) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٣٨٣ - ٣٨٤) .

في نفي التسوية ، لكن بدلاً من أن تقول هذا هاتِ الكلمة الحبيبة التي ترد على القلب ورود الماء البارد على كبد العطشان وهي العدل»^(١) .

- ومسألة أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله تعالى ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَتَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] ، قال : « هل يستفاد من الآية : أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب : لا يستفاد ، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى ، فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عزَّ وجلَّ بدون أن يأخذ مقابلًا ولا من الحكومة ، لا شك أن هذا أفضل ، وأقرب إلى الإخلاص ، وأشدَّ وقعًا في نفوس الناس ، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ ؛ لأن الله تعالى يلقي ذلك في قلوب الناس ، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي ، وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ شيئاً »^(٢) .

وفي موضع آخر يذكر مزيداً من التفصيل لهذه المسألة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] ، فيقول : « من فوائد هذه الآية : أن النبي ﷺ لا يسأل الناس أجراً على دعوة الخلق إلى الحق ، وهل هذا خاص به أو عام له وللأمة ، أي : أنه يحرم على الإنسان أن يأخذ شيئاً على تبليغ الشريعة؟

الجواب : أنه متى وجب الإبلاغ حُرِّم أخذ الأجر عليه ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يأخذ أجراً على قيامه بالواجب ، أما إذا كان ليس بواجب فلا بأس أن يأخذ أجراً ؛ لأنه يكون تطوعاً إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، فإذا قال : أنا لا أحبس نفسي إلا بأجر ، قلنا له : لا حرج ما دام الإبلاغ ليس بواجب ، ويدل لهذا قول

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٤٩) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٧٨) .

النبي ﷺ : « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ »^(١) لكن متى وجب تعليم القرآن على شخص فإن أخذه أجرة على هذا التعليم يكون حراماً^(٢) .

ثانياً : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بعلاقة أمة الدعوة بالعلماء .

إن من أهم الروابط التي ينبغي أن تبقى وثيقة بعيدة عن الانتقاص والخلل هي رابطة أهل الدعوة دعاة ومدعوين بالعلماء ، لأنهم سراج الأمة ، ومصاييح الدجى ، المبينين ما في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من واجبات الأمة أفراداً ومجتمعات مما شرعه الله تعالى وأمر به عباده ، وفي العصور المتأخرة شاب هذه الوثيقة ما شابها من بعض أفراد المجتمع ، وجاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ معالجة هذه القضية ، ومما ذكره الشيخ رَحِمَهُمُ اللَّهُ :

- مسألة الخلل في فهم مراد العالم ، وعدم الثبوت في النقل لاسيما في زمن كثرة الأهواء ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ : « بعض الناس قد يفهم من العالم كلمة على غير مراد العالم بها ، وقد يسأل العالم سؤالاً يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل ، ثم يجيب على حسب ما فهمه ، ثم يأتي هذا الرجل وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح ، وكم من أقوال نسبت إلى علماء أجلاء ، لم يكن لها أصل ؛ لهذا يجب الثبوت فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء ، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه الأهواء ، وكثر فيه التعصب ، وصار الناس كأنهم يمشون في عمى »^(٣) .

- ومسألة استغلال أخطاء العلماء والتشهير بها عبر وسائل الإعلام الحديث ، وبيان مضرة ذلك ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٧) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٥٦) .

(٣) « تفسير سورة الحجرات » (٢٧) .

سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

« بعض الناس إذا زلَّ بعض العلماء مثلاً ، ووقعوا في أخطاء أخذ هؤلاء يكتبون في المجلات والصحف أخطاءهم بحجة أنهم يبينون الحق ، وهذا من الغلط ، والحقيقة أن هذا الفعل فيه مضرة من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أنها مضرة على الكاتب ؛ لأن الذين يثقون بالشخص الآخر يرون أن هذا مخطئ ويقل وزنه عندهم .

الوجه الثاني : أن فيه أيضاً إضعافاً للثاني المردود عليه ، ومعلوم أنه إذا ضعفت منازل العلماء في الأمة ضاعت الأمة ؛ لأن العلماء هم القادة ، فإذا ضعفت منازلهم عند العامة ضاعوا ، وصاروا كالإبل التي ليس لها راع ، أو كالغنم التي ليس لها راع .

الوجه الثالث : أن فيها إضعافاً للشرع ؛ لأن العالم الذي ردّ ، أو المردود عليه إذا قال قولاً غير هذه المسألة شك الناس فيه وقالوا : لعل هذه من خطأ فلان ، فصار فيه مضرة من ثلاثة وجوه ، والواجب على العلماء فيما بينهم إذا أخطأ أحدهم أن يتصلوا به فيناقشوه ، فإن كان الصواب معه تبعوه ، وإن كان الصواب معهم يتبعهم ، ثم لو فرض أنه أصرَّ على ما هو عليه وله وجه لأن المسألة مسألة اجتهاد - فلا أرى أن يُردَّ عليه أبداً ؛ لأن الردَّ والأخذ والمناقشة في مسائل الاجتهاد بين العامة لا شك - أنه ضرر ، خصوصاً في هذا الوقت حيث يوجد أناس يدعون إلى التقليل من شأن العلماء ، والكلام فيهم في المجالس ؛ لأنهم فقدوا الزعامة التي يريدونها ، فصاروا مثل الزعماء الآخرين الذين عارضوا دعوة الرسول ﷺ لما فقدوا الزعامة التي يريدونها ، ليس لهم سبيل إلى ما

يريدون إلا أن يُضعفوا الجانب الآخر ، وهذا على خطر عظيم جداً ، فأنا أرى أنه إذا وجد خطأ من أي عالم - والإنسان غير معصوم ، فقد يخطئ ولا يتبين له خطأ إلا بالمناقشة أن يتصل به ويبحث معه ، فإن تبين الحق وجب على من تبين له الحق أن يتبعه ، وإن لم يتبين وصارت المسألة فيها مساغ للاجتهاد فالواجب عدم الرد عليه ^(١) .

ثالثاً : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بدعاة الضلالة وغزوهم الفكري .
ذكر الشيخ رحمه الله في تفسيره هذه القضية وما يتعلق بها في مواطن عدة ، ومن ذلك :

- مسألة دعاة الضلالة وتنوع غزوهم المعاصر ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] ، قال : « قوله : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ من أعدائكم من المنافقين ، ومن الكافرين المصرحين بالكفر ، ومن الفاسقين الذين يغرونكم في الوقوع في المعاصي التي دون الكفر ، ومن كل أحد يصدكم عن دين الله .

فعلينا أن نأخذ الحذر من غزو هؤلاء لنا ، سواء كان بالسلاح ، أو كان بالفكر ، أو كان بالخلق ، ومعلوم أن أعداء المسلمين يغزون المسلمين بكل سلاح ، وينظرون السلاح المناسب للأمة فيغزونها به ، فإذا كان من المناسب للأمة أن يغزوها بالسلاح فعلوا وقاتلوا وهاجموا ، وإذا كان من غير الممكن فإنهم يغزون بالأفكار فيأتون بأفكار منحرفة إلهادية إذا أمكنهم ذلك ، وإذا لم يمكن بأن كانت الأمة على جانب كبير من الوعي والتوحيد والارتباط بالله عز وجل قالوا : إذاً نغزوا بطريق ثالث وهو الخلق ، فسَلَطُوا عليها كل ما يفسد أخلاقها :

من المجالات ، والإذاعات وغير ذلك .

ولهذا انظر الآن ماذا فعلوا بالناس بواسطة المحطات الدولية التي تلتقط عن طريق الدشوش ، فالأقمار مرسلة والدشوش مستقبلية ، وهذه الأشياء التي يثبونها لا شك كما سمعنا ولم نشاهد والحمد لله - أن فيها شراً عظيماً ، وهم يجعلون فيها أشياء مفيدة ؛ لأنهم يعلمون أنها لو كانت مفسدة بكامل عناصرها ما قبلها الناس ، إلا من زاغ قلبه ، والعياذ بالله ، لكن يجعلون فيها أشياء مفيدة من أجل أن يضعوا الحَبَّ للصيد .

فأقول : هذا الغزو الآن غزو خُلُقي ، وربما يكون فيه غزو فكري وأنا أسمع أحياناً إذاعة عالية صافية من أحسن ما يكون من إذاعات العالم التي نسمع ، وتبث الدعوة إلى النصرانية ، لكن الحمد لله كل شيء تدعو إليه وهو خير نجد أن شريعتنا متضمنة له ، وأنه لا حاجة إلى دعوتهم هذه ؛ لأن الشريعة الإسلامية والحمد لله قد تضمنت أكثر مما عندهم»^(١) .

- ومسألة فتنة استعمار الأفكار وخطورتها ، وأنها أعظم أسلحة دعاة الضلالة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْقَهُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] ، قال : « ومن فوائد الآية : أن الفتنة بالكفر ، والصد عن سبيل الله أعظم من القتل ، فيتفرع على هذه الفائدة : أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار ؛ لأن استعمار الأفكار فتنة ؛ واستعمار الديار أقصى ما فيها إما القتل ، أو سلب الخيرات ، أو الاقتصاد ، أو ما أشبه ذلك ؛ فالفتنة أشد ؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين ، والدنيا ، والآخرة»^(٢) .

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٥١١ - ٥١٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٧٨ - ٣٧٩) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]:

«ومن فوائد الآية: حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾؛ ولهذا كان الغزو الفكري، والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي؛ لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر؛ وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة؛ فلا يمكنون أحداً أن يقاتلهم؛ أما هذا فسلح فتاك يفتك بالأمة من حيث لا تشعر؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها، وديناها؛ ومن تأمل التاريخ تبين له حقيقة الحال»^(١).

وقال مبيناً مدى خطورة الغزو الفكري على البيوت: «أعداء المسلمين يتسلطون عليهم أحياناً بالغزو المسلح بالقتال وهذا يمكن التحرز منه، وأحياناً بالغزو الفكري وهو أشد وأنكى من الغزو المسلح؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام من أفئدتهم مسحاً كاملاً... فأنا أحثكم بارك الله فيكم- وأحث نفسي على أن نعدّ العدة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة حتى نحتمي المسلمين من شرّ هؤلاء؛ لأن سلاحهم أعظم فتكاً وأشد من سلاح الحديد والنار»^(٢).

- ومسألة تحديد النسل وأنها من دسائس دعاة الباطل لإضعاف المسلمين، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَسَأَوْكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قال: «ومن فوائد

(١) «تفسير سورة البقرة» (٣ / ٦٠)، و«تفسير سورة ص» (١٢٩).

(٢) «تفسير سورة الصافات» (٣٧-٣٨).

الآية : أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل ؛ لقوله تعالى : ﴿حَرِّثْ لَكُمْ﴾ ؛ وإذا كانت حرثاً فهل الإنسان عندما يحرق أرضاً يقلل من الزرع ، أو يكثر من الزرع ؟
فالجواب : الإنسان عندما يحرق أرضاً يكثر من الزرع ، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ : « تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ »^(١) ؛ وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء المسلمين يريدون من المسلمين ألا يكثروا ؛ لأنهم إذا كثروا أرعبوهم ، واستغنوا بأنفسهم عنهم : حرثوا الأرض ، وشغلوا التجارة ، وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد ، وغير ذلك من المصالح ، فإذا بقوا مستحسرين قليلين صاروا أذلة ، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء ، ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدده ؟! فقد يموت هؤلاء المحددون ، فلا يبقى للإنسان نسل »^(٢).

- ومسألة دعاة الاشتراكية ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء : ١٣٥] ، قال : « تحريم ما يسمى بالاشتراكية ؛ لأن دعاة الاشتراكية والحمد لله أنها خمدت نارهم - يقولون : إننا نريد أن نرحم الفقير ، فنأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير رحمة به ، فيقال : إن الله أولى به منكم ، والله عزَّ وجلَّ له الحكمة في جعل الناس بعضهم فقير وبعضهم غني ، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) ، والنسائي (٣٢٢٧) ، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا ، قَالَ : « لَا » ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَتَهَا ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّلَاثَةَ ، فَقَالَ : « تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِّرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ » ، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٩ / ١١١) ، وحسنه الهيثمي : انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٤ / ٢٥٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٨٨) .

سُخْرِيًّا ﴿[الزخرف : ٣٢] أي : يُسَخَّر بعضهم بعضاً ؛ لأنه لو كان الناس على حدٍّ سواء ما استقامت الأمور ، فمن يبني لك بيتك إذا كان الناس كلهم أغنياء؟! ومن يبني لك بيتك إذا كانوا كلهم فقراء ؛ لأنك ليس عندك شيء تبني به ، فالله عَزَّوَجَلَّ له الحكمة في اختلاف الطبقات ، لكن مع ذلك لم يضيّع حق الفقير ، فأوجب الزكاة ، وأوجب دفع الضرورة ، وأوجب النفقة على الأقارب ، وأوجب النفقة على الأزواج ، وما أشبه ذلك ، وهذا كله يسد حاجات كثير من الفقراء»^(١) .

رابعاً : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بمدّعي الحضارة والمدنيّة ودعاة الحريةّ وتحرير المرأة .

لا يفتأ أعداء الإسلام عن محاربة الإسلام ولمزه ، والانتقاص من شعائره بحجة الحضارة والتقدّم ، زاعمين أن الإسلام يُعيق عجلة المدنية والتحضر ، وهي قضية لازلنا نرى آثارها على بعض أفراد المجتمع متأثرين بشعارات الغرب الذي يريد هدم القيم والأخلاق ، وتشويه صورة الإسلام ، وإظهاره بصورة المتأخر عن ركب الحضارة وعجلة التقدم ، وجاء في تفسير الشيخ رحمه الله معالجة هذه الظاهرة ، ومن ذلك ما يلي :

- مسألة الطعن في الحجاب في وسائل الإعلام ، وضرورة الاختلاط في حقل التعليم وغيره ، قال الشيخ رحمه الله : « نجد بعض الذين يتكلمون عن الحجاب من الذين يكتبون في الصحف إذا تكلموا عنه ، تكلموا عنه وكأنه أمر تقليدي ، أي : يقلّد الناس فيه بعضهم بعضاً ، دون أن يرجعوا فيه إلى حكم الله عَزَّوَجَلَّ ، ولا شك أن هذا إما جهل بالشريعة الإسلامية ، وإما تجاهل بها ، والواقع أن هذه المسألة ليست من باب التقاليد ، ولكنها من باب التبعّد الذي

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٢٩) ، وانظر « تفسير سورة المائدة » (١ / ٤٣١) .

نَتَعَبَّدُ اللهَ تعالى باتباعه وامتناله ، وكذلك الاختلاط بين الرجال والنساء في حقل التعليم ونحوه ، يقول بعض الناس : إن منع الاختلاط من باب التقاليد ، وهذا غلط عظيم ، بل هو من باب الأمور المشروعة ؛ لأن القاعدة الشرعية : أن كل شيء يؤدي إلى الفتنة بين الرجال والنساء فإنه ممنوع ، وقد حذر النبي ﷺ من حيث قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضْرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ »^(١) ، وقال : « إِنَّمَا كَانَتْ أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ »^(٢) .^(٣)

- ومسألة المساواة بين الرجل والمرأة وأن هذا ما تتطلبه الحضارة والمدنية ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٤) من تَفْطَةِ إِذَا تَمُنَى ﴿[النجم: ٤٥-٤٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد ، وهذا يدل على كمال قدرته جل وعلا - إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال : في القوة البدنية والعقلية ، والفكرية ، والتنظيمية يختلف الذكر عن الأنثى ، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل ، فإنهم سفهاء العقول ، ضلّال الأديان ، فكيف يمكن أن نُسوِّي بين صنفين ، فرّق الله بينهما خِلْقَةً وشرعاً ، فهناك أحكام يُطالب بها الرجل ولا تُطالب بها المرأة ، وأحكام

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤١) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ ، ولفظه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٣٤) ، وللشيخ رَحِمَهُ اللهُ « رسالة الحجاب » ألفها عام ١٣٩٨ هـ ، وتوالت طبعاتها منذ ذلك العام ، وهي رسالة ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فيها بعد المقدمة أدلة القرآن على وجوب الحجاب ، ثم أدلة السنة ، ثم أدلة القياس ، ثم أدلة الميسحين لكشف الوجه ، ثم الرد عليهم .

تُطالب بها المرأة ولا يُطالب بها الرجل ، وأما قدراً وَخِلَقَةً فالأمر واضح ، لكن هؤلاء الذين لم يوقّفوا ، وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم ، يحاولون الآن أن يُلحقوا النساء بالرجال ، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة ، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة «^(١) .

وقال في موضع آخر : « لقد ضلَّ قومٌ يريدون أن يساوا بين النساء والرجال في الأمور التي فرَّق الله بينهما فيها ، وظنُّوا أن ذلك هو المدنية والحضارة ، ولكنه في الحقيقة الجاهلية المحضة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى فرَّق بين الرجال والنساء خلقاً وشرعاً ، فطبيعة الرجل في خَلْقِهِ وخُلُقِهِ ليست كطبيعة المرأة ، وكذلك الأحكام الشرعية فرَّق الله فيها بين الرجال والنساء ، فيما اقتضت الحكمة التفريق بينهما فيه » (٢) .

وقال في موضع آخر مبيناً ما يترتب عليه القول بالمساواة : « فالقول بأن الإسلام دين المساواة في الحقيقة قد ينبي عليه مبدأ خطير ، وهو : أولاً : تسوية الذكور مع الإناث ، وأن تفضيل الذكور على الإناث يعتبر مخالفاً لدين الإسلام .

ثانياً: الاشتراكية ، بتسوية الناس في الرزق ، بحيث نأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير ؛ لأن الدين دين المساواة ، ولو قالوا : الدين دين المواساة لكان صحيحاً ؛ ولهذا تشرع التعازي في المصائب ، وما أشبه ذلك «^(٣) .

- ومسألة تغيير الاصطلاح الشرعي والتعبير بما يخالفه ، ومن ذلك التعبير بالمساواة دون العدل ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ

(١) « تفسير سورة النجم » (٢٤٩).

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٣٥).

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ١٠٣).

إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: « الغريب أن كثيراً من الناس العصريين تجدهم شغوفين في التعبير بالمساواة دون العدل ، بل قد لا تكاد تجد أحداً منهم يقول : الدين الإسلامي دين العدل ، بل يقول : الدين الإسلامي دين المساواة ، ولا أدري والله أعلم - لماذا استُخِدِمَت هذه الكلمة « المساواة » ، هل هي واردة علينا من الخارج ؟ لأنك إذا قلت : المساواة دون العدل قالت الأنثى : أنا لا بد أن أعامل كما يُعامل الرجل ، وقال الرجل الساقط الذي لا خير فيه : لا بد أن أعامل كما يُعامل الشريف ، وهلمَّ جرا ، لكن إذا استعملنا العدل فمعناه أن ننزل كل إنسان منزلته »^(١) .

وقال في موضع آخر زيادةً في التحرير والرد على من ينادي بالمساواة دون العدل : « وإذا تدبرت القرآن وجدت نفي المساواة فيه أكثر من إثباته ، وأن الذي في القرآن هو العدل : وهو إعطاء كل ذي حق ما يستحق ، ولذلك العبارة السليمة أن نقول : الدين الإسلامي دين العدل ، وهو الذي أمر الله به في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠] ، نعم إذا اتفق الناس في الحقوق صحَّ أن نقول : إنه دين المساواة ، إذا اجتمعوا في سبب الحكم وغاياته حينئذٍ نقول : هو دين المساواة ، يعني إذا سرق الشريف وسرق الوضيع ، هنا نقول : لا بأس ألا يُفَرَّقَ بين الشريف والضيع وأنه يُسَوَّى بينهما ؛ لأن التسوية هنا عدل .

وعلى هذا فنقول : إذا كانت المساواة هي العدل فنعم ، أما المساواة التي يرمي إليها هؤلاء فهذا ليس بصحيح ، فالدين يفرق تماماً ، في كل موطن تكون الحكمة فيه هي التفريق »^(٢) .

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٤٤) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٤٩) ، وانظر « تفسير سورة الحديد » (٣٨١) .

- ومسألة تحرير المرأة والدعوة إلى السفور، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، قال: «ومن فوائد الآية: أَنَّ كُلَّ دَاعٍ إِلَى ضلال فيه شبه من اليهود، والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاء، وترك التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل دَاعٍ إِلَى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يَغُرُّ البليد فهو شبيه باليهود، والنصارى»^(١).

- ومسألة ولاية المرأة وتوليها مناصب رئاسية، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا ولاية للنساء على الرجال، لا في قضاء، ولا إمارة، ولا أي شيء لقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، فمن جعل للمرأة الولاية فقد خالف سنة الله. فإن قال قائل: أليست الأم تكون وليّة على أولادها وعلى أموالهم؟ قلنا: هذه ولاية خاصة، وولاية طارئة، بخلاف الولاية العامة، ولهذا قال النبي ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً»^(٢).

فإن قال قائل: نجد بعض النساء تكون رئيسة للوزراء، أو رئيسة الجمهورية،

(١) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٨٥)، وقضية تحرير المرأة وتبرجها وخلطتها بالرجال، واستخدامها أداة لهدم المجتمع بتعريضها للفتنة، ناقشها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في عدة مواضع من كتبه، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان أعداؤنا أعداء الإسلام بل أعداء الله ورسوله من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذئابهم وأتباعهم كل هؤلاء يحرصون غاية الحرص على أن يفتنوا المسلمين بالنساء يدعون إلى التبرج يدعون إلى اختلاط المرأة بالرجل يدعون إلى التفسخ في الأخلاق يدعون إلى ذلك بالسنتهم وأقلامهم وأعمالهم والعياذ بالله؛ لأنهم يعلمون أن الفتنة العظيمة التي ينسب بها الإنسان ربه ودينه إنما تكون في النساء». «شرح رياض الصالحين» (١ / ٩٥)، و(١ / ٥٢٥ - ٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

أو تكون ملكة؟

قلنا : ولكن انظر إلى حال المولى عليهم ، لو لم تقم عليهم هذه المرأة لكانوا أصلح حالاً بلا شك ، وكانوا أفلح وأنجح ، ولكن تأخروا بمقدار ما تولت عليهم هذه المرأة ، وانظر مثلاً إلى بريطانيا ، فقد كانت أكبر دول المستعمرين استعماراً ، حتى قيل : إنها لا تغيب الشمس عن مستعمراتها ، والآن تقلصت حتى صارت في المرتبة الثالثة ، كل ذلك لأنها تستولي عليها النساء»^(١) .

- ويبين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة الدعوة إلى الحرية التي ينادون بها ، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠] : « لا يستطيعون أن يقولوا للمسلمين : اكفروا ؛ لأنهم لو قالوا : اكفروا ، ما كفروا بل لقالوا : نعم نكفر بالطاغوت ، ونؤمن بالله ، ونضرب هامك ، لكنهم يأتون بهذه الأساليب التي توجب أن ينزلق الناس بالفسوق ، والفسوق بريد الكفر .

ثانياً : يلقون الأفكار الرديئة الإلحادية الكفرية بين المسلمين باسم (الناس أحرار ، دعوا كل أحد يعتنق ما شاء ، دعوا كل أحد يقول ما شاء ، لا تستعبدوا الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) ، وما أشبه ذلك من الكلمات الرنانة التي إذا سمعها الإنسان قال : هذا هو الدين ، ثم تحلل الناس وصار كل يعمل على ما يريد ، ولكن ما هي الطريق التي يتوصلون بها إلى هذا؟ الطريق : أن يضربوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجعلوا الناس لا يأمرن بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ؛ لأنهم يعرفون أنه إذا أمر بالمعروف قام المعروف ، وإذا نُهي عن المنكر غاب المنكر ، فيحاولون أن يقللوا ويضعفوا هذه الناحية ، حتى يبقى

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٩٧) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري (رحمه الله) في «جامع البيان» (١٠ / ١٧٢) عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، =

فيهم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَآبِإِيتِيهِمْ وَرَسُولُهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿ [التوبة : ٦٥ ، ٦٦] ؛ أما الذين يقولون عن حملة الشرع ، والعاملين به : (هؤلاء دراويش لا يعرفون المجتمع ولا الدنيا) ، وما أشبه ذلك من الكلمات ؛ فهؤلاء أيضاً كفار ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿ [المطففين : ٣٢-٢٩] ؛ وفي معنى ذلك قولهم : (هؤلاء رجعيون) ، وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدل على كفرهم في قوله تعالى : ﴿ قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤] ؛ فدل هذا على أن أولئك الذين يسخرون بالمؤمنين من أجل إيمانهم كفار » (١) .

خامساً : مضامين القضايا المعاصرة في أقوال العامة وأفعالهم .

تنتشر بين العامة ألفاظٌ وأفعالٌ كثيرة ، ويعتقد البعض صوابها ، ولربما خالفت الشرع ، فيكون انتشارها مسوِّغاً للسير عليها ، ولقد كان الشيخ ابن

= ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمر : أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، ورسول الله ﷺ يقول : ﴿ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَآبِإِيتِيهِمْ وَرَسُولُهُمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿ [التوبة ٦٥-٦٦] . قال الشيخ مقبل الوادعي في « الصحيح المسند من أسباب النزول » (١٠٩) : « الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد كما في « الميزان » وأخرجه الطبري رَحِمَهُ اللهُ من طريقه (١٠ / ١٧٢) ، وله شاهد بسند حسن عند ابن أبي حاتم (٤ / ٦٤) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ » .

عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ذو اهتمام بالغ بتحسين الألفاظ^(١) وكذا الأفعال ، والاستدراك على ما اشتهر على ألسن الناس مما ينافي أخلاق المسلم وما فيه مصلحة لهم ، ومن ذلك :

- مسألة تقسيم الكذب إلى أسود وهو المحرم وأبيض وهو جائز ؛ لأنه لا يترتب عليه مضرة ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « ولا يصح من قسم الكذب من العامة إلى كذب أبيض وكذب أسود ، ويقولون : إن الكذب الأبيض هو الكذب الذي لا يترتب عليه إتلاف مال ، ولا إتلاف نفس ، وإن الكذب الأسود هو الذي يترتب عليه شيء من ذلك ، فنقول : إن الكذب كله أسود ، وليس في الكذب شيء ممدوح ، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس ، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء ؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعل الكذب من صفات المنافقين ، ومن علاماتهم فقال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ »^(٢) »^(٣) .

- ومسألة التعبد لله تعالى بالأذكار والرُقَى من باب التجربة في نفعها لا اليقين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : الإشارة إلى أن الناس ينقسمون في آيات الله تعالى إلى قسمين : قسم موقن ؛ فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل ، وقسم غير موقن ، بل هو في شك ، وأقبح منه من

(١) وللشيخ رَحِمَهُ اللهُ كتاب « المناهي اللفظية » ، جمع وإعداد : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، فيه (١٠٥) سؤال تتعلق بالمناهي اللفظية .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

(٣) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦١ - ٦٢) .

كان في عناد وإنكار؛ فإن هذا لا ينتفع بالآيات؛ لأن الله تعالى خص الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتب عليها فوائد، مثل قول النبي ﷺ في آية الكرسي: «من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»^(١)، وإن بعض الناس يقرأ هذه الآية لكنه في شك من هذا الخبر، أو يقول: أقرأها وأجرب؛ فإن هذا لا ينتفع بها أبداً، فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهكذا بقية الآيات التي

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١)، ولفظ الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا زَفَعَنَّاكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسِعُودٌ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سِعُودٌ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سِعُودٌ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زَفَعَنَّاكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أُعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسِعُودٌ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زَفَعَنَّاكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَاتٍ، إِنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمَكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أُوْتِيتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أُوْتِيتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أُخْرَصَ شَيْءٌ عَلَى الْخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تَخَاطَبُ مِنْهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ».

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٨٥)، وللشيخ رحمه الله كلام عن حرص الصحابة على تطبيق أوامر الله تعالى، واجتنابه نواهيه، وذم تتبع الرُّخص وانتقاء الفتاوى بما يناسب الهوى، وفقه تتبع الأيسر أو الأحوط في المسائل ذات الخلاف السائغ، انظره في: « شرح رياض الصالحين » (٤ / ٣٠٧)، و« مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٢٦ / ٣٨٩).

بعده ، فكل ما سبق فإن بعده شيئاً ، فالدار الأولى البطن ، وبعدها الخروج إلى الدنيا ، وبعد الخروج إلى الدنيا البرزخ ، ثم اليوم الآخر النهاية ، ولهذا نقول : إن القول عن الميت « إنه حُمِلَ إلى مثواه الأخير » ، كلمة خطيرة جداً ، مضمونها إنكار البعث ؛ لأنه إذا كان القبر مثواه الأخير فمعناه أنه ليس بعده بعث ، وهذه الكلمة يكثر ذكرها في الجرائد والمجلات ، وعلى السنة بعض من يدعون أنهم مثقفون ، لكنها في الواقع غير صحيحة إلا للإنسان لا يؤمن بالبعث ^(١) .

- ومسألة التذرع بما كان عليه أكثر الناس عند الإنكار عليه ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « كثير من الناس تنهاه عن المنكر فيقول : هذا الذي يمشي عليه الناس ، وهذا ليس بحجة ، وهذا كما أنه سابق فهو أيضاً لاحق ، فمن الناس مَنْ إذا أنكرت عليه المنكر قال : هذا ما زال الناس عليه ، أو يقول : ما سمعنا بهذا ، ومنه قول بعض العامة إذا بُهِوا على شيء لم يكونوا يعرفونه ، قالوا : هذا دين جديد ، ما سمعنا بهذا ، وهذا ليس بحجة ، وإنما الحجة الدليل القائم من كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ » ^(٢) .

- ومسألة استقدام العمالة الكافرة مع توفر المسلم ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن العبد المؤمن خير من المشرك ، ولو أعجبك ، وبناء على ذلك نقول في مسألة العمالة الآن : إن الأولى أن يجلب للعمل عنده من كان مسلماً ، فإنه خير من المشرك ، ولو أعجبك المشرك ، نعم لو فرض أن رجلاً محسناً يقول : أنا أجلب عاملاً كافراً للخدمة في البيت ، أو قيادة السيارة ، وأدعوه إلى

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٢٢) ، وانظر أيضاً : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٣ / ١٣٣) ، (١٧ / ٣٠٦) ، (١٧ / ٤٥٣) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٤٤) .

الله عَزَّجَلَّ لعل الله يهديه ، فنقول : إذا علم الله تعالى من نيَّته أن هذا هو الغرض فإنه قد يُعينه على ذلك ، لكن إذا كان لمجرد العمل فنقول : اختر المسلم فإن الله يقول : ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (١) .

- ومسألة دبلجة الصور وتركيبها بما يخالف الحقيقة ، وهل تثبت الشهادة بالصورة ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ فِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥] .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « إن قال قائل : هل يمكن أن نثبت بالتقاط الصورة أي (الشهادة على الزاني)؟ فنقول : كنا نقول بذلك لكن لما تبين لنا دبلجة المصورين قلنا : لا نثبت ، والدبلجة أنهم يلفقون صورة ، ويجعلون رجلاً على امرأة قد جامعها وليس الأمر كذلك والدبلجة هذه مشكلة كبيرة نسأل الله أن يكفينا شرها ، فقد بدؤوا يدبلجون الكلام ويأخذون مثلاً من بعض كلامي حرفاً في كلمة من الكلمات وحرفاً من كلمة أخرى ، ويركبون بعضها على بعض ، فينشئون خطبة بصوتي على ما يريدونه ، والصوت صوتي ونبرات الكلام نبرات كلامي ، فأني إنسان يريد أن يتقوَّل على شخص فإنه يمكنه ذلك ، لكن أسأل الله أن يسخر فيروساً لهذه الآلات كما أن هناك فيروساً للكمبيوتر حتى نسلم ويسلم الناس من شرها » (٢) .

- ومسألة الاعتماد على التوقيت بالأشهر الإفرنجية ، وترك التوقيت العالمي وهو التوقيت بالأهلة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ومن فوائد الآية : أن

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١١٣) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (١ / ١٢٧) .

ميقات الأمم كلها الميقات الذي وضعه الله لهم وهو الأهلة- ؛ فهو الميقات العالمي ؛ لقوله تعالى : ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ ؛ وأما ما حدث أخيراً من التوقيت بالأشهر الإفرنجية فلا أصل له من محسوس ، ولا معقول ، ولا مشروع ؛ ولهذا تجد بعض الشهور ثمانية وعشرين يوماً ، وبعضها ثلاثين يوماً ، وبعضها واحداً وثلاثين يوماً من غير أن يكون سبب معلوم أوجب هذا الفرق ؛ ثم إنه ليس لهذه الأشهر علامة حسية يرجع الناس إليها في تحديد أوقاتهم ، بخلاف الأشهر الهلالية فإن لها علامة حسية يعرفها كل أحد ^(١) .

سادساً : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بواقع المسلمين .

إن أكثر ما يورق المسلمين في الواقع المعاصر ما اعتراهم من الذل والاستضعاف في أصقاع المعمورة ، ومحاولة الأعداء تشتيت المسلمين ، وإصاق التهم بهم ، واضطهادهم ، وتفريقهم ، ولقد كانت هذه القضية من القضايا التي جاءت في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وبين أسباب الذل وتأخر النصر ، وعلاج الواقع المنكوب في بعض بلدان المسلمين للوصول إلى عزّة المسلمين ، وذلك في مواطن من تفسيره ومن ذلك :

- من أسباب النصر على أعداء الله قوة اليقين والإيمان بالله تعالى ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] ، قال : « ومن فوائد الآية : تحقيق ما وعد الله به من الدفاع عن المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] ؛ فإذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول ؛ فهؤلاء قالوا : ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ، والله عزَّ وجلَّ هو الذي جادل عن المؤمنين ،

فقال : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يعني هم السفهاء لا أنتم ؛ فهذا من تحقيق دفاع الله تعالى عن المؤمنين ؛ أما دفاعه عن المؤمنين إذا اعتدي عليهم بالفعل ، فاستمع إلى قول الله تعالى : ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢] : هذه مدافعة فعلية ، حيث تنزل جنود الله تعالى من السماء لتقتل أعداء المؤمنين ؛ فهذا تحقيق لقول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الوعد العظيم من القادر جل وعلا الصادق في وعده يحتاج إلى إيمان حتى نؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ ، ولا نخشى أحداً سواه ، فإذا ضعف الإيمان أصبحنا نخشى الناس كخشية الله ، أو أشد خشية ؛ لأننا إذا كنا نراعيهم دون أوامر الله فسنخشاهم أشد من خشية الله عَزَّوَجَلَّ ؛ وإلا لكننا ننفذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ ، ولا نخشى إلا الله سبحانه وتعالى «^(١)» .

وفي موضع آخر قال : « فنحن لو آمنّا حقيقة الإيمان بهذا الوعد الصادق الذي لا يُخْلَفُ لكننا منصورين في كل حال ؛ لكن الإيمان ضعيف ؛ ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عَزَّوَجَلَّ ، وهذه هي المصيبة ، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم ؛ ولذلك تجد كثيراً من ولاة المسلمين مع الأسف ، لا يهتمون بأمر الله ، ولا بشريعة الله ؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان ، وفلان ، أو الدولة الفلانية ، والفلانية . ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور ، ومن خالفها فهو المخذول ، وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله ، فبدلاً من أن يكونوا عبيداً لله أعزة صاروا عبيداً للمخلوقين أذلة ؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحداً في سبيل مصلحتها ؛ لكن لو أننا ضربنا بذلك عرض الحائط ، وقلنا : لا نريد

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥٢) .

إلا رضى الله ، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا ، وعلى أمتنا ؛ لكانت تلك الأمم العظمى تهابنا ؛ ولهذا يقال : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن خاف غير الله خاف من كل شيء ^(١) .

- ومن أسباب النصر ، التمسك بكتاب الله تعالى والعمل به ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ^(٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١-٢٢] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « هذه السورة العظيمة التي ابتدأها الله تعالى بالقسم بالسماء ذات البروج وأنهاها بقوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ^(٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١-٢٢] ، فمن تمسك بهذا القرآن العظيم فله المجد والعزة والكرامة والرفعة ، ولهذا ننصح أمتنا الإسلامية بادئين بأفراد شعوبها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم ، ونوجه الدعوة على وجه أوكد إلى ولاية أمورها أن يتمسكوا بالقرآن العظيم ، وأن لا يغرمهم البهرج المزخرف الذي يرد من الأمم الكافرة التي تضع القوانين المخالفة للشريعة ، المخالفة للعدل ، المخالفة لإصلاح الخلق ، أن يضعوها موضع التنفيذ ، ثم ينبذوا كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، وراء ظهورهم ، فإن هذا والله سبب التأخر ولا أظن أحداً يتصور أن أمة بهذا العدد الهائل تكون متأخرة هذا التأخر ، وكأنها إمارة في قرية بالنسبة للدول الكافرة ، لكن سبب ذلك لا شك معلوم هو أننا تركنا ما به عزتنا وكرامتنا وهو : التمسك بهذا القرآن العظيم ، وذهبنا نلهث وراء أنظمة بائدة فاسدة مخالفة للعدل ، مبنية على الظلم والجور ^(٢) .

- ومن أسباب النصر الإخلاص لله تعالى ، وترك المعاصي وانتشارها

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥٢) ، وانظر : « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٥٦) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٤٨-١٤٩) .

في المجتمعات، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ [البقرة: ٦١]، قال الشيخ رحمه الله: «ومن فوائد الآية: أن بني إسرائيل لا يقومون للمسلمين لو حاربوهم من قبل الإسلام؛ لأن ضَرْبَ الدِّلَّةِ بسبب المعصية؛ فإذا حاربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]؛ وما يُشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين: الأول: قِلَّةُ الإخلاص لله تعالى؛ فإن كثيراً من الذين يقاتلون اليهود أو أكثرهم لا يقاتلونهم باسم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ وإنما يقاتلونهم باسم العروبة؛ فهو قتال عَصَبِيٍّ قَبْلِيٍّ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني: كثرة المعاصي من كبيرة، وصغيرة؛ حتى إن بعضها يؤدي إلى الكفر؛ وقد حصل للمسلمين في أحد ما حصل بمعصية واحدة مع ما انضَمَّ إليها من التنازع، والفشل، كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]»^(١).

- ومن أسباب النصر العودة إلى ما كان عليه السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والسير بقيادة حكيمة تسير بشرع الله تعالى، وبين الشيخ رحمه الله ما تحتاجه الأمة للعودة لعزّها، فقال الشيخ رحمه الله: «ولو أن الأمة الإسلامية عادت إلى ما كان عليه السلف الصالح لعاد النصر إليهم، والغنى، والعزة، والقوة ولكن مع الأسف أن الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر كل منها ينظر إلى حظوظ نفسه بقطع النظر عما يكون به نصره الإسلام أو خذلان الإسلام.

(١) «تفسير سورة البقرة» (١ / ٢١٩)، وانظر أيضاً: (١ / ٥٢) و (٢ / ٢٣١).

ولا يخفى على من تأمل الوقائع التي حدثت أخيراً أنها في الحقيقة إذلال للمسلمين ، وأنها سبب لشر عظيم كبير يترقب من وراء ما حدث ، ولا سيما من اليهود والنصارى الذين هم أولياء بعضهم لبعض كما قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ، وهم أعني اليهود والنصارى - متفقون على عداوة المسلمين ، كل لا يريد الإسلام ، ولا يريد أهل الإسلام ، ولا يريد عز الإسلام ، ولكن سينصر الله تعالى دينه مهما كانت الأحوال ، فالله تعالى ناصر دينه وكتابه ، وإن حصل على المسلمين ما يحصل فإن الله يقول : ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَّوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ، وسيأتي اليوم الذي يجاهد فيه المسلمون اليهود يختبئ اليهودي خلف الشجر فينادي الشجر يا مسلم ، يا عبد الله هذا يهودي خلفي ، فيأتي المسلم ويقتله^(١) ، وما ذلك على الله بعزيز . ولكن المسلمين يحتاجون إلى قيادة حكيمة عليمه بأحكام الشريعة قبل كل شيء ، لأن القيادة بغير الاستفادة بنور الشريعة عاقبتها الوبال ، مهما علت ولو علت إلى أعلى قمة فإنها سوف تنزل إلى أسفل قعر ، الهداية بالإسلام ، بنور الإسلام ، لا بالقومية ، ولا بالعصبية ، ولا بالوطنية ولا بغير ذلك ، بالإسلام فقط .

فالإسلام وحده هو الكفيل بعزة الأمة ، لكن تحتاج إلى قيادة حكيمة تضع الأشياء مواضعها ، وتتأنى في الأمور ولا تستعجل ، لا يمكن أن يصلح الناس بين عشية وضحاها ، ومن أراد ذلك فإنه قد أراد أن يغير الله سنته ، والله سبحانه

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إِلَّا الْغُرْقَدَ ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ » . أخرجه مسلم (٢٩٢٢) .

وتعالى لا يغير سنته ، فهذا نبي الله (بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ينزل عليه الوحي ، ويدعو إلى الله بالتي هي أحسن ، ومع ذلك في النهاية خرج من مكة خائفاً مخفياً لم تتم الدعوة في مكة ، فلماذا نريد أن نغير الأمة التي مضى عليها قرون وهي في غفلة وفي نوم بين عشية وضحاها ، هذا سفه في العقل ، وضلال في الدين ، الأمة تحتاج إلى علاج رقيق هادئ يدعو بالتي هي أحسن ، الأمة الإسلامية تحتاج بعد الفقه في دين الله والحكمة في الدعوة إلى الله ، تحتاج إلى العلم بالواقع والفتنة والخبرة ، ونظر في الأمور التي تحتاج إلى نظر بعيد ، لأن النتائج قد لا تبين في شهر ، أو شهرين ، أو سنة ، أو سنتين ، لكن العاقل يصبر وينظر ويتأمل حتى يعرف ، والأمور تحتاج أيضاً إلى عزم وتصميم وصبر ؛ لأنه لا بد من هذا لا بد من عزم يندفع به الإنسان ، ولا بد من صبر يثبت به الإنسان وإلا لفاتت الأمور أو فات كثير منها والله المستعان ^(١) .

- ومن أسباب النصر توحيد القصد وذلك باسم الإسلام لا العروبة ، وهو الذي به تُستردُّ أرض فلسطين ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢] ، قال الشيخ رحمه الله : « لن ينجح العرب فيما أعتقد والعلم عند الله في استرداد أرض فلسطين باسم العروبة أبداً ؛ ولا يمكن أن يستردوها إلا باسم الإسلام على ما كان عليه النبي ﷺ ، وأصحابه ، كما قال تعالى : ﴿إِنِ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ؛ ومهما حاول العرب ، ومهما ملؤوا الدنيا من الأقوال والاحتجاجات ، فإنهم لن يفلحوا أبداً حتى ينادوا بإخراج اليهود منها باسم دين الإسلام بعد أن يطبقوه في أنفسهم ؛ فإن هم فعلوا ذلك فسوف يتحقق لهم ما أخبر به النبي ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ »

الْيَهُودَ ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ ، وَالشَّجَرِ ،
فَيَقُولُ الْحَجَرُ ، أَوِ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ ، يَا عَبْدَ اللَّهِ ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ
فَاقْتُلْهُ»^(١) ؛ فالشجر ، والحجر يدل المسلمين على اليهود يقول : « يا عبد الله »
باسم العبودية لله ، ويقول : « يا مسلم » باسم الإسلام ؛ والرسول ﷺ يقول :
« يقاتل المسلمون اليهود » ، ولم يقل : « العرب »^(٢) .

- ومن أسباب النصر ، نصره النبي ﷺ والدفاع عنه ، عند تفسيره لقوله
تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مَصْدِقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا
أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :
« ومن فوائد الآية : أنه إذا كان واجباً على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأمم السابقين
أن يؤمنوا برسول الله ﷺ وينصروه ، كان إيماننا نحن به ونصرتنا من باب أولى ؛
لأننا نتنسب إليه ، ونتمي إليه ، ونعتقه إمامنا ، ﷺ ، فكان واجباً علينا أن
ننصره ، ومن المعلوم أن نصره في حياته هو الجهاد معه جنباً إلى جنب ، وأما
نصره بعد وفاته فهو نصر سنته ونشرها ، وبيانها للناس ، والدفاع عنها ، والجهاد
في نصرتها ، كل هذا واجب على الأمة الإسلامية ، وبناء على ذلك يجب على
الأمة الإسلامية أن ترفض كل وارد إليها من أعداء الله إذا كان مخالفاً للسنة ؛ كل
شيء يرد علينا من الكفار من عقائد وأخلاق وأعمال ومعاملات وغيرها إذا كان
مخالفاً لسنة الرسول ﷺ ، فإن أقل ما يقال في النصرة أن يرفض هذا الشيء ،
وأن يضرب به وجه مورده ، وأن لا يكون له مكان بين الأمة الإسلامية ؛ لأنه
كيف يكون نصره ونحن نستورد من أعداء هذه النصرة ما يخالف هذه النصرة؟

(١) تقدم تخريجه.

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٦٩-١٧٠) ، وانظر : (١ / ٢١٩) .

من ادعى ذلك فهو كاذب ، فإن فعله يُكذِّبُ قوله ، ولو كان قوله صادقاً لكان أول ما يقوم به من نصرة شريعة الله أن يرفض كل ما خالف شريعة الله »^(١) .

- وذكر أساليب أعداء الله في إضعاف المسلمين ، ومن ذلك التنفير من أولياءه بأوصاف توجب التنفير ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣] ، قال الشيخ رحمه الله : « من فوائد الآية : أن أعداء الله يصفون أولياءه بما يوجب التنفير عنهم لقولهم : ﴿ أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ؛ فأعداء الله في كل زمان ، وفي كل مكان يصفون أولياء الله بما يوجب التنفير عنهم ؛ فالرسل وصفهم قومهم بالجنون ، والسحر ، والكهانة ، والشعر تنفيراً عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴾ [الذاريات: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٣١] ، وورثة الأنبياء عليهم السلام مثلهم يجعل الله لهم أعداء من المجرمين ، ولكن ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١] ؛ فمهما بلغوا من الأساليب فإن الله تعالى إذا أراد هداية أحد فلا يمنعه إضلال هؤلاء ؛ لأن أعداء الأنبياء عليهم السلام يسلكون في إبطال دعوة الأنبياء عليهم السلام مسلكين ؛ مسلك الإضلال ، والدعاية الباطلة في كل زمان ، ومكان ؛ ثم مسلك السلاح ، أي المجابهة المسلحة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هَادِيًا ﴾ في مقابل المسلك الأول الذي هو الإضلال ، وهو الذي نسميه الآن بالأفكار المنحرفة ، وتضليل الأمة ، والتليس على عقول أبنائها ؛ وقال تعالى : ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ في مقابل المسلك الثاني . وهو المجابهة المسلحة »^(٢) .

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٧٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٥٠) ، وانظر « تفسير سورة يس » (١٧٢ - ١٧٣) ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ =

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلَ آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]: «ومن فوائد الآية: أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٥٢) اتَّصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣]، وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي ردَّ بها المشركون رسالة الرسول ﷺ من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن، والسنة هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئاً» (١).

- وبين الحكمة مما يصيب المسلمون اليوم من تسلط الكافرين، والتشريد، والتجويع، والانتهاك، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ كَفَرُوا فَهُمْ يُعَذَّبُ اللَّهُ عَذَابًا جَهَنَّمَ وَهُمْ فِي الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُعَذَّبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، فقال: «في هذه الآيات من العبر: أن الله سبحانه وتعالى قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله عزَّ وجلَّ الكفار على المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلهذا تعالى في هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملئ لهم الله سبحانه وتعالى ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلاً نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي، فنقول:

= أَلْعَمَةُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، وتفسير «سورة المطففين» (١٠٧)، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله على هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله سبحانه وتعالى ضرب لنا أمثالاً فيمن سبق يحرقون المؤمنين بالنار ، فهؤلاء الذين سلطوا على إخواننا في بلاد المسلمين هذا رفعة درجات للمصابين ، وتكفير السيئات ، وهو عبرة للباقيين ، وهو أيضاً إغراء لهؤلاء الكافرين حتى يتسلطوا فيأخذهم الله عَزَّجَلَّ أخذ عزيز مقتدر» (١) .

- ومسألة محبتنا انتصار الكافر على كافر آخر ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ فقال : « في قوله : ﴿ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٧] دليل على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء ، وبغضهم ، وعدم مناصرتهم ، سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين ، فكل ذلك حرام ، لكن الثاني أشد وأعظم ، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين وعلى الإسلام من الآخر ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا رُؤُوسًا فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [٣] ، وَبَضَعَ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٤] يَنْصُرُ اللَّهُ ﴾ [الروم : ١-٥] يعني : بنصر الله الروم على الفرس ، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه ؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه ، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض ؛ لكونهم أهون من الآخرين ، وأقل خطراً على الإسلام والمسلمين ، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم ، وأن نعاديهم ، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء » (٢) .

- ومسألة تولية الكافر قيادة أو سلطة تخص المسلمين ، عند تفسيره لقوله

(١) « تفسير سورة البروج » (١٣٠-١٣١).

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٢-٣٣).

تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ومنها: أنه يحرم على المسلمين أن يُؤثِّموا هؤلاء الكفار أي قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأي خير مهما كان الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائماً على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]؛ وهي شاملة لخير الدنيا، والآخرة؛ فاليهود حسدوا المسلمين لما آمنوا بمحمد ﷺ، ونزل عليهم هذا الكتاب» (١).

ما تقدّم جملة من النماذج على مضامين القضايا العصرية النازلة بالمسلمين دعاة ومدعوين، في فروع شتى من الدين، تبين احتواء تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على جوانب عدة من القضايا العصرية التي تخص الدعوة، وتبين اهتمام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بواقع المسلمين، ومعالجته لقضاياهم وربطها بكتاب الله تعالى، وتنزيل الآيات على الوقائع الحاضرة إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن وأهل الدعوة عموماً، والدعاة خصوصاً من الرجوع إلى كتاب الله تعالى، والبدء به فيما ينزل بالمسلمين من نوائب أو مسائل معاصرة، ففيه حياة القلوب واهتدائها إلى سواء الصراط، ولقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره مميّزاً

بهذا الجانب ، متنوعاً في طرح القضايا المعاصرة وفي تناولها بما يتناسب مع الآيات ، رحمه الله رحمة واسعة ، فكثيراً ما يقع في الواقع قضايا تهمُّ الدعاة أو المدعوّين أو الدعوة عموماً ، ويلتبس عليهم المنهج الشرعي تجاه هذه النازلة لاسيما ونحن في عصر متسارع الأحداث والوقائع فيحتاج الناس معها إلى بيان شافٍ على نهج الكتاب والسنة يرفع عنهم ما حارت عقولهم تجاهه ، عندها يبرز دور العلماء الربانيين والدعاة الصادقين في توجيه الأمة فيما نزل بها ، وكان تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ من أبرز التفاسير المتناولة للقضايا الدعوية العصرية سواء كان ذلك على محيط الدعاة أو المدعوين أو الميدان الدعوي ، كما في نماذج المضامين السابقة ومعالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لها مستنداً إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .



الفصل الثالث

بناء الداعية وتأهيله

من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل.

المبحث الثاني: التأهيل العقدي للداعية.

المبحث الثالث: التأهيل العلمي للداعية.

المبحث الرابع: التأهيل الأخلاقي للداعية.

المبحث الخامس: التأهيل العملي للداعية.

(٣) « المعجم الوسيط » (١ / ٢٨٦) ، مادة (دعا) .

بيعة هُدىً أو ضلالة ، واحدُهم داعٍ ورجل داعيةٌ إذا كان يدْعُو الناس إلى بدعة أو دينٍ ، أُدْخِلَتِ الهاءُ فيه للمبالغة والنبي ﷺ داعي الله تعالى وكذلك المؤذُنُ ، وفي التهذيب المؤذُنُ داعي الله ، والنبي ﷺ داعي الأمة إلى توحيد الله وطاعته^(١) .

إذن لفظ الداعية في أصله لفظ عام يشمل دعاة الحق ودعاة الباطل ، فكل من دعا إلى أمر فهو داعية لغة ، سواء دعا إلى خير أو إلى شر ، ويشهد لهذا قول الله تعالى عن المشركين : ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١] وفي السنة ما يدل على ذلك ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »^(٢) .

والمراد في هذا البحث الداعية إلى الحق : وهو المبلِّغ للإسلام والمعلم له ، والساعي لتطبيقه^(٣) .

ثانياً : مفهوم تأهيل الداعية .

اهتمت الشريعة الإسلامية بتأهيل الداعية التأهيل المناسب ؛ لتصنع منه شخصية قادرة على تحمُّل أعظم مسؤولية ووظيفة وهي وظيفة الدعوة إلى الله تعالى ، والمقصود بالتأهيل هو : النهج الشرعي الذي يحمل الداعية على القيام بوظيفة الدعوة إلى الله تعالى وفق كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ولعمر الله إن الداعية لا سيما في وقتنا المعاصر الذي ماجت في كثير من

(١) « لسان العرب » (١٤ / ١٥٧) ، مادة (دعا) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) .

(٣) « المدخل إلى علم الدعوة » (٤٠) .

أصقاعه الفتن والمتغيّرات - بحاجة أن يتعاهد نفسه بالترقي والتأهيل وفق هذا المنهج القويم الذي جاءت به النصوص ، وإن من أعظم ما ينبغي مراعاته في قضية تأهيل الداعية إلى الله تعالى أن تكون دعوته على علم وبصيرة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، ففي الآية تأهيل للداعية وحثه على المنهج العلمي القويم الرصين المبني على بصيرة ، ويقين وبرهان عقلي وشرعي ^(١) ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت على علم وبيان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والداعية لا يكون على بصيرة إلا إذا دعا إلى الله على بصيرة في ثلاثة أمور :
 الأمر الأول : أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه ، وذلك بالعلم لا بالجهل .
 الأمر الثاني : أن يكون على بصيرة في حال المدعو ، فلا بد من معرفة حال المدعو ؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه ، وتكون أكثر فائدة له ، وتأثير فيه .
 الأمر الثالث : أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة ^(٢) .

وعلى الداعية أن يراعي في تأهيله الطرائق الشرعية التي أمر الله تعالى بها في الدعوة إليه ، والموصلة إليه كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يشمل الرسول ﷺ وغيره ، وقوله : ﴿ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ ما هو سبيل الله ؟ سبيل الله تعالى شرعه ؛ لأنه طريق يوصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ ولأن الله تعالى هو الذي شرعه فأضيف إليه ، فيكون الشرع مضافاً إلى الله لوجهين : الوجه الأول : أنه موصل إلى الله . والوجه

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٢ / ٤٩٦) .

(٢) انظر : « زاد الداعية إلى الله » للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٧) .



الثاني : أنه هو الذي شرعه لعباده وبينه لهم حتى يصلوا إلى الله عزَّجَلَّ^(١) .

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ : « وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ » ، يقول : وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه ، وذكرهم بها في تنزيله^(٢) .

وللداعية في تأهيله جوانب عقدية وعلمية وأخلاقية وعملية ينبغي مراعاتها والأخذ بها ، ليكتمل الجانب التأهيلي في الدعوة إلى الله تعالى ، وتأهيل الداعية التأهيل الكامل إنما ينطلق من كتاب الله تعالى ، والامثال لما فيه ، ولذا كان استنباط الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره للقرآن ما فيه غُنْيَةٌ للداعية للوصول إلى شرف السيادة بحُسن التأهيل ، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق ، ولهذا فإنني أحثكم على أن تمسكوا بهذا القرآن العظيم ، وإذا تمسكتم به عقيدة ، وعملاً ، وهدياً فستكون العاقبة لكم ، ولا تظنوا أنكم قليلون لو كنتم قليلين - فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن يجذب الناس للمهتدي به حتى يكثروا شيئاً فشيئاً ، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله ، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق »^(٣) .

والقارئ لتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ يجد اهتمامه بهذا الجانب ، وتخصيصه الدعاة بمزيد من التوجيه والتأهيل الذي ينبغي أن يكون عليه الداعية وفق المنهج الشرعي القويم ، وهو ما سنتناوله في المباحث القادمة .

(١) مادة صوتية بعنوان : (من دروس وفتاوى الحرم المدني لعام ١٤١٦ هـ) .

(٢) « جامع البيان » (١٤ / ٤٠٠) .

(٣) « تفسير سورة يس » (٢٤٨-٢٤٩) عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

المبحث الثاني : التأهيل العقدي للداعية

العقيدة في اللغة^(١) : من العَقْد ؛ وهو الرِّبْطُ ، والإبرامُ ، والإحكامُ ، والتوثُّقُ ، والسَّدُّ بقوة ، والتماسُّكُ ، والمراسضةُ ، والإثباتُ ؛ ومنه اليقين والجزم ، والعقدُ نقيض الحل ، ويقال : عَقَدَه يعقده عَقْدًا ، ومنه عَقْدَةُ اليمين والنكاح ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغَوِي فِي آيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩] والعقيدة : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، والعقيدة في الدين ما يُقصدُ به الاعتقاد دون العمل ؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل . والجمع : عقائد^(٢) .

والعقيدة في الشرع^(٣) : هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وسائر ما ثَبَتَ من أمور الغيب ، وأصول الدين ، وما أجمع عليه السلف الصالح ، والتسليم التام لله تعالى في الأمر ، والحكم ، والطاعة ، والاتباع لرسوله ﷺ . -

والعقيدة الإسلامية : إذا أُطلقت فهي عقيدة أهل السنة والجماعة ؛ لأنها هي الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده ، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضلة من

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة (١ / ٢٣) ، عبد الله بن عبد الحميد الأثري .

(٢) انظر مادة (عقد) في : « مختار الصحاح » (٢١٤) ، « لسان العرب » (٣ / ٢٩٦) ، « القاموس المحيط » (٣٠٠) .

(٣) « الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة » (١ / ٢٤) ، وانظر : « شرح العقيدة السفارينية » لشيخنا ابن عثيمين (١ / ٧٤) « شرح العقيدة الواسطية » لشيخنا (٥٠) .

الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

وتأهيل الداعية التأهيل العقدي يأتي في أولويات تكوين الداعية وتأسيسه التأسيس الشرعي المؤصل ؛ لأن الداعية وارث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم التي ابتدأوها بالدعوة إلى التوحيد .

ولقد عني الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بالتأهيل العقدي وتضمن تفسيره مواطن عدّة ، وحثّ على ما ينبغي للداعية مراعاته في تأصيله العقدي ، كما سيأتي .

- المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العقدي للداعية .

أولاً : الإخلاص لله تعالى ، والمتابعة لرسوله ﷺ ؛ لأن أهم ما ينبغي للداعية مراعاته في تعبد الله تعالى بالدعوة شرطاً للعبادة : الإخلاص والمتابعة ، فبهما ينجو من غوائل الشرك وغياب البدعة ، فالدعوة إلى الله تعالى عبادة من أجل العبادات ، وأنفس ما ينبغي مراعاته روح العبادة بالإخلاص لله تعالى ، وحسنها بالمتابعة للنبي ﷺ .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وإذا كانت جميع الحسنات لا بد فيها من شيئين : أن يراد بها وجه الله ؛ وأن تكون موافقة للشريعة . فهذا في الأقوال والأفعال ؛ في الكلم الطيب ؛ والعمل الصالح ؛ في الأمور العلمية والأمور العبادية » ^(١) .

والنصوص في بيان شرطية الإخلاص والمتابعة كثيرة ، قال تعالى : ﴿ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : ١٢٥] ، وقال تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: « العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ، ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة . »

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هذين الأمرين في التأهيل العقدي ؛ لأن بهما يتحقق التوحيد فقال : « وبالجملة فَمَعْنَا أَصْلَانِ عَظِيمَانِ أَحَدُهُمَا : أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ . والثاني : أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ لَا نَعْبُدُهُ بِعِبَادَةٍ مُبْتَدَعَةٍ . وهذان الأصلان هما تحقيق « شهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » كما قال تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ^(١) .

وإذا كان قبول عمل العبد مرهون على تحقق هذين الأصلين ، فإن الداعية أولى الناس اهتماما بهذين الأصلين لأنه من حملة أمانة الدين وتبليغه إلى عباد الله تعالى ، فلا بد له من نية صالحة خالصة ، ولذا استفتح البخاري صحيحه بقول ﷺ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ^(٢) .

وفي صحيح مسلم ، ذكر رسول الله ﷺ أول من تُسَعَّرَ بهم النار ثلاثة ، ومنهم : « رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قال : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قال : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ،

(١) « مدارج السالكين » (١ / ١٠٤) و « التفسير القيم » كلاهما لابن القيم (٧٨) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١ / ٣٣٣) .

فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ الْقِيَّ فِي النَّارِ «^(١) .

فلم ينفعه تبليغه للعلم مع اجتهاده في ذلك ؛ بل عوقب بنقيض المرتبة المأمولة لأهل العلم ؛ لأنه ناقض نيته وإخلاصه لله تعالى فصار من أوائل من تُسعر بهم النار .

ودلّت على المتابعة لرسول الله ﷺ نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ١٧] .

وعن عائشة قالت : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ ، فَهُوَ رَدٌّ »^(٢) ، ولمسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »^(٣) .

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول النبي ﷺ في خطبة الجمعة : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ »^(٤) .

وعن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « ... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

(٤) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٍ وَكُلِّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (١).

ومن المضامين الدعوية في أهمية أصلي الإخلاص والمتابعة في التأهيل العقدي للداعية ، ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره ، حيث قال : « إن الإنسان إذا وثق بنفسه لما معه من تقوى الله والإحسان في عبادة الله ، فليبشر بأن الله تعالى معه وأن الله ناصره ، ثم ليُعلم أنه ليس من الضروري أن ينصر الإنسان في حياته ، بل إذا نصر ما يدعو إليه بعد موته فهو انتصار له بلا شك ، ولهذا نحن نؤمن بأن انتصار الصحابة بفتحهم مشارق الأرض ومغاربها انتصاراً للرسول ﷺ ، فمن قام بالدعوة إلى الله مخلصاً لله متبعاً لشريعة الله ثم مات أو قتل ، لكن بقيت الدعوة وانتصر بها من بعده ، فهو في الحقيقة انتصار له ، فيصدق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] » (٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى : ١٤] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « ﴿ تَزَكَّى ﴾ يعني تطهر ظاهره وباطنه ، يتزكى أولاً من الشرك بالنسبة لمعاملة الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، لا يرائي ، ولا يسمع ، ولا يطلب جاهاً ، ولا رئاسة فيما يتعبد به الله عَزَّ وَجَلَّ ، وإنما يريد بهذا وجه الله والدار الآخرة ، تزكى في اتباع الرسول ﷺ بحيث لا يتدع في شريعته لا بقليل ولا كثير ، لا في الاعتقاد ، ولا في الأقوال ولا في الأفعال ، وهذا أعني التزكي بالنسبة للرسول () ، وهو اتباعه من غير ابتداع لا ينطبق تماماً إلا على الطريقة السلفية طريقة أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، على الطريقة السلفية الذين لا يتدعون

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) ، وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » (٤٦٠٧).

في العبادات القولية ، ولا في العبادات الفعلية شيئاً في دين الله ، تجدهم يتبعون ما جاء به الشرع»^(١) .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَنۢ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلۡمُنَهٗ﴾ [النجم: ٤٢] قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ﴿وَأَنۢ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلۡمُنَهٗ﴾ أي : المتتهى في أمور الدين والدنيا ، فالى الله المتتهى في مسائل العلم ، فعندما تشكل علينا مسألة من مسائل العلم فننتهي إلى الله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿فَإِن نَّزَعْنَمۡ فِي شَئٍۭ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] والنبي ﷺ لا يقول شيئاً من عنده ، إنما هو من عند الله عزَّوجلَّ فيكون المتتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس »^(٢) .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحۡسَسَ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ الْكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] ، قال : « من فوائد الآية : أنه إذا اشتبه الأمر فينبغي أن ينادي الداعية بالإخلاص فيقول : من المخلص؟ أي : أن يتدب الصفوة من القوم ؛ لقوله : ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ، فهو لما رأى أن القوم تمردوا وأحس منهم الكفر وظهر ؛ انتدب من يرى أنه من صفوتهم »^(٣) .

وبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ المداخل الخفية على النفس التي يشوبها منازعة الإخلاص لله تعالى عند الدعاة ، ومن ذلك قوله : « لو قال قائل : أحياناً يجد الإنسان انشراحاً في العبادة أكثر من طلب العلم والقراءة؟

الجواب : السبب في ذلك : لأن إخلاصنا في طلب العلم فيه شيء من الخدوش ، وإلا لو شعرنا أننا نطلب العلم ونحن مجاهدون في سبيل الله ،

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ١٨٢) .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة الأعلى (١٦٧) .

(٣) « تفسير سورة النجم » (٢٤٧) .

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣٠٧).

وصرف النصوص عن ظاهرها من أجل أن توافق قوله ، وينسى أن يكون الواجب عليه إذا عورض أن يطلب الحق ، وأن يراجع نفسه ، لعل الصواب مع غيره . كما يقع كثيراً عندما يختار الإنسان قولاً أو يقول قولاً ثم يراجع فيه فيتبين له أن الصواب خلاف ما كان يعتقدُه أولاً»^(١) .

ثانياً : من تأهيل الداعية عقدياً اعتزازه بعقيدته ودينه ؛ لأن غرس كلمة التوحيد ومقضياتها ونيل الشرف والرفعة بها ، أهم ما ينبغي مراعاته في الدعوة إلى الله تعالى ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩] .

« ومن فوائد الآية وأحكامها : أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية يعتز بها في دينه وفي شرعه وفي منهاجه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾^(٢) .

ثالثاً : مما ينبغي أن يراعيه الداعية في تأهيله العقدي ، أن تكون العقيدة هي أول اهتماماته الدعوية ، كما هو هدي الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ اجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد هذه الآية : وجوب تقديم الأهم فالأهم في الدعوة إلى الله ؛ لأن الرسول ﷺ أول ما دعا هؤلاء إلى التوحيد ، لم يقل : صَلُّوا وَلَا زَكُّوا وَلَا صُومُوا وَلَا حُجُّوا ، بل دعاهم إلى التوحيد ، وهذا هو شأن القرآن ، وهذا هو شأن سنة الرسول ﷺ العملية ،

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٧٣ - ٢٧٤) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣٩٩) .

فإنه لما بعث معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعوهم أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ^(١) « (٢) » .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] ، قال رحمه الله: « من فوائد الآية وأحكامها: وجوب نشر الإنسان ما علمه الله عز وجل من العلم لا سيما في أعظم الأمور وهو توحيد الله عز وجل ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ « (٣) » .

ويؤكد الشيخ رحمه الله أهمية نشر العقيدة لما يتحتمه واقع الأمة الإسلامية اليوم من الوقوع في أنواع الشرك ، وفشو الجهل في ذلك قال رحمه الله: « والعجب أنه يوجد من المسلمين مَنْ يؤمن بأن الله في كل مكان نسأل الله العافية- ولا أدري كيف يستسيغ الإنسان أن يقول: إن الله في كل مكان ، وهو يعرف أنه سوف يدخل المرحاض وبيت الخلاء ، فهل يمكن لإنسان عنده مسكة عقل أن يعتقد مثل هذا ، لا والله ، لكن ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يهتدون ، نسأل الله العافية .

فالواجب على طلبة العلم نشر العقيدة الصحيحة حول هذا الموضوع

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦) ، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ لمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ ، فَأَذِّعْهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّبِعْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » .

(٣) « تفسير سورة ص » (٣٢) .

المهم ، أنا أخشى إن لاقى الإنسان ربه على هذه العقيدة أن لا يتولاه الله ، ولا يكلمه الله ؛ لأنها عقيدة من أبطل العقائد والعياذ بالله ومع ذلك فهي موجودة ، كما أحسنا بذلك في دروس الحرم ، حتى إن الواحد من الناس لو قلت له : أين الله ؟ قال بلا تردد : في كل مكان ، وكأنه شيء ثابت عنده ، ولهذا يجب على طلاب العلم أن يعتنوا بهذه المسألة .

نحن في بلادنا والحمد لله لا نعرف هذه العقيدة الباطلة ، ولا يمكن أن يدور في فكر أي إنسان أن الله في كل مكان ، لكن في بعض البلدان التي أشربت عقيدة الضلال والعياذ بالله - وصاروا يقرؤونها في الكتب ويتعلمونها صغاراً ، ويشيخون عليها كباراً هم الذين تأثروا بها ، فعلياً أن نعتني بهذه المسألة وبغيرها من المسائل التي شاعت في العالم الإسلامي ، وهي خلاف الصواب ^(١) .

رابعاً : الإيمان وعلاقته بتكوين الداعية في استقامته وتعليمه وولاية الله تعالى له ، والإيمان من أبرز ركائز الاعتقاد ، ولذا كان تأثيره على الداعية عظيماً إن هو حقق الإيمان كما يجب ، وفي بيان هذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] : « في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي :

- بشرى للمؤمنين : أن الله تعالى وليهم لقوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، ولو لم يكن من آثار الإيمان إلا هذا لكفى أن يتولاك الله في الدنيا والآخرة .

- أن الإيمان سبب للعلم وسبب للاستقامة ، لقوله : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ^(٢) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٣٧٥) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٥٤-٢٥٥) .

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] ، قال رحمه الله :

« وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ » ، أي : أنكم إذا آمتم وحققتم الإيمان مع التقوى يشبكم ثوابين (ويجعل لكم نوراً تمشون به) أي : علماً تسيرون به إلى الله عزَّوجلَّ على بصيرة ، وفي هذا دليل على أن التقوى من أسباب حصول العلم ، وما أكثر الذين ينشدون العلم ، وينشدون الحفظ ، ويطلبون الفهم ، فنقول : إن تحصيله يسير ، وذلك بتقوى الله عزَّوجلَّ وتحقيق الإيمان ، الذي هو موجب العلم ، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم ، فتقوى الله عزَّوجلَّ من أسباب زيادة العلم ولا شك ، ولهذا قال : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ أي : تسيرون به ، أي : بسببه سيراً صحيحاً يوصلكم إلى الله عزَّوجلَّ ^(١) .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاكِبِينَ فِي الْعَالَمِينَ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢] ، قال : « من فوائد الآية : أن العلم سبب للإيمان ، لقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ولا شك أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إيماناً وبصيرة بتوفيق الله عزَّوجلَّ ، فعليك بالعلم واحذر الشبهات والجدال . قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا » ^(٢) ، ولهذا نجد أن أهدي الناس طريقاً ، وأقلهم تكلفاً هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ لأن الجدل عندهم قليل ، ولا يلجأون إليه إلا عند الضرورة ، أما كون الإنسان كلما فهم مسألة ذهب يورد فيها على قلبه أو على غيره ما لا يكون وارداً ، فهذا من التكلف

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٦١) .

(٢) « تفسير سورة الحديد » (٤٣٠) .

والتنطع ، وهو سبب للحرمان»^(١) .

خامساً: الحث على قرن الاعتقاد والإيمان بالعمل الصالح ، وأن العقيدة المجردة عن العمل لا تنفع ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ [البروج : ١١] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير الآية : « المهم أن الله اشترط مع الإيمان العمل الصالح ، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي لنا أن نركز دائماً على العقيدة ، ونقول : نحن على العقيدة الإسلامية وعلى كذا ، وعلى كذا ، ولا نذكر العمل ؛ لأن مجرد العقيدة لا يكفي لابد من عمل ، فينبغي عندما تذكر أننا على العقيدة الإسلامية ينبغي أن تقول ونعمل العمل الصالح ؛ لأن الله يقرن دائماً بين الإيمان المتضمن للعقيدة وبين العمل الصالح ، حتى لا يخلو الإنسان من عمل صالح ، أما مجرد العقيدة فلا ينفع ، لو أن الإنسان يقول أنا مؤمن بالله لكن لا يعمل فأين الإيمان بالله؟ »^(٢) .

سادساً: العناية بما عقد عليه القلب من أعمال القلوب ، ذلك أن الاعتقاد ركيزة قلبية مقترنة بالعمل ، وينبغي للداعية أن يعتني بقلبه قبل اعتنائه بأعمال الجوارح التي تتطلبها دعوته ، ومن ذلك قوة التعلق بالله تعالى ورجاؤه ، وكلما كان الداعية متعلقاً بالله تعالى ازدانت دعوته بما يرضي الله تعالى وكتب له التوفيق والسداد في الدعوة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] :

(١) وفي الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هَذَيْنِ كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ » وقال الترمذي : « حسن صحيح » ، وحسنه الألباني « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ٩٨٤) (٥٦٣٣) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧٥) .

« الفائدة الأولى : أنه ينبغي للإنسان أن يعلق رجاءه بالله عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأنه إذا علم بمضمون هذه الآية فسوف يعتمد في أموره كلها على الله عَزَّ وَجَلَّ .

الفائدة الثانية : تقوية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في الدعوة إلى الله ، وأنه مهما حاول هؤلاء أن يصيبوه بضرر فإنهم لا يملكون ذلك إذا لم يكن الله أرادته ^(١)»

وفي تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ السَّرائِرُ﴾ [الطارق : ٩] حث على الاهتمام بالقلب ، حيث قال : « ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ السَّرائِرُ﴾ أي تختبر وهذا كقوله : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ۖ﴾ ① وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ [العاديات : ٩-١٠] ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح ، عمل الجوارح علامة ظاهرة ، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار ، ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم - يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله - لا يتجاوز الإسلام حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية » ^(٢) ، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ : « والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم ، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان » ^(٣) والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل ، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه ، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها ، وعقائدها ، واتجاهاتها ، وإصلاحها وتخليصها من شوائب الشرك والبدع ، والحقد والبغضاء ، وكرهه

(١) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٣٥) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ما أنزل الله على رسوله وكرهه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه «^(١) .

من خلال هذه المضامين نستنتج أن أبرزها في تأهيل الداعية عقدياً وأهمها وأولها هو الإخلاص لله تعالى الذي ينفي عن صاحبه الشرك بالله تعالى ، ثم المتابعة التي تخلّصه من ظلمات البدع ، وبالإخلاص والمتابعة يتحقق تمام الاتباع والسير على النهج العقدي القويم ، فإذا تحقق ذلك للداعية حافظ على رأس التأهيل وهو صواب الاعتقاد- واعتزّبه واهتمّ له ودعا إليه ، فتكونت لديه شخصية عقدية قوية لا تلوثها الظنون ومواطن زعزعة الاعتقاد ؛ لأنه يعتقد أنها على نهج قويم أساسه الكتاب والسنة ، مخلصاً لله تعالى متبعاً لسنة النبي ﷺ ، فيتحصل له الإيمان العظيم بسبب سلامة اعتقاده ، ثم هو يقرن إيمانه وما عقد عليه قلبه بالعمل الصالح ؛ لأن عمل الجوارح ركن في سلامة الاعتقاد وبنائه البناء الصحيح ، والذي يتطلب قوة تعلّق القلب بالله تعالى ورجائه وحسن اللجوء إليه جل وعلا ؛ ليحقق الداعية معية الله تعالى له ، وتوفيقه وامتنانه ، وليكن أداة فاعلة في مجتمعه يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة ، وكم يحتاج الناس لداعية ذي تأهيل عقدي قويم ، يذود عن عقيدته وينشرها في مجتمعه ،

(١) المشهور في هذا الأثر عن بكر بن عبدالله المزني كما نقله السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٥٨٤) ، قال بكر بن عبدالله المزني : « مَا فَضَّلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَّ فِي قَلْبِهِ » ، وكذا ذكره الألباني في « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (٣٧٨ / ٢) ، حيث قال : « لَا أَصِلُ لَهُ مَرْفُوعًا ، قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ » (١ / ٣٠ و ١٠٥) : رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمُ فِي « النُّوَادِرِ » مِنْ قَوْلِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَزْنِيِّ ، وَلَمْ أَجِدْهُ مَرْفُوعًا . وَأَقَرَّهُ الْحَافِظُ السَّخَاوِيُّ فِي « الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ » (٩٧٠) ، وَنَقَلَهُ عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ لَفْظَ الشَّيْخِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللهُ ، وَابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي « مَنَهاجِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ » (٢٢٣ / ٦) ، وَكَذَلِكَ ابْنُ الْقَيْمِ فِي « مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ » (١ / ٨٢) .

وَيَصَحُّ الضَّلَالَاتِ الَّتِي عَمَّتْ فِي بَعْضِ مَيَادِينِ الْأُمَّةِ ، وَالتِّي سَبَبُهَا سُوءُ
الْإِعْتِقَادِ وَالْبَعْدُ عَنْ مَنْهَاجِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَيُخَلِّصُهَا مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ ؛ لِأَنَّ
بِالْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ صِلَاحَ دِينِ الْعَبْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَعَلَى الدَّعَاةِ حِمْلٌ
ثَقِيلٌ ، وَمَسْئُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ ، وَأَمَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِي تَأْهِيلِ أَنْفُسِهِمُ التَّأْهِيلَ الْعَقْدِي الَّذِي
يُرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ، وَدَعْوَةِ الْأُمَّةِ إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالتَّحْذِيرِ
مِنْ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخَلُّ بِالْإِعْتِقَادِ قَلْبِيًّا كَانَ أَوْ قَوْلِيًّا أَوْ عَمَلِيًّا ؛ لِيَنْفُوا عَنِ
الْأُمَّةِ ضَلَالَاتِ الشِّرْكِ وَخَزَعِبَلَاتِ الْبِدْعِ الَّتِي فَتَكَتْ بِبَعْضِ الشُّعُوبِ حَتَّى ظَنُّوا
الْبَاطِلَ حَقًّا ، وَالشِّرْكَ عَقِيدَةً صَحِيحَةً .



المبحث الثالث : التأهيل العلمي للداعية

يعتبر العلم أهم ركيزة يعتني بها الداعية ، وهي أدواته التي يدعو بها ، فلا تصح دعوة بلا علم ، بل الدعوة بلا علم يترتب عليها من الأثر السلبي والعواقب الوخيمة التي أشنعها القول على الله بلا علم كما سيأتي - ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩] ، بَوَّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ على هذه الآية — (باب : العلم قبل القول والعمل)^(١) ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ : « قال ابن المنير : أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ؛ لأنه مصحح للنية المصححة »^(٢) .

ولقد تضافرت نصوص كثيرة في بيان فضل العلم منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَلْعَمُوا ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] ، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاستزادة منه فقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ [الواقعة: ٣] يعني هي خافضة رافعة ، أي : يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون . ولكن من الذي يرفع ؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة ، ومن

(١) « تفسير جزء عم » سورة الطارق (١٤٩ / ١٥٠) .

(٢) « صحيح البخاري » (١ / ٢٤) .

سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم ، وتخفّض أهل الجهل والعصيان»^(١).

وفي سنة النبي ﷺ من النصوص ما يستحث المسلم على أن يكون من أهل العلم ، ومن ذلك قوله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »^(٢) ، وقوله : « وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ »^(٣) ، وقوله : « إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّجَلَّ مِنَ الْهُدَى ، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةً ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَأُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أُمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ »^(٤).

- المضامين الدعوية في التأهيل العلمي للداعية .

جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ جملة من الضوابط المهمة التي تساعد في تكوين الداعية وتأهيله علميًا ، استنباطًا من آيات القرآن الكريم ، ومما ذكره الشيخ ما يلي :

أولاً : النية الصالحة في العلم ، والنية الصالحة وإن كان تقدّم الكلام على الإخلاص في التأهيل العقدي ، إلا أن مراعاة النية على وجه الخصوص في

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١ / ١٦٠).

(٢) «تفسير سورة الواقعة» (٣٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

العلم دلت عليه النصوص ، والتي تبين أن من أخلَّ بجانب النية الصالحة في العلم فقد تعرَّض للوعيد الشديد ، والخوف من عدم الإخلاص في العلم هو دأب السلف رَحِمَهُمُ اللهُ ، قال الذهبي : « قال عون بن عمارة : سمعت هشام الدستوائي يقول : والله ما أستطيع أن أقول إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث ، أريد به وجه الله عزَّ وجلَّ .

قلت - أي الذهبي - : والله ولا أنا ، فقد كان السلف يطلبون العلم لله ، فنبلوا ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله ، وحصلوه ، ثم استفاقوا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق ، كما قال مجاهد ، وغيره : طلبنا هذا العلم ، وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد » (١) .

ومن قرأ في كتب السلف رَحِمَهُمُ اللهُ على مرِّ العصور علم أهمية هذا الأمر عليهم من نقلهم لمواقف لهم وحثهم لغيرهم على الإخلاص ، ومن أولئك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٤١] حيث قال : « من فوائد هذه الآية الكريمة : أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا ؛ لأن طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا نوع من الاشتراء بآيات الله ثمنًا قليلاً ؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « من طلب علماً وهو مما يبتغي به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عَرَضًا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة » (٢) (٣) .

(١) أخرجه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » للذهبي (٧ / ١٥٢) .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُمُ اللهُ ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » يَعْنِي رِيحَهَا . قال الحاكم : هذا حديث صحيح سنده ، ثقات رواه على شرط الشيخين ولم يخرجاه . « المستدرک » (١ / ١٦٠) ، وصححه =

ثانياً : استشعار أهمية العلم ، من لوازم تأهيل الداعية علمياً ؛ لأن معرفة ثمنية أي شيء لا تكون إلا بإدراك أهميته ، والداعية إذا استشعر أهمية العلم وحاجة المدعوين للداعية العالم ، كان ذلك دافعاً للحرص على طلب العلم والاجتهاد فيه ، والبعد عن منازل المغضوب عليهم والضالين ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَضَّالِينَ ﴾ [الفاتحة : ٧] : « ينبغي للإنسان أن يتعلم ؛ حتى لا يكون من الضالين ، وأن يتعبد حتى لا يكون من المغضوب عليهم ، وطلب العلم قد يكون فرضاً على الأعيان ، وقد يكون فرضاً على الكفاية ، وقد يكون مستحباً ، فهو فرض على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها الإنسان ، فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منهما ما يحصل به الواجب ، وكذلك الأمر في الصيام ، وكذلك في الحج ، وكذلك في الزكاة ، وفرض على الكفاية فيما لا يتعين على الإنسان العمل به ، فتعلمه فرض كفاية إذا قام به من يكفي ؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقيين .

وأما القسم الثالث وهو السنة ، فهو ما يكون فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقيين .

وإنني بهذه المناسبة- أحث إخواني ولا سيما الشباب منهم على أن يحرصوا على العلم الشرعي ؛ لأن الناس الآن في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه ؛ لكثرة الجهل الجهل البسيط والجهل المركب- ؛ لأن كثيراً من الناس لا علم عندهم ، وكثير من الناس عندهم علمٌ لكن ليس عندهم فهم»^(١) .

= الألباني « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ١٠٦٠) رقم (٦١٥٩) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]، قال: «من فوائدها: بيان أن العلم الذي يهبه الله تعالى للشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن الله به على العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله تعالى العلم، والعلم أفضل من المال؛ لما فيه من النفع الكثير الواسع، وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل على بيان فضل العلم، وأنه أعظم نعمة من الله بها على العبد»^(١).

وأهم ما يتعلمه الداعية من العلم ويبدأ به هو كتاب الله تعالى، فهو أساس كل علم مقرب إلى الله تعالى، نافع في الأمة، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]: «من فوائده الآية: الحث على تعلم معاني كتاب الله عز وجل»

(١) «أحكام من القرآن الكريم» (١ / ٣٣-٣٤)، وفي «مجموع فتاويه ورسائله» (٢٦ / ٣٣١-٣٣٢)، بين أهمية العلم وأنه لا تعارض بينها وبين الدعوة، فقال: «ومن ظن أنه لا يمكن الجمع بين العلم والدعوة فقد أخطأ، فن الإنسان يمكنه أن يتعلم ويدعو أهله وجيرانه وأهل حارته وأهل بلده وهو في طلب العلم».

والناس اليوم في حاجة بل في ضرورة إلى طلب العلم الراسخ المتمكن في النفوس المبني على الأصول الشرعية، وأما العلم السطحي الذي يعرف الإنسان به شيئاً من المسائل التي يتلقاها كما يتلقاها العامة دون معرفة لأصولها وما بنيت عليه فإنه علم قاصر جداً لا يمكن الإنسان به من الدفاع عن الحق وقت الضرورة وجدال المبطلين.

فالذي أنصح به شباب المسلمين أن يكرسوا جهودهم لطلب العلم مع القيام بالدعوة إلى الله بقدر استطاعتهم، وعلى وجه لا يصددهم عن طلب العلم؛ لأن طلب العلم جهاد في سبيل الله تعالى، ولهذا قال أهل العلم: إذا تفرغ شخص قادر على التكسب من أجل طلب العلم فإنه يعطى من الزكاة؛ لأن ذلك من الجهاد في سبيل الله، بخلاف ما إذا تفرغ للعبادة، فإنه لا يعطى من الزكاة، لأنه قادر على التكسب» ا.هـ.

فقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين يقرءون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ؛ فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً .

- ومن فوائدها : الحثُّ على فهم كتاب الله ، وأنه ينبغي للإنسان أن يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه ، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين اليوم على غير هذا المنهج ؛ أي : أنهم يقرءون القرآن للتعبد بلفظه فقط ، دون أن يفهموا معناه ، أو أن يطبقوا أحكامه ، وهذا بلا شك قصور عظيم ؛ ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين ؛ حيث تخلفوا كثيراً عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظاً ومعنى وعملاً ، ففاتهم بذلك خير كثير ^(١) .

ثالثاً : اقتران الدعوة إلى الله بالعلم والبصيرة ، وهذا من الأسس المهمة

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٥٢) ، وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نحو هذه المقارنة بين العلم والمال في تفسيره لسورة الصافات (٢٦٥) .

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام جميل في المقارنة بين العلم والمال في « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٢٩) ، حيث قال : وفضل العلم على المال يعلم من وجوه : أحدها أن العلم ميراث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمال ميراث الملوك والأغنياء ، والثاني : أن العلم يحرس صاحبه ، وصاحب المال يحرس ماله ، والثالث : أن المال تذهبه النِّفَقَاتُ والعلم يزكو على النِّفَقَةِ ، الرابع : أن صاحب المال إذا مات فارق ماله ، والعلم يدخل معه قبره ، الخامس : أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم ، السادس : أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن ، السابع : أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم ، وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة ، الثامن : أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها ، والمال يزكيها ولا يكمله ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه ، فحرصها على العلم عين كمالها ، وحرصها على المال عين نقصها ، التاسع : أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء ، والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية ، فالمال يدعوها إلى صفات الملوك ، والعلم يدعوها إلى صفات العبيد ، العاشر : أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها ، والمال حجاب بينها وبينها ... » وذكر أكثر من ثلاثين وجهاً لهذه المقارنة .

التي ينبنى عليها تأهيل الداعية ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، ففي الآية تأهيل للداعية وحثه على لمنهج العلمي القويم الرصين المبني على بصيرة ، ويقين وبرهان عقلي وشرعي^(١) ، وكم جرّت دعوة الداعية بلا علم من ويلات على الأمة أفرادا ومجتمعات ، ومفاسد ذلك كثيرة شاهدة للعيان ، ولذا جاء التحذير من ذلك كما سيأتي بيانه - ، وقد أمرنا الله تعالى باتباع من اهتدى بنور العلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(٢) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢١-٢٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية الكريمة : أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصيرة وعلى علم ؛ لأن هذا هو وصف الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فهم يدعون إلى الله على هدى منه ، وأما من يدعو على غير هدى فإنه قد يفسد أكثر مما يصلح ؛ لأن الذي يدعو على غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً ، والحلال حراماً وهو لا يدري ، فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة ...

ومنها : أنه من كمال الدعوة والتسليم قرن الحكم بدليله ، أو علته ؛ لقوله : ﴿ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فإن هذا كتعليل لقوله : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ ﴾^(٣) .

وإن من الدعوة على علم وبصيرة السير على أصول الدعوة وضوابطها التي جاءت بها النصوص ، وأهم ما ينبغي أن يتبصّر به الداعية من ذلك فقهه وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ضوابطاً لهذه الشعيرة التي هي من ركائز عمل الداعية ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنَّ

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » (٢ / ٤٩٦) ، وتقدّم في أول هذا الفصل بيان كيف يكون الداعية على بصيرة من كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ .

(٢) « تفسير سورة يس » (٧٩) .

مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]، حيث قال: « من فوائد الآية: أنه لا بد من العلم يعني الحث على العلم؛ لأنه لا يمكن أن يدعو إلى الخير من لا يعلم الخير، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف من لا يعرف المعروف، ولا يمكن أن ينهى عن المنكر من لا يعرف المنكر، فلا بد من العلم، فيستفاد من هذه الآية الكريمة الحث على العلم؛ لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

- ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يلي:

الشرط الأول: العلم بالشرع، والعلم بالحال، العلم بالشرع بأن أعرف أن هذا مما أمر الله به حتى أمر به، أما إذا كنت لا أدري هل هو مأمور به أو لا؛ فلا يحل لي أن آمر به؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والعلم بالحال بأن أعلم أن هذا الرجل ترك المعروف أو فعل المنكر، أما أن أمره بالمعروف وأنا لا أدري هل فعله أو لا، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا من قفوي ما ليس لي به علم، وكذلك لو نهيته عن منكر وأنا لا أدري هل ارتكب المنكر أو لا، فإن ذلك لا يجوز؛ لأنه من قفوي ما ليس لي به علم...

الشرط الثاني: أن لا يتغير المنكر إلى ما هو أنكر منه؛ لأن النهي عن المنكر يُراد به تقليل المنكر، فإذا كان يترتب عليه أن يقع المنهي عن المنكر في منكر أعظم؛ فإنه لا ينهى عنه...

الشرط الثالث: أن يعلم أن هذا مفيد، بمعنى أنه يحتمل عنده أن هذا الفاعل للمنكر أو التارك للواجب كان على جهل، وأنه قريب الرجوع إلى الحق، فإن

كان يعلم أن صاحبه عالم بالحكم لكنه متمردٌ مستكبرٌ فإنه لا يجب حينئذٍ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

وهذه المسألة في النفس منها شيء ، قد نقول : إن عليه أن يأمر وينهى وأن ذلك لا يخلو من فائدة لو لم يكن من فائدته إلا علم الناس بأنه معروف أو بأنه منكر لكفى ، لأننا إذا سكتنا بحجة أن الأمر لا ينفع أو أن النهي لا ينفع ؛ بقيت المنكرات على ما هي عليه ، وبقي التهاون بالواجبات على ما هو عليه ، وصار الشباب الذين يخرجون من جديد يظنون أن هذا المنكر معروف ، وأن المعروف ليس بمعروف ، ولهذا في هذا الشرط نظر ، بل نقول : يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء ظننت أنه مفيد أم لم يفد . لكن في حدود الاستطاعة ...

الشرط الرابع : أن يكون الأمر بالمعروف فاعلاً له ، والناهي عن المنكر تاركاً له ، يعني لا تأمر بالمعروف وأنت لا تفعله ، ولا تنه عن منكر وأنت تفعله . فإذا كان هذا الرجل مثلاً يتعامل بالربا ووجد إنساناً يتعامل بالربا فإنه لا يلزمه ولا يجب عليه أن يقول للثاني : يا فلان اترك الربا ، فإن الربا حرام ملعون فاعله ، لأنه هو يفعله ، فكيف ينهى عن شيء يفعله هو؟

واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] فوبّخ الله هؤلاء على أمرهم بالبر ، ونسيان أنفسهم . ويبيّن أن هذا خلاف العقل ، كيف تأمر الناس وتترك نفسك؟ هذا ليس بمعقول ! فأنتم خالفتم الشرع وأنكرتم العقل ، واستدل أيضاً بما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار حتى تندلق أفتاب بطنه (يعني أمعاءه) فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع عليه أهل النار ويقولون : مالك يا فلان؟ ألسنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر

وآتيه»^(١). قالوا: وهذا يدل على شدة عقابه إذا أمر بالمعروف ولم يأت به أو نهى عن منكر وأتاه. فلا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من لا يفعل المعروف ولا يترك المنكر، وأبى هذا أكثر أهل العلم وقالوا: إن هذا خلاف الأدب لكنه محرم، يعني كونه يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، وخلاف العقل لكنه حرام عليه، فيجب أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ بنفسه، فإذا قرط في حق نفسه فليس له الحق في أن يقرط في حق غيره، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عليه ولو كان هو لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن المنكر؛ لأنه لو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه لا يفعل المعروف ولا ينتهي عن منكر فقد أتى محذورين: ترك الواجب على نفسه لنفسه، وترك الواجب على نفسه لغيره، الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو كان هو لا يأتمر بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر، وهذا القول هو الصحيح^(٢)، وعليه أن يوبخ نفسه ويقول: كيف آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه؟ هذا خلاف المعقول والمنقول، وخلاف الأدب مع الله، وخلاف الأدب عند عباد الله»^(٣).

ومن البصيرة البصيرة بكتب العلم ومعرفة الجيد من غيره، فعلى الداعية أن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) وانتصر شيخنا رحمته الله لهذا القول أيضاً في «تفسير سورة المائدة» (٢ / ١٠٤) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمَا وَكَلِمَتُهُمْ أَلْسِنَتٌ لِّنَاسٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

(٣) «تفسير آل عمران» (٢ / ١٢-١٩)، وللشيخ رحمه الله تفصيل أيضاً بنحو ما سبق مع إيضاحات لبعض ما يشكل من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ساقه في «تفسير سورة المائدة» (٢ / ٢٤١-٢٤٤)، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

يحسن انتقاء مصادره من كتب أهل العلم ، ويتنبه من الكتب التي تحتوى على شبهات أو استدلالات ضعيفة ، ولا يكن همُّ الداعية تعليم الناس ووعظهم بما استحسنته مما قرأه بغض النظر عن صوابه ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعية في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها ، ولا أحسن من الرجوع إلى الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس ؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو التهيب ، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد ؛ لأن كوننا نملاً أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعية خطأ حتى لو كان فيها ترغيب وتهيب ، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية ، والناس سوف يأخذون كل ما ذكر على أنه صحيح ، يقولون : ما قيل في المحراب فهو صواب ، والواجب على من ألَّف في الترغيب والتهيب أن لا يذكر إلا ما كان حجة من صحيح أو حسن ، أما الضعيف فلا حاجة لذكره لأننا في غنى عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ » ^(١) .

رابعاً : الرسوخ في العلم المبني على الكتاب والسنة ، فالحاجة ماسة للرسوخ في العلم لاسيما مع تجدد المسائل والقضايا المعاصرة ، والمراد بالرسوخ هو علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة وحفظهما والعمل بهما ، وضبط الأصول والقواعد المبنية عليهما ، والعمق في مسائل العلم واستحضار أدلتها ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « العلم جهاد في سبيل الله ولا سيما في وقتنا الحاضر ؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم على بعض ، واختلط بعضهم ببعض ، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار ، واحتاج الناس الآن للعلم الراسخ

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٧٨) .

المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض ؛ لذلك تجد رجلاً يمر به حديث ، أو حديثان ، ثم يقال : أنا ابن جلا ، وطلاع الثنايا ! من ينال مرتبتي ! أنا الذي أفتي بعشرة مذاهب ! ثم مع ذلك يندد بمن خالفه ولو كان من كبار العلماء ؛ وربما يضخم الخطأ الذي يقع منه - ولو كان ممن يشار إليه بالفضل ، والعلم ، والدين ؛ وهذه خطيرة جداً ؛ لأن العامي وإن كان وثق بشخص لا يهمه هذا الكلام ؛ لكن كلما كرر الضرب على الحديد لا بد أن يتأثر ؛ لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصاً في هذا الوقت ^(١) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] ، قال : « من فوائد الآية : فضيلة الرسوخ في العلم ، وهو الثبات فيه والتعمق فيه ، حتى نصل إلى جذوره ؛ لقوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ ، وضد الرسوخ في العلم السطحية في العلم ، وما أكثر السطحية اليوم فينا !! أكثر الناس اليوم علومهم سطحية . ولهذا تجدهم إذا ألفوا أو كتبوا يكثر من النقول ، بسبب أنه ليس عندهم حصيلة علمية ، فيجعل نفسه في حل من الكلام . وأما أهل العلم حقاً فتجدهم يتكلمون بالعلم من صدورهم بدون نقل ، ولهذا عباراتهم أحياناً تخالف عبارات العلماء الآخرين ، ومن أوضح ما يكون كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ ، تجد أنهما يتكلمان عن علم راسخ ، وأمثالهما كثير .

- أنه ينبغي للإنسان أن يحرص أن يكون راسخاً في العلم ، لا جامناً كثيراً منه ، لأن العبرة بالرسوخ في العلم ؛ لأن الإنسان إذا كان عنده رسوخ في العلم صار عنده ملكة يستطيع أن يقرب العلم بعرضه من بعض ، ويقيس ما لم يُنصَّ

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٢٢ - ٤٢٣) .

عليه على ما نُصَّ عليه ، ويكون العلم لديه كالطبيعة الراسخة .

- أن الراسخين في العلم يعلمون أن الذي يكون من عند الله لا يكون فيه تناقض ، لقوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [النساء : ١٦٢] : « من فوائد الآية : فضيلة الرسوخ في العلم ، وانتبه لكلمة « الرسوخ » ، ومعناها الثبوت والاستقرار ، وذلك لأن العلم علمان : علم راكد ، بمعنى أنه على السطح ، وأي ربح تزعزعه ، وهذا ما يكون عند كثير من الطلبة ، فتجد كثيراً من الطلبة يجمع العلوم دفعه واحدة ، فيكون كالطبيب العام ، ليس له اختصاص في شيء ، وبعض الطلبة يركز ويحرص ، فهذا هو الذي يدرك العلم ، ويكون عنده قدرة ومملكة ، حتى إن بعض العلماء زعم أن من نبغ في فن من الفنون كان مدركاً لجميع الفنون ...

أقول : إن الرسوخ في العلم هو العلم ، ومن ثم كنت أقول دائماً لطلاب العلم احرصوا على قواعد العلم وضوابط العلم ، وذلك لأن الجزئيات لا حصر لها ، فكل يوم يخرج للناس معاملة جديدة ، أو حدث جديد في العبادات ، ولا يمكن للإنسان أن يحكم عليه الحكم الصحيح إلا إذا كان عنده قواعد وأصول يلحق بها هذه الجزئيات ، أما من يأخذ العلم مسألة مسألة فهو كالذي يلقط الجراد من الصحراء ؛ لأنه سيتعب دون أن يملأ الكيس ، لكن الذي يحرص على القواعد هو الذي يدرك العلم بإذن الله ^(٢) .

خامساً : الحذر من كتمان العلم ، وهذا مما ينبغي للداعية معرفته بعدما يمنُّ الله تعالى عليه بالعلم ، فإن واجب العلم بذله عند السؤال ، وعدم التعرُّض

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٧ - ٤٨) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٧٣ - ٤٧٤) .

للوعيد الشديد المترتب على كتمان العلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، قال الشيخ رحمه الله :

« ومن فوائد الآية : عظم كتم العلم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من الله بهذه الشريعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ؛ فكل إنسان يكتُم علماً فقد كتم شهادة عنده من الله ؛ ثم إن في هذا عِظْمُ إثمِهِ ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ « (١) .

ومن شديد الوعيد لكاتم العلم أنه يتعرض للعنة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَهُدًى مُنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

قال الشيخ رحمه الله : « من فوائد الآية : أن كتم العلم من كبائر الذنوب ؛ يؤخذ من ترتيب اللعنة على فاعله ؛ والذي يُرْتَّبُ عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب ... - ومنها : قُبْحُ هذا الكتمان الذي سلكه هؤلاء ؛ لأنه كتمان بعد بيان ؛ ليس لهم أن يقولوا : « ما تكلمنا ؛ لأنَّ الأمر مشتبه علينا » ؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لا يشتبه الأمر عليه قد يُعذر ؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن الله بيَّنه للناس يكون هذا أعظم قبحاً والعياذ بالله - ...

- ومنها : أن هؤلاء الكاتمين ملعونون ؛ يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون ؛ لقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ...

- ومنها : جواز الدعاء باللعنة على كاتم العلم ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ﴾ ؛ لأن من معنى : ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ﴾ الدعاء عليهم باللعنة ؛ تقول : اللهم العنهم ؛ ولا يُلعن الشخص المعين ؛ بل على سبيل التعميم ؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز ولو كان من المستحقين لللعنة ؛ لأنه لا يُدرى ماذا يموت عليه ؛ قد يهديه الله ، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ^(١) ؛ وأما لعنه بعد موته أيجوز ، أم لا يجوز ؟ فقد يقال : إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ : « لا تسبوا الأموات فإنهم

(١) وبين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ حكم لعن المعين في موضع آخر في « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٩٣) ، وانظر : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٩ / ٢١٩) ، (٩ / ٢٩٥) ، وجاء في « معجم المناهي اللفظية » د . بكر أبو زيد (٤٥٧) ، ما نصّه : « وقد بالغت الشريعة في سد باب اللعن عن من لم يستحقه ، فهى النبي ﷺ عن لعن الديك ، وعن لعن البرغوث ، فعلى المسلم الناصح لنفسه حفظ لسانه عن اللعن ، وعن التلاعن ، والوقوف عند حدود الشرع في ذلك ، فلا يُلعن إلا من استحق اللعنة بنص من كتاب أو سنة ، وهى في الأمور الجامعة الآتية :

١- اللعن بوصف عام مثل : لعنة عامة على الكافرين . وعلى الظالمين . والكاذبين .

٢- اللعن بوصف أخص منه ، مثل : لعن آكل الربا . ولعن الزناة . ولعن السراق والمرشيين . والمرشيين . ونحو ذلك .

٣- لعن الكافر المعين الذي مات على الكفر . مثل : فرعون .

٤- لعن كافر معين مات ، ولم يظهر من شواهد الحال دخوله في الإسلام فيلعن . وإن توقى المسلم ، وقال : لعنه الله إن كان مات كافراً ، فحسن .

٥- لعن كافر معين حي ؛ لعموم دخوله في لعنة الله على الكافرين ، ولجواز قتله ، وقتاله . وجوب إعلان البراءة منه .

٦- لعن المسلم العاصي -مُعِينًا أو الفاسق بفسقه ، والفاجر بفجوره . فهذا اختلف أهل العلم في لعنه على قولين ، والأكثر بل حُكي الاتفاق عليه ، على عدم جواز لعنه ؛ لإمكان التوبة ، وغيرها من موانع لحوق اللعنة ، والوعيد مثل ما يحصل من الاستغفار ، والتوبة ، وتكاثر الحسنات وأنواع المكفرات الأخرى للذنوب . وإن ربي لغفور رحيم .

قد أفضوا إلى ما قدموا»^(١) ؛ وهذا عام ؛ ثم إنه قد يثير ضغائن ، وأحقاد من أقاربه ، وأصحابه ، وأصدقائه ؛ فيكون في ذلك مفسدة ؛ ثم إن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »^(٢) ؛ وأي خير في كونك تلعن واحداً كافراً قد مات ؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها ، والقدح فيها ، وذمها ، أما هو شخصياً فإنه لا يظهر لنا جواز لعنه ، وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات على الكفر .

- ومن فوائد الآية : عظم كتم العلم ، حيث كان من الكبائر ، وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلى بيانه إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال ، فإن من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنتاً ، أو يريد الإيقاع بالمسؤول ، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض ، أو يترتب على إجابته مفسدة ، فلا يجاب حيثئذ ، وليس هذا من كتم العلم ، بل هو من مراعاة المصالح ، ودرء المفاسد »^(٣) .

وللشيخ رحمة الله تعالى عليه - تقسيم بديع لنوعي السؤال الذي يتلقاه الداعية من المدعويين ودخولهما في كتمان العلم إذالم يؤدّ الداعية حقهما من البيان ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُمَا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢] ، قال :

« ومن فوائد هذه الآية الكريمة : تحريم كتمان الحق ، وكتمان الحق يكون في حالتين : الحالة الأولى : أن يسأل سائل عن الحق فيكتم الحق عنه ولا يجاب

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ، ومسلم (٤٧) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٤ ١٩٠) ، وانظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢١٢) .

به ؛ لغرض من أغراض الدنيا ، والحالة الثانية : أن يحتاج الناس إلى بيان الحق وإن لم يسألوا ، فإذا رأى العالم الناس محتاجين إلى الحق وجب عليه بيانه ، وإن لم يسألوه ، والفرق بين الحالتين : أن الحالة الأولى التي يكون فيها الكتمان عند سؤال السائل يقع السؤال فيها بلسان المقال ، أما الثانية فيقع السؤال فيها بلسان الحال .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحاً ، أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يتكلم به أصلاً ؛ لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال على الله ما لا يعلم ، وهذا من المحرم الذي حرمه الله في كتابه في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ^(١) .

سادساً : الحذر من القول على الله بلا علم ، وهو ما يقع فيه بعض الدعاة لاسيما من له في كل موقف قول ورأي - وهو بهذا تقحم أمراً عظيماً ، وإن من تمام التأهيل العلمي للداعية أن يرعى حق العلم ، فالعلم عزيز في فضله ومرتبته ومكانته وإن من عزته أن يكون الداعية حذراً من كتمانته وقفو ما ليس له به علم ، فكما جاء التحذير من كتمان العلم فقد جاء التحذير من القول على الله بلا علم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، والقول على الله بلا علم من غوائل الشيطان للداعية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ... يشمل أيضاً القول على الله بلا علم في أحكامه ؛

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٤) ، وانظر : (١ / ٣٩٦) ، و« تفسير آل عمران » (١ / ٤٠٦)

(٢ / ٥٢٧) ، و« تفسير سورة المائدة » (١ / ٢١٢) .

مثل أن يقول : « هذا حرام » وهو لا يعلم أن الله حرمه ؛ أو « واجب » وهو لا يعلم أن الله أوجبه ؛ وهم كثيرون جداً ؛ ومنهم العامة ، ومنهم أدعياء العلم الذي يظنون أنهم علماء وليس عندهم علم ؛ ومن الأشياء التي مرت عليّ قريباً ، وهي غريبة : أن رجلاً ذهب إلى إمام مسجد ليكتب له الطلاق ؛ فقال له : « طلق امرأتك طلقين ؛ أنا لا أكتب طلقة واحدة ؛ لأن الله يقول : (الطلاق مرتان) » ؛ فقال له الرجل : « اكتب أنني طلقت امرأتي مرتين » ؛ وهذا جهل مركب منافٍ لمعنى الآية ؛ لأن معناها أن الطلاق الذي يملك فيه الرجعة هو الطلقة الأولى ، والطلقة الثانية ؛ فإن طلقها الثالثة لم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ^(١) .

وقال أيضاً : « وأما القول على الله بما لا يعلم الإنسان في الأحكام الشرعية : فما أكثرها اليوم ، ما أكثر الذين يتصدون للفتوى ، وهم من أجهل الناس !! فيكونون قد قالوا على الله بلا علم ، والمفتي لعباد الله بما يزعم أنه شريعة الله ، هو معبر عن الله في الحقيقة ؛ لأنه يقول : هذا حكم الله ...

وعلى هذا فإننا نحذر إخواننا طلبة العلم والعامة - أيضاً أن يفتوا بلا علم ، بل عليهم أن يلتزموا الورع ، وأن يقولوا لم لا يعلمون : لا نعم ، فإن هذا والله هو العلم ، لكن إذا كان الإنسان عالماً بحكم المسألة من عالم يثق بقوله ، وأراد أن ينقل قول هذا العالم المستفتي فإن هذا لا بأس به ^(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٥] ، قال في فوائد الآية : « من فوائد الآية : أن من افتري على الله الكذب وهو يعلم ، أشد إثماً وعدواناً ممن لا يعلم ،

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٢٤٠) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٤٢) .

وإن كان كلُّ منهم على خطأ ، لكن ليس المتعمّد كغير المتعمد ؛ لذلك قال النبي ﷺ : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(١).

- الإشارة إلى أن الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط ؛ لأن الذي يكذب وهو يعلم أقبح من الذي يكذب ولا يعلم . فالجاهل المركب الذي يتقدم بالشيء وهو يعلم أنه ليس عنده علم ، أقبح من الشخص الذي يرى أن هذا هو العلم^(٢).

وإن من واجب الداعية الذي جانب الصواب واستعجل بقول باطل ، أن يصحح ما قاله بعد التبيين له - عند المدعوين ، فإن هذا من البيان الذي أمر الله تعالى به وحذّر من نقيضه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « ومن فوائد الآية : أنه يجب على من قال قولاً باطلاً ، ثم تبين له بطلانه أن يبيّنه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق ؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب »^(٣).

ومن تمام التأهيل العلمي فيما لا يعلمه الداعية أن يقول : (الله أعلم) فالداعية إلى الله تعالى لا تمثال ذلك أشد حاجة ؛ لأن الناس يرجعون إليه في قِطْرِهِ الذي هو فيه في كثير من المسائل ، ولربما حمله ذلك على أن يقول بالحدس والظن الذي يظنه ، فليحذر الداعية من ذلك وليعلم أن الكلام في الشرع عموماً لا سيما الأمور العظيمة لا يُسَعَف معه حدس بل ربما يهلك ويُضِل .

(١) أخرجه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٣٣) .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٥) .

وليعلم الداعية أن قول (لا أعلم) هي بحد ذاتها علم ، وأن هذا نهج السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ ، وهو المنهج الشرعي عند جهل أمر ما ، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةٍ فَقَالَ : يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَّامِ فَفَزِعْنَا فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ ، وَكَانَ مُتَكَيِّفًا فَغَضِبَ فَجَلَسَ فَقَالَ : مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ لَا أَعْلَمُ ... الحديث »^(١) ، والأخبار في إمساك السلف عما لا يعلمون كثيرة^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤) ، ومسلم (٢٧٩٨) .

(٢) وللمناوي رَحِمَهُ اللَّهُ كلام جميل عن قول « الله أعلم » حيث قال : « على العالم إذا سئل عما لا يعلمه أن يقول لا أدري ، أو لا أحققه ، أو لا أعلمه ، أو الله أعلم ، وقول المسؤول لا أعلم لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهلة ؛ لأن العالم المتمكن لا يضر جهله ببعض المسائل ، بل يرفعه قوله لا أدري ؛ لأنه دليل على عظيم محله ، وقوة دينه ، وتقوى ربه ، وطهارة قلبه ، وكمال معرفته ، وحسن نيته ، وإنما يأنف من ذلك من ضعفت ديانته ، وقلت معرفته ؛ لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين ، ولا يخاف من سقوطه من نظر رب العالمين ، وهذه جهالة ورقة دين ، ومن ثم نقل « لا أدري » و « لا أعلم » عن الأئمة الأربعة والخلفاء الأربعة ، بل عن المصطفى ﷺ وجبريل ، كما مر في حديث « خير البقاع المساجد » وفي « مسند الدارمي » موصولاً من عدة طرق أن علياً : سئل عن مسألة فقال : لا أعلم لي بها . ثم قال : وأبردها على كبدي ، سئلت عما لا أعلم لي به ، فقلت : لا أعلم .

وفيه : أن رجلاً سأل ابن عمر عن مسألة فقال : لا أعلم لي بها ، فولَّى الرجل ، فقال ابن عمر : نعم ما قال ابن عمر . وأخرج أبو داود في « الناسخ والمنسوخ » وابن مردويه : عن خالد بن أسلم : خرجنا نمشي مع ابن عمر فلحقنا أعرابي فسأله عن إرث العمّة فقال : لا أدري . قال : أنت ابن عمر ولا تدري ! قال : نعم اذهب إلى العلماء ، فلما أدبر قبل ابن عمر يديه وقال : نعم ما قلت .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود : من غلم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، فإن من علم الرجل أن يقول لما لا يعلم الله أعلم . والدارمي بلفظ : إذا سئل العالم عما لا يعلم قال : الله أعلم .

وأخرج الهروي عن ابن مسعود : إذا سئل أحدكم عما لا يدري ، فليقل : لا أدري ، فإنه ثلث العلم . =

ونستنتج من المضامين الدعوية السابقة أهمية ركيزة العلم في تأهيل الداعية ، فالعلم هو قوت دعوته ، وبه يُعرَف الداعية الذي يدعو إلى الله على بصيرة ، وأهم ما ينبغي في تأهيل الداعية العلمي أن يطلب العلم مخلصاً به لله تعالى ، فإن خلوص القلب في طلب العلم لله تعالى كفيلاً بالتوفيق والسداد واستكمال مراتب التأهيل العلمي الأخرى ، ذلك أن الإخلاص روح التعبد بطلب العلم ، ومن طلب العلم لحظ دنيوي فقد تعنَّى واستكثر على نفسه الحجب ، وأبعد عن صواب التأهيل العلمي ، والنية تتقلب على طالب العلم وعليه تعاهدها ، وسؤال الله تعالى الإخلاص .

ومن أهم ما يعين الداعية على تأهيله العلمي كما تقدّم في المضامين - استشعاره أهمية العلم ، وضرورة رفع الجهل عن نفسه ، وحاجة الناس إليه ، ومدى انتفاع الناس به بسبب العلم ، والعائد من الثواب وعظيم الأجور عليه ، واقتفائه أثر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حين دعوا إلى الله تعالى بعلم الوحي الذي أنزله الله تعالى ، والداعية إلى الله كلما نهل من العلم أدرك ظلمات الجهل التي طغت في المجتمعات ، ولن يصل الداعية إلى الدعوة على منهاج النبوة إلا بعد منهج علمي رصين مبني على بصيرة ويقين ، وسير على أصول الدعوة وضوابطها التي جاءت بها النصوص سواء كان ذلك في ما يختص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو قواعد الدعوة إلى الله تعالى عموماً ، ويحرص على الرسوخ في العلم وأخذه عن الراسخين فيه الذين بنوا علمهم على الكتاب والسنة ، وليحذر

= وأخرج الحازمي في « سلسلة الذهب عن أحمد عن الشافعي » : عن مالك عن ابن عجلان : إذا أخطأ العالم لا أدري أصيب في مقاتله ، والأخبار والآثار في هذا كثيرة ، وإنما أطلت بإيراد هذه النُبذة ؛ لما تطابق عليه فقهاء زماننا من التحاشي عن ذلك ، والمبادرة إلى الجواب باللسان والقلم كيف كان . « فيض القدير شرح الجامع الصغير » (٤ / ٣٨٧) .

طالب العلم من نقيضين للتأهيل العلمي القويم ، أولاها : القول على الله تعالى بلا علم ، فإن العلم أمانة ، وتوقيعٌ عن الشريعة الغراء ، والقول على الله تعالى بلا علم من أكبر الكبائر ، حيث عطفه الله تعالى على الشرك به جل وعلا - ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ، والقول على الله تعالى بلا علم من شأنه أن يورد الداعية إلى المهالك ، وعِظَمُ التبعة يوم القيامة ، والآخر : هو كتمان العلم ، فإن كتمان العلم تعرُّضٌ للوعيد الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، وكتمان العلم مع ما فيه من الوعيد فإنه يمحَق بركة العلم ، ويجعله حجة على صاحبه ، والداعية الحصيف هو الذي يأخذ العلم متعبداً بطلبه وتبليغه ليعم نفعه ، ويكتب أثره ، ويعظم أجره ، لأنه سار على جادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، واتبع طريقتهم في الدعوة إلى الله تعالى .



المبحث الرابع : التأهيل الأخلاقي للداعية

إن أهم ما يراعيه الداعية في دعوته ما يتحلى به من أخلاق ؛ ذلك أن الدعوة التي تؤثر في المدعويين تعتمد كثيراً بالدرجة الأولى على حسن الأخلاق ، وأولى الناس تطبيقاً لما يمل به على المدعويين هو الداعية ، فهو القدوة في مجتمعه ، والأخلاق جزء كبير من الدعوة إلى الله تعالى ، ولذا قال النبي ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ »^(١) ، وكم من شخص متأثر بداعية وهو لم يدعوه إلى الله بقوله وإنما بفعله حين طبق أخلاق الإسلام ، ورُبَّ عالم صدَّ الناس عن دين الله تعالى بسوء خلقه وطبعه المنفر ، وكل ذلك مداره على الأخلاق التي تشكل جانباً كبيراً من الدعوة إلى الله ؛ ولذا جاءت أهمية تأهيل الداعية أخلاقياً ؛ لأنها أول ما يحتاجه في دعوته .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « يجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمثل أمر الله عزَّ وجلَّ ويجتنب نهيه ؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين : الوجه الأول : أنه كغيره من المكلفين .

والثاني : أن طالب العلم قدوة ، أي عمل يعمل به فسوف يقتدي به الناس ، ويحتجون به ، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع »^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٤ / ٥١٢) (٨٩٥٢) ، والحاكم في « مستدركه » (٤٢٢١) وقال : « حديث صحيح على شرط مسلم » ، وصححه ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤ / ٣٣٤) ، وقال الهيثمي : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . « مجمع الزوائد » (٨ / ١٨٨) .

(٢) « تفسير سورة الحجرات » (٣٩) .

وتقدّم الكلام على (الدعوة إلى مكارم الأخلاق) كمجال من مجالات الدعوة^(١) ، وفيها أخلاق عديدة جاءت في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ استنباطاً من آيات القرآن الكريم ، وأولى الناس بتطبيقها الداعية ، والكلام هنا على أخلاق الداعية المتعلقة بالدعوة إلى الله تعالى ، وما ينبغي أن يراعيه في ميدان الدعوة ليتأهل التأهيل الأخلاقي المطلوب في الدعوة .

- المضامين الدعوية في التأهيل الأخلاقي للداعية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: أخلاق عامة يمثلها الداعية كسائر المسلمين

وهي ما تقدّم الكلام عليها في مجالات الدعوة ، ومنها : (الدعوة إلى مكارم الأخلاق) ، وجاء فيها الأخلاق الآتية :

الصبر ، والإحسان ، والعفو ، والصدق ، والأمانة ، ومحبة المرء لأخيه ما يحبه لنفسه ، والأخوة ، والمعاشرة بالمعروف ، إصلاح ذات البين ، ومعاملة الناس بالظاهر ، وحسن الظن ، والإيفاء بالعهد والنذر ، والحذر من النسيئة ، والكذب ، والخيانة ، والحسد ، والفخر ، والبخل ، واللمز ، والتدابير ، وغيرها من الأخلاق التي جاءت ضمناً في كلام الشيخ رحمه الله .

القسم الثاني: أخلاق الداعية المتعلقة بميدانه الدعوي ، وهي على جانبين :

الأول: أخلاقه مع المدعوين . والثاني : أخلاقه مع الدعاة .

فقد خصَّ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره الداعية بمزيد حثٍّ واهتمام بما يتعلق بالأخلاق ذات العلاقة بعمله الدعوي؛ ليكتمل بذلك تأهيله الأخلاقي، ومما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره:

الجانب الأول : أخلاق الداعية مع المدعوين

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أخلاقاً ينبغي للداعية أن يراعيها أثناء عمله في مجال الدعوة ، وتعامله مع المدعوين مما تساعده على تقديم الدعوة إلى الله تعالى كما ينبغي ، وتعكس الأثر الإيجابي على المدعوين .

- أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع مدعويه :

أولاً : اللين والرفق عند تغيير المنكر ، قال الله تعالى مَبِينًا أثر خلق اللين والرفق الذي امثله الرسول ﷺ مع الناس : ﴿ فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا تُفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وَعَنْ عَائِشَةَ ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »^(١) ، وَعنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : « إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »^(٢) ، بل جعل النبي ﷺ الخير منوط بالرفق ، ففي حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : « مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ ، يُحْرِمِ الْخَيْرَ »^(٣) .

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ : « وفي هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلق ، وذم العنف ، والرفق سبب كل خير ، ومعنى (يعطي على الرفق) أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره ، وقال القاضي : معناه يتأتى به من الأغراض ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره »^(٤) .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) .

(٤) « شرح مسلم » (١٦ / ١٤٥) .

ولقد امتثل النبي ﷺ بما شهد له ربه جل وعلا من الرفق في سائر دعوته ، فكان هيناً ليناً ، رفيقاً بأصحابه ، والوقائع في هذا كثيرة ، ومنها حديث أنس ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْقَوْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « دَعُوهُ وَلَا تَزِرْ مَوْهُ » قال : فَلَمَّا فَرَّغَ دَعَا بَدَلُو مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ^(١) . وفي رواية مسلم ما يبين إحسان النبي ﷺ في توجيهه ودعوته : « ... فدعاه فقال له : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قال : كُنْتُ أُمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَيْهِ رِدَاءٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَذْرَكُهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً ، نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ ، مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ^(٢) .

قال العيني : « فيه دلالة على قُوَّةِ حلمه وشِدَّةِ صبره على الأذى في النفس والمال ، والتجاوز عن جفاء من يُريد تألفه على الإسلام ، وليتأسى به الوُلاة بعده في خلقه الجميل من الصفح والإغضاء والدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »^(٣) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] :

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .

(٣) « عمدة القاري شرح صحيح البخاري » (٢٢ / ١٥١) .

« ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا الواجب ، أن يكون ليناً في أمره ليناً في نهيه ؛ لأن اللين خلق كريم يعطي الله سبحانه وتعالى به ما لا يعطي على العنف كما قال النبي ﷺ ذلك ^(١) ، وكما أرشد الله إليه موسى وهارون) حين أرسلهما إلى فرعون ، فقال : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] ، يتذكر فيما تأمرانه به ، أو يخشى فيما تنهيانه عنه ، مع أنه من أعتى أهل الأرض ، إن لم يكن أعتى أهل الأرض ، فعلى كل حال من الآداب أن يكون الإنسان ليناً في أمره ونهيه ^(٢) .

ثانياً : الصبر على أذى المدعوين عند المحاجة والمخاصمة منهم ، وتقدم في (الدعوة إلى مكارم الأخلاق) بيان فضل الصبر ونصوصه الدالة على فضله ، والمراد هنا ما يلقاه الداعية من أذى المدعوين كما هو الحال مع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَام من الأذى الحسي والمعنوي والمجادلة والمخاصمة ، فللداعية خلق ينبغي أن يمثلته اقتداءً بالأنبياء قدوة الدعاة عَلَيْهِمُ السَّلَام ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَنْهَضْنَا إِلَهُمُ لَكَلَّمَ اللَّهُ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْسَلِينَ ﴿ [الأنعام : ٣٣-٣٤] ، فعلى الداعية ألا يملّ ويترك طريق الدعوة لأذى أصابه ، أو لإعراض عن دعوته ، أو لعدم تمكين له من أن يدعو إلى الله تعالى ، أو لأجل أي أذى حسي أو معنوي أو إعراض .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « ومن الآداب أيضاً أن يصبر على الأذى

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ٢١ - ٢٢) .

(١) القصة وردت في « صحيح مسلم » (١٧٩٤) ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ ، وَقَدْ نَجَرَتْ جُرُورٌ بِالْأَمْسِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جُرُورِ بَنِي فُلَانٍ ، فَيَأْخُذُهَا فَيَضَعُهَا فِي كَتِفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ ؟ فَأَنْبَغَتْ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، قَالَ : فَاسْتَضَحُّكُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ ... الحديث .

فالواجب أن يصبر الإنسان وأن يحتسب هذا الصبر على الله ، وهذا الصبر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعظم أجراً من الصبر على أعظم مصيبة تنال الإنسان في أقرب الناس إليه ؛ لأن هذا صبر على أذى في الله ليس صبراً على أقدار الله »^(١) .

وقال أيضاً : « يجب على الدعاة إلى الحق أن يصبروا على ما ينالهم من الناس من السخرية ؛ لأن أعداء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكثر من أولياء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فالدعاة إلى الحق يجب عليهم الصبر إذا سمعوا من يسخر بهم ، سواء كان هؤلاء الساخرون من الكفار أو من أولياء الكفار ؛ لأنه يوجد من المسلمين من هو من أولياء الكافرين ، فالواجب على الدعاة أن يصبروا ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين هم أهل الحق وقادة الحق وأئمة الحق قد سخر الناس منهم ، فكيف بك أنت ؟ »^(٢) .

ثالثاً : أخذ الناس بالظاهر والبعد عن تصنيفهم ، فما كان التصنيف في شيء إلا أحدث انشقاق الصف داخل الميدان الدعوي ، والحاجز بين الدعاة والمدعوين ، فعلى الداعية ألا يعامل الناس بما يظنه من سرائرهم ، فهذا خلاف الهدى النبوي في معاملة النبي ﷺ أصحابه كما سيأتي - ، فقد كان يعاملهم بالظاهر ، ولا يحكم بشيء من بواطنهم إلا ما أظهره الوحي ، وفي هذا الهدى

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٢٣ - ٢٤) ، وللشيخ كلام عن صبر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم من الدعاة في « تفسير سورة الأنعام » (١٨١) ، وأيضاً في « تفسير سورة ص » ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] وما بعدها ، وأيضاً في « تفسير سورة ق » ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : ٣٩] .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٤٣) .

يَقُولُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَنَسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمِنَّا، وَقَرَّبَنَا، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سِرِّرَتِهِ شَيْءٌ إِلَّا اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سِرِّرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سِرِّرَتَهُ حَسَنَةٌ» (١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَاذُورُ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ٨-٩﴾ يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فوائد الآية: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: على ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استؤذن في قتلهم: «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» (٢)؛ ويتفرع على ذلك أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تدلُّ هذا الأصل، ومن ثمَّ قال الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة، ومن هنا أحذّر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا... إلخ (٣)، ويصفونهم

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن جالسنى يعلم ذلك مني: أنني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى وعاصيا أخرى وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية». «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢٢٩).

بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنونه في قلبه ، وهذا خطأ ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر ، قال النبي ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو مما أسمع منه ... » ^(١) « ^(٢) .

رابعاً : العفو والتسامح ، والعفو عند المقدرة من أمثل الأخلاق النبوية التي يحتاجها الداعية ، في دعوته للناس ، لاسيما وسيواجه من الأذى والاعتداء الفعلي والقولي من الناس وزلاتهم ، ثم هو يعاملهم بالحسنى ويعفو عن زلاتهم ، ولقد أمر الله جلّ وعلا - نبيه ﷺ بالعفو والصفح ، فقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وأمر الله تعالى المؤمنين بقوله جلّ وعلا - : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، وتكفل بأجر العافي ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، والعفو سبيل من سُبُل العزة للداعية ، قال رسول الله ﷺ : « وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » ^(٣) .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : « وفي الصفح والعفو والحلم : من الحلاوة والطمأنينة والسكينة ، وشرف النفس ، وعزها ورفعها عن تشفيها بالانتقام : ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام » ^(٤) .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « أما عفوه ﷺ وتسامحه مع المقدرة بأمر يوقعه الله

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣)

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٥٦) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٤) « مدارج السالكين » (٢ / ٣٠٣) .

سبحانه وتعالى فيهم ، فإنه لما رجع من الطائف بعد أن فعل به أهل الطائف ما فعلوا أرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال ، وقال : إن الله يقرئك السلام وهذا ملك الجبال يفعل ما تأمر به ، فقال له ملك الجبال : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت ، ولكن الرسول ﷺ قال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً »^(١) اللهم صل وسلم عليه - .

انظر إلى العفو وإلى النظر البعيد ، فأخرج الله والله الحمد- من أصلاب هؤلاء من عبد الله ولم يشرك به ، وكانوا أئمة يهدون بأمر الله »^(٢) .

خامساً : خفض الجناح للمدعوين والتواضع لهم ، فهذا الخلق أدعى لقبول دعوته لقربه من المدعوين بتواضعه ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حَاتِئاً عَلَى هَذَا الْخُلُقِ لِلدَّاعِيَةِ : « تواضع يا طالب العلم ، الناس الآن يثنون على الذي يكون متواضعاً ، نسمع أنهم يثنون على فلان وفلان لأنه متواضع ، لكن ليس معنى ذلك أن تجعل نفسك ذليلاً أمامه ، فالتواضع غير الذل ، من تواضع لله رفعه الله ، ومن تواضع للحق وفق للحق ، وعلامة ذلك : أنك إذا بان لك الحق اتبعته فوراً بدون تردد وبدون جدال ، إن ترددت أو جادلت فهو خطر عليك عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَقَلِبُ أَفْعَادَهُمْ أَبْصَرَهُمْ ﴾ [الأنعام : ١١٠] لماذا ؟ ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، ولذلك إذا بان لك الحق لا تجادل ، ولا تحاول أن تذهب يميناً ويساراً لتبرر رأيك ، فإنك على خطر ، وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ [ق : ٥] ، ﴿ مَرِيجٌ ﴾ يعني مختلط أي : يختلط عليهم الحق بالباطل ، إذ كذبوا بالحق لما جاءهم »^(٣) .

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٨٠) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٧٩) .

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] .

« من فوائد الآية : الشاء على من كان ذليلاً على المؤمنين ، وهو الذي يخفض جناحه لهم ويتطامن ويتواضع ، فإن هذه من الصفات التي يحبها الله عزَّجَلَّ ، عكس ذلك يؤخذ منه فائدة ثانية ، وهي أن ترفع الإنسان على إخوانه المسلمين ، ليس محموداً عند الله بل ولا عند الخلق ، ولذلك اعلم أنه كلما ازداد إيمانك ازدادت تواضعاً ، وكلما ازداد علمك ازدادت تواضعاً ، بعض الناس ، نسأل الله أن لا يجعلنا منهم ، إذا ازداد علمه انتفخ وتكبر وصار لا يكلم الناس إلا بأنفه ، وصار إذا كلمه الناس يتجاهل ، يقول : ماذا تقول ، وهو يدري ، قد ملأ سمعه كلامه ، لكن من باب الاستكبار ، وهذا لا شك أنه نقص عظيم ؛ لأنه كلما كثر علمك ينبغي أن يكثر تواضعك »^(١) .

- وضد ذلك خُلِقَ الاعتزاز بالدين وعلى الكافرين ، فإن هذا من أخلاق الداعية ؛ لأن من اعتزَّ بشيء دعا إليه ، وهكذا من جعل الدين عزيزاً في نفسه فإنه لا يفتأ عن الدعوة إليه وإظهار معالمه ، وإظهار عزة النفس به لاسيما أمام الكافرين ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] :

« ومن فوائدها : الشاء على عزة النفس وقوة الشخصية أمام الكفار وأن نكون أعزة عليهم ، نرى في أنفسنا العلو عليهم والظهور عليهم لا بذواتنا ، ولكن بما معنا من الدين ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] ، لماذا؟ ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي : الدين أو الرسول صاحب الدين ،

فيجب علينا نحن المسلمين أن نعرف قيمتنا في المجتمع الأممي ، وأنا أحق الناس بالبقاء على الأرض وأحق الناس برزق الله وأحق الناس أن نعلو عليهم ، هذا إذا كان لنا شخصية إسلامية ، لكن لضعف الإيمان وضعف التوكل على الله عز وجل صرنا أذنباً لغيرنا ، أعزاء على قومنا أذلاء أمام الكافرين ، نسأل الله السلامة والعافية ، نسأل الله أن يهيئ لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية»^(١).

وهل من خُلق الداعية أن يكون عزيزاً على فساق المسلمين؟

أجاب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بقوله :

«الجواب : الذي لم يخرج من الإيمان لا ترى نفسك عزيزاً عليه ولا ذليلاً عليه ؛ لأن معه إيماناً يقتضي أن تكون ذليلاً عليه ، ومعه معصية تقتضي أن تكون عزيزاً ، لكن لا كعزتك على الكافر ، بل أحبه لما معه من الإيمان واکرهه لما معه من المعاصي ، وحاول أن تصلحه ، فإن كثيراً من الفساق الآن يتعدون عن الاستقامة ؛ لأنهم يجدون من بعض الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر شدة وصعوبة وتنفيراً ، لكن لو أنهم سلكوا سبيل الرفق لحصل خير كثير ، فأحياناً يقع الإنسان مع أحد العصاة ويدعوه بأسلوب طيب ، لكن يكون رده شديداً فيقول للداعي : لماذا تتدخل ، الأمر لا يهمك ، أنت فضولي ، فإذا قال : الأمر لا يهمك ، لماذا تتدخل ، قل : يا أخي ، أنت أخي والرسول ﷺ يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(٢) ، واصبر على ما أصابك ، أما أن تقول : بل الأمر يهمني ، أنت فاسق يجب أن نريك ، يجب أن نؤدبك ، هذا لا يستقيم»^(٣).

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٣ - ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٤) .

سادساً : البعد عن العُجْبِ بالنفس والاعتداد بها ، فلا يعني إظهار العزّة أن يعتدّ الداعية بنفسه ويُعجّب بها على الآخرين ، فإن هذا خُلُقٌ مذمومٌ ومردودٌ على صاحبه ، فالعزة بالدين لا بالنفس ، الداعية إلى الله تعالى يعلم أنه ما به من نعمة الهداية والدعوة إنما هو من فضل الله تعالى لا من تلقاء نفسه ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

« - ومن فوائد الآية : أنه يجب على المرء الذي هداه الله ألا يُعجب بنفسه ، وألا يظن أن ذلك من حوله ، وقوته ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي أمره الكوني القدري ؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردوا الحق بغيا وعدوانا .

- ومنها : الإيماء إلى أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الهداية من الله ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ^(١) .

فالداعية إلى الله تعالى يدفعه امتنان الله تعالى عليه إلى حمده وشكره ، والاعتراف بفضله ، والازدياد من العمل الصالح الذي به يستنير هداية على هدايته ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَقَّوْنَهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] ، لا أن يُعجب بنفسه على الآخرين ، فيتعدى حدود الله تعالى بما امتن الله عليه .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « احفظ الله يحفظك في دينك وأهلك ومالك ونفسك لأن الله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين بإحسانه وأهم هذه الأشياء هو أن يحفظك في دينك ويسلمك من الزيغ والضللال لأن الإنسان كلما اهتدى زاده الله عزَّجَلَ هدى ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَقَّوْنَهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] ، وعَلِمَ من

هذا أن من لم يحفظ الله فإنه لا يستحق أن يحفظه الله عزَّجَل وفي هذا الترغيب على حفظ حدود الله عزَّجَل»^(١).

سابعاً: الترفع عن أخذ الأموال من الناس مقابل الدعوة، فالداعية عزيز النفس بما أعزّه الله تعالى من دين وعلم، يرجو ثواب الله تعالى، ولا يتخذ دعوته غرضاً دنيوياً يتكسب به من أيدي المدعويين، فليس هذا من أخلاق الداعية، بل لأخذه من أيدي الناس مقابل دعوته أثر سلبي على قبول دعوته، قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفُوْمُ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿[يس: ٢١]: «من فوائدها: أنه ينبغي للداعية إلى الله عزَّجَل أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتى وإن أعطوه؛ لأنه ربما تنقص منزلته إذا قبل ما يُعطى من أجل دعوته وموعظته؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يسألون الناس أجراً لا بلسان الحال ولا بلسان المقال»^(٢).

(١) «شرح الأربعين النووية» لشيخنا ابن عثيمين (٢٢٥)

(٢) «تفسير سورة يس» (٧٦)، وينبغي التفريق بين هذه المسألة ومسألة أخذ الرزق من بيت مال المسلمين الذي يصرفه الحاكم في مصالح المجتمع، والذم الذي أراه الشيخ رحمه الله إنما هو الأخذ من أيدي المدعويين، وأما أخذ الرزق من بيت مال المسلمين فقد تقدّم كلام الشيخ رحمه الله عليه في المسائل المعاصرة على هذه المسألة وغيرها فلتراجع، ومن ذلك قوله بعد الكلام السابق في تفسير الآية: «هل يستفاد من الآية: أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟

الجواب: لا يستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى، فكون الإنسان يذهب يدعو إلى الله عزَّجَل بدون أن يأخذ مقابلًا ولا من الحكومة، لا شك أن هذا أفضل، وأقرب إلى الإخلاص، وأشد وقعاً في نفوس الناس، حتى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ؛ لأن الله تعالى يلقي ذلك في قلوب الناس، أي يلقي القبول من هذا الناصح أو الداعي، وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ شيئاً».

ثامناً: الاستقامة في معاملة الخلق وهي التوسط في سائر الأخلاق، قال

= ولابن تيمية تفصيل يوافق ما سبق في «مجموع الفتاوى» (٣٠ / ٢٠٤) وما بعدها: فقد سئل رَحِمَهُ اللهُ عن رجل امتنع من تعليم العلم الشرعي إلا بأجرة، فهل يجوز له ذلك؟ فأجاب: «الحمد لله، أما تعليم القرآن والعلم بغير أجرة فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام، والصحابة والتابعون وتابعو التابعين وغيرهم من العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقه إنما كانوا يعلمون بغير أجرة، ولم يكن فيهم من يعلم بأجرة أصلاً. «فإن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يورثوا ديناراً ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنما كانوا يعلمون العلم بغير أجرة، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم، وكذلك قال خاتم الرسل: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ [ص: ٨٦] وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

وتعليم القرآن والحديث والفقه وغير ذلك بغير أجرة لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح، بل هو من فروض الكفاية، كما قال النبي في الحديث الصحيح: «بلغوا عني ولو آية»، وقال: «ليبلغ الشاهد الغائب».

وإنما تنازع العلماء في جواز الاستئجار على تعليم القرآن والحديث والفقه على قولين مشهورين هما روايتان عن أحمد: إحداهما: وهو مذهب أبي حنيفة وغيره، أنه لا يجوز الاستئجار على ذلك. والثانية: وهو قول الشافعي أنه يجوز الاستئجار.

وفيها قول ثالث في مذهب أحمد: أنه يجوز مع الحاجة دون الغنى، كما قال تعالى في ولي اليتيم: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِظْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦]. ويجوز أن يعطى هؤلاء من مال المسلمين على التعليم، كما يعطى الأئمة والمؤذنون والقضاة، وذلك جائز مع الحاجة.

وهل يجوز الارتزاق مع الغنى؟ على قولين للعلماء...

ومأخذ العلماء في عدم جواز الاستئجار على هذا النفع: أن هذه الأعمال يختص أن يكون فاعلها من أهل القرب بتعليم القرآن والحديث والفقه والإمامة والأذان لا يجوز أن يفعله كافر، ولا يفعله إلا مسلم بخلاف النفع الذي يفعله المسلم والكافر كالبنا والخياط والنسج ونحو ذلك، وإذا فعل العمل بالأجرة لم يبق عبادة لله، فإنه يبقى مستحقاً بالعوض، معمولاً لأجله، =

الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كَلاماً جامعاً في هذا الشأن عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٨] قال :

« والاستقامة كما تكون في معاملة الخالق عَزَّوَجَلَّ وهي العبادة تكون أيضاً في معاملة المخلوق ، فكن مع الناس بين طرفين ، بين طرفي الشدة والغلظة والعبوس ، وطرف التراخي والتهاون وبذل النفس وانحطاط الرتبة ، كن حازماً من وجه ، ولينا من وجه ، ولهذا قال الفقهاء رَحِمَهُمُ اللهُ في القاضي : (ينبغي أن

= والعمل إذا عمل للعوض لم يبق عبادة كالصناعات التي تعمل بالأجرة ، فمن قال : لا يجوز الاستئجار على هذه الأعمال قال : إنه لا يجوز إيقاعها على غير وجه العبادة لله ، كما لا يجوز إيقاع الصلاة والصوم والقراءة على غير وجه العبادة لله ، والاستئجار يخرجها عن ذلك . ومن جَوَّز ذلك قال : إنه نفع يصل إلى المستأجر فجاز أخذ الأجرة عليه كسائر المنافع . ومن فَرَّق بين المحتاج وغيره وهو أقرب قال : المحتاج إذا اكتسب بها أمكنه أن ينوي عملها لله ، ويأخذ الأجرة ليستعين بها على العبادة ، فإن الكسب على العيال واجب أيضاً ، فيؤدي الواجبات بهذا ، بخلاف الغني لأنه لا يحتاج إلى الكسب ، فلا حاجة تدعوه أن يعملها لغير الله ، بل إذا كان الله قد أغناه ، وهذا فرض على الكفاية ، كان هو مخاطباً به ، وإذا لم يقم إلا به كان ذلك واجبا عليه عينا ، والله أعلم » انتهى باختصار .

وللشنقيطي كلام أيضاً نحو هذا في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤُا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَدْتُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [هود : ٢٩] ، قال : « ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة : أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء ، وغيرهم : أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً ، من غير أخذ عوض على ذلك ، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى ، ولا على تعليم العقائد ، والحلال والحرام ... ثم قال : « الذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - : أن الإنسان إذا لم تدعه الحاجة الضرورية : فالأولى له ألا يأخذ عوضاً على تعليم القرآن ، والعقائد ، والحلال والحرام ؛ للأدلة الماضية ، وإن دعت الحاجة : أخذ بقدر الضرورة ، من بيت مال المسلمين ؛ لأن الظاهر أن المأخوذ من بيت المال من قبيل الإعانة على القيام بالتعليم ، لا من قبيل الأجرة . والأولى لمن أغناه الله : أن يتعفف عن أخذ شيء في مقابل التعليم للقرآن ، والعقائد ، والحلال والحرام » اهـ ، « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (٢ / ١٧٩ ، ١٨٢) .

يكون ليناً من غير ضعف ، قوياً من غير عنف) ، فلا يكون لينه يشطح به إلى الضعف ، ولا قوته إلى العنف ، يكون بين ذلك ، ليناً من غير ضعف ، قوياً من غير عنف حتى تستقيم الأمور ، فبعض الناس مثلاً يعامل الناس دائماً بالعبوس والشدة وإشعار نفسه بأنه فوق الناس وأن الناس تحته ، وهذا خطأ ، ومن الناس من يحط قدر نفسه ويتواضع إلى حد التهاون وعدم المبالاة بحيث يبقى بين الناس ولا حرمة له ، وهذا أيضاً خطأ ، فالواجب أن يكون الإنسان بين هذا وبين هذا كما هو هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه (يشتد في موضع الشدة ، ويلين في موضع اللين ، فيجمع الإنسان هنا بين الحزم والعزم ، واللين والعطف والرحمة »^(١) .

تاسعاً : إجابة السائل عن العلم وعدم نهره ، وهي من أهم الأخلاق للداعية ، في جوابه عن سؤالات المدعوين أو حلّه لمشكلاتهم وما نزل بهم ، وبيانه للمخرج أو للحكم الشرعي ، يجب أن يكون مفتاحاً لهم لا مغلاقاً فيما يعرضونه عليه من سؤال أو مشورة ، كما هو فعل النبي ﷺ ، يأتيه المستفتهم عن الدين ، ويأتيه من يقول له (هلك) يا رسول الله فما يخرج منه إلا وقد أخذ المخرج الشرعي لما نزل به ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى : ١٠] :

« ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أول ما يدخل في السائل ، السائل عن الشريعة عن العلم لا تنهره ؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة ، وجب عليك أن تبينها له ؛ لقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

(١) « تفسير جزء عم » سورة التكوير (٨٥) .

لا تنهره إن نهرته نفرتة ، ثم إنك إذا نهرته وهو يعتقد أنك فوقه ؛ لأنه لم يأت يسأل إلا أنه يعتقد أنك فوقه ، إذا نهرته وهو يشعر أنك فوقه أصابه الرعب واختلفت حواسه ، وربما لا يفقه ما يلقي إليك من السؤال ، أو لا يفقه ما تلقيه إليه من الجواب ، وقس نفسك أنت لو كلمت رجلاً أكبر منك منزلة ثم نهرك ضاعت حواسك ، ولم تستطع أن ترتب فكرك وعقلك ، لهذا لا تنهر السائل ، وربما يدخل في ذلك أيضاً سائل المال ، يعني إذا جاءك سائل يسألك مالاً فلا تنهره ، لكن هذا العموم يدخله التخصيص : إذا عرفت أن السائل في العلم إنما يريد التعنت ، وأخذ رأيك وأخذ رأي فلان وفلان حتى يضرب آراء العلماء بعضها ببعض ، فإذا علمت ذلك فهنا لك الحق أن تنهره ، وأن تقول : يا فلان اتق الله ألم تسأل فلاناً كيف تسألني بعدما سألته؟! أتلاعب بدين الله؟! أتريد إن أفتاك الناس بما تحب سكت ، وإن أفتوك بما لا تحب ذهبت تسأل؟! . هذا لا بأس أن تنهره ؛ لأن هذا النهر تأديب له . وكذلك سائل المال إذا علمت أن الذي سألك المال غني فلك الحق أن تنهره ولك الحق أيضاً أن توبخه على سؤاله وهو غني ، إذاً هذا العموم ﴿السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مخصوص فيما إذا اقتضت المصلحة أن ينهر فلا بأس^(١) .

الجانب الثاني : مضامين أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء .

جاء في تفسير الشيخ رحمه الله أخلاقاً ينبغي للداعية أن يراعيها مع غيره من الدعاة والعلماء ، فإن الداعية ذو ارتباط وثيق بعلمائه يتردد عليهم بالاستفادة منهم ومشاورتهم ، والصدور عن رأيهم ، وبالدعاة معه يتعاون معهم ويستفيد منهم .

— أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء :

أولاً : البعد عن النزاع والحث على اجتماع الكلمة ، وهذا مهم بين الدعاة ؛

(١) « تفسير جزء عم » سورة الضحى (٢٣٩ - ٢٤٠) .

ذلك أنهم أصحاب دعوة واحدة ، وفي ميدان واحد ، وهدف واحد وهو الدعوة إلى الحق وإزهاق الباطل ، ومتى كانت الفرقة بين الدعاة ، وظهر النزاع بينهم وتعدى إلى العامة من المدعوين كان ذلك له أثر سلبي ، ولقد جعل الله تعالى الاجتماع من مواطن القوة المؤثرة في أي عمل للخير ، كما أن الافتراق والتحزب سبب في الضعف والفشل ، وفرصة للأعداء في نيل مآربهم فقال تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

وأول مَنْ نحتاج إلى الالتفات حولهم ورص الصف معهم هم العلماء الربانيون والعاملون معهم من الدعاة الصادقين ، والمجاهدين في سبيل الله ، وكلما كانت القيادات الموجهة أقل ، كانت الوحدة والجماعة أكثر ، أما قيادات العمل والتفعيل والتنفيذ فهذه من طبيعتها أن تكثر لتستوعب الأمة ، فالإجماع هو أساس من أسس ظهور الحق وقوته ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ ﴿آل عمران: ١٥٢﴾ : «الحثُّ على اجتماع الكلمة ، وجهه أن النزاع سبب للخللان ، فيكون الاتفاق سبب للنصر وهو كذلك ، الاجتماع اجتماع الناس على كلمة واحدة لا شك أنه سبب للنصر ، ولهذا ينبغي لطلبة العلم وللعلماء أن لا يظهر خلافهم ونزاعهم أمام العامة ، اختلاف الآراء لا بد أن يكون ، لكن كون كل واحد منهم يعيب على الآخر إن خالفه ، هذا خطر عظيم جداً ؛ لأن العامة ترى هذا النزاع فلا تثق بواحد منهم ، على أن العامة أيضاً سوف يتفرقون ، فالنزاع لا شك أنه سبب للخللان والفشل وتمزق الأمة»^(١) .

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٣١٤) .

ثانياً : فقه الخلاف ، والحذر من تغير القلوب لمجرد الاختلاف في مسائل الاجتهاد السائغة ، فإن من أهم ما ينبغي للداعية معرفته ، حسن الظن بأخيه المختلف معه في مسألة فرعية يسوغ فيها الخلاف ، وإن من حسن الظن به أن يظن بأنه لم يختلف معه إلا للوصول إلى الحق ، فلا يهدم أصل الإخوة لمجرد خلاف سائغ عند أهل العلم ، فما زال الصحابة يختلفون باجتهاداتهم ، ويجتمعون بقلوبهم تحت سقف الإخوة ، ولكم اشتكت ساحة الدعوة اليوم من قلة الفقه للخلاف ، وعدم التفريق بين الخلاف السائغ وغيره ، أو بين مسائل الأصول والعقائد وبين مسائل الفروع ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] :

« من فوائد الآية : تحريم التفرق في القلوب ، لأن المدار على التفرق في القلوب ، أما التفرق في الأبدان فضروري أن يتفرق الناس ، كل الآن في بيته ، وفي الأقوال أيضاً يتفرقون ، وما أكثر الخلاف بين أهل العلم قديماً وحديثاً في المسائل العلمية ، لكن الذي يجب على المسلمين أن يبعدوا عنه ، هو التفرق بينهم في القلوب لأنه هو الذي عليه المدار ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »^(١) فالمدار على القلوب ، إذن في هذه الآية دليل على تحريم التفرق في القلوب حتى لو تفرقت الأبدان أو تفرقت الأقوال ، فالواجب أن القلوب لا تتفرق ، وكان اختلاف الصحابة رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الاجتهاد المؤدي إلى التفرق في الأقوال لكن القلوب واحدة ، لا يكره بعضهم بعضاً إذا خالفه في الرأي . بل إنني أؤكد ما ذكرت سابقاً : إنه ينبغي للإنسان العاقل أنه إذا خالفه أخوه في رأيه بمقتضى الدليل عنده أن يكون ذلك أدعى إلى قوة المحبة له لأنه خالفه للدليل ، والثاني أيضاً خالفه للدليل ، فكان ينبغي عليه أن

تكون محبته أقوى ؛ لأن الرجل لم يحابني في ذات الله ، وإنما قَدَّمَ محبة الله . وأنا حينما أخالفه تقديماً لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ ، فالإنسان العاقل المؤمن هو الذي لا تزيده مخالفة أخيه له في الرأي تلك المخالفة المبنية على الاجتهاد إلا محبة له وتمسكاً به . خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن ومع الأسف أنهم طلبة علم إذا خالفه أخوه في الرأي ، مع أنه لا يعلم الصواب عنده أو عند أخيه أبغضه وكرهه وهجره ، وربما يلاقيه فاسق فيسلم عليه ، ويلاقيه أخوه الذي خالفه في الرأي ولا يسلم عليه ، وما ذاك إلا من الشيطان ، الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة بين المسلمين ولا سيما بين طلبة العلم حتى ينبذ بعضهم بعضاً ؛ لأن الشيطان يعلم أن الشريعة لا تقوم إلا بالعلم وبالعلماء ، فإذا تنابدوا وتقاطعوا فيما بينهم ، وصار بعضهم يكره بعضاً ؛ ارتكبوا مخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي تأمر العباد بالاجتماع والألفة ، وتنهاهم عن الاختلاف والفرقة . ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] ^(١) .

ومن فقه الخلاف أن ينتصر الداعية للحق لا للنفس في الدعوة إلى الله ، وإلى هذا أشار الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بقوله : « انتبه لهذه الفائدة وأنت طالب علم ، وربما يخالفك من يخالفك من الناس بمقتضى الدليل ولكن تريد أن تفرض رأيك ، هذا غلط كبير ، اتبع الحق أينما كان ، يتبعك الناس أينما كنت ؛ لأن الناس يطلبون الحق ، فإذا رأوا منك أنه متي بان لك الحق رجعت ، رجعوا ، إذاً : التواضع للحق هو في الحقيقة علو ، كما قال النبي ﷺ : « من تواضع لله رفعه » ^(٢) ، وضد ذلك الاستكبار ، الاستكبار والعياذ بالله يوجب أن لا يقبل الحق ولا يتبع » ^(٣) .

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٦٠١ - ٦٠٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٧٩) .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْوَمٌ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال: «من فوائد الآية: الإشارة إلى أنه يجب على الإنسان إذا خالفه غيره، ألا يتطاول عليه، وألا يقصد بسوق الأدلة المؤيدة لقوله البغي على غيره، والتطاول عليه، بل يقصد إظهار الحق، لينتفع هو وينفع غيره، أما أن يأتي بالأدلة من أجل أن يعلمو على أخيه، ويكون قوله هو الأعلى، فهذا خطأ عظيم» (١).

ومن فقه الخلاف، التماس العذر للمخالف مريد الحق، وعدم لمزه والسخرية منه، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالواجب على الإنسان إذا خالف غيره أن يلتمس له العذر، ثم يتصل بهذا المخالف ويبحث معه، وربما يكون الحق مع من خالفه ويناقشه بأدب واحترام وهدوء، حتى يتبين الحق، وأما سخريته بما خالف رأيه أو رأي شيخه فهذا غلط، وكل إنسان يخالفك في قولك فإن الواجب عليك أن تحمله على أحسن المحامل وأن هذا اجتهاده، وأن الله عَزَّجَلَّ سيأجره على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أجران» (٢).

ومن فقه الخلاف، التشاور والتناصح لا التفاضح والتنافر، يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبلادنا والله الحمد- اليوم من آمن ببلاد العالم، وهي من أشد بلاد العالم رغداً وعيشاً. أطعمنا الله تعالى من الجوع، وآمننا من الخوف، فعلينا أن نشكر هذه النعمة، وأن نتعاون على البر والتقوى، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الدعوة إلى الله على بصيرة وتأنٍ وثبت، وأن نكون إخوة متآلفين، والواجب علينا ولاسيما على طلبة العلم إذا اختلفوا

(١) «تفسير آل عمران» (١ / ١٢٩).

(٢) «تفسير سورة الحجرات» (٣٩).

فيما بينهم أن يجلسوا للتشاور ، وللمناقشة الهادئة التي يقصد منها الوصول إلى الحق ، ومتى تبين الحق للإنسان وجب عليه اتباعه ، ولا يجوز أن ينتصر لرأيه ؛ لأنه ليس مشرعاً معصوماً حتى يقول إن رأيه هو الصواب ، وأن ما عداه هو الخطأ ، الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون كما أراد الله منه ، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، أما كون الإنسان ينتصر لرأيه ويصر على ما هو عليه ، ولو تبين له أنه باطل فهذا خطأ ، وهذا من دأب المشركين الذين أبوا أن يتبعوا الرسول وقالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ^(١) .

ثالثاً : الحذر من التفاخر بالأعمال الدعوية أو بالعلم الشرعي ، وهذا الخُلُق من شأنه أن يمحى بركة العمل الدعوي ويبدد الجهود ، ويفسح للشيطان مدخلاً بتغيير النية الصالحة إلى منافسة مذمومة ، واعتداد بالنفس ، ويوغل في الصدور ، ويشير الشحناء ، حتى ينسى الداعية فضل الله عليه بالدعوة وامتنانه عليه بهذه الوظيفة العظيمة ، بسبب تفاخره بما عنده من جهود دعوية أو علم شرعي ، وهو ما أشار إليه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير لقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ، حيث قال : « ﴿وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ﴾ أي : كل واحد يفخر على الثاني ، إما بالقبيلة ، أو بالعلم ، يكون هذا عنده علم بالطب ، وهذا لا يعرف ، وهذا علمه بالهندسة وهذا لا يعرف ، فيفخر عليه ، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي ؛ لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومن الله عليه به أن يزداد تواضعاً ، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه ، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان

(١) « تفسير جزء عم » آخر تفسير سورة قريش (٣٢٤) .

من التناول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع»^(١).

رابعاً: حسن تعامل الداعية وتلفظه مع شيخه، فإن هذا الخلق من رحم الوصل، والامتنان لأهل الفضل، وللداعية في تعامل موسى عليه السلام مع الخضر أسوة حسنة، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي قال موسى للخضر: هل أتبعك، وهذا عرض لطيف وتواضع، وتأمل هذا الأدب من موسى (مع أن موسى عليه السلام أفضل منه وكان عند الله وجهاً، ومع ذلك يتلطف معه لأنه سوف يأخذ منه علماً لا يعلمه موسى عليه السلام، وفي هذا دليل أن على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أستاذه وأن يعامله بالإكرام»^(٢).

وقال في موضع آخر: «قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] أي: إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألا يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكراً، وهذا من آداب المتعلم ألا يتعجل في الرد حتى يتبين الأمر»^(٣).

ومن خلال المضامين السابقة تتضح أهمية الأخلاق في حياة الداعية وتأهيله، وكيف أن الداعية من أكثر الناس خلطة بالناس على اختلاف أصنافهم، فهو بحاجة إلى تأهيل يتناسب مع جميع فئات المجتمع، مع المدعوين وإخوانه

(١) «تفسير سورة الحديد» (٤٠٣).

(٢) «تفسير سورة الكهف» (١١٣).

(٣) «تفسير سورة الكهف» (١١٥).

الدعاة ، ومع علمائه الذين يتردد عليهم وينفذ عن رأيهم ، فهو سيتعامل مع مختلف طبائع الناس ، فلا بد أن يكون هيئاً في غير ضعف ، ورفيقاً ليئاً عند توجيه الناس والإنكار عليهم ، مشفقاً على حالهم ، راغباً في هدايتهم ، والداعية لابد أن يواجه أذى في وسطه الدعوي ؛ لأنه سيدعو الناس إلى ما يخالف أهواءهم ، ومظنّة الأذى في ذلك واردة سواء كان حسياً أو معنوياً ، وعليه استعمال العفو والصفح والتسامح ما لم يترتب على ذلك مفسدة ، وإن من أرجى الأخلاق قبولاً من المدعوين هو خفض الجناح والتوضع لهم ، مبتعداً عن الكبر والعجب والاعتداد بالنفس ، فإن هذا من أفتك الأخلاق التي تُخلُّ بتأهيل الداعية إلى الله تعالى ، بل عليه مخالطة الناس والصبر على أذاهم ، وبذل النفس والعلم لهم وهذا من كرم الداعية كما تقدّم في المضامين ، فإن البذل يكون بالنفس والمال والعلم ، والداعية إلى الله تعالى كلما بذل نفسه للمدعوين بالإجابة عن أسئلتهم وحل إشكالاتهم ، وتوضيح المخارج الشرعية لما حلّ بهم ، كان رحمة للناس ومنفساً لكروباتهم وهمومهم وما أشكل عليهم .

ومما دلت عليه المضامين السابقة أهمية حسن تعامل الداعية مع إخوانه الدعاة وعلمائه ، والحرص على جمع الكلمة وتوحد القلوب ، والبعد عن كل ما يثير النزاعات والشقاق والتصنيف ، والترشق واتهام النيات ، وتغيّر القلوب لاسيما عند الاختلاف في مسائل الاجتهاد السائغة ، أو الأفكار الدعوية ونحوها مما جرت العادة فيه بتبادل الآراء والأقوال ، وعلى الداعية أن ينشد الحق وينتصر له لا ينتصر لنفسه ، ويلتمس العذر لمن خالفه ، وبثّ روح التناصح والتعاون والتشاور لا التفاضل والتنافر والافتراق ؛ لثمر دعوته ، ويحسن تأهيله ، ويبلغ بجميل قصده التأهيل المنشود ، ويكون بذلك داعية بفعله قبل قوله ، وهو ما يحتاجه واقعنا اليوم .

المبحث الخامس: التأهيل العملي للداعية

عمل الداعية في ميدان الدعوة هو وظيفته الذي إن أحسن فيه دخل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٣]، وإن من دواعي الإحسان في العمل الدعوي الاستمرار فيه، إذ أن المداومة على العمل الصالح من أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ لأن الانقطاع الكلي أو الجزئي في الأعمال الدعوية يؤدي إلى الإخفاق فيه وتأخره، وضعف مخرجاته، «وواجب الدعوة إلى الله ليس له وقت محدّد كالصلاة والصيام، ولهذا فإنّ هذا الواجب يؤدّيه المسلم في جميع الأحوال والظروف، وفي كلّ وقت يتيسّر له فيه أدائه، قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩]، وكذلك كان رسولنا محمد ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ولم يشغله شيء عن الدعوة إلى الله تعالى، والواقع أن الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها، لا يفكر إلا فيها، ولا يتحرّك إلا من أجلها، ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته، لم يشغله عنها شاغل أبداً حتى في أخرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف، وهكذا كان رسولنا محمد ﷺ، فعندما هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لقي في طريق بريدة بن الحصيب الأسلمي، في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلى الله، حتى وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة والقوم يطلبونه. ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغلها السجن وضيقه عن واجب الدعوة إلى الله، ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن

رؤيا رآياها ، فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به : ﴿يَصْصَحِي السَّجْنَاءُ رَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَعَتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف : ٣٩-٤٠]﴾ (١) .

والاستمرارية في العمل كان هدياً للنبي ﷺ وعامة أهل بيته في سائر شؤونهم ، وهو أحب الأعمال إلى الله تعالى ، قال ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُوِمَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ قُلَّ » ، قالت عائشة : وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ (٢) .

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ : « قوله (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه) أي : لازموه وداوموا عليه ، والظاهر أن المراد بالآل هنا أهل بيته وخواصه ﷺ من أزواجه وقرابته ونحوهم » (٣) .

ثم إذا ثبت الداعية واستمر في العمل الدعوي ، عليه أن ينظر إلى الجوانب الأخرى في تأهيله العملي ، ولقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ جوانب عملية في تفسيره ينبغي للداعية مراعاتها ، ويمكن تقسيم الجوانب العملية المهمة للداعية إلى قسمين :

- ١- ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه .
 - ٢- ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوين .
- الجانب الأول : ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه .

(١) « أصول الدعوة » لعبد الكريم زيدان (٣٢١)

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٢) .

(٣) « شرح مسلم » (٦ / ٧٢) .

هناك أعمال ذاتية للداعية تعتبر مغذيات إيمانية عملية مهمة في الدعوة إلى الله تعالى ينبغي للداعية أن يراعيها عملياً ؛ ليكتمل تكوينه الدعوي .

- المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه .

أولاً: اشتغال الداعية بالعبادة ، والعبادة من الأعمال المهمة في التأهيل الدعوي ، فلو أن كان الداعية يدعو الناس إلى الحكمة من وجودهم على هذه الأرض ، وهي عبادة الله تعالى فإنه أكثر الناس استزادة من هذا المؤهل العملي ؛ لما حباه الله تعالى من العلم والبصيرة ، ولقد كان النبي ﷺ أعبد الناس ، وهكذا سائر المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لأن العبادة هي الزاد الإيماني الذي يستنير به القلب ، فيزداد نشاطاً في الدعوة إلى الله تعالى ، والتضحية لدينه .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]: «ومن فوائد الآية: أن هذا الفضل الذي نَزَّلَهُ اللهُ لَا يَجْعَلُ الْمَفْضَّلَ بِهِ رَبًّا يُعْبَدُ؛ بَلْ هُوَ مِنَ الْعِبَادِ...

ويتفرع عنها أن من آتاه الله من فضله من العلم ، وغيره ينبغي أن يكون أعبد لله من غيره ؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله ؛ فكان حقه عليه أعظم من حقه على غيره ؛ فكلما عظم الإحسان من الله عزَّ وجلَّ استوجب الشكر أكثر ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقوم في الليل حتى تتورم قدماه ؛ ف قيل له في ذلك ؛ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » (١) .

ويتفرع عنها : أن بعض الناس اغتر بما آتاه الله من العلم ، فيتعالى في نفسه ، ويتعاضم حتى إنه ربما لا يقبل الحق ؛ فحُرِّم فضل العلم في الحقيقة «^(١) .

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٩٥)، وانظر: « تفسير سورة المائدة » (١ / ٤٣٣).

فينبغي للداعية أن يتفرغ للعبادة ملازماً لها ، قائماً بين يدي الله تعالى متضرعاً له أن يثبتته على الدين ، ويعينه على تحمل أعباء الدعوة والقيام بها على أكمل وجه ، فيدعو الناس إلى دين الله تعالى وعبادته كما كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ولا سيما أيام الفتن التي ينشغل فيها الناس عن العبادة والقرب من الله تعالى ، فمن واجبات الداعية التحصُّن بالعبادة ودعوة الناس لها ، وتذكيرهم بفضلها وأثرها وأهميتها ، وعِظَمَ أجرها ، قال ﷺ : « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ »^(١) ، وسبب كون العبادة في الفتن فضلها عظيم كهجرة إلى النبي ﷺ ، هو انشغال الناس عنها^(٢) ، ولذا الداعية أكثر الناس تمسُّكاً بهذا الجانب العملي ، وأحرصهم تذكيراً بالعبادة وأهميتها وفضلها .

وكلما كان الداعية أكثر تعبداً لله تعالى واتبع رضوانه كان أبعد عن مضلات فتن الدنيا ومطامعها ، وأقرب إلى الله تعالى ورضوانه ، فكان ذلك سبباً في ازدياد تفقهه في دين الله تعالى .

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦] :

« من فوائد الآية : أنه كلما اتبع الإنسان ما يرضي الله ازداد معرفة بشريعة الله ، لقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ، واذكرها بالعكس من أعرض عن رضوان الله فإنه لا يهدى سبل الله ؛ لأنه ليس أهلاً للهداية ، وعلى هذا فنقول لكل طالب علم : أتريد أن يهديك الله ويرزقك

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) .

(٢) انظر : « شرح مسلم » للنووي (١٨ / ٨٨) .

علماء؟ سيقول : بلى ، نقول : عليك باتباع رضوان الله ، كلما رأيت شيئاً يرضي الله فافعله ، وكلما رأيت شيئاً يغضب الله فاجتنبه «^(١) .

وعلى الداعية أن يتعوذ من فتنه الدنيا^(٢) ، وسائر الفتن كما كان النبي ﷺ يفعل ويأمر^(٣) ، وأن يشكر الله تعالى أن منّ عليه بالدعوة والعلم والعبادة فإن الشكر أدعى لقرار النعم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة : ١١٠] : « من فوائد الآية : التنصيص على النعمة بالعلم والشرع والحكمة ، وأنها أخص من مطلق النعمة ؛ لأن مطلق النعمة سبق في قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ لكن العلم خصه فقال : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ، وعلى هذا فيجب على طالب العلم أن يشكر الله تعالى على نعمته عليه ، حيث خصّه بالعلم الذي حرّمه كثيراً من الناس ، وإذا منّ الله عليه بالعبادة والدعوة إلى الله صار نعمة فوق نعمة ، فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، والإنسان إذا شعر بنعمة الله عليه بالعلم والعبادة والدعوة

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢١٥) .

(٢) عن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ، كَمَا تُعَلِّمُ الْكِتَابَةُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُرَدَّ إِلَيَّ أُرْدَلِ الْعُمَرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ » أخرجه البخاري (٦٣٩٠) .

(٣) في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال النبي ﷺ : « تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » قَالُوا : تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ... الحديث . أخرجه مسلم (٢٨٦٧) .

فإنه يزداد فرحاً وسروراً ومثابرة وصبراً على ما هو عليه من طلب العلم وازدياد العبادة وقوة الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ^(١).

ثانياً : البعد عن المعاصي ، قد لا يدرك الداعية عظيم أثر المعاصي والران الذي يغطي القلب ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : « وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله ، فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفئ ذلك النور . ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي^(٢)

ومنها : الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ، ولاسيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم ، وحرم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه^(٣).

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في بيان أثر المعاصي ، وحثّ الداعية على تركها :

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٥١٠) .

(٢) « ديوان الإمام الشافعي » (٣٣) .

(٣) « الداء والدواء » لابن القيم (٥٢) .

« قد يكون عند الإنسان علم ، وفهم ، وجلد ، وتدبر ؛ لكن هناك ذنوباً تحول بينه ، وبين وصوله للحق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُنَادِي عَلَيْهِ إِتْنَا قَالَ أَصْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٣-١٤] ؛ لأن المعاصي تُظلم القلب ؛ وإذا أظلم القلب لا يستنير ؛ وكيف يتبين له الحق وهو مظلم؟! ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥] ، ثم قال تعالى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٦] ، أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أنه ينبغي لمن سئل عن علم أن يستغفر الله عز وجل حتى تزول عنه الذنوب باستغفاره^(١) ، ويتبين له الحق ؛ وعلى هذا فنقول : إن جميع الأحكام التي تتعلق بالعبادات ، أو المعاملات قد بينها الله لكن العيب عيب المستدل ؛ فالأدلة واضحة كافية ؛ لكن المستدل قد تخفى عليه الأحكام للأسباب التي ذكرناها ، وغيرها »^(٢) .

ثالثاً : الدعاء بالثبات والعلم النافع ، وهو من الجوانب العملية ذات الأثر الكبير ، فينبغي للداعية أن يدعو الله تعالى لنفسه بالعلم النافع والعمل الصالح والثبات على الحق ، لاسيما عند كثرة الملييات وأزمان الفتن ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » ،

(١) وأشار إلى معنى الاستغفار عند استغلاق العلم والفتوى في موضع آخر ، فقال : « ... إن بعض العلماء يقول إذا استفتاك شخص فاستغفر الله قبل أن تفتيه ، لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين الهدى واستنبط ذلك من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ (١٠٥) وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦] . وهذا استنباط جيد ، ويمكن أيضاً أن يستنبط من قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧] . والاستغفار هو الهدى ، لذلك أوصيكم بالمراقبة ، وكثرة الاستغفار ، ومحاسبة النفس حتى تكون على أهبة الاستعداد خشية أن يفجأنا الموت - نسأل الله أن يحسن لنا الخاتمة » اهـ . تفسير سورة عم (٥٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٢١) .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمَّا بَكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ : « نَعَمْ ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ »^(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩] : « من فوائد الآية : حث الإنسان على طلب العلم ، وأن يسأل الله من فضله ؛ لأنه تبارك وتعالى هو المعلم ، فلا يعتمد على حوله وقوته وذكائه وفطنته ، فكم من إنسان ذكي فطِن حُرْم الوصول إلى العلم النافع ، وكم من إنسان دونه وفق للوصول إلى العلم النافع .

فعليك يا أخي المسلم باللجوء إلى الله تبارك وتعالى لطلب العلم ، قل : اللهم يا معلم إبراهيم علّمني ، ويا مفهم سليمان فهّمني »^(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ [الشمس: ١٠] ، قال : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴾ أي من أُرْداها في المهالك والمعاصي ، وهذا يحتاج إلى دعاء الله سبحانه وتعالى أن يثبت الإنسان على طاعته ، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . فعليك دائماً أن تسأل الله الثبات والعلم النافع ، والعمل الصالح فإن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] »^(٣) .

وكما يدعو الداعية لنفسه ، فإنه يدعو لمدعوّيه بالهداية وسلوك طريق

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه ، وصحح إسناده الحاكم « المستدرک » (١ / ٧٠٦) ، وله شاهد من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا صححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ٨٧١) (٤٨٠١) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ١٩٧-١٩٨) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الشمس (٢٢٣) .

الاستقامة ، كما كان يفعل ﷺ ، ففي « صحيح مسلم » ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، قلت يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ » فخرجت مُسْتَبْشِرًا بدعوة نبي الله ﷺ ، ثم كان إسلامها رضي الله عنها ^(١) .

وعنه رضي الله عنه ، قال : قَدِمَ الطُّفِيلُ وَأَصْحَابُهُ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا فَقِيلَ : هَلَكْتُ دَوْسٌ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ » ^(٢) .

وإلى هذا الجانب العملي أشار الشيخ رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٨٨] حيث قال : « من فوائد الآية : الإشارة إلى اللجوء إلى الله عز وجل في طلب الهداية ؛ لقوله : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ، وعليه : فإذا دعونا أحداً إلى الحق فأبى وتردد فإننا نلجأ إلى الله أن يهديه ؛ لأن الله على كل شيء قدير ، وكم من أناس كانوا أشقى القوم فصاروا أسعدهم ، وكانوا أفسد القوم فصاروا أصلحهم ، وما أمر عمر بن الخطاب الرجل الثاني من أتباع الرسول ﷺ ببيعد ! وهذا خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، كانوا في أحد كفاراً معادين للإسلام ، يريدون القضاء على أهل الإسلام ، ويريدون قتل الرسول ﷺ ، وقتل الصحابة ، ومع ذلك كانوا بعد هذا قادة وشجعاناً في نصرته الإسلام وهزيمة الكفار » ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٧) ، ومسلم (٢٥٢٤) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٧٠) .

رابعاً : أن يمثل ما يأمر به وينهى عنه ، فيبدأ بنفسه قبل دعوة الآخرين لما يأمر به أو ينهى عنه ؛ لأن هذا ادعى للقبول منه ، وكم من داعية امتثل الناس لأمره ونهيه دون أن يدعوهم بقوله وإنما بفعله ، ورب داعية أكثر التوجيه ولكنه جعل بينه وبين المدعويين حاجز التقصير لما يدعو إليه ، ولقد نهى الله تعالى عباده عن ذلك باستفهام إنكاري ، فقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ :

« من فوائد الآية : أن هذا المنهج يوجب ألا ياتمر الناس بأمر الأمر ولا يتهوا بنهيه ؛ لأنهم سيقولون : لو كان هذا خيراً لكان أول من يفعله ، ولو كان شراً لكان أول من يجتنبه ، فكيف يأمرنا ولا يفعل أو ينهانا ويفعل ؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر .

- ومن فوائد الآية الكريمة : الإشارة إلى أن الإنسان ينبغي له إن لم نقل يجب عليه- أن يبدأ بنفسه ، وقد دلت السنة على ذلك قال النبي ﷺ : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك »^(١) ، ولا ريب أن أقرب شيء إليك هو نفسك ، فكونك تسعى لإصلاح غيرك مع فساد نفسك ، لاشك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أن العالم يلحقه من اللوم ومن الذم أكثر مما يلحق الجاهل ؛ لقوله هنا : ﴿ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾^(٢) .

وقال في موضع آخر : « - من فوائد الآية : توبيخ هؤلاء الذين يأمرون بالبر ، وينسون أنفسهم ؛ لأن ذلك منافٍ للعقل ؛ وقد ورد الوعيد الشديد على من كان

(١) أخرجه مسلم (٩٩٧) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٤٩) .

هذا دأبه ؛ فقد أخبر النبي ﷺ « أنه يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه » .
و « الأقتاب » هي الأمعاء . « فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع إليه أهل
النار ، فيقولون : يا فلان ، أليس كنت تأمرنا بالمعروف ، وتنهانا عن المنكر ،
فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية » ^(١) ؛ فهو
من أشد الناس عذاباً والعياذ بالله - فإن قال قائل : بناءً على أنه مخالف للعقل ،
وبناءً على شدة عقوبته أنقول لمن لا يفعل ما أمر به ، ومن لا يترك ما نهى عنه :
« لا تأمر ، ولا تنه » ؟

فالجواب : نقول : لا ، بل مُرٌ ، وافعل ما تأمر به ؛ لأنه لو ترك الأمر مع تركه
فَعَلَهُ ارتكب جنايتين : الأولى : ترك الأمر بالمعروف ؛ والثانية : عدم قيامه بما
أمر به ؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما ينهى عنه ، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين :
الأولى : ترك النهي عن المنكر ؛ والثانية : ارتكابه للمنكر .

ثم نقول : أينما الذي لم يسلم من المنكر ! لو قلنا : لا ينهى عن المنكر إلا من
لم يأت منكراً لم يَنْهَ أحد عن منكر ؛ ولو قلنا : لا يأمر أحد بمعروف إلا من أتى
المعروف لم يأمر أحد بمعروف ؛ ولهذا نقول : مُر بالمعروف ، وجاهد نفسك
على فعله ، وأنه عن المنكر ، وجاهد نفسك على تركه ...

- ومن فوائد الآية : توبيخ العالم المخالف لما يأمر به ، أو لما ينهى عنه ؛
وأن العالم إذا خالف فهو أسوأ حالاً من الجاهل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ
الْكِتَابَ ﴾ ؛ وهذا أمر فُطِرَ الناس عليه . أن العالم إذا خالف صار أشد لوماً من
الجاهل ؛ حتى العامة تجدهم إذا فعل العالم منكراً قالوا : كيف تفعل هذا وأنت

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) .

رجل عالم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف ترك هذا وأنت عالم؟!»^(١).

الجانب الثاني: ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوين.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره عدة جوانب تتعلق بتأهيل الداعية عملياً في ميدانه الدعوي، وهي كما يلي:

- المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوين.

أولاً: التنوع في الطرح الدعوي، وسواء كان هذا التنوع في الأسلوب أو في الموضوع، أو في الجوانب العلمية والتربوية والإيمانية والمسلكية، فإن تنوع الداعية في طرحه من شأنه أن يستوعب شريحة كبيرة من المجتمع ويعالج مشكلاتهم، فيبدأ بأهم ما يحتاجونه كالعقائد والأحكام، والفضائل، ويطرحها بأسلوب مراوح فيه بين الترغيب والترهيب حسب ما يقتضيه الحال؛ لما في هذه المروحة من أثر على المدعوين.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوته تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، بل الأفضل أن يجعل دعوته مشتملة على الترغيب والترهيب، وذلك لأنها أي: الدعوة إذا كانت مقتصرة على الترغيب صارت سبباً للأمن من مكر الله، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله، ويرجو الله، وإذا كانت مشتملة على الترهيب صارت سبباً للقنوط من رحمة الله، واستبعاد الرحمة، وهذا ضرر، بل

(١) «تفسير سورة البقرة» (١ / ١٥٨-١٦٠)، وأكد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هذا الجانب العملي في عدة مواضع، انظر مثلاً: «أحكام من القرآن الكريم» (٢ / ٤٥١-٤٥٢)، تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَزَّزْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وانظر: «تفسير آل عمران» (١ / ٥٢٠) تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

ينبغي أن يكون الداعية جامعاً بين هذا وهذا ؛ ليحمل الناس على الرجاء وعلى
الخوف ، ولهذا قال الإمام أحمد : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً ، فأيهم
غلب هلك صاحبه . وقال بعض أهل العلم : الرجاء والخوف كالجنحين للطائر
إن انخفض أحدهما سقط الطائر ، وإن تساوى صار طيرانه متزناً^(١) «^(٢) .

والداعية إذا انتهج الأسلوب العلمي البحت فات عليه كثير من جوانب الدعوة التي يحتاجها الناس ، بل لابد أن يقرنه بالآثار الإيمانية والمسلكية ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « يجب أن يركز طالب العلم على الفوائد المسلكية التي تستفاد من أسماء الله وصفاته ، لا على أقسامها وتقسيمها وعمومها وشمولها ، وأهم شيء أن تُعدل من منهجك ومسلحك ، ولهذا قال الله عزَّوجلَّ : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، أن تعبدوه بمقتضى هذه الأسماء ، وقال النبي ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة »^(٣) ، ومن إحصائها التعبد لله بمقتضاها ، وفقنا الله إلى ذلك . »^(٤) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، قال : « المفروض في المعلم أن لا يكون معلماً للناس تعليماً نظرياً جدياً ؛ لأن هذا يمكن أن يدرّكه بالكتب ، لكنه ينبغي أن يعلمهم

(١) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ نَحْوَ هَذَا الْكَلَامِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١ / ٥١٣)، حَيْثُ قَالَ: «الْقَلْبُ فِي سَبِيلِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَنْزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالْمَحَبَّةُ رَأْسُهُ، وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالْجَنَاحَانِ فَالطَّائِرُ جَيِّدُ الطَّيْرَانِ، وَمَتَى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى فَقَدَ الْجَنَاحَانِ فَهُوَ عَرِضٌ لِكُلِّ صَائِدٍ وَكَاسِرٍ» ١. هـ.

(۲) «تفسير سورة ص» (۲۲۱).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٤) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٨٨).

تعليمًا نظريًا وتعليمًا تربويًا . وهذا هو هدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وأصحابه- ، إذا نظرنا إلى السيرة النبوية وجدنا كيف كان الرسول ﷺ يعلم الناس تعليمًا مقرونًا بالتربية مصحوبًا بها ، وإذا تأملنا سيرة الخلفاء الراشدين وجدناها كذلك ، فلننظر مثلاً إلى سيرة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد رفع عقوبة الخمر إلى ثمانين ليردع الناس ، ومنع المطلق ثلاثًا من الرجوع إلى زوجته من أجل أن يردع الناس . فالحقيقة أن المعلم ليس هو الذي يملأ أذهان الناس علمًا فحسب ، ولكن الذي يملأ أفكارهم أو أذهانهم علمًا وأخلاقهم تربية « (١) .

ثانيًا : الحرص على بيان الحق للناس وتوجيههم ، ومتى وجدَ الحرص من الداعية استمر في دعوته ، واستثمر مواطن الدعوة بشكل مناسب ، فيدعو الناس لما فيه هدايتهم ، كما كان النبي ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن الرسول ﷺ كان حريصًا على هداية الخلق ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ دليل على أنه ﷺ كان يعرض الآيات ، ويبين الحقائق ؛ ولكن لا يتفنعون بها » (٢) .

ولا يتوقف الداعية في توجيهه للناس على ما سألوا عنه ، بل الزيادة على المسؤول عنه حسن ، وهو هدي عملي نبوي ، وجاء في كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآفَرِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا نَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : حرص الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على السؤال عن العلم ؛ وقد وقع سؤالهم

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٣٥-٤٣٦) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٣٦) .

لرسول الله ﷺ في القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة .

- ومنها : أن من حسن الإجابة أن يزيد المسؤول على ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه ؛ فإنهم سألوا عما ينفقون ، وكان الجواب عما ينفقون ، وفيما ينفقون ؛ ونظير ذلك أن النبي ﷺ سئل عن الوضوء بماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (١) « (٢) .

ثالثاً : التماس الداعية ما يؤثر على المدعو ، وكل بحسبه ، وهذا من الحكمة التي يراعيها الداعية فيما يلقيه ، والتأثير بالمدعو مطلوب لكنه ليس مقياساً على نجاح الدعوة كما سيأتي - ومن تأمل دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علم ذلك ، ولأهمية التأثير بالمدعو رتب عليه الشارع فضلاً عظيماً ، قال ﷺ : « فوالله لأن يَهْدِيَ اللَّهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ » (٣) ، وفي بيان هذا النهج العملي يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿ [الصفات: ١٢٦-١٢٧] .

- من فوائد قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أنه ينبغي للداعية أن يذكر الإنسان بما يكون سبباً لاتعاضه لقوله : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فيذكرهم بأن آباءهم قد فنوا وذهبوا ، وأنكم أنتم سوف تذهبون كما ذهب الآباء .

(١) أخرجه أبو داود (٨٣) ، والترمذي (٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقال الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، منهم : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، لَمْ يَرَوْا بَأْسًا بِمَاءِ الْبَحْرِ ، وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : « حديث صحيح » . « شرح مسلم » (١٣ / ٨٦) ، وصححه الألباني « إرواء الغليل » (١ / ٤٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

- ومن فوائد قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [أنها] ^(١) دليل على أن الإنسان مهما بلغ في عرض الدعوة إلى الله وبيانها والبلاغة في العظة فإنه لا يستلزم أن يؤثر فيمن وجه الخطاب إليه ؛ لأن إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض الدعوة عليهم عرضاً رقيقاً ، وبين لهم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة ومع ذلك كذبوه .

ويتفرع على هذه الفائدة : أنه ينبغي للداعية إذا رُدَّ قوله ألا يعتبر نفسه مقصراً أو فاشلاً ؛ لأنه أدى ما عليه وهو البلاغ ، والهداية على الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فلو أراد الله بهؤلاء خيراً لانقادوا للهدى ، أما أنت فقد أراد الله بك خيراً لأنك بلغت ما عليك « ^(٢) .

رابعاً : التدرج في الدعوة إلى الله تعالى ، فلقد كان ﷺ يقبل من كل من جاء يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك ، فإذا ذاق حلاوة الدين ، طابت نفسه بفعل كل ما أمر الله ورسوله به ، فتعلم الدين ، وقوي إيمانه ، وذاق حلاوة الدين ، وتمسك بالدين وكان من أهله ودعائه ، وبهذا التدرج أوصى النبي ﷺ دعاة الإسلام ، حين حثَّ معاذ بن جبل على التدرج ليرسم جانباً عملياً مهما للدعاة من بعده ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خُمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فتردُّ على فقرائهم ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ » ^(٣) .

(١) ليست من كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، ربما سقطت أو بمعناها من السياق ، أضفتها ليستقيم المعنى .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٢٨٣-٢٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ، ومسلم (١٩) .

وإن من نقص التأهيل العملي ألا يراعي الداعية التدرج في دعوته ، بأن يبدأ بما دون الأهم ، أو يحدث الناس بما لا تستوعبه أفهامهم ، ففي صحيح البخاري ، قال عَلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ : « حَدَّثُوا النَّاسَ ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتَجِبُونَ أَنْ يُكَذَّبَ ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ^(١) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « أثر علي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ : « حدثوا الناس » . أي : كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ ، قوله : « بما يعرفون » . أي : بما يمكن أن يعرفوه ، وتبلغه عقولهم حتى لا يفتنوا » ^(٢) .

خامساً : ذكر المخارج والحلول الشرعية لما ينهاهم عنه ، فالداعية إلى الله تعالى ليس كتاباً ناطقاً بالحلال والحرام فحسب ، بل هو دليل خير للأمة ، يبين لهم حكم ما نزل بهم ، ويفرّج همومهم ، ويكشف كربهم ، ويرون فيه ملاذاً بعد الله تعالى - يدلهم على ما يرضي الله جل وعلا - ، ويفتح لهم أفق المباح الذي أوسع الله تعالى على عباده ، كما كان النبي ﷺ ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ ، قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : هَلَكْتُ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « وَمَا أَهْلَكَ ؟ » قال : وَقَعْتُ عَلَى أَمْرٍ آتِي فِي رَمَضَانَ ، قال : « هَلْ تَجِدُ مَا

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تدرج النبي ﷺ في أصناف المدعوين ، فقال : « فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب :

المرتبة الأولى : النبوة . الثانية : إنذار عشيرته الأقربين . الثالثة : إنذار قومه . الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة .

الخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر » . « زاد المعاد في هدي خير العباد » (١ / ٨٤) .

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) .

(٢) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (١٠ / ٧٧٤) ، وانظر : « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٥٤) ، و « تفسير جزء عم » سورة الفاتحة (٢٢) .

تُعْتِقُ رَقَبَةً؟» قال : لا ، قال : « فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَّابِعَيْنِ؟ » قال : لا ، قال : « فَهَلْ تَجِدُ مَا تُطْعِمُ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ » قال : لا ، قال : ثُمَّ جَلَسَ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ ، فَقَالَ : « تَصَدَّقْ بِهَذَا » قال : أَفَقَرَ مِنَّا؟ فَمَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أُنْيَابُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ »^(١) ، أنت ترى كيف أن النبي ﷺ أجلسه وبدأ يعرض عليه من الحلول للخروج مما نزل به ، ثم لم يزل به حتى خرج من النبي ﷺ بزاد يطعمه أهله ، وفي كتاب الله تعالى ما يدل على هذا المعنى ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :

« من فوائد الآية : ما جرت به العادة في أن الله عَزَّجَلَّ إذا نهى عن شيء بين وجهًا آخر غير منهى عنه ، يؤخذ من قوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ، وهذه الآية قاعدة جاءت في القرآن الكريم وجاءت في السنة النبوية ، ففي القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَكَ أَهْلُكَ لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤] فجاء بكلمة مباحة بدلها .

وفي السنة لما جيء إلى النبي ﷺ بتمر جيد ، وسأل : « من أين هذا؟ » قال : كنا نأخذ الصاع من هذا بصاعين ، والصاعين بثلاثة ، فقال : « لا تفعل » ، ثم أرشدهم ، فقال : « بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيهاً »^(٢) .

إذاً : لا ينبغي للإنسان المبيِّن للناس أحكام شريعة الله أن ينهاهم عن شيء حتى يفتح لهم باب الحل .

(١) أخرجه البخاري (١٩٣٦) ، ومسلم (١١١١) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٠١) ، ومسلم (١٥٩٣) .

مثلاً : إنسان يعامل معاملة ربوية فقلت له : هذا حرام لا يجوز ، ومعاملته كلها على هذا المنوال ؛ أي : أنها ربوية ، ولم ينهه أحد قبلك ، فإذا قلت : هذا حرام ، وهذا ربا فلا بد أن تفتح له باب البيع الحلال ؛ حتى يهون عليه ترك ما كان معتاداً له ، وينتقل إلى الحلال بسهولة ؛ لأن صرف الإنسان عما كان يعتاده صعب جداً ، وهكذا ينبغي لطالب العلم إذا ذكر للناس شيئاً محرماً أن يذكر لهم ما يستغنون به عن هذا المحرم من الشيء الحلال ^(١) .

وقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنَّاكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَوُتُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤] : « من فوائد الآية : أن ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعو ، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سبباً في إقبال المدعو على الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة ؛ لأنه قال لقومه : (يَا قَوْمِ) .

- ومن فوائدها أيضاً : أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء ؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتى يجمع بين الأمرين ^(٢) .

سادساً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عدة تنبيهات عملية في الدعوة ينبغي مراعاتها :

- لا يتحمل الداعية إعراض المدعوين بعد نصحتهم ؛ لأن وظيفته البلاغ لا هداية الناس ، فالنتائج ليست مقياساً للدعوة ، ولقد ذكر الله تعالى هذا المفهوم العملي لنبيه ﷺ في دعوة أقرب الناس إليه وهو عمه ، عن سَعِيدِ بْنِ

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٢٤) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٦٠) .

المُسَيَّب ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاءُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا عَمَّ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ » ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْزِضُهَا عَلَيْهِ ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنْكَ » ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣] ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الفصص: ٥٦] ^(١) .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رَحِمَهُمَا اللهُ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ... » ^(٢) الحديث ، وأشار الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى هذا المفهوم في غير ما موضع ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩] ، قَالَ :

« من فوائد الآية وأحكامها : أن الإنسان إذا أَدَّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه ، فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء ، إنما يضلون على أنفسهم ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ عَلَيَّكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤) ، ومسلم (٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) .

﴿إِلَّا الْبَلْعُ﴾ [الشورى: ٤٨] ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٣) فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ (٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦] (١) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] ، قال الشيخ رحمه الله :

« من فوائد الآية : إرشاد الإنسان أن لا يحزن على الفاسق ؛ لأنه إذا بذل جهده فيما يجب من الدعوة ، فإن هداية الخلق ليست إليه بل إلى الله ، فلا يحزن ، ولهذا قال الله : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ، وقال لنبى ﷺ : ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ، وقال : ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ عَاقِبَتُهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] والآيات في هذا متعددة ، فالإنسان إذا بذل الجهد بقدر المستطاع ، فلا ينبغي أن يحزن ويشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه ، ولا يأس على القوم الفاسقين ، وكثير من الناس يكون عنده غيرة ، فتجده يشتغل بمعاصي غيره وعيوب غيره وينسى نفسه وهذا خطأ ، أهم شيء عليك نفسك ، عدلها ثم اسع في إصلاح الآخرين » (٢) .

وبنحو ما سبق ذكر الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] ، وزاد فيها : « فإن قال قائل : وهل هذا أيضاً يوجه إلى الداعي إلى الله بمعنى : أنه لو جاء أحد يشكو إليك يقول : أنا نصحت هؤلاء القوم ولكنهم لم يأخذوا بنصيحتي ، بل كابروا واستهزءوا وسخطوا ، هل لك أن تقول : يا أخي لا تأس ، ولا تحزن ،

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣١٨) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٨٣) ، وانظر أيضاً : « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٠٣ - ١٠٤) ، (٢ / ٣٦١) ، و« تفسير سورة الذاريات » (١٥٠) .

ولا يضيق صدرك أو لا؟ نعم ، تقول هذا حتى تفرج عنه وتفسح له ، لئلا يقنط ،
فلذلك ينبغي للإنسان إذا جاءه أحد من دعاة الخير ، أو من الأمرين بالمعروف
والناهي عن المنكر يشكو إليه ، أن يوسع له ويفسح له ويقول : لا تأس على
هؤلاء ، لكن بعض الناس إذا جاءه أحد يشكو يقول : والله الناس خراب من
يستطيع يقدرهم إلا الله نسأل الله العافية - سيحل بنا غضب ونقمة ، ثم يدخل
عليه حزناً على حزن وهذا غلط ؛ لأن الداعي إلى الله إذا قام بما يجب عليه ،
وما وراء ذلك فهو إلى الله عَزَّوَجَلَّ^(١) .

ولا يعني عدم ضرر الداعية بإعراض المدعوين عنه الاستهانة بما هم عليه
من الحال ، بل لابد أن يعظم في نفسه ذلك ، ويهتم لهم ، قال الله تعالى لَنَبِيِّهِ ﷺ :
﴿ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥] ، قال
الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « الفائدة الأولى : أن النبي ﷺ قد عظم عليه إعراض المدعوين
إلى الإسلام ، وهل هذا انتصار لنفسه ، أم رغبة في هداية عباد الله ؟ الثاني بلا
شك ، وهذا من تمام نصحه ﷺ للأمة .

الفائدة الثانية : أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس ، بل يكون
كبيراً في نفسه ، لكن لا تعصباً لما هو عليه ، ولكن من أجل مصلحة الآخرين »^(٢) .

- حاجة الداعية للتسليّة لما يواجهه من مشقة طريق الدعوة ، فطريق
الدعوة طويل ، وفيه من عقبات الإعراض والأذى القولي والفعلية ما يجعل
الداعية بحاجة إلى ما يسليّه ؛ ولذا قال الله تعالى لَنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ

(١) « تفسير المائدة » (٢ / ١٦٢) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (١٨٩) .

الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا لِلَّهِ يَسْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: « من فوائد الآية : تسليية النبي صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتقوية روحه المعنوية ، فإن في هذه الآية من تسليته وتقوية روحه المعنوية ما هو ظاهر ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يسلي أخاه بما يقع لمثله حتى يهَوَّنَ عليه الأمر ... »

- ومن فوائد الآية : أنه ينبغي للدعاة أن يتسلَّوا برسول الله ﷺ فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين ، فليتسلَّوا به ويقولوا في أنفسهم وبألسنتهم إن الله تعالى عالم بما تقولون وسيجازيكم ^(١) .

- أن طريق الدعوة طريق ابتلاء وامتحان وأن استبطاء النصر لا يخل بالدعوة ، فالداعية يؤمل ثمار دعوته ، أو فرجاً لأمر قد ضاق به في الدعوة إلى الله تعالى ، وقد يتأخر النصر والتأييد من الله تعالى له ؛ لحكمة أرادها الله تعالى ، وإن استبطاء النصر ذكره الله تعالى في كتابه مبيناً به حال أول الدعوة إلى الإسلام وهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا آبَاءَهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠] .

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ : « خبر تعالى : أنه يرسل الرسل الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام ، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق ، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . »

حتى إن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على كمال يقينهم ، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإيأس ، ونوع من ضعف العلم

(١) « تفسير سورة الأنعام » (١٧٣ - ١٧٤) .

والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠] وهم الرسل وأتباعهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(١).

ووقع للنبي ﷺ والصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ، الكرب العظيم، والامتحان الذي زلزلهم حتى سألوا عن النصر، ففي «صحيح البخاري»، من حديث خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَحِمَهُمُ اللهُ، قال: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُتِمِّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّائِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذُّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٢).

ويذكر القرآن الكريم حال النبي ﷺ ومن معه من الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

- تسلية الرسول ﷺ وأصحابه، بأن ما مسهم من البأساء والضراء، والزلزلة، حين كانوا في مكة قبل أن يؤذن لهم بالهجرة، قد مسَّ مثله من خلا ومضى، وصبروا حتى نُصِّروا.

- أن من قام بالدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ فسوف يُمْتَحَن من عند الله، فَيُتَلَّى

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

الصالحون ، الأمثل فالأمثل ، يُمْتَحَنُ لِيُنْظَرَ : هل في دينه صلابة ، وأنه جادٌ في دينه ممسكٌ به تماماً ، أو أن الأمر بالعكس ، وفي هذا يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي : عبادةً على طرف ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] ، نسأل الله لنا ولإخواننا الثبات .

- أن استبطاء النصر انتظار الفرج ، لا يُخِلُّ بالتوحيد ، ولا بالتصديق ؛ لأنه يقع من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومن المؤمنين بهم ؛ لقوله : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ ﴾ [البقرة : ٢١٤] « (١) » .

ومن خلال المضامين السابقة في التأهيل العملي اتضحت أهمية اعتناء الداعية بوظيفته العملية الدعوية ، سواء فيما يتعلق بأعماله الذاتية أو أعماله في الميدان الدعوي ، وإن أعظم ما يتهيأ به ويبدأ به هو عبادة الله تعالى واشتغاله فيها ؛ لأنها غذاء روحه ، وحياة قلبه ، ومصدر طاقته وعطائه في ميدان الدعوة ؛ لأن العبادة تُعَدُّ أهم أسباب تحمُّل مشاق الدعوة ، وطول طريقها ، والصبر عليها ، وهكذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم ملازمين للعبادة والاستكثار منها ، متضرعين لله تعالى ، سائلين الله تعالى العون في تبليغ الرسالة ، ولن يكون الداعية مستكثراً من العبادة حتى يزيل عوائقها ، وإن من أشد عوائقها مقارفة المعاصي ، فإن المعاصي شؤمها على الداعية ودعوته وخيم ، وأثرها بالغ في السلبية على عطائه ، لأن المعاصي تظلم القلب ، والقلب إذا أظلم قلَّ عطاؤه ، فعلى الداعية مدافعة ران القلب بالاستغفار وكثرة الطاعات والبعد عن مواطن الشبهات والشهوات ، وسؤال

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٧١ - ٧٢) .

الله تعالى الثبات على الحق وعلى العلم النافع ، فالداعية كما يدعو لمدعوٍ به بالهداية والثبات على الاستقامة فإنه يبدأ بنفسه فيدعو بالثبات ، ويكثر اللجوء إلى الله تعالى لاسيما في أزمان الفتن .

وتبين مما تقدّم في المضامين العملية أهمية التدرج في الدعوة ، فيبدأ في دعوته بالأهم فالأهم ، مراعيًا اختلاف المدعوين وعلاقتهم بدين الله تعالى ، متبعًا بذلك هدي النبي ﷺ في تدرجه مع مَنْ أراد الإسلام ، ومع المسلمين أنفسهم في أمره لهم ونهيه ، ومن الجوانب العملية التنوّع في الطرح الدعوي للداعية ، فإن التنوّع في الأسلوب والوسيلة والموضوع حسب ما يقتضيه المقام سبب مهم في قبول الداعية عند المدعوين واستطاعته استيعاب شرائح مجتمع الدعوة ، والتماسه مواطن التأثير بالمدعوين كلّ بحسبه ، والاهتمام بمسائل الناس ومشكلاتهم وتبصيرهم بالمخارج الشرعية تجاه ما أَلَمَ بهم ، وإرشادهم لما فيه خير دينهم ودنياهم ، فالداعية إلى الله تعالى مُطَالِبٌ بتأهيل نفسه عمليًا بالنظر فيما يقوِّي صلته بالله تعالى ، والبعد عما ينافي ذلك ، وتأهيلها عمليًا في الميدان الدعوي وفق قواعد الدعوة وأصولها المعروفة .

هذه أبرز المضامين التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تأهيل الداعية عمليًا ، وإن المتأمل للمضامين التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من تأهيل عقدي وعلمي وأخلاقي وعملي ، يدرك أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ اهتم بتكوين الداعية وتأهيله كما ينبغي أن يكون على ضوء الكتاب والسنة ، فقد ربط الداعية في جميع أنواع التأهيل بكتاب الله تعالى ، مستنبطًا هذه المعالم الدعوية من قصص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وتوجيهات قرآنية في جوانب عقدية وعلمية وأخلاقية وعملية ؛ مقرونةً بسنة النبي ﷺ ، وأستطيع القول بأن هذه الجوانب التأهيلية

لو أخذ بها الداعية كما ينبغي لأخرجت لنا صفًا من الدعاة الذين يُحتذى بهم ، وتُحمد دعوتهم في شتى الميادين ، متصفين بالحكمة ، والفهم الواعي ، والاحتواء المناسب للمدعوين .



الفصل الرابع
أصناف المدعوين وخصائصهم
في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف المدعوين وبيان أصنافهم وأنواعهم .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوين .

المبحث الثالث : دعوة المسلمين .

المبحث الرابع : دعوة أهل البدع .

المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب .

المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين .

المبحث السابع : دعوة المنافقين .

المبحث الأول : تعريف المدعوين وبيان أصنافهم وأنواعهم

بعد بيان المضامين الدعوية المتعلقة ببناء الداعية من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ، عقدياً وعلمياً وأخلاقياً وعملياً ، يأتي الكلام على أصناف المدعوين الذين هم مدار الدعوة ، وعليهم يكون عمل الداعية بعد تأهيله ، ولقد أولى القرآن الكريم المدعوين اهتماماً ظاهراً وبيّن أصنافهم وكيفية دعوتهم ، وطريقة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بتعاملهم الأمثل مع كل نوع من المدعوين حسب أحوالهم والظروف المحيطة بهم .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : « وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكُلْفَةٍ ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام »^(١) .

وهذا مما يبيّن تأصيل تنوع المدعوين ، حيث قرر أنواعهم القرآن الكريم ، وبيّن لكل صنف ما يناسبه من الدعوة ، حسب اختلافهم والظروف المحيطة بهم .

وللتعريف بالمدعوين ، يقال : المدعوون جمع مدعو وهو : « الإنسان ، أيُّ إنسانٍ كان هو المدعو إلى الله تعالى ؛ لأنَّ الإسلام رسالة الله الخالدة ، بعث الله به محمداً ﷺ إلى الناس أجمعين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] ، وهذا العموم بالنسبة للمدعوين لا يُستثنى منه أيُّ إنسان مخاطب بالإسلام ومكلف بقبوله والإذعان له ، وهو البالغ العاقل مهما

(١) « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (١ / ٣٣٦) .

كان جنسه ونوعه ولونه ومهنته وإقليمه ، وكونه ذكراً أو أنثى ، إلى غير ذلك من الفروق بين البشر»^(١) .

- بيان أصناف المدعوّين .

من أهم ما ينبغي للداعية مراعاته والإلمام به أصناف المدعوّين ؛ لتسير دعوته إلى الله تعالى على خطى راسخة ، ومعالم ثابتة مستندة إلى الكتاب والسنة ، فإذا أنعم الله تعالى على الداعية بالعلم الشرعي المؤصّل ، كان من اللوازم المهمة له في طريق الدعوة معرفة كيفية أداء هذا العلم وتنزيله على المدعوّين بما يناسب منازلهم ، فإن لنجاح الدعوة وبلوغها كما ينبغي علاقة وثيقة بالإلمام بالمدعو ديانته وحاله وظروفه التي يعيش فيها ؛ ليكون بصيراً بالمدعو فيستعدّ له بما يناسبه من طرق الدعوة ووسائلها وأساليبها وألوياتها وسائر المضامين الدعوية المتعلقة بالمدعو ، ولنا في إمام الدعاة محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم - أسوة في إرساله للدعاة وإرشاده لهم بمعرفة أصناف المدعوّين ، ومن ذلك ما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ »^(٢) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « وأخبره النبي ﷺ بذلك ؛ لأمرين :

(١) « أصول الدعوة » (٣٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

الأول : أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو .

الثاني : أن يكون مستعداً لهم ؛ لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم ^(١) .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ﴾ [البروج : ١٧-١٨] ، قال : « قصة فرعون ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة وفي سور متعددة كمقدمة بين يدي سلف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكما هو معروف أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مبعوث لبني اسرائيل ، وقص الله سبحانه على رسول الله ﷺ من نبأ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مالم يقصه من نبأ غيره ؛ لأن النبي ﷺ سوف يكون مهاجرة إلى المدينة التي بها ثلاث قبائل من اليهود ، فكان رسول الله ﷺ يعلم من نبأهم الشيء الكثير من أجل أن يكون على استعداد لمناظرتهم ومجادلتهم بالحق حتى لا يخفى عليه من أمرهم شيء ^(٢) .

وكانت دعوته ﷺ شاملة لجميع أصناف المدعوين ؛ لأنه بُعث للناس كافة ، فليس صنف من أصناف المدعوين بمعزل عن هذه الشمولية .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١] : « ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أمره الله أن يذكر ولم يخصص أحداً بالتذكير ، أي لم يقل ذكّر فلاناً وفلاناً فالتذكير عام ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بُعث إلى الناس كافة ، أي ذكّر كل أحد في كل حال وفي كل مكان ، فذكر النبي ﷺ ، وذكّر خلفاؤه من بعده الذين خلفوه في أمته في العلم والعمل والدعوة ^(٣) .

والداعية إلى الله تعالى إذا عرف أصناف المدعوين واختلاف أحوالهم عرف

(١) « مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين » (٩ / ١٢١) بتصرف .

(٢) « تفسير جزء عم » سورة البروج (١٤٢) .

(٣) « تفسير جزء عم » سورة الغاشية (١٨١) .

ما يناسبهم من الدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الأمثل ، وهو منهج قرآني ، فإن الأساليب الدعوية تتنوع تبعاً لتنوع أصناف المدعوين ، قال تعالى : ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « الناس ثلاثة أقسام : إما أن يعترف بالحق ويتبعه فهذا صاحب الحكمة ؛ وإما أن يعترف به ؛ لكن لا يعمل به فهذا يوعظ حتى يعمل ؛ وإما أن لا يعترف به فهذا يجادل بالتي هي أحسن لأن الجدل في مظنة الإغصاب فإذا كان بالتي هي أحسن : حصلت منفعة بغاية الإمكان كدفع الصائل »^(١) .

ويقول الألويسي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره مبيناً دلالة الآية على أصناف من المدعوين : « والأحسن على ما ذهب إليه المحققون أنه تعميم للدعوة حسب مراتب المدعوين في الفهم والاستعداد ، فمن دعى بلسان الحكمة ليفاد اليقين العياني أو البرهاني هم السابقون ، ومن دعى بالموعظة الحسنة وهي الإقناعات الحكيمة لا الخطابات المشهورة طائفة دون هؤلاء ، ومن دعى بالمجادلة الحسنة هم عموم أهل الإسلام والكفار أيضاً »^(٢) .

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية السابقة : « أي : ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴾ بِالْحُكْمَةِ ﴿ أي : كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده .

(١) « مجموع الفتاوى » (٢ / ٤٥) .

(٢) « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » (٧ / ٤٨٨) .

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبدء بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهي من المضار وتعدادها ، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به .

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل ، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلى الباطل ، فيجادل بالتي هي أحسن ، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً^(١) .

وفي بيان المفسرين لأصناف المدعوين وما يناسبهم من دعوة تنزل على ظروفهم المحيطة ، واختلاف تدينهم ومقداره ، بيان لأهمية مراعاة الداعية ومعرفته بأصناف المدعوين ، ولقد راعى شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ هذا الجانب مراعاة واضحة ورسم منهجاً لما ينبغي أن يكون عليه الداعية كما سيتضح في المباحث القادمة - مستنبطاً ذلك من الآيات بما يناسب حال المدعو في الدعوة إلى الله تعالى .



(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٥٢) .

المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوين

إن مراعاة أحوال المدعوين من أهم أسباب نجاح دعوة الداعية في ميادين متعددة ، بل لا يتسم الداعية بوصفي البصيرة والحكمة في الدعوة إلى الله تعالى حتى يكون عالماً بحال مَنْ يدعوهُ ؛ ليدعوه بما يناسبه ، فيمثل الحكمة المنشودة في الدعوة إلى الله تعالى ، فمن الحكمة مراعاة أحوال المدعوين وظروفهم وأخلاقهم وطبائعهم ، والمخاطبة على قدر عقولهم ومراعاة همومهم وحاجاتهم وبذلك ينفذ إلى قلوبهم ، وهو من أهم المضامين الدعوية الميدانية .

والأمثلة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرة على هذا الأمر الدعوي المهم ، وهو مراعاة أحوال المدعوين ؛ لأن المغايرة في نهج الدعوة وأسلوبها ووسائلها وأولوياتها وجميع مضامينها يختلف باختلاف المدعوين وأحوالهم ؛ فلكل محيط دعوي ظروفه وأحواله وعاداته ومبادئه ، ومراعاة هذا من الأهمية بمكان ؛ لأنه عنصر أساسي في نجاح دعوة الداعية ، ومهم في ملائمة دعوته للمحيط الذي تنصب عليه الدعوة .

ويؤكد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى ، فيقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، قال : « قوله : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ ، أي : علم ؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم ؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص ، أو عدم العلم ، وليس المقصود بالعلم في قوله : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ العلم بالشرع فقط ، بل يشمل : العلم بالشرع ، والعلم بحال المدعو ، والعلم

بالسبيل الموصل إلى المقصود ، وهو الحكمة .

فيكون بصيرًا بحكم الشرع ، وبصيرًا بحال المدعو ، وبصيرًا بالطريق
 الموصلة لتحقيق الدعوة ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ : « إنك تأتي قومًا
 أهل كتاب »^(١) .

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي ؛ لأن علمي أن هذا الرجل
 قابل للدعوة باللين ، وهذا قابل للدعوة بالشدّة ، وهذا عنده علم يمكن أن
 يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي ، وكذلك العلم
 بالطرق التي تجلب المدعويين كالترغيب بكذا والتشجيع ؛ كقوله ﷺ : « من
 قتل قتيلاً فله سلبه »^(٢) أو بالتأليف « فالنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم في
 غزوة حنين إلى مائة بعير »^(٣) ، فهذا كله من الحكمة ؛ فالجاهل لا يصلح
 للدعوة ، وليس محمودًا ، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ ؛ لأن الجاهل
 يفسد أكثر مما يصلح »^(٤) .

وفي موضع آخر يؤكد أن الداعية لا يكون على بصيرة إلا إذا دعا إلى الله على
 بصيرة في ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه ، وذلك بالعلم لا بالجهل .

الأمر الثاني : أن يكون على بصيرة في حال المدعو ، فلا بد من معرفة

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٢) ، ومسلم (١٧٥١) .

(٣) أخرجه البخاري (٣١٥٠) .

(٤) « مجموع فتاوى ورسائل العثميين » (٩ / ١١٩) .

حال المدعو ؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه ، وتكون أكثر فائدة له ، وتأثيراً فيه .

الأمر الثالث : أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة^(١) .

- أبرز المضامين الدعوية في مراعاة أحوال المدعوين :

أولاً: قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان الداعي إلى الله أن يعامل الناس بما تعامل به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقوامها ، فتارة يبشر ، وتارة ينذر ؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائماً أدخل الناس في الإرجاء ، وإن سلك سبيل الإنذار دائماً أدخل الناس في القنوط واليأس ، فلذلك يجب أن يكون الإنسان حكيماً يراعي أحوال الناس ، فمثلاً : إذا رأى الناس قد انهمكوا في أمر محرم فالأولى هنا أن لا يسلك سبيل البشارة فيوقع الناس في الأمن من مكر الله ، بل يسلك سبيل الإنذار ويشدد ، فإن لم ينفع فيهم الوعيد الديني فالرداع السلطاني ، ولهذا كان من سياسة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يستعمل الردع السلطاني إذا لم يصلح الناس بدونه ، ولهذا ورد أنه أمر بقتل شارب الخمر في الرابعة إذا لم يرتدع ، قال شيخ الإسلام : إن هذا

(١) انظر : « زاد الداعية إلى الله » لشيخنا ابن عثيمين (٧) ، وذكر هذا المعنى أيضاً في : « شرح

ثلاثة الأصول » (٢٢) .

حكم ثابت إذا لم ينته الناس بدونه^(١) «(٢)» .

وتأمل الداعية أثر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم أقوامهم إلى الله تعالى ، واقتفاء

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وكذلك قد يقال في أمره بقتل شارب الخمر في الرابعة ؛ بدليل ما أخرجه أحمد في « المسند » : عن ديلم الحميري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ قال : سألت رسول الله ﷺ . فقلت يا رسول الله : إنا بأرض نعالج بها عملاً شديداً وأنا نتخذ شراباً من القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . فقال : « هل يسكر ؟ » قلت نعم . قال : « فاجتنبوه » . قلت : إن الناس غير تاركيه . قال : « فإن لم يتركوه فاقتلوهم » . وهذا لأن المفسد كالصائل . فإذا لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل » . « مجموع الفتاوى » (٢٨ / ٣٤٧) .

وفي موضع آخر ذكر الخلاف في المسألة ورجح ، وذلك حين سئل رَحِمَهُ اللهُ : عن المداومة على شرب الخمر وترك الصلاة وما حكمه في الإصرار على ذلك ؟ فأجاب : « الحمد لله ، أما « شارب الخمر » فيجب باتفاق الأئمة أن يجلد الحد إذا ثبت ذلك عليه وحده أربعون جلدة أو ثمانون جلدة . فإن جلده ثمانين جاز باتفاق الأئمة وإن اقتصر على الأربعين ففي الإجزاء نزاع مشهور فمذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين أنه يجب الثمانون ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى عنه أن الأربعين الثانية تعزير يرجع فيها إلى اجتهاد الإمام فإن احتاج إلى ذلك لكثرة الشرب أو إصرار الشارب ونحو ذلك فعل وقد كان عمر بن الخطاب يعزر بأكثر من ذلك ؛ كما روي عنه أنه كان ينفي الشارب عن بلده ويمثل به بحلق رأسه . وقد روي من وجوه عن النبي ﷺ : « من شرب الخمر فاجلدوه ثم إن شربها فاجلدوه ثم إن شربها فاجلدوه ثم إن شربها في الثالثة أو الرابعة : فاقتلوه » فأمر بقتل الشارب في الثالثة أو الرابعة . وأكثر العلماء لا يوجبون القتل ؛ بل يجعلون هذا الحديث منسوخاً ؛ وهو المشهور من مذاهب الأئمة . وطائفة يقولون : إذا لم ينتهوا عن الشرب إلا بالقتل جاز ذلك كما في حديث آخر في السنن أنه نهاهم عن أنواع من الأشربة قال : « فإن لم يدعوا ذلك فاقتلوهم » . والحق ما تقدم . وقد ثبت في « الصحيح » أن رجلاً كان يُدعى حماراً وهو كان يشرب الخمر ؛ فكان كلما شرب جلده النبي ﷺ فلعه رجل فقال : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ فقال : « لا تلعه ؛ فإنه يحب الله ورسوله » وهذا يقتضي أنه جلد مع كثرة شربه » ا . هـ « مجموع الفتاوى » (٢١٦ / ٣٤) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٥) .

طريقتهم بالتنوع في الطرح الدعوي بما يقتضيه حال المدعوين ، يوصل الداعية إلى الطريق الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى ، ويجعل دعوته تناسب أطراف المجتمع ككل ؛ لأنه نوع في طرحه بما يقتضيه كل مقام على حدة ، وهي طريقة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ودعاة الإسلام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

ثانياً : في تفسير سورة المائدة ذكر استفهاماً يتعلق بمراعاة أحوال المدعو ، فقال : « لو قال قائل : البشارة هل تكون وسيلة لتأليف قلوب أصحاب المنكرات ، كأن يقال لهم : أبشروا أنتم على خير ونحو ذلك ؟

الجواب : لكل مقام مقال ، قد يكون من الحكمة أن لا تنفر الناس بذكر التخويف والوعيد ، وقد يكون بالعكس ، فمثلاً : إذا كنت تخاطب شخصاً معيناً منغمساً في الآثام ، فهنا ربما يكون جانب التخويف أفضل ، لكن مع التخويف تقول له : يا أخي باب التوبة مفتوح ، واذكر قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، حيث ذكر أمهات العظائم ، ومع ذلك قال : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، فلكل مقام مقال ، لا يمكن أن تذكر شيئاً معيناً ^(١) .

والنظر بعين الحكمة في حال المدعو يوصل إلى المقصود من الدعوة إلى الله تعالى ، ومن الحكمة المراوحة بين الوعد والوعيد حسبما يقتضيه مقام الدعوة وما انعقد عليه قلب المدعو من الإقبال والندم أو الإدبار واللامبالاة .

ثالثاً : قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٥] : « من فوائد الآية : جواز دعاء الإنسان ربه عزَّ وجلَّ أن يفصل بينه وبين أهل الفسوق والفجور ، لقوله : ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ويمكن أن يتفرع على هذه الفائدة جواز هجران الفسقة ؛ لأن الهجر مفارقة ، ولكننا نقول : السنة دلت على أن الهجر إن كان فيه مصلحة فافعله وإلا فلا تفعل ، فإن كان هجران العاصي أو المبتدع لا يزيد الأمر إلا شدة ، وأنت إنما هجرت للإصلاح ولأجل أن يرتدع ، وهو لن يرتدع بالهجر بل يمكن أن يزيد في الشر ، ونضرب لذلك مثلاً لو أنك رأيت رجلاً حالقاً لحيته وهجرته هل سوف ينتهي عن ذلك ، إن كان سينتهي فلا بأس ، وأما إذا كان لا ينتهي ويزداد كراهة لك ولما تدعوه إليه من الحق ويستمر بأي فائدة في هجره ، ثم عندنا الحديث الصحيح : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة »^(١) . وهذا مسلم ، وما ورد عن السلف من الهجر يحمل على أنه هجر للإصلاح أو لئلا يغتر بهم الخلق ، وعلى هذا إذا كنت تتألف العصاة وأهل الضلال فلا بد أن تصرّح بأنهم على ضلال ، لئلا يغتر الناس بهم ، لكن لا تخصّهم بأعيانهم حتى لا ينفروا ، لكن إذا قلت : بعض الناس قال كذا أو يقال كذا فلن ينفروا »^(٢) .

وبهذا نعرف أنه ليس من حسن مراعاة حال المدعويين التزام الهجر في معالجة واقع العصاة ، وإنما الهجر أسلوب متعلّق بالمصلحة التي إن تحقّق حصولها ، وغلب على الظن نفع الهجر تجاه المدعو استُخدم هذا الأسلوب ، وإلا فلا ، فمن الهجر ما يزيد في إغراض المدعو ، وكل ذلك راجع للنظر في حال المدعو .

رابعاً : في تفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] ، قال الشيخ رحمه الله :

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ، ومسلم (٢٥٦٠) .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٨١) .

« من فوائد الآية : أن الإيمان محله القلب ، لقوله : ﴿ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ولكن إذا قال قائل : ألسنا مأمورين بأن نأخذ الناس بظواهرهم ؟

الجواب : بلى ، نحن مأمورون بهذا ، لكن من تبين نفاقه فإننا نعامله بما تقتضيه حاله ، كما لو كان معلناً للنفاق ، فهذا لا نسكت عليه ، أما من لم يعلن نفاقه ، فإنه ليس لنا إلا الظاهر ، والباطن إلى الله ، كما أننا لو رأينا رجلاً كافراً فإننا نعامله معاملة الكافر ، ولا نقول : إننا لا نكفره بعينه ، كما اشتبه على بعض الطلبة الآن ، يقولون : إذا رأيت الذي لا يصلي لا تكفره بعينه ، كيف لا أكفره بعينه !! إذا رأيت الذي يسجد للصنم لا تكفره بعينه ؛ لأنه ربما يكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، هذا غلط عظيم ، نحن نحكم بالظاهر ، فإذا وجدنا شخصاً لا يصلي قلنا : هذا كافر بملء أفواهنا ، إذا رأينا من يسجد للصنم قلنا : هذا كافر ، ونعيته ونلزمه بأحكام الإسلام ، فإن لم يفعل قتلناه ، أما في أمر الآخرة لا نشهد لأحد معين ، لا بجنة ولا بنار إلا من شهد له النبي ﷺ أو جاء ذلك في القرآن »^(١).

خامساً : في موضع آخر من تفسير سورة المائدة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « لو قال قائل : كيف نأمر وكيف ننهي ، هل نأمر بشدة أو نأمر بسهولة ؟

نقول : هذا يبنى على حال الشخص ، فالمعاند ليس كالجاهل الأصلي ، الجاهل الأصلي نعامله بلطف ولين وبالإقناع حتى يقبل الحكم ، والمعاند أو المجاهر هذا له حكم آخر ، ويدل لهذا وقائع وقعت في زمن النبي ﷺ :

منها : قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ، فإن النبي ﷺ كلمه بلطف وقال : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من القذر والأذى »^(٢).

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٤٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٥) .

ومنها: قصة معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة مرتين ، فدعاه النبي ﷺ وأخبره بأن « هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس »^(١).

ومنها : لما رأى في يد رجل خاتماً من ذهب أخذهُ النبي ﷺ ونزعه من يده ثم رمى به ولم يتكلم معه ، ولما انصرف النبي ﷺ قيل له : خذ خاتمك ، قال : والله لا آخذ خاتماً رمى به رسول الله ﷺ ^(٢) ؛ لأن هذا الرجل ليس له عذر ، فلكل مقام مقال « ^(٣) .

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يبيِّن أن التنقُّل بين أنواع الخطاب باللطف واللين أو الحزم والزجر ونحوها من أنواع الخطاب الدعوي إنما يتم بحسب حال المدعو، فيُفرِّق بين الجاهل والمعانَد وبين المعذور من غيره ونحو ذلك من الأحوال التي يتلبس بها المدعو .

سادساً : قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في التفريق بين المكي والمدني وبيان أن القرآن راعى أحوال المدعوين : « أيضاً : بالنسبة لما يهمننا من العلم بالمكي والمدني ، هو أن نعرف أن البلاغة تقتضي مخاطبة الناس بما تقتضيه أحوالهم ، ففي المكي نجد الآيات شديدة قوية ؛ لأنها تصادم أناساً أشداء أقوياء بلغاء فصحاء ، ونجد الآيات المدنية في غالبها سهلة لينة ؛ لأنها تخاطب أناساً قد رسخ في قلوبهم الإيمان ولا يحتاجون إلى شدة ، وهذا ظاهر ، اقرأ سورة

(۱) أخرجه مسلم (۵۳۷).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩٠)، ولفظه: عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فترعه فطرعه، وقال: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله، لا أخذه أبداً وقد طرعه رسول الله ﷺ.

(٣) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٤١).

القمر تجد كيف كانت آياتها عظيمة تزلزل القلب في الواقع لمن تأملها جيداً ؛ لأنها تتحدث بين قوم عتاة مستكبرين ، فكانت الآيات مناسبة تماماً لمقتضى الحال ، وهذا هو غاية البلاغة »^(١)

سابعاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ص: ٦٥] : « من فوائد هذه الآية : أنه ينبغي في الكلام مراعاة الحال حيث إن المقام هنا مقام تهديد ، فلهذا اقتصر على الإنذار فقط مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩] »^(٢) .

ثامناً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنْ آلِهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] : « يقول الله عَزَّجَلَّ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ : هذا تفريع على قوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنْ آلِهِ لَيْتَ لَهُمْ ﴾ ، فاعف عنهم إذا قصرُوا في حقك . والعفو : هو التسامح وعدم المؤاخذة .

﴿ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ : في حق الله عَزَّجَلَّ إذا قصرُوا فيه ، فالصحابة قد يقصرون في حق الرسول ﷺ ، وقد يقصرون في حق الله ، أما في حق الرسول ﷺ فقال : (اعف عنهم) وما أكثر ما يحصل من جفأة الأعراب أو غيرهم من الكلام المسيء إلى رسول الله ﷺ ، ولكنه يصبر ويتحمل ويعفو عنهم إلى حد أن رجلاً من الأنصار قال له لما حكم فيه في خصومة بينه وبين الزبير بن العوام قال له : أن كان ابن عمك يا رسول الله ؟ وهذا اتهام ، اتهام فظيع . فالزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله (، فقال هذا الرجل الأنصاري عفا الله

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٤٠١) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٢٨) .

عنه قال : أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟^(١) . وقال له رجل وهو يقسم فيئاً قال : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ، وقال له : اعدل^(٢) . كل هذه الكلمات كان النبي ﷺ يصبر ويحتسب الأجر من الله ويعفو^(٣) .

وما أشار إليه الشيخ رحمه الله مهم للغاية ، فإن فهم طباع المدعوين يدعو إلى مراعاة المناسب حال خطابهم بالدعوة إلى الله تعالى ، فجفاة الأعراب يحصل منهم من الغلظة والشدة مما ليس خُلُقاً متعمداً بقدر ما هو طبع اعتاد عليه ، وهذا يحتاج إلى مزيد من المراعاة ، وبالتالي يفهم الداعية ردة فعل المدعوين ، ويستطيع التفريق بين مقامات الخطاب المناسبة لكل حال .

تاسعاً : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : « من فوائد الآية : أن الإنسان تتغير أحواله ، فيكون في حال أقرب إلى الإيمان من الكفر ، وفي حال أخرى بالعكس ؛ لقوله : ﴿ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ واستدل بعض العلماء بهذه الآية على زيادة الإيمان ونقصانه ، فما وجه الاستدلال ؟ الجواب : أنه كلما قرب الإنسان من الإيمان ازداد إيماناً ، وكلما بُعد سوف ينقص ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة : أن الإيمان يزيد وينقص »^(٤) .

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٩) ، ومسلم (٢٣٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(٣) « تفسير آل عمران » (٢ / ٣٦٥) .

(٤) « تفسير آل عمران » (٢ / ٤٢٧) .

عاشراً: في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ لقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] ، قال رَحِمَهُ اللهُ: «﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جنات: جمع جنة، وأصلها: البستان الكثير الأشجار، سمي بذلك لأنه يجن مَنْ كان فيه أي يستره، ولكننا لا نفسر «جنات» أو «جنة» التي في القرآن، والتي يريد الله بها جنة الخلد، بهذا التفسير (عند العامة)؛ لأنك لو فسرتها هذا التفسير عندهم لنزلت رغبتهم في الجنة نزولاً كثيراً. بل نقول وهو المراد-: الجنة هي: الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لهذا أقول: ينبغي لطالب العلم أن يفسر القرآن بمعناه، ولكن إذا خاف فتنة فليفسره بما يوافق العقول ولا يخالف النصوص.

فإذا قلت عند العامة: الجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى للمتقين وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالتفسير هذا صحيح، لكن عندما تتكلم مع طالب علم يقول: ما معنى الجنة؟ ولماذا سميت بهذا؟

نأتي إلى المادة (الجيم والنون) نجد أنها كلها تدل على الاستتار، فتقول: هي في الأصل البستان الكثير الأشجار، ولنا أن نقول: إن الجنة في الأصل هي هذا المعنى، لكن نقلت شرعاً إلى الدار التي أعدها الله للمتقين كما نقلت الصلاة والزكاة والحج والعمرة إلى معناها الشرعي»^(١).

ومن خلال المضامين السابقة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ المتعلقة بمراعاة الداعية لأحوال المدعوين، ودعوتهم بما يناسب المقام، نلاحظ أهمية هذا

(١) «تفسير آل عمران» (٢ / ٥٨٨).

الأمر في الدعوة إلى الله تعالى ، وهو النهج الذي سار عليه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فلم يكونوا ملتزمين لأسلوب البشارة فقط بل البشارة والندارة حسب ما يقتضيه المقام ؛ لما في ذلك من استعمال الحكمة في الدعوة لئلا يقع المدعو في القنوط أو التهاون نتيجة عدم مراعاة حاله وما يتعلّق به من ظروف ، بل لا بد للداعية من التفريق بين المسلم والكافر والمنافق ، وبين الجاهل والمعاند ، وبين المُقْبِل والمُعْرِض ، وبين طالبٍ للحق ومجادلٍ بالباطل ، وهكذا بين أحوال المدعوين الأخرى ، وهذا من أهم ما يفقهه الداعية .

والتفريق ومراعاة الحال في الخطاب هو أسلوب قرآني ظاهر البيان لمن تأمل دعوة الأصناف التي جاءت في كتاب الله تعالى ، فالمراعاة تنبني على حال المدعو وزمانه ومكانه وظروفه المحيطة به ، ومن تأمل السور المكيّة والمدنية ظهر له بجلاء التفريق في الخطاب كما تقدّم بيانه في المضامين ، وبهذا يسير الداعية على نهج الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم ، التي ظهرت فيها أصول وقواعد الدعوة ومبادئها ومنها مراعاة أحوال المدعوين .



المبحث الثالث : دعوة المسلمين

لقد جاءت آيات القرآن الكريم دالة على دعوة جميع الأمم على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ومناهجهم على مرِّ العصور بذكر قصص الأمم السابقة وما وصلهم من دعوة ، وتعاملهم مع دعوة أنبيائهم ، وأخذ العبرة مما جرى لهم ، والاتعاظ بما أنزله الله تعالى على من تنكَّب الصراط المستقيم ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ آيات القرآن وما فيه من الأخبار لأمة محمد ﷺ كأُمَّةٍ مقصودةٍ بالدعوة ، فافتقرت هذه الأمة في تمسكها بالصراط المستقيم إلى فِرْقٍ خالفت دعوة خاتم الرسالات ، وأُمَّةٍ أجابت الدعوة ، وهي سنة الله تعالى في الحياة ، فالصراع بين الحق والباطل باقٍ إلى قيام الساعة ، واختصَّ الله تعالى أمة الإجابة بدعوة فيها مصالحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، فأنزل الله تعالى آياتٍ كثيرة في دعوة المسلمين ، ومنها ما هو مصدرٌ بلفظ الإيمان (يا أيها الذين آمنوا) ثم يقرن الله تعالى هذا النداء وغيره بدعوة إلى شرائع الإسلام ، كل ذلك لإقامة العبودية له سبحانه وتعالى كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المسلمين :

أولاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] : « من فوائد الآية : أن ما جاء به النبي ﷺ يزكي الأخلاق ، ويطهرها من كل رذيلة ، كما قال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(١) ؛ وهكذا كانت شريعة الرسول ﷺ : تنمية للأخلاق الفاضلة ، وتطهيراً من كل

رذيلة ؛ فهو يأمر بالبر ، ويأمر بالمعروف ، ويأمر بالإحسان ، ويأمر بالصلة ، ويأمر بالصدق ، ويأمر بكل خير ؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودينه فإن الإسلام يأمر به وهذه تركية- ؛ وينهى عن ضد ذلك ؛ ينهى عن الإثم ، والقطيعة ، والعدوان ، والعقوق ، والكذب ، والغش ، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضاً تركية- وحال الناس قبل الإسلام بالنسبة للعبادة لا تسأل ! شرك ، وكفر ؛ وبالنسبة للأحوال الاجتماعية لا تسأل أيضاً عن حالهم ! القوي يأكل الضعيف ؛ والغني يأكل الفقير ؛ ويأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ؛ يُغَيِّرُ بعضهم على بعض ؛ يتعايرون بالأنساب ؛ يدعون بدعوى الجاهلية «^(١)» .

ودعوة المسلم لأن يزكي أخلاقه جاءت في نصوص كثيرة ، واهتم الإسلام بها ، فجعلها مقصوداً أعظم في الشريعة ، بُعث بها محمد ﷺ ؛ ليحسن التعامل بها بين الناس في الحياة الدنيا ، وجعلها أكثر الأعمال ثقلًا في الميزان في الحياة الآخرة ، وهذه من النعم العظيمة لهذه الأمة .

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية : « لم يبين هنا من هذه الأمة التي أجاب الله بها دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل) ، ولم يبين هنا أيضاً هذا الرسول المسؤول بعثه فيهم من هو ؟ ولكنه يبين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب ، والرسول هو سيد الرسل محمد ﷺ ، وذلك في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) ، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة : ٢-٣] ؛ لأن الأميين العرب بالإجماع ، والرسول المذكور نبينا محمد ﷺ إجماعاً ، ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل) إلا نبينا محمد ﷺ وحده .

وثبت في الصحيح أنه هو الرسول الذي دعا به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولا ينافي ذلك عموم رسالته ﷺ إلى 'الأسود والأحمر' (١) .

ثانياً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] : « فوائد الآية :

— من فوائد الآية : فضيلة الإيمان ، وأنه من أشرف أوصاف الإنسان ؛ لقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ .

— ومنها : الإرشاد إلى الاستعانة بالصلاة ؛ لقوله تعالى : ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ .

— ومنها : بيان الآثار الحميدة للصلاة ، وأن من آثارها الحميدة أنها تعين العبد في أموره .

— ومنها : جواز الاستعانة بغير الله فيما يمكن أن يعين فيه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وجاء في الحديث : « وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة » (٢) .

— ومنها : أن الاستعانة بالصلاة من مقتضيات الإيمان ؛ لقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ [البقرة: ١٥٣] .

— ومنها : فضيلة الصبر ؛ لأنه يعين على الأمور ؛ والصبر ثقل جداً على النفس ؛ لأن الإنسان إذا أصابه ضيق ، أو بلاء ثقل عليه تحمله ، فاحتاج إلى الصبر ؛ ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

(١) « أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن » (١ / ٤٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٩) .

مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿هود: ٤٩﴾؛ فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ إشارة إلى أن هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ يحتاج إلى صبر، وتحمل؛ لأنه سيجد من ينازع، ويضاد؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿[الإنسان: ٢٣-٢٤]﴾ (١).

ودعوة المسلم إلى أن يتعبد لله تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة، دعوة عظيمة تجعل نفسه تتحمل مكابد الحياة ويحملها على التعلق بالله وهو ما أراده الشيخ رحمه الله من هذا الموضوع الدعوي.

ثالثاً: قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «الفوائد:

- من فوائد الآية: فضيلة الإيمان، حيث وجه الله الخطاب إلى المؤمنين، فهم أهل لتوجيه الخطاب إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

- ومنها: الأمر بالأكل من طيبات ما رزق الله؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ وهو للوجوب إن كان الهلاك، أو الضرر بترك الأكل.

- ومنها: أن الخبائث لا يؤكل منها؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ والخبائث محرمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- ومنها: أن ما يحصل عليه المرء من مأكول فإنه من رزق الله؛ وليس للإنسان فيه إلا السبب فقط؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

- ومنها: توجيه المرء إلى طلب الرزق من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ فإذا كان هذا الرزق من الله سبحانه وتعالى فلنطلبه منه مع فعل الأسباب التي أمرنا بها.

- ومنها : وجوب الشكر لله ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢] .
- ومنها : وجوب الإخلاص لله في ذلك ؛ يؤخذ ذلك من اللام في قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ﴾ .
- ومنها : أن الشكر من تحقيق العبادة ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .
- ومنها : وجوب الإخلاص لله في العبادة ؛ يؤخذ ذلك من تقديم المعمول في قوله تعالى : ﴿إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ^(١) .

رابعاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، في تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] : « الصواب أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من ﴿السِّلْمِ﴾ يعني ادخلوا في الإسلام كله ؛ أي نفذوا أحكام الإسلام جميعاً ، ولا تدعوا شيئاً من شعائره ، ولا تفرطوا في شيء منها ؛ وهذا مقتضى الإيمان ؛ فإن مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ؛ نهى بعد أمر ؛ لأن اتباع خطوات الشيطان يخالف الدخول في السلم كافة ؛ و﴿خُطُوَاتِ﴾ جمع خطوة ؛ و« الخطوة » في الأصل هي ما بين القدمين عند مدهما في المشي .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ : الجملة تعليلية مؤكدة بـ «إن» ؛ فتفيد شدة عداوة الشيطان لبني آدم ؛ والعدو من يبتغي لك السوء ؛ وهو ضد الولي ؛ و(مبين) أي بين العداوة ؛ ويجوز أن تكون بمعنى مظهر للعداوة ؛ لأن «أبان» الرباعية تصلح للمعنيين ؛ ولا شك أن الشيطان بين العداوة ؛ ومظهر لعداوته ؛ ألا ترى إلى إباطه السجود لأبينا آدم مع أن الله أمره به في جملة الملائكة .

الفوائد :

- من فوائد الآية : فضل الإيمان ؛ لقوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ؛ لأن هذا النداء تشریف وتكریم .

- ومنها : أن الإيمان مقتضى لامثال الأمر ؛ لأن الله صَدَّرَ الأمر بهذا النداء ؛ والحكم لا يقرن بوصف إلا كان لهذا الوصف أثر فيه ؛ وهذه الفائدة مهمة ؛ ولا شك أن الإيمان يقتضي امثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ .

- ومنها : وجوب تطبيق الشرع جملة ، وتفصيلاً ؛ لقوله تعالى : ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ .

- ومنها : أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبس به باعتبار استمراره عليه ، وعدم الإخلال بشيء منه ؛ لقوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ ؛ ومثل هذا قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء : ١٣٦] يعني : استمروا على ذلك .

- ومنها : تحريم اتباع خطوات الشيطان ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ؛ والمعنى : أن لا تتبع الشيطان في سيره ؛ لأن الله بين في آية أخرى أن الشيطان يأمر بالفحشاء ، والمنكر ، وما كان كذلك فإنه لا يمكن لعاقل أن يتبعه ، فلا يرضى أحد أن يتبع الفحشاء والمنكر ^(١) .

ودعوة المسلم لأن يعظم شعائر الله علماً وعملاً هي من الأعمال الباطنة التي تحيي القلب ، وتجعله منقاداً لتعاليم الإسلام كاملة ، وفي هذا دعوة لبعض المسلمين الذين يتعاملون مع أحكام الدين بانتقائية التطبيق بعد إيمانهم

بوجوبها ، بأن يعظّموا تعاليم الدين كافة ظاهرا وباطنا ، علما وعملا .

خامساً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] : « من فوائد الآية الكريمة :

- وجوب تقوى الله حَقَّ تقاته للأمر بذلك بقوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ .
- ومنها : العناية والاهتمام بالتقوى ، يؤخذ من تصديره بالنداء .
- ومنها : أن التقوى من مقتضيات الإيمان لتوجيه النداء إلى المؤمنين .
- ومنها : أن ترك التقوى من نواقص الإيمان ؛ لأنه إذا نودي الإنسان بوصف فإنه يزداد وصفه هذا بحسب زيادته فيما وجّه إليه .
- ومنها : وجوب البقاء على الإسلام والمبادرة به ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

- ومنها : أن المدار على الخاتمة ، نسأل الله حسن الخاتمة ؛ لقوله : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ « (١) .

سادساً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] : « من فوائد قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ :

- وجوب الاجتماع على شرع الله ؛ لقوله تعالى : ﴿جَمِيعًا﴾ .
- ومنها : وجوب التحاكم إلى شرع الله ؛ لأن الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المحكّم .

- ومنها: أن الاجتماع عصمة ؛ لقوله : ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ فاجتماع الأمة الإسلامية عصمة لها داخلياً ، وعصمة لها خارجياً ، أما خارجياً فإن الأمة الإسلامية إذا اجتمعت هابها الأعداء ورأوا أنها أمامهم كالجبال الصم التي لا يستطيعون لها صعوداً . وإذا تفرقت تمزقت فدخل الأعداء . أيضاً عصمة داخلية لأنهم إذا اجتمعوا على شرع الله تأمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ودعوا إلى الخير وصاروا أمة واحدة ، كل إنسان يخشى الله في أخيه لا يعتدي عليه لا على ماله ولا على عرضه ولا على دمه ، لماذا؟ لأنهم أمة واحدة جميعاً ، ففي الاجتماع عصمة في الداخل وعصمة في الخارج» (١) .

ودعوة المسلمين عامة إلى الاعتصام بكتاب الله تعالى والاجتماع ونبذ الفرقة من أهم ما يحتاجه واقعنا اليوم كما أشار الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ - لأن الاجتماع على الكتاب والسنة يجعل للأمة الإسلامية من القوة والمهابة ما يذعن لها معه كل متربص وعدو ، ويكون لها في ذلك كيانه الذي من خلاله تعزُّ بدينها وتنشره في أصقاع المعمورة ، ويكون به أعظم الأثر في ثبات الأمة وقوتها .

سابعاً : في تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية الكريمة :

- فضيلة الإيمان والعمل الصالح وجه ذلك : ما رتب عليها من الثواب ؛ لأن كل عمل رتب عليه ثواب فإنه فاضل مأمور به .

- ومنها : أن الإيمان وحده لا يكفي بل لا بد من عمل ، ولهذا نجد كثيراً من الناس يركزون على العقيدة ، فيقولون : عقيدتنا سليمة والحمد لله ولا يتعرضون

للعمل وهذا قصور ، بل لا بد مع العقيدة من عمل صالح .

- ومنها : إثبات المغفرة لله عَزَّوَجَلَّ ، لقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ، وقد تقدم معنى المغفرة وأنها ستر الذنب والتجاوز عنه .

فإن قال قائل : المغفرة هنا مطلقة ، لم يقل : من الله ؟

الجواب : هي مطلقة ، لكن الله تعالى قال : ﴿وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، وهذا أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الذي بيده المغفرة والرحمة هو الله عَزَّوَجَلَّ .

- ومنها : تفضل الله عَزَّوَجَلَّ على عباده ، حيث جعل الثواب بمنزلة الأجر ، كأن العامل أجير إذا وفى العمل أعطي أجره ، مع أن المنّة لله عَزَّوَجَلَّ أولاً وآخرأ .

- ومنها : عِظَم ثواب المؤمنين العاملين الصالحات حيث عظمه الله عَزَّوَجَلَّ ، وتعظيم العظیم للشيء يدل على أنه عظیم عظمة لا يتخيلها الإنسان ولا يتصورها ، وهو كذلك ^(١) .

ودعوة المسلمين بذكر الثواب المترتب على الأعمال الصالحة ، له أثر بالغ في استجابة المدعو لأمر الله تعالى ، والانتفاء عما نهى عنه ، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في الآية السابقة ، فالمسلم يطمع بما عند الله تعالى من الثواب الجزيل فتتحرك نفسه للاستجابة لأمره تعظيماً له وطمعاً بما عنده جل وعلا ، وأشار الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلى أن تعظيم الله تعالى لثواب عمل فيه دلالة على عِظَم العمل عند الله تعالى ، وهذا باعث قوي للمؤمن أن يبادر لطاعة الله تعالى .

ثامناً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾
[المائدة: ٣٥] :

» من فوائد الآية الكريمة :

- أن الإيمان يحمل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، وذلك لأنه وجه النداء إلى المؤمنين ، ولا شك أن الإيمان يحمل الإنسان على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، وكلما كان الإنسان أقوى إيماناً ، كان أشد امتثالاً للأمر وأبعد عن النهي ، وهذا شيء مجرب ، حتى الإنسان نفسه أحياناً يجد في قلبه قوة الإيمان فتجده يرغب في الطاعة ويحب أن يستمر فيها ، وأحياناً يفتر ويكسل فتجد الطاعات تثقل عليه ، فكلما كان الإنسان أكثر إيماناً كان أكثر امتثالاً للأمر والنهي .

- ومنها : وجوب تقوى الله ، لقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فالتقوى واجبة وقد ذكرت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، أمراً بها وثناءً على أهلها وبيان لجزائها ، ولو أن طالب العلم جمع الآيات التي فيها التقوى أمراً وثناءً وجزاءً في القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، لوجد خيراً كثيراً .

- ومنها : وجوب طلب القربة إلى الله ، لقوله : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي : اطلبوا الوسيلة إليه .

- ومنها : وجوب التعلم ، تعلم الدين ، لكن بأي وسيلة نطلب القربى إليه ؟ الجواب : بالعلم ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

- ومنها : أنه كلما كانت العبادة تقرب إلى الله أكثر كان الاهتمام بها أكثر ؛ لأن الحكم يدور مع علته ، فإذا قيل : اسلك الطريق المقرب إلى الله ، فإن من

المعلوم أن ما يكون أقرب أو أشد تقريباً فهو أولى»^(١).

تاسعاً: قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا فَسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ فيخاطبنا جل وعلا- بوصف الإيمان، وينهانا أن يسخر بعضنا من بعض؛ لأن المفضل هو الله عَزَّوَجَلَّ وإذا كان هو الله لزم من سخريتك بهذا الشخص الذي هو دونك أن تكون ساخراً بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ وإلى هذا يوحى قول الرسول ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»^(٢).

وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»^(٣). فلماذا تسخر من هذا الرجل الذي هو دونك في العلم أو في المال، أو في الخلق، أو في الخلقة، أو في الحسب، أو في النسب، لماذا تسخر منه؟ أليس الذي أعطاك الفضل هو الله الذي حرمه هذا في تصورك- فلماذا، ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ رب ساخر اليوم مسخور منه في الغد، ورب مفضول اليوم يكون فاضلاً في الغد، وهذا شيء مشاهد، وفي بعض الآثار يروى: «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمل»^(٤).

(١) «تفسير سورة المائدة» (١ / ٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل. وقال الألباني: «موضوع». «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (١ / ٣٢٧)، و«ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٨٢٣) (٥٧١٠).

وفي الآثار أيضاً : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك »^(١) . إذن يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به ، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيراً منه ، ﴿ وَلَا فِسَاءٌ مِّنْ نَّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ونص على النساء والرجال بالتفصيل ، حتى لا يقول أحد : إن هذا خاص بالرجال ، لو ذكر الرجال وحدهم ، أو خاص بالنساء وحدهن ، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء . إذا جمع بين القوم والنساء فالقوم هم الرجال والنساء هن الإناث ، وإن ذكر القوم وحدهم شمل الرجال والنساء ، مثل ما يذكر في الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنهم أرسلوا إلى قومهم فهو يشمل الذكور والإناث ، لكن إذا ذكر القوم والنساء صار النساء هن الإناث ، والقوم هم الذكور .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ اللمز : العيب ، بأن تقول : فلان بليد ، فلان طويل ، فلان قصير ، فلان أسود ، فلان أحمر ، وما أشبه ذلك مما يعد عيباً ، وقوله : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فسر بمعنيين :

المعنى الأول : لا يلزم بعضكم بعضاً ، لأن كل واحد منا بمنزلة نفس الإنسان ، أخوك بمنزلة نفسك ، فإذا لمزته فكأنما لمزت نفسك .

والمعنى الثاني : إن المعنى لا تلمز أخاك ، لأنك إذا لمزته لمزك ، فلمزك إياه سبب لكونه يلزمك ، وحيثئذ تكون كأنك لمزت نفسك ، وعليه قول النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » فقالوا : يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »^(٢) ، وعلى كل حال في

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦) وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وضعفه الألباني « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » (١١ / ٧٠٧) ، و« ضعيف الجامع الصغير » (٩٠١) (٦٢٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) ، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : قال =

الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضاً ، فلا يجوز لك أن تعيب أخاك بصفة خَلْقِيَّة أو صفة خُلُقِيَّة ، أما الصفة الخَلْقِيَّة التي تعود إلى الخلقة فإن عيبك إياه في الحقيقة عيب لخالقه عَزَّوَجَلَّ فالذي خلق الإنسان هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والذي جعله على هذه الصفة هو الله عَزَّوَجَلَّ ، والإنسان لا يمكن أن يكمل ، فالمسألة خطيرة ، أما عيبه بالخلق بأن يكون هذا الرجل سريع الغضب ، شديد الانتقام ، بذيء اللسان ، فلا تعبه ؛ لأنه ربما إذا عبته ابتلاك الله بنفس العيب ، ولهذا جاء في الأثر : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله وبيتليك »^(١)

لكن إذا وجدت فيه سوء خلق فالواجب النصيحة .

ثم قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ أَلْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني بسئلكم أن تنقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسوق ، فإذا ارتكبت ما نهى الله عنه صرتم فسقة ، فالإنسان إذا ارتكب كبيرة واحدة من الكبائر صار فاسقاً ، وإذا ارتكب صغيرة وكررها وأصر عليها صار فاسقاً ، فلا تجعل نفسك بعد الإيمان وكمال الإيمان فاسقاً ، هذا معنى قوله : ﴿يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ أَلْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ ...

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني من كان يفعل هذه الأشياء الثلاثة ، ولم يتب فأولئك هم الظالمون ، فالذي لا يتوب يكون ظالماً ، والظلم كما قال النبي ﷺ : « ظلمات يوم القيامة »^(٢) ، وإذا كان المؤمنون يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فهؤلاء الظلمة ليس لهم نور ، فيجب الحذر

= رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ مِنْ أَكْبَرَ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ » .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٩) .

مما نهى الله عَزَّوَجَلَّ لأنك أيها العبد ، عبد الله تأتمر بأمره ، وتنتهي عن نهيه «^(١) .

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : « وَهَذَا أَيْضًا ، مِنْ حَقُوقِ الْمُؤْمِنِينَ ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، أَنَّ ﴿لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ﴾ بِكُلِّ كَلَامٍ ، وَقَوْلٍ ، وَفِعْلٍ دَالٍ عَلَى تَحْقِيرِ الْأَخِ الْمُسْلِمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ حَرَامٌ ، لَا يَجُوزُ ، وَهُوَ دَالٌ عَلَى إِعْجَابِ السَّاحِرِ بِنَفْسِهِ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ الْمَسْخُورُ بِهِ خَيْرًا مِنَ السَّاحِرِ ، كَمَا هُوَ الْغَالِبُ وَالْوَاقِعُ ، فَإِنَّ السَّخِرِيَّةَ ، لَا تَقَعُ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ مَمْتَلِئٍ مِنْ مَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَتَحَلٍّ بِكُلِّ خَلْقٍ ذَمِيمٍ ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بِحَسَبِ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ »^(٢) .

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: ﴿وَبِلِّ لِكُلِّ هَمْزٍ لُحْمَةٌ﴾ [الهمزة: ١] الآية، وسمي الأخ المؤمن نفساً لأخيه؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك» (٣).

عاشراً: اهتم الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تفسيره ببيان كيفية دعوة العصاة من المسلمين، وتنوع الدعوة الموجهة إليهم حسبما يقتضيه المقام والحال، وذلك بذكره لعدة مسائل وأحوال تعترض الدعاة في دعوتهم لأهل المعاصي من المسلمين ومن ذلك قوله:

(١) « تفسير سورة الحجرات » (٣٧-٤٢)، باختصار.

(۲) أخرجه مسلم (۲۵۶۴).

(٣) « تيسير الكريم الرحمن » (٨٠١).

لو قال قائل : أحياناً تجد شخصاً على معصية ومن شكله تعرف أنه لن يقبل
فما العمل؟

الجواب : ما أكثر هذا وما أكثر انتفاعهم من الناس ، تجد الواحد منهم ليس
على شكله سيما أهل الخير ، هذا صحيح ، وتظن أنه كذلك ، لكن تجد نفسه
لينة وهذا مجرب ، فقد يكون حليق اللحية مسبل الثوب ووجهه ليس بوجه
خير ، لكن سبحان الله تجد قلبه ليناً ، أقل ما يقول لك إذا لم تأت بعنف يقول :
جزاك الله خيراً وأسأل الله الهداية وهذا مجرب ، خذ بيده لكن بسهولة وتنحى
به عن الطريق قليلاً تجد فيه خيراً كثيراً ، لكن بلاؤنا من أنفسنا إذا رأينا الرجل
مخالف يغار الإنسان ولا يتحمل ثم يبتدئ يتكلم بكلام ينفر صاحبه .

لو قال قائل : أحياناً يجلس الإنسان مع العاصي ولا يستطيع نصحه ، وأيضاً
قد لا تتوفر الفرصة لنصحه مرة أخرى ، فماذا يصنع في هذه الحال؟

الجواب : إذا كان لا يمكنه اللقاء به إلا في هذه الجلسة فربما يسمح له في
نصحه ، وأما إذا كان لا يمكنه نصحه فليقم عن المعصية ولينصحه في وقت آخر .

لكن لو قيل : قيامه يحدث مفسدة ، لا سيما إن كان جلوسه مع الأقارب
يعني كونه يقوم من مجلس الضيوف؟

نقول يستطيع الإنسان أن يقوم مؤزياً إما أن يضع يده على أنفه كأنه حصل له
رعاف وإما أن يقوم ويضع يده على رأسه كأن رأسه به وجع .

لو قال قائل : في بعض الأحيان يكون الإنسان في سيارة ومعه قوم لا يريدون
النصيحة ، فهل ينصحهم أم ماذا؟

الجواب : راكب السيارة لا يصح بمجرد ركوبه السيارة يقول : بسم الله
الرحمن الرحيم ثم يأتي بمواعظ لن يحتملوا هذا ، لكن يستطيع أن يدخل إلى

عقولهم بأشياء ، إما قصصاً ولتكن قصصاً مضحكة أو مسائل علمية غريبة يلقونها عليهم حتى تنهيا أذهانهم لهذا ، وإلا فمن المعلوم أن الواحد إذا جلس مجلساً فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم يعظهم سيستقلون هذا ، ولكل مقام له مقال .

لو قال قائل : أحياناً يجلس الإنسان مع جماعة يكونون على منكر فلو أنه قام مباشرة لم ينكر هذا المنكر ، وأيضاً لا يستطيع أن ينكر عليهم مباشرة ، فهل يجلس معهم لكي يستطيع إنكار هذا المنكر أم ماذا؟

الجواب : لا بأس كالطبيب يشق الجرح ويشم رائحة كريهة من أجل إصلاحه ، ولأحد العلماء تأثير بالغ في بعض جهات المملكة ، كان يدخل معهم في منكرهم ويحتفل معهم في احتفالاتهم .

لو قال قائل : إنسان رأى رجلاً مع امرأة في سيارته ، وليست المرأة من محارمه ، ويستطيع منعها بدون فتنة ، هل له منعها أو لا؟

الجواب : والله لا أدري ، أتوقف في هذا ، إذا كان لا يحدث فتنة وهو قادر على المنع فأنا أتوقف فيه ، لو فرضنا هذه المسألة وقعت وهذا الرجل يمكنه أن يوقف السيارة ويقول : يا فلان! أنزل هذه المرأة ، من هذه المرأة؟ فإن حصلت لواحد من الناس الذين نريد أن نغير عليهم قد لا تحصل للآخرين ، فتتوقف من أجل أن نخشى أن العواقب قد تكون وخيمة من أناس آخرين .

لو قال قائل : إذا غلب على ظن إنسان بأن فلاناً سوف يرتكب المنكر الفلاني وأخذ يتغيب هذا الذي يريد أن يرتكب المنكر ، فهل لهذا الغالب على ظنه أن يتتبع وينظر هل سيفعل هذا المنكر أم لا ، وذلك لكي ينكر عليه؟

الجواب : يعني : هل لنا أن نبحث ونتجسس عن المنكر؟ القاعدة العامة :

إذا وجدت قرائن فلا بأس ، وإن لم توجد قرائن فالأصل البراءة»^(١) .

والقصد من إيراد ما سبق هو الوقوف على نماذج متنوعة من المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المسلمين من تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، والتي دلت على المنهج الشرعي الدعوي المناسب لدعوة المسلمين ، من خلال دلالات آيات القرآن الكريم ، وذلك بالدعوة إلى سائر شرائع الإسلام العقدية والعملية وسائر أعمال وأخلاقيات المسلم ، ومصالحه الدينية والدنيوية ، وبيان كيف احتوى القرآن الكريم حياة المسلم وأوضح له الطريق القويم .

والم تأمل لهذه المضامين الدعوية يجد المراعاة لمراتب الدعوة حسب ما يقتضيه الحال ، وذلك بالحكمة والبعد عن كل ما يحول دون قبول الدعوة مما يخالف النهج القويم في تبيان تعاليم الكتاب والسنة ، ومراعاة ذلك في الدعوة إلى الله تعالى من الأهمية بمكان ، وذلك لأن المسلمين ينقسمون إلى قسمين : القسم الأول : وهم الذين ينقادون للحق ولا يعاندون ، فهؤلاء يكفي في دعوتهم بالقول الحكيم أن يبين لهم الحق علما وعملا واعتقادا ، وحينئذ ينقادون لذلك بإذن الله تعالى - .

أما القسم الثاني من المسلمين : وهم الذين عندهم غفلة وشهوات وأهواء ، وهم عصاة المسلمين ، فهذا القسم تكون دعوتهم بالحكمة^(٢) بما يناسب حالهم ومقامهم ، فيراوح الداعية بين الموعظة الحسنة والترغيب والترهيب

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٠٥ - ١٠٧) .

(٢) انظر : « هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة » لعلي محفوظ (١٤٣ - ١٤٥) ، (٢٤٤ - ٢٤١)

وانظر : « الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى » د . سعيد القحطاني (٢ / ٤٨١) .

والمجادلة بالتي هي أحسن ونحوها من أساليب الدعوة كما سيأتي بيانه في الفصل الخامس من هذه الدراسة - ملتمساً مواضع التأثير والإقناع ، بلا إملال ولا إخلال ، بلغة تناسب ثقافة المدعو وفهمه ، وتدرُّج يناسب الحال ؛ ليحصل المقصود في إرجاعه للحق الذي ابتعد عنه .

وفي بيان مراتب الدعوة وأهمية تطبيقها في دعوة المسلمين يقول ابن القيم رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] : « جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه ، يُدْعَى بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر ، يُدْعَى بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن »^(١) .

وقال السعدي رحمه الله : « ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين ، فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب »^(٢) .

ومن وقف على نماذج دعوة المسلمين في تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله أدرك تنوع الشيخ رحمه الله في دعوتهم بما يلائم المرتبة الدعوية ، وفق منهج قويم مؤصل مستمد من الكتاب والسنة .

(١) « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٥٣) ، وانظر : « التفسير القيم » لابن القيم (٣٥٩) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٤٥٢) .

المبحث الرابع : دعوة أهل البدع

إن مما ابتليت به كثير من بلدان المسلمين هو انتشار البدع فيها والضلالات فيما بينهم ، ولقد تتابعت أقوال السلف رَحِمَهُمُ اللهُ وَمَنْ بعدهم من العلماء في الذب عن السنة والتحذير من البدع وأهلها ؛ واجتهد العلماء في بيان البدع في كل عصر من العصور ، منتهجين في ذلك الشريعة الغراء التي أدت رسالتها نبينا ﷺ وحذّر فيها من البدعة وأخبر الأمة بظهور أصحابها من بعده^(١) ، وفقّة الصحابة وَمَنْ بعدهم ذلك ، وعَمِلُوا على رَدِّها ، فكان بدء التصدي لأهل البدع ودعوتهم وبيان ما هم عليه من الخلل وسوء المنهج منذ عهد الصحابة رَحِمَهُمُ اللهُ عَنَّةُ ، فلهم آثار في التحذير من البدعة وأهلها ، ولهم قصص في دعوة أهل البدع في زمانهم قولاً وفعلاً ، فمن أقوالهم ، قول ابن مسعود رَحِمَهُ اللهُ عَنَّةُ : « اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِّتُمْ ، كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ »^(٢) ، وقال : « الْقَصْدُ فِي السُّنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ »^(٣) ، ومن أفعالهم في دعوة أهل البدع ما كان من ابن عباس رَحِمَهُمُ اللهُ عَنَّتْهُمَا في مناظرة الخوراج في خلافة علي رَحِمَهُ اللهُ عَنَّةُ ، فما زال بهم حتى رجع منهم ألفان إلى الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة^(٤) ، وتتابعت دعوة أهل البدع إلى

(١) تقدّم في الفصل الأول ، المبحث الرابع : (الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة) ، وفيه تعريف البدعة لغة واصطلاحاً ، والنصوص الواردة في هذا الباب .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٣٤) ، والدارمي (١ / ٢٨٨) ، وابن وضاح في « البدع » (١ / ٣٧) ، وابن بطة في « الإبانة » (١ / ٣٢٨) .

(٣) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٣١) ، والدارمي (١ / ٢٩٦) ، وابن بطة في « الإبانة الكبرى » (١ / ٣٢٠) ، وصححه الدارقطني في « العلل » (٥ / ٢١٣) .

(٤) ولفظ الحديث : عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « لَمَّا خَرَجَتْ الْحَرُورِيَُّةُ اعْتَزَلُوا فِي دَارٍ ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ » فَقُلْتُ لِعَلِيٍّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ « أَبْرِذْ بِالصَّلَاةِ ، لَعَلِّي أَكَلِمُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ » قَالَ : =

الحق على اختلاف فِرْقِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ، إِلَى الْعُصُورِ الْمَتَأَخِّرَةِ، وَأَلْفَتْ

« إِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ » قلت : كَلَّا ، فَلَيْسَتْ ، وَتَرَجَلْتُ ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي دَارِ نِصْفِ النَّهَارِ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ فَقَالُوا : « مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ » قلت لَهُمْ : أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصِهْرِهِ ، وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، فَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ مِنْكُمْ ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، لَأُبَلِّغُكُمْ مَا يَقُولُونَ ، وَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُونَ ، فَانْتَحَى لِي نَعْرَ مِنْهُمْ قلت : هَاتُوا مَا يَقُمْتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَابْنِ عَمِّهِ قَالُوا : « ثَلَاثٌ » قلت : مَا هُنَّ ؟ قال : « أَمَّا إِخْدَاهُنَّ ، فَإِنَّهُ حُكْمُ الرَّجَالِ فِي أَمْرِ اللَّهِ » وقال الله : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] مَا شَأْنُ الرَّجَالِ وَالْحُكْمِ ؟ قلت : هَذِهِ وَاحِدَةٌ قَالُوا : وَأَمَّا الثَّانِيَةُ ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ ، وَلَمْ يَسِبْ ، وَلَمْ يَغْنَمْ ، إِنْ كَانُوا كُفْرًا لَقَدْ حَلَّ سِبَاهُهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ سِبَاهُهُمْ وَلَا قِتَالُهُمْ قلت : هَذِهِ ثِنْتَانِ ، فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ « وَذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا قَالُوا : مَحَى نَفْسُهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ » قلت : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالُوا : « حَسْبُنَا هَذَا » قلت : لَهُمْ أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ جَلَّ تَنَاقُؤُهُ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مَا يَرُدُّ قَوْلَكُمْ أَتَرْجِعُونَ ؟ قَالُوا : « نَعَمْ » قلت : أَمَّا قَوْلُكُمْ : « حُكْمُ الرَّجَالِ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ قَدْ صَبَّرَ اللَّهُ حُكْمَهُ إِلَى الرَّجَالِ فِي تَمَنِّي رُبْعِ دَرْهَمٍ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ » أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَأْتِيَاهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا قَتْلُوكُمُ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [المائدة : ٩٥] وَكَانَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ أَنَّهُ صَبَّرَهُ إِلَى الرَّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَحَكَمَ فِيهِ ، فَجَازَ مِنْ حُكْمِ الرَّجَالِ ، أَنْشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ أَحْكُمُ الرَّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَحَقِّنْ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ أَوْ فِي أَرْبَ ؟ قَالُوا : بَلَى ، هَذَا أَفْضَلُ وَفِي الْمَرْأَةِ وَرُوحِهَا : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] فَتَشَدُّتُكُمْ بِاللَّهِ حُكْمُ الرَّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ، وَحَقِّنْ دِمَائِهِمْ أَفْضَلُ مِنْ حُكْمِهِمْ فِي بُضْعِ امْرَأَةٍ ؟ خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ قلت : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ وَلَمْ يَسِبْ ، وَلَمْ يَغْنَمْ ، أَفَتَسْبُونَ أَمْكُمْ عَائِشَةَ ، تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا وَهِيَ أَمْكُمْ ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ قُلْتُمْ : لَيْسَتْ بِأَمْنَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ : ﴿ أَلَتُنِيَ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُمْ أَمْهَنُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] فَأَنْتُمْ بَيْنَ ضَلَائِلَيْنِ ، فَأَتُوا مِنْهَا بِمَخْرَجٍ ، أَفَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، وَأَمَّا مَحَى نَفْسِهِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَا تَرْضَوْنَ . إِنْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لِعَلِيِّ : « اكْتُبْ يَا عَلِيُّ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَاتَلْنَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « امْحُ يَا عَلِيُّ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ، امْحُ يَا عَلِيُّ ، وَاكْتُبْ =

في ذلك كتباً في بيان فِرَق المبتدعة والرد عليهم ودعوتهم ، ولا زالت الساحة الدعوية بحاجة إلى التصدي للمبتدعة ومساثلهم المستجدة ، وتلييسهم على الناس على كافة الأصعدة المقروءة والمسموعة والمرئية ، لاسيما ونحن نعيش طفرة إعلامية ، تُعَدُّ هي الأبرز تأثيراً على المجتمعات ، حتى بات أهل البدع يخصصون لهم قنوات فضائية يبثون فيها سمومهم وتلييسهم على العامة ، فالحاجة للرد عليهم ودعوتهم ماسة ، والسير على جادة العلماء السابقين في التصدي لأهل البدع ودعوتهم من أهم المهمات ، ومن أبرز طرق دعوتهم : بيان عوار معتقدهم ، والخلل الذي يعتريه ، وعدم استقامته مع نصوص الكتاب والسنة ، ولقد استفاضت كتب العلماء على مرِّ العصور إلى عصرنا الحاضر - في الردِّ على المبتدعة وبيان أساليبهم الخفية ، والتحذير منهم ، ودعوتهم إلى العقيدة الصحيحة ، انطلاقاً من دلالات الآيات ، كما قال تعالى : ﴿يَتَاهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُؤُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَاتُّمَّ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧١] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أنه يجب الحذر من أهل الباطل إذا لبسوا الحق بالباطل ، وألا نغتر بهم لأنهم يأتون بزخرف القول غروراً ، ومن هذا ما حصل للمبتدعة من هذه الأمة ، فإنك إذا سمعت كلامهم قلت : لا أعدل بذلك شيئاً ، هذا هو الحق ولن أتجاوزه ، ولكنه كما قيل :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

= هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ « وَاللَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ ، وَقَدْ مَحَى نَفْسَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مَحْوُهُ نَفْسَهُ ذَلِكَ مَحَاهُ مِنَ النَّبَوَةِ ، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ » قَالُوا : « نَعَمْ ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ الْفَانِ ، وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ ، فَقَتِلُوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ ، فَقَتَلَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ » والحديث أخرجه النسائي « السنن الكبرى » (٧ / ٤٨٠) ، والحاكم في « المستدرک » (٢ / ١٦٤) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

حجبهم كلها متهافة ليس لها ما يقيمها على قدميها فضلاً عن أن تكون مهاجمة ، هي لا تدافع عن نفسها فضلاً عن أن تهاجم غيرها ، لكن مع ذلك يموهون ، فعلى الإنسان أن يحترز من هؤلاء الذين يلبسون الحق بالباطل . «^(١) .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل البدع :

أولاً : قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] : « ومن فوائد الآية : إثبات الأفعال لله عز وجل أي أنه تعالى يفعل ما شاء متى شاء كيف شاء ؛ ومن أهل البدع من ينكر ذلك زعماً منه أن الأفعال حوادث ؛ والحوادث لا تقوم إلا بحادث فلا يجيء ، ولا يستوي على العرش ، ولا ينزل ، ولا يتكلم ، ولا يضحك ، ولا يفرح ، ولا يعجب ؛ وهذه دعوى فاسدة من وجوه :

الأول : أنها في مقابلة نص ؛ وما كان في مقابلة نص فهو مردود على صاحبه .
الثاني : أنها دعوى غير مسلمة ؛ فإن الحوادث قد تقوم بالأول الذي ليس قبله شيء .

الثالث : أن كونه تعالى فعلاً لما يريد من كماله ، وتمام صفاته ؛ لأن من لا

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٠٥) ، وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] ذكر خطورة ما ذهب إليه المبتدعة ، فقال : « من فوائد وأحكام الآية : تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوى ؛ لأن من فعل ذلك فإنه لم يتل القرآن حق تلاوته باعتبار المعنى ، ويتفرع على هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرّفون لآيات الصفات ... فمن حرّف نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها ؛ فهو أشد خطراً ممن حرّفها فيما يتعلّق بالأحكام البدنية ؛ وعلى هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث على ظاهرها اللائق بالله بلا تمثيل ولا تحريف . « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٢٣) بتصرف .

يفعل إما أن يكون غير عالم ، ولا مريد ؛ وإما أن يكون عاجزاً ؛ وكلاهما وصفان ممتنعان عن الله سبحانه وتعالى .

فَتَعَجَّبَ كيف أتى هؤلاء من حيث ظنُّوا أنه تنزيه لله عن النقص ؛ وهو في الحقيقة غاية النقص !! فاحمد ربك على العافية ، واسأله أن يعافي هؤلاء مما ابتلاهم به من سفه في العقول ، وتحريف للمنقول «^(١)» .

والرد على أهل البدع ينبغي أن يكون مؤصلاً ؛ لأن التأصيل العلمي يسدُّ جميع الثغرات التي يزعمها المبتدعة في بدعهم ، ويبطل بدعتهم ويدعوهم للاعتقاد الصحيح ؛ لاحتوائه على الأدلة النقليَّة ، والمناقشات العقلية التي لا تدع لقلب طالب الحق ولا لعقله مجالاً في البقاء على البدعة ، وهذا ظاهر في ردِّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كما سبق وما سيأتي من نماذج .

ثانياً : في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في فوائدها : « الرد على أهل البدع الذين حرّفوا نصوص الكتاب والسنة إلى معان لا يدل عليها ظاهرها ، ووجه ذلك أننا إذا قلنا : إن المراد بهذه الآيات والأحاديث خلاف الظاهر بدون بيان من الله ورسوله صارت هذه الآيات مبهمة . مثلاً : إذا قالوا : المراد باستواء الله على عرشه استيلاؤه^(٢) عليه بدون بيان من الله ورسوله نقول :

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١١٦) .

(٢) وناقش الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عقيدة تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء ، وأسهب في عدة مواضع من مؤلفاته ، انظر مثلاً : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (١ / ٢٣) ، (٤ / ٤٠) ، و« التعليق على لمعة الاعتقاد » (٦١) .

وانظر مزيداً : « الرد على الجهمية والزنادقة » للإمام أحمد (١٤٢) ، و« إثبات صفة العلو » لابن قدامة (١٧٤) .

كون الله يعبر باستوى على العرش بدل استولى إيهام . وإذا قالوا : المراد باليد النعمة والقوة^(١) قلنا : سبحانه الله كيف يعبر الله باليد عن النعمة والقوة وهو يريد النعمة والقوة بدون بيان ، ما هذا إلا إيهام . فالمهم أنه على طريقة ومنهاج أهل البدع وغيرهم أيضاً ممن يحرفون الكلم عن مواضعه بدون بيان من الله ورسوله يكون القرآن ليس هدياً ولا بياناً للناس وكذلك السنة ، وهو خلاف هذه الآية وغيرها^(٢) .

وصرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يُدخل العبد في حيرة وتردد بين معانٍ كثيرة ، ولن يستقرّ على حال ؛ وهو ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الوهم والإيهام في المعنى ، والله تعالى خاطب عباده بما يفهمون ويعقلون ، وصرف المعنى عن المعنى الحقيقي هو صرفٌ لما فيه حرج وتكُلفٌ واتباع للظن الذي لا يغني من الحق شيئاً .

ثالثاً : وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢] بيّن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن أهل البدع مع اجتهادهم فإنهم ليسوا ممن يؤجر على اجتهاده ، فيقول : « من فوائد الآية : أن أهل الجنة هم الذين جمعوا بين وصفين ؛ الأول : الإخلاص لله ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ؛ والثاني : اتباع شرعه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ...

(١) ناقش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تأويل المبتدعة لصفة اليد بالنعمة والقوة ، انظر مثلاً : « شرح العقيدة الواسطية » (٢٩١) ، و « شرح العقيدة السفارينية » (٢٥٥) .
وانظر مزيداً : « الرد على الجهمية » للدرامي (٢٠٢) ، و « الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة » لابن القيم (١ / ٢٧٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٦٠٦) .

- ومنها : أن إخلاص النية وحده لا يكفي في تبرير التعبد لله ؛ لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ؛ وعلى هذا فمن قال : إنه يحب الله ، ويخلص له وهو منحرف في عبادته فإنه لا يدخل في هذه الآية لاختلال شرط الإحسان ...

ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم . ولو مع حسن النية ؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة ؛ والأجر مشروط بأمرين : الأول : إسلام الوجه لله ؛ والثاني : الإحسان .^(١)

رابعاً : ومن جملة المضامين الدعوية المتعلقة في الردّ على أهل البدع في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تناوله لبعض فرق المبتدعة والردّ عليهم ، ومن ذلك : قول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في دعوة الجبرية^(٢) ، وبيان خطأ معتقدتهم عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة : ٥٩] : « ومن فوائد الآية : الرد على الجبرية الذين يقولون : إن الله سبحانه وتعالى مجبر العبد على عمله ؛

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٣٧٠) بتصرف .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في « مجموع فتاويه ورسائله » (١٠ / ٩٨٥) : « الجبرية الجهمية : أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته ، وقالوا : ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه ، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختاراً وبين أن يلقي من السطح مكرها . »

قال الشهرستاني في « الملل والنحل » (١ / ٨٥) : « الفصل الثاني : الجبرية . الجبر : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى ، والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة : هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً ، والجبرية المتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً ، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل ، وسمي ذلك كسبا ، فليس بجبري . »

ووجه الرد أن الله سبحانه وتعالى أضاف الفسق إليهم ؛ والفسق هو الخروج عن الطاعة ؛ والوجه الثاني : أنهم لو كانوا مجبرين على أعمالهم لكان تعذيبهم ظلماً ، والله . تبارك وتعالى . يقول : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ^(١) .

خامساً : قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي دعوة الصوفية ^(٢) وبيان خطأ ما ذهبوا إليه ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : « ومن فوائد الآية : أن ينبغي للإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى العافية ، فلا يُحَمِّلُهُ ما لا طاقة له به ؛ ففيه رد على الصوفية الذين قالوا : نحن لا نسأل الله تعالى أن يقينا ما يشق علينا ؛ لأننا عبيده ؛ وإذا حصل لنا ما يشق فإننا نصبر عليه لنكسب أجراً » ^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] قال : « من فوائد الآية : أن النبي ﷺ مكلف يأمره الله سبحانه وتعالى وينهاه ، وعليه فيكون في هذا إبطال لدعوى من يقولون : إن الإنسان إذا وصل إلى حالة معينة من العبودية سقطت عنه التكاليف ، وهذا قول طائفة من الصوفية الذين يقولون : إن الإنسان يترقى في اليقين حتى إذا وصل إلى الدرجة العليا سقط عنه التكليف ، وصار كل شيء حرام حلالاً له ، وكل

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٠٥) .

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي « فتاوى نور على الدرب » (٤ / ٢) حين سئل عن الصوفية : « الصوفية كلمة قيل إنها مشتقة من الصفا ، وقيل إنها مشتقة من الصفوة ، وقيل إنها مشتقة من الصوف ، وهو الأقرب ؛ لأنهم كانوا إبان ظهورهم يرتدون الألبسة من الصوف تقشفاً وتزهداً ، والصوفية لها طرق متعددة تصل بهم أحياناً إلى الكفر الصريح ، حيث إنهم يصلون إلى القول بوحدة الوجود ، وأنهم لا يشاهدون إلا الرب ، ويعتقدون أن كل شيء مشاهد من آيات الله تبارك وتعالى فإنه هو الله ، ولا شك أن هذا كفر صريح ومنهم من يشذ عن الإسلام دون ذلك وهم على درجات متفاوتة » .

(٣) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٤٦٠) .

شيء واجب ليس بواجب عليه ، فلا يوجبون عليه الصلاة ، ولا يحرمون عليه الزنى ولا شرب الخمر ؛ فيقال لهم : إذا كان النبي ﷺ وهو أشرف الخلق لا يصل إلى هذه المرتبة فما بالك بمن دونه ؟ ^(١) .

سادساً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في دعوة الأشاعرة ^(٢) ، وبيان خطئهم العقدي ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] :

« من فوائد الآية : الرد على الأشعرية ، وغيرهم ممن يرون أن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه ؛ وأن الحروف ، والأصوات عبارة عن كلام الله ، وليست كلام الله ؛

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ١٤٧) ، وانظر : « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٩٥) ، و « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٧) .

(٢) فرقة كلامية تُنسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في « تقريب التدمرية » (٢٤) : « الأشاعرة ومن ضاهاهم من الماتريدية وغيرهم : وطريقتهم : أنهم أثبتوا لله الأسماء ، وبعض الصفات ، ونفوا حقائق أكثرها ، وردوا ما يمكنهم رده من النصوص ، وحرفوا ما لا يمكنهم رده ، وسموا ذلك التحريف تأويلاً ؛ فأثبتوا لله من الصفات سبع صفات : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، على خلاف بينهم وبين السلف في كيفية إثبات بعض هذه الصفات » وانظر : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٩ / ٣١٨) .

وقال في « تعليقه على لمعة الاعتقاد » (١٦٣) : « الأشعرية أتباع الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، كان في أول أمره يميل إلى الاعتزال حتى بلغ الأربعين من عمره ثم أعلن توبته من ذلك وبين بطلان مذهب المعتزلة وتمسك بمذهب أهل السنة رَحِمَهُ اللهُ أما من يتسبون إليه فبقوا على مذهب خاص يعرف بمذهب الأشعرية ، لا يثبتون من الصفات إلا سبعاً زعموا أن العقل دل عليها ، ويؤولون ما عداها » .

انظر مزيداً : « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ٩٤) ، و « الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة » (١ / ٨٣) ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

: [آل عمران: ۷۶]

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

وثبت بالواقع المحسوس أن بعض الحيوان يحب البشر، فالناقة تحب صاحبها، وتأتي إليه من بين الناس، تبرك عنده، ولو جاء أحد غير صاحبها لنفحته برجلها، أو عضته بفمها، لكن صاحبها تحنُّ إليه وتجلس عنده، وإذا سمعت صوته وإن لم تره حنت، وكذلك بقية الحيوانات، شيء مشاهد، وهذه محبة^(١).

سابعاً: في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بسط لمضمون الرد على المبتدعة ودعوتهم إلى المنهج الحق، في بعض المواضع، فربما في الآية الواحدة استوعب فرقاً كثيرة من المبتدعة، ففي آية الكرسي تكلم عن إثبات الأسماء الخمسة الواردة في الآية (الله، الحي، القيوم، العلي، العظيم)، وعن إثبات صفات الله تعالى: (الحياة، والقيومية، الملك التام، السلطان الكامل، العلم، نفي السَّنة، نفي النوم)، وذكر منهج المبتدعة في هذه الأسماء والصفات مع بيان منهج أهل السنة، ثم عرَّج على بقية الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وذكر في هذا الجزء فقط الرد على جملة من فرق المبتدعة فقال في فوائدها: «ومن فوائدها: الرد على القدرية^(٢) الغلاة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فإثبات عموم العلم يرد عليهم؛ لأن القدرية الغلاة أنكروا علم الله بأفعال خلقه إلا إذا وقعت.

(١) «تفسير آل عمران» (١ / ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «تعليقه على لمعة الاعتقاد»، (١٦٢): «القدرية: هم الذين يقولون بنفي القدر عن أفعال العبد وأن العبد إرادة وقدرة مستقلين عن إرادة الله وقدرته، وأول من أظهر القول به معبد الجهني في أواخر عصر الصحابة، تلقاه عن رجل مجوسي في البصرة، وهما فرقان غلاة وغير غلاة فالغلاة ينكرون علم الله وإرادته وقدرته وخلقهم لأفعال العبد وهؤلاء انقرضوا أو كادوا، وغير الغلاة يؤمنون بأن الله عالم بأفعال العباد لكن ينكرون وقوعها بإرادة الله وقدرته وخلقهم وهو الذي استقر عليه مذهبهم».

- ومنها : الرد على الخوارج والمعتزلة^(١) في إثبات الشفاعة ؛ لأن الخوارج ، والمعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر ؛ لأن مذهبهما أن فاعل الكبيرة مخلد في النار لا تنفع فيه الشفاعة ...

- ومنها : الرد على الممثلة ؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم ؛ بل بما يعلم خلافه ؛ لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ...

- ومنها : إثبات علو الله سبحانه وتعالى أزلاً ، وأبداً^(٢) ؛ لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي تعليق مختصر على « لمعة الاعتقاد » (١٦٢-١٦٣) :
« الخوارج : وهم الذين خرجوا لقتال علي بن أبي طالب بسبب التحكيم .
مذهبهم التبرؤ من عثمان وعلي والخروج على الإمام إذا خالف السنة ، وتكفير فاعل الكبيرة وتخليده في النار وهم فرق عديدة .
والمعتزلة : أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري وقرر أن الفاسق في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر وهو مخلد في النار وتابعه في ذلك عمرو بن عبيد ، ومذهبهم في الصفات التعطيل كالجهمية ، وفي القدر قدرية ينكرون تعلق قضاء الله وقدره بأفعال العبد ، وفي فاعل الكبيرة أنه مخلد في النار وخارج من الإيمان في منزلة بين منزلتين ، الإيمان والكفر ، وهم عكس الجهمية في هذين الأصلين » .
انظر مزيداً في التعريف بالقدرية : « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ٤٣) ، و « الإبانة الكبرى » لابن بطة (٣ / ١٤١) ، و « الشريعة » للأجري (٢ / ٧٠٢)
وفي التعريف بالخوارج : « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ١١٤) ، و « الشريعة » للأجري (١ / ٣٢٥) و « الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة » (١ / ٥٨) .
وفي التعريف بالمعتزلة : « الملل والنحل » للشهرستاني (١ / ٤٣) ، و « الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة » (١ / ٦٤) ، وانظر : « الفَرْقُ بَيْنَ الْفِرَقِ » للبغدادى (ص : ٩٣) .

(٢) ناقش الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الْمُبْتَدَعَةَ فِي تأويلهم وتعطيلهم لصفة العلو في تعليقه على « لمعة الاعتقاد » (٦٥) ، و « شرح العقيدة الواسطية » (١٧٨) ، و « فتح رب البرية بتلخيص الحموية » (٣٩) وانظر مزيداً : « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٥ / ١٦٤) ، و « الصواعق المرسلّة في الرد على الجهمية والمعتزلة » (١ / ٣٩٧) .

﴿الْعَلِيُّ﴾ [الشورى: ٤] ؛ و﴿الْعَلِيُّ﴾ صفة مشبهة تدل على الثبوت ، والاستمرار ؛ وعلو الله عند أهل السنة ، والجماعة ينقسم إلى قسمين ؛ الأول : علو الذات ؛ بمعنى أنه سبحانه نفسه فوق كل شيء ؛ وقد دل على ذلك الكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف ، والعقل ، والفطرة ؛ وتفصيل هذه الأدلة في كتب العقائد ؛ وخالفهم في ذلك طائفتان ؛ الأولى : من قالوا : إنه نفسه في كل مكان في السماء ، والأرض ؛ وهؤلاء حلولية الجهمية^(١) ، ومن وافقهم ؛ وقولهم باطل بالكتاب ، والسنة ، وإجماع السلف ، والعقل ، والفطرة ؛ الطائفة الثانية : قالوا : إنه لا يوصف بعلو ، ولا غيره ؛ فهو ليس فوق العالم ، ولا تحته ، ولا عن يمين ، ولا عن شمال ، ولا متصل ، ولا منفصل ؛ وهذا قول يكفي تصويره في رده ؛ لأنه يؤول إلى القول بالعدم المحض^(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا يُبَيِّنُكَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :

« ومن فوائد الآية : الرد على الجبرية ؛ لقوله تعالى : ﴿يَكْتُمُونَ﴾ ؛ والكاتم مرید للکتم ...

- ومنها : الرد على أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم بأهل التأويل ؛

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على « لمعة الاعتقاد » (١٦٢) : « الجهمية : نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قتله سالم أو سلم بن أحوز سنة ١٢١ هـ ، مذهبهم في الصفات التعطيل والنفي ، وفي القدر القول بالجبر ، وفي الإيمان القول بالإرجاء ، وهو أن الإيمان مجرد الإقرار بالقلب وليس القول والعمل من الإيمان ، ففاعل الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ، فهم معطلة جبرية مرجئة وهم فرق كثيرة » .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٦٠ - ٢٦٢) بتصرف .

لأن لازم طريقهم ألا يكون القرآن بياناً للناس ؛ لأن الله أثبت لنفسه في القرآن صفات ذاتية ، وفعلية ؛ فإذا صرفت عن ظاهرها صار القرآن غير بيان ؛ يكون الله سبحانه وتعالى ذكر شيئاً لا يريده ؛ وهذا تعمية لا بيان ؛ فيستفاد من هذه الآية الرد على أهل التأويل ؛ والحقيقة أنهم كما قال شيخ الإسلام - أهل التحريف لا أهل التأويل ؛ لأن التأويل منه حق ، ومنه باطل ؛ لكن طريقهم باطل لا حق فيه .
- ومنها : الرد على أهل التفويض الذين يقولون : إن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم الخلق معناها ؛ وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن قولهم من شر أقوال أهل البدع والإلحاد ^(١) .

ثامناً : المتأمل للمضامين الدعوية في دعوة أهل البدع والرد عليهم في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يجد هذه الدعوة تتهجج طريقتين لدعوة أهل البدع والرد على معتقدهم ، تارة بذكر الفرقة ومعتقداتها والرد عليها كما تقدم من نماذج - وتارة بذكر معتقد أهل البدع دون نسبته وبيّن ضلاله ، والمنهج القويم الذي ينبغي أن يُصار إليه ، ومن أمثلة ذلك :

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] : « من فوائد الآية : إثبات إتيان الله ^(٢) عزَّجَلَّ يوم القيامة للفصل بين عباده ؛ وهو إتيان

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٩٠) بتصرف .

(٢) ناقش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ المبتدعة في تأويلهم لصفة الإتيان لله تعالى ، في : تعليقه على « لمعة الاعتقاد » (٥٢) ، و « شرح العقيدة الواسطية » (٢٧٤) ، و « مجموع فتاويه ورسائله » (٢٨٣ / ٣) .

وانظر مزيداً : « الرد على الجهمية » للدارمي (٩٤) ، و « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٤٠٤ / ١٦) .

حقيقي يليق بجلاله لا تُعَلِّمَ كَيْفِيَّتَهُ ، ولا يَسْأَلُ عَنْهَا كَسَائِرَ صِفَاتِهِ - ؛ قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] كيف استوى؟ فقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »^(١) ؛ هذا وقد ذهب أهل التعطيل إلى أن المراد بإتيان الله : إتيان أمره ؛ وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل إلا ما زعموه دليلاً عقلياً وهو في الحقيقة وهمي ، وليس عقلياً ؛ فنحن نقول : الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عزَّ وجلَّ ؛ وهو أعلم بنفسه ؛ وهو يريد أن يبين لعباده ، كما قال تعالى : ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء : ١٧٦] ؛ وإذا كان يريد أن يبين ، وهو أعلم بنفسه ، وليس في كلامه عيٍّ ، وعجز عن التعبير بما أراد ؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة ؛ إذاً فكلامه في غاية ما يكون من العلم ؛ وغاية ما يكون من إرادة الهدى ؛ وغاية ما يكون من الفصاحة ، والبلاغة ؛ وغاية ما يكون من الصدق ؛ فهل بعد ذلك يمكن أن نقول : إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا ؛ لا يمكن هذا إلا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره ؛ إذاً المراد إتيان الله نفسه ؛ ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره ، مثل قوله تعالى : ﴿أَنَّى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل : ١] ، ومثل قوله تعالى : ﴿أَوَيَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل : ٣٣] ؛ لأننا نقول : إن هذا من أمور الغيب ؛ والصفات توقيفية ؛ فتوقف فيها على ما ورد ؛ فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه ؛ والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره يكون المراد به إتيان أمره ؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم ؛ بل علينا أن نتوقف فيما

(١) أخرجه اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٣ / ٤٤١) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٢ / ٣٠٥) (٨٦٧) ، والدارمي في « الرد على الجهمية » (٦٦) ، وصححه الذهبي ، انظر « مختصر العلو للعلي العظيم » (١٤١) ، وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣ / ٤٠٧) .

ورد على حسب ما ورد»^(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، قال: «من فوائد الآية: أن أحكام الله تعالى الشرعية، معللة، أي لها علّة وحكمة، وليست لمجرد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علّة؛ لقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ﴾»، وفيها: ردّ على من يقول من أهل البدع: إن أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه لا تُعلّل بعِلل؛ لأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فنقول: إن القرآن والسنة مملوءان من ذكر تعليل الأحكام بالعلل والمصالح، وأما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، فهو لا يُسأل عما يفعل؛ لكمال أفعاله؛ ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة.

ثم إن هناك أفعالا لله تعالى وأحكاما لا تُعلّم عللها وحكمتها؛ فلا مطّعن فيها، ولا مُعارضَة لله تعالى فيها؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله تعالى»^(٢).

تاسعاً: من المضامين الدعوية في دعوة المبتدعة ذكر أقسام أهل البدع في بثّ سمومهم، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] قال الشيخ رحمه الله: «من فوائد الآية: الحذر من أهل البدع؛ لأن أهل البدع ينقسمون إلى قسمين: قسم عندهم شبهات، وقسم عندهم شهوات، فالجاهل منهم عنده شبهات حتى يلتبس عليه الحق بالباطل، والعالم منهم عنده شهوات، فهو يريد ما لا يريد الله ورسوله،

(١) «تفسير سورة البقرة» (٣ / ١٥).

(٢) «أحكام من القرآن الكريم» (١ / ٤٠٣).

ففي الآية التحذير من هؤلاء وهؤلاء^(١).

وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مسألة العذر بالجهل ، وهل تنطبق على المبتدعة؟ وكيفية مناظرتهم ، وحكمهم فقال : « لو قال قائل : مسألة العذر مشكلة جداً ، وأنتم ذكرتم أنه يجب على صاحب البدعة الكفرية أن يبحث إذا بلغته الحجة ، فهذا المبتدع إذا أخبره أحد من أهل السنة سيقول : هذا سني كافر ، فكيف آخذ من كافر فهو لن يقبل منا صرفاً ولا عدلاً ، فكيف نأمره بأن يبحث؟

الجواب : إذا بلغه الحق من القرآن والسنة ، فإن الحق فيهما واضح والحمد لله ، فإن قال : (الحق على خلاف ما أنت عليه أيها السني) قلت له : بيني وبينك كتاب الله عزَّ وجلَّ .

فإن قال المبتدع : ألم تقرأ قول الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢] .

قلت : بلى أقرأها لكن هذه الآية بالنسبة لهم ، ليس لك أنت .

فإن قال : لنا فهمنا ولكم فهمكم ، وفهمنا هو الصواب .

قلنا : معنى هذا أن هؤلاء مكابرون ، مَنْ يفهم من قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن هذا يعني : جواز عبادتهم ، والله تعالى ملأ القرآن بالنهي عن عبادة غيره .

فإن قلت : كيف نحكم على هذا المبتدع أن الحجة بلغته حقاً أو لا؟

قلنا : المبتدع إذا كابر بعد ما أريناه الآيات ، فالسيف أمامه ، ونحكم بكفره في الدنيا ونقتله ، وإن كان ما يقوله حقاً من أنه لم تبلغه الدعوة إلا مشوشة فأمره

إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، لا يجوز أن تقرن أحكام الدنيا بأحكام الآخرة ، أحكام الدنيا لها حال وأحكام الآخرة لها حال ؛ هذا الرجل الذي قتله أسامة بن زيد يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن أحكام الدنيا أن نرفع عنه القتل مع أنه ربما يكون قد قالها تعوداً ولا ندري ، وعلى كل حال فلا شك أن المسألة عويصة ، لكن هذا الذي تبين لي هو ما قررته ^(١) .

عاشراً : كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يدعو لمن أساء منهم بالهداية والتجاوز عن خطئه ، ومن ذلك تعامله مع مبتدعة الأشاعرة في تأويلهم لصفة المحبة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ تنال بهذا الشرط ، وهو شرط يسير لمن يسره

(١) « تفسير سورة الأنعام » (١٠٩ - ١١٠) .

وللشيخ رَحِمَهُ اللهُ كلام في التعامل مع أهل البدع ، ومن ذلك إجابته على هذا السؤال : فضيلة الشيخ حفظك الله : إذا كان هناك رجل عليه بعض الملاحظات ، سواء كانت في العقيدة أو في غيرها ، وفيه خير كثير ، ما هو ضابط التعامل معه والاستفادة منه إذا كان صاحب قلم سيال ، أو منصب مرموق ، أو لديه من الطاقات ما ليس عند غيره ؟

الجواب : إذا كان هذا الرجل مجاهراً بما عنده من البدعة ؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يتعامل معه وأن يتردد عليه ؛ لأنه وإن كان لا يتأثر به فقد يغتر به غيره ، بمعنى : أن الناس ينخدعون ويظنون أن هذا المبتدع على حق ، فالذي ينبغي ألا يتردد الإنسان على أهل البدع ، مهما استفاد منهم مالياً أو علمياً ؛ لما في ذلك من التغرير بالآخرين . « لقاء الباب المفتوح » (١٠ / ٥٨) .
وسئل أيضاً فقال السائل : رجل صاحب طريقة من طرق الصوفية يرى التصوف وقيم بعض البدع ، إلا أن هذا الرجل يساعد في إقامة أعمال الخير ، فمثل هذا الرجل إذا أنكر عليه بدعته وشهر بين الناس انقطع عن مساعدة أهل البر وأهل الخير ، فما رأيكم يا شيخ ؟
الجواب : هل هذا الرجل مؤثر في دعوته ؟ السائل : نعم يا شيخ يدعو إلى بدعته .
الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : إذا أيهما أعظم : الفقر ، أو الضلال ؟ السائل : الضلال .

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : الضلال أعظم ، فيجب إن كان هذا الرجل داعية ومؤثراً أن يُحذَر منه ، حتى لو قطع هو إحسان نفسه فإنما حرم نفسه ، أما أن يبقى يضل عباد الله من أجل أن يكسب من ورائه درهماً أو درهماين لا يمكن . « لقاء الباب المفتوح » (٣٨ / ٢٢٦) .

الله عليه ، نسأل الله أن ييسره لنا ، وهو : اتباع الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً ، في العقيدة والقول والفعل ، فإذا حققت ذلك فإن محبة الله سوف تنالك ، وأنكر قوم محبة الله كالأشاعرة ، ونسأل الله أن يعفو عن الأموات منهم وأن يهدي الأحياء ، أنكروا المحبة ، وقالوا : إن الله لا يحب ، لكن إنكارهم إياها ليس إنكار جحود ، إذ لو كان إنكار جحودٍ لكفروا ؛ لأنه تكذيب لما أثبتته الله لنفسه ، لكنه إنكار تأويل قصدوا به تنزيه الله ، لكنهم ضلوا ، فقالوا : إن المحبة لا تقع إلا بين متجانسين ، والله عَزَّوَجَلَّ مبين للخلق ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وقالوا : إن المحبة التي جاءت في الكتاب والسنة هي الإحسان ، ففسروها بأمر بائن منفصل عن الله ، أو هي إرادة الإحسان ؛ لأن الإرادة عندهم ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ ، فيقال لهم : هل الإحسان إلا ثمرة المحبة ، وهل إرادة الإحسان إلا ثمرة المحبة ؛ لأن الله لا يحسن إلى من لا يحب إلا على سبيل الاستدراج ، ولهذا إذا رأيت الله ينعم على العبد مع إقامته على معاصيه فاعلم أن ذلك استدراج : ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٢] .

إذاً : عقيدتنا أن الله عَزَّوَجَلَّ يُحِب ، وأنه يُحِبُّ جل وعلا ، وأن محبته أعلى المراتب وأفضل المنازل «^(١)» .

وفي موضع آخر بعدما ذكر قول المبتدعة وتأويلهم لصفة المحبة بالثواب أو إرادة الثواب ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « والحقيقة أننا نسأل الله لهم العفو وأن يهدي أحياءهم ، أنهم حرموا لذة محبة الله عَزَّوَجَلَّ ، الإنسان إذا شعر بأن الله يحبه يفرح ويزداد في محبة الطاعات وكراهة المعاصي ؛ لأنه يعلم أن ربه عَزَّوَجَلَّ يحبه من

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٨٢-٣٨٣) .

فوق سبع سموات ، وإذا كان المعنى يشبه ، فهو يشب أي واحد من العباد ممن يستحق الثواب ، فحرموا لذة محبة الله ؛ لأنهم أنكروها ^(١) .

والأمثلة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل البدع وتوضيح المنهج الشرعي لدعوتهم ، وإظهار الحق ، والمنافحة عن منهج أهل السنة والجماعة وتقريره ، ومناقشة أقوال المخالفين والرد عليهم بفهم سلف الأمة كثيرة ولا أحسب أن تفسيراً أوسع من تفسيره ولا أطول نفساً منه في هذا الباب - وما تقدّم هي نماذج في هذا المضمون الدعوي ^(٢) ، ومما سبق من المضامين نستفيد المنهج الشرعي الدعوي في دعوة أهل البدع من خلال تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ - وأنه على وفق ما يلي :

١ - تقرير مذهب أهل السنة والجماعة ، وهذا واضح عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لآيات الصفات ، والبسط في توضيح ذلك .

٢ - الرد على المخالفين من المبتدعة في باب الأسماء والصفات ، بإرجاعهم

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٣٠٤) .

(٢) انظر مزيداً في دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لأهل البدع ، وردّه على الخوارج ، والمرجئة ، والصوفية ، والمعتزلة والجبرية والقدرية وسائر المفوضة وأهل البدع ما يلي : « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٣٨ - ٢٣٩) ، « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٥٣) ، (٢ / ٢٤٩) ، (٢ / ٢٥٢) ، (٢ / ٣١١ - ٣١٢) ، (٢ / ٣٦٠) ، (٣ / ٢٩٦) ، (٣ / ٣٦٥) ، « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣٣) ، (٢ / ٣٢٥) ، « تفسير سورة النساء » (١ / ٢٥٦) ، (١ / ٣١٥) ، (١ / ٣٧٨) ، (١ / ٤٨٢) ، (٢ / ٥٣) ، (٢ / ٣٧٦) ، (٢ / ٥٤٣) ، « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٤٩) ، (١ / ٣٦٤) ، (٢ / ٣٥) ، « تفسير سورة الأنعام » (٢٧١) ، « تفسير سورة سورة يس » (١٧٣) ، « تفسير سورة الصفات » (١٢٥) ، (٢١٦) ، (٢٢٠) ، « تفسير سورة ص » (٢٤٩) ، « تفسير سورة الحجرات » (٨) ، « تفسير سورة النجم » (٢٣٥) ، « تفسير جزء عم » سورة المطففين (١٠٧) .

إلى فهم سلف الأمة وإجماعهم فهم الأقرب للتنزيل .

٣- الإكثار من إيراد نصوص الكتاب والسنة الدالة على الاعتقاد الصحيح ، وعدم الاكتفاء بنص واحد ؛ ليظهر للمخالف حجم النصوص التي خالفها ، والتي تدل على فساد اعتقاده .

٤- الاستناد إلى أقوال السلف رَحِمَهُمُ اللهُ في بيان المنهج الصحيح والاستشهاد بأقوالهم ، كقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ حين وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] كيف استوى؟ فقال : « الاستواء غير مجهول ، وكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة »^(١) .

٥- الاستدلال على أهل البدع بأدلتهم التي يحتجّون بها ، فإن هذا من أقوى الحجج المقنعة ، وذلك ببيان أن ما يحتجّون به باطل لا يصح الاستدلال به ، قال الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص : ٨] ، « من فوائد الآية : أن صاحب الباطل لا يعرف أن حجّته حجة عليه ؛ لأن قولهم : ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هي حجة فيما لو نزل الذكر على من يشاؤون ، لأنه لو نزل على من عيّنه وأرادوه ، لقال غيرهم : ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ، ويتفرع على هذه الفائدة كل مُبْطِلٍ يحتج بحق ، لكن استدلاله به باطل ، فإنه لا حجة له ، ومن ذلك ما يحتج به أهل التحريف في باب الصفات أو غيرها من الأدلة الصحيحة التي ليس لهم فيها استدلال »^(٢) .

٧- بيان خطورة البدع ومراتبها ، وأن منها ما يوقع صاحبها في الكفر .

٨- مناظرة أهل البدع ، لاسيما من يُطمع في هدايته وانتفاعه ، وذلك بالكتاب

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « تفسير سورة ص » (٤٥) .

والسنة وآثار سلف الأمة^(١).

٩- إيراد الحجج العقلية، وأهميتها في رد الخصوم وإفحامهم، وبيان فساد معتقدهم، ومن ذلك ما قاله الشيخ رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، حيث قال: «ومن فوائد الآية: الرد على أهل التحريف في أسماء الله، وصفاته الذين يقولون: «إن هذا جائز عقلاً على الله؛ فنقر به؛ وهذا يمتنع عقلاً على الله؛ فلا نقر به» كالمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم؛ نقول لهم كلهم في الجواب: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾: «أنتم أعلم بما يجوز على الله، ويمتنع عليه، ويجب له، أم الله أعلم بما يمتنع عليه، ويجب له، ويجوز له؟!!! وهذه في الحقيقة حجة ملزمة مفحمة مقحمة لهؤلاء الذين يتحكمون في صفات الله تعالى بعقولهم، فيقولون: «يجب لله كذا؛ يمتنع عليه كذا»؛ نقول: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾^(٢).

١٠- استعمال العدل والإنصاف عند مناظرتهم بلا ميل ولا إجحاف، والتفريق بين المجتهد طالب الحق وبين المفرط المتبع لهواه، فإن هذا أدعى

(١) ومناظرة المبتدعة لها فقهها وضوابطها عند السلف تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقوة الحججة، ونوع البدعة، والحال، فيُفرَّق مثلاً بين من ظهرت بدعته وطُمّت وتأثر بها العامة فيناظر، وبين من كانت بدعته مغمورة فلا يناظر؛ لثلا يرتفع شأنه وتنتشر بدعته، ويُفْطَن له، ويُفَرَّق بين المستر بدعته، والداعي لها، ويُفَرَّق بين من جاء طالباً للحق تُرْجى هدايته، وبين المتعنّت في ذلك، قال ابن عون: سمعت محمد بن سيرين، «ينهى عن الجدال إلا رجلاً إن كلمته طمعت في رجوعه». «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢ / ٥٤١)، وانظر: «الشریعة» للأجري (١ / ٤٥٠)، ولابن تيمية بسط في هذه المسألة، انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤ / ١٧٤-١٧٥)، (٢٨ / ٢٠٦-٢١٨).

(٢) «تفسير سورة البقرة» (٢ / ١٠٣).

لقبولهم وعدم تعصبهم^(١) .

١١- التنوع في دعوتهم بكل الوسائل الممكنة وسواء كانت مشافهة أو مراسلة ومكاتبة .

١٢- هجر أهل البدع ، لاسيما إذا غلب على الظن تأثيرهم بالهجر ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « وهجران أهل البدع واجب لقوله تعالى : ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

ولأن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك^(٢) ، لكن إن كان في مجالستهم مصلحة لتبيين الحق لهم وتحذيرهم من البدعة فلا بأس بذلك ، وربما يكون ذلك مطلوباً لقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِهِ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وهذا قد يكون بالمجالسة والمشافهة وقد يكون بالمراسلة والمكاتبة ، ومن هجر أهل البدع ترك النَّظَر في كتبهم خوفاً من الفتنة بها أو ترويجها بين الناس فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب ، لقوله ﷺ في الدجال : « من سمع به

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في « مجموع الفتاوى » (٢٧ / ٢٣٨) : « وأهل السنة والعلم والإيمان يعرفون الحق ويتبعون سنة الرسول ويرحمون الخلق ويعدلون فيهم ويعذرون من اجتهد في معرفة الحق فعجز عن معرفته ؛ إنما يذمون من ذمه الله ورسوله وهو المفرط في طلب الحق لتركه الواجب والمعتدي المتبع لهواه بلا علم لفعله المحرم . فيذمون من ترك الواجب أو فعل المحرم ؛ ولا يعاقبونه إلا بعد إقامة الحجة عليه » .

وقال في « منهاج السنة النبوية » (٥ / ١٥٧) : « أهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم ؛ فإن الظلم حرام مطلقاً كما تقدم ، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض » .

(٢) والقصة بطولها رواها البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رَحِمَهُ اللهُ .

فليأمن عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات» (١) «(٢).

١٣- سؤال الله تعالى الهداية لهم ، وأن يفتح على قلوبهم بالحق ، والدعاء لهم بالتجاوز ما لم تكن بدعته مكفرة ومات عليها فلا يترحم عليه» (٣).

ويُعدُّ الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ وغيره- من أبرز أعلام عصرنا الذين نافحوا عن السُّنَّة بفهم سلف الأُمَّة ، وتصدوا للمبتدعة على اختلاف أصنافهم بالحجة والبرهان ، وإعمال العقل وبَسْطِ البيان ، ومن قرأ كتاباته في باب العقائد أدرك عناية الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ، واجتهاده في تقرير مذهب أهل السنة والجماعة ، سواء في شروحاته العقدية أو فتاواه ، أو رسائله ، أو تفسيره لآيات العقائد ، رحمه الله رحمة واسعة .

ويُعدُّ تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ من أوسع التفاسير في بيان المنهج الشرعي في

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) وصححه الألباني « صحيح الجامع الصغير » (٢ / ١٠٨٠).

(٢) تعليق الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ على « لمعة الاعتقاد » (١٥٩-١٦٠).

قال ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ فِي « مجموع الفتاوى » (٢٤ / ٢٩٢): « ومن كان مبتدعا ظاهر البدعة وجب الإنكار عليه ومن الإنكار المشروع أن يهجر حتى يتوب ومن الهجر امتناع أهل الدين من الصلاة عليه لينزجر من يتشبه بطريقته ويدعو إليه وقد أمر بمثل هذا مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة والله أعلم » ا.هـ.

وانظر أقوال السلف في هجر المبتدع ، كتاب: « شرح السنة » للربيهاري (١٣٨) ، وانظر كتاب: « ذم الكلام وأهله » للهروي (٥ / ١٤٤).

(٣) انظر مزيدا في « الرد على المبتدعة ودعوتهم » لابن البناء الحنبلي أو « دعوة أهل البدع » ، خالد بن أحمد الزهراني ، و « حقيقة البدعة وأحكامها » سعيد بن ناصر الغامدي ، و « موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع » إبراهيم الرحيلي ، و « إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفهم » محمد بن صالح العلي .

دعوة أهل البدع وفق الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، وما ينبغي فعله في دعوتهم لاسيما في زماننا الذي كَثُرَ فيه التَّكَبُّ عن عقيدة أهل السنة والجماعة من فِرَق ضالة كثيرة يحتاج معها الداعية إلى فقه هذا المضمون الدعوي المهم وهو دعوة أهل البدع .



المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب

إن من أصناف المدعوين الذين جاء ذكرهم في الكتاب والسنة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ؛ ذلك أنهم جانبوا الحق ، فكفروا بالله تعالى ، وكذبوا بالرسول ﷺ وما جاء به ، فكانوا لاسيما اليهود - من ألد أعداء دين الإسلام وأشدهم له كراهية ، ومع ذا فديننا العظيم أعطى دعوة أهل الكتاب نصيباً كبيراً من نصوص الكتاب والسنة ، وبين كيف هي دعوتهم إلى الحق بالحسنى ، وبأسلوب مؤثر ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] .

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ : « وهكذا ينبغي أن يكون الحال في ابتداء مجادلة أهل الكتاب ، وبقدر ما يسمح به رجاء الاهتداء من طريق اللين ، فإن هم قابلو الحسنى بضدّها انتقل الحكم إلى الاستثناء الذي في قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ، والذين ظلموا منهم هم الذين كابروا وأظهروا العداء للنبي ﷺ وللمسلمين ، وأبوا أن يتلقوا الدعوة ، فهؤلاء ظلموا النبي ﷺ والمسلمين حسداً وبغضاً على أن جاء الإسلام بنسخ شريعتهم ، وجعلوا يكيدون للنبي ﷺ ونشأ منهم المنافقون وكل هذا ظلم واعتداء »^(١) .

وجاءت السنة أيضاً دالة على دعوة أهل الكتاب ، ولعل أبرز أحاديث دعوة أهل الكتاب هو حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ

(١) « التحرير والتنوير » لابن عاشور (٧ / ٢١) .

مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرْدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»^(١) .

وتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب على وجه الخصوص دليل شمولية الإسلام في دعوته لأصناف المدعوين ، واهتمام النبي ﷺ بدعوتهم وذلك بإرسال الدعاة إليهم ، بل كان ﷺ يغشاهم في بيوتهم لأجل الدعوة إلى الله تعالى ، ففي صحيح البخاري من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَمَرَضَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَقَالَ لَهُ : « أَسْلِمَ » ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ : أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ »^(٢) .

وهذا يُشير إلى أهمية اقتفاء هدي النبي ﷺ في ذلك ، والتصدي لأهل الباطل في دعوتهم إلى الحق عبر الوسائل المتاحة ، لاسيما الوسائل العصرية التي قُرِبَت البعيد وأصبح الوصول للمدعو ميسراً ، ولقد سَطَّرَ لنا التاريخ أعلاماً بذلوا أنفسهم في دعوة أهل الكتاب بالمشافهة والمراسلة والمناظرة حتى دخل منهم أفواج في دين الحق ، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة في عصرنا ، بأن ينبري طائفة من الدعاة للتفرغ لدعوة أهل الكتاب وفق المنهج الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى ، والاستفادة من المضامين الدعوية التي احتوتها الكتب الشرعية عموماً ، والتفاسير العلمية على وجه الخصوص ، وإن من التفاسير التي احتوت على مضامين دعوية

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦) .

في دعوة أهل الكتاب تفسير شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ ، وذلك من خلال تفسيره
 لآيات دعوة أهل الكتاب وبيان حالهم وصفاتهم وأعمالهم .

- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل الكتاب وما ينبغي في دعوتهم :

أولاً : مما ينبغي أن يراعيه الداعية في دعوة أهل الكتاب ، العلم بحالهم
 ومعتقداتهم وما يؤمنون به ؛ ليتبصر في ذلك ويدعوه بما يناسب المقام ، ولذا
 أخبر النبي ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن بأنه سيأتي قوم أهل كتاب .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُمُ اللَّهُ : « قوله (ستأتي قوما أهل كتاب) هي كالتوطئة
 للوصية ؛ لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا تكون
 العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجاهل من عبدة الأوثان » (١) .

وإن مما ذكره الله تعالى في كتابه من حال أهل الكتاب حقيقة علمهم بمجيء
 النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، وأن هذا مما كُتب عندهم في التوراة والإنجيل ،
 قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ
 كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] :

« من فوائد الآية : أن النبي ﷺ معروف عند أهل الكتاب معرفة تامة ؛ وذلك
 كما جاء في كتبهم » (٢) ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ

(١) « فتح الباري » (٣ / ٣٥٨) .

(٢) جاء في كتاب « دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية » لسعود الخلف (٣٨٩) : (لقد
 بشر المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيينا محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُوا إِلَهِِي رَسُولُ
 اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
 مُبِينٌ ﴾ [الصف: ٦] .

وقد جدَّ النصارى ، ومن قبلهم اليهود في حذف هذه البشارات من كتبهم أو صرفها عن
 وجهها ، ويزعمون أنه لا يوجد في كتبهم إشارة إلى النبي ﷺ ، وإن وجد شيء صرفه النصارى =

الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

- ومنها : أنه لا عذر ولا حجة لأهل الكتاب في إنكارهم رسالة النبي ﷺ ؛ لأنهم أوتوا من وصفه ما يعرفونه به كما يعرفون أبناءهم» ^(١) .

ثانياً : التصدي لشبهاتهم ، وما يُلبَّسون به على الناس ، فإن من أبرز صفاتهم التي ينتهجونها في دعوتهم تلبس الحق بالباطل ؛ ليظهروا باطلهم بصورة الحق الذي لا حق غيره ، ولربما استدلوا باطلهم بآيات القرآن الكريم ، وعلى الداعية التفطن لهذه الصفة ومعرفة شبهاتهم والتصدي لها ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يَتَّاهَلُ الْكُتُبِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] : « من فوائد الآية : أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحق بالباطل ، وما أكثر ما يموهون بالقرآن الكريم على بطلان ما ذهبوا إليه ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] ، فيقول إن الذين آمنوا : أي المسلمين ، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله منهم واليوم

= إلى عيسى بن مريم وصرفه اليهود إلى المسيح الذي ينتظرونه ، وهي في الواقع لا تنطبق إلا على نبي هذه الأمة سيدنا محمد ﷺ وأمته ، وقد بقي من هذه البشارات الشيء الكثير مع تحريفهم لكتبهم ، وقد ذكر منها الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه « إظهار الحق » ثمانين عشرة بشارة ، منها إحدى عشرة بشارة في العهد القديم ، وسبع بشارات في العهد الجديد » ثم ذكر المؤلف هذه البشارات في العهدين القديم والجديد مع توثيقها من كتبهم .

وانظر : « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » لابن القيم (١ / ٢٩٦) .

الآخر فلهم أجرهم عند ربهم ، فجعلنا نحن وأنتم في صف واحد ، المؤمن منا بالله واليوم الآخر له الأجر ، ولو كنا مخالفين لكم ما كان لنا أجر! ويقولون : عيسى ابن مريم) بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ولم يأت بعد! فالذي جاء اسمه محمد ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، فنحن ننتظر أحمد! فهم يلبسون الحق بالباطل ويمكرون . ولكن من أعطاه الله علماً وفهماً تبين له أنهم ملبسون . وقد ألف علماء المسلمين ولله الحمد- في بيان باطلهم ودحض حججهم ما هو كالشمس إضاءةً ونوراً يخفي ضوؤه كل ساطع .

والجواب عن هاتين الشبهتين أن يقال : في الآيات الأولى قيد الله عز وجل من له الأجر من هؤلاء الأصناف بقوله : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [المائدة : ٦٩] فأنتم ما آمنتم بالله واليوم الآخر بنص هذه الآية : ﴿ يَتَّهَلَّ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٠] ، أنتم مؤمنون لما كانت رسالة النبي الذي أرسل إليكم قائمةً ، أما وقد نسخت ، فإذا بقيتم عليها فأنتم كفار^(١) .

(١) وانظر مزيداً من إيراد الأدلة العقلية والعقلية على هذه الشبهة : « مجموع فتاوى ورسائل العثميين » (٣ / ١٨ - ٢٣) ، وجاء فيه قوله رَحِمَهُ اللَّهُ : « ... وإني أقول : إن كل من زعم أن في الأرض ديناً يقبله الله سوى دين الإسلام ، فإنه كافر لا شك في كفره ؛ لأن الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ويقول عز وجل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . وعلى هذا - وأكررها مرة ثالثة على هذا القائل أن يتوب إلى الله عز وجل وأن يبين للناس جميعاً أن هؤلاء اليهود والنصارى كفار ؛ لأن الحجة قد قامت عليهم وبلغتهم الرسالة ، ولكنهم كفروا عناداً » .

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢ / ٤٩٦) : « وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة » .

وقوله : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] إذن فأحمد جاءكم ولا نعلم أن نبيا جاء بعد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا محمد ﷺ . وعلى هذا فيكون هذا التمويه لا يخفى على الإنسان الذي يعطيه الله تعالى علما وبصيرة ، وقد ألف شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كتابا سماه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »^(١) والرد على النصارى من أئمة المسلمين كثير^(٢) .

ثالثا : معرفة أقسامهم والتفريق بين طالب الحق منهم ومن يُطمع في هدايته وبين المتعنت ، وقد بين الشيخ رَحِمَهُ اللهُ انقسام أهل الكتاب إلى قسمين عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِعْ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٥] ، فقال : « من فوائد الآية : بيان انقسام أهل الكتاب إلى قسمين : أمين وخائن ، كما انقسموا إلى قسمين : مؤمن وكافر ، فمثلا عبد الله بن سلام رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ كان من أحبار اليهود فمن الله عليه بالإسلام فأسلم ، وكعب بن أشرف من أشراف اليهود ولكنه بقي على كفره فلم يؤمن ، فهم كما انقسموا إلى كافر ومؤمن انقسموا أيضا إلى خائن وأمين ، ولقد

= وقال أيضا : (٢٠١ / ٣٥) : « اليهود والنصارى كفار كفرا معلوماً بالاضطرار من دين الإسلام » . وانظر : « مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات » لابن حزم (١١٩) .

(١) ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عدة أدلة في الرد على هذه الشبهة وإثبات التبشير بمحمد ﷺ ، في « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (٥ / ١٤٧) . فقال : « وبكل حال ، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بُشِّرَ بمحمد ﷺ - كما قال تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ الْوَرَى وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦] ... » ثم ذكر الأدلة .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٠٤ - ٤٠٥) .

عامل النبي ﷺ اليهود ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي^(١) ، وهذا يدل على أن من اليهود من هو أمين وإلا كيف يرهن الرسول ﷺ الدرع وهو من آلات الحرب عند هذا الرجل اليهودي؟

- ومنها : أنه يجب الحذر من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لأنهم ما داموا ينقسمون إلى قسمين ، فإننا لا ندري حين نعاملهم من أي القسمين هؤلاء ، فيجب علينا الحذر لا سيما إذا تبين لنا أنهم خونة ، وأهل غدر ، وأنهم لا يسعون لمصالحنا أبداً كما هو الواقع ، فإن الواقع في الوقت الحاضر أن اليهود والنصارى لا يسعون أبداً لمصالح المسلمين ، بل يسعون للإضرار بالمسلمين والإفساد عليهم ، حتى إنهم إذا رأوا الدولة متجهة إلى الإسلام من دول المسلمين فإنهم يحاولون إسقاطها ، والتضييق عليها من الناحية الاقتصادية ، والعسكرية ، والسياسية ، وهذا شيء يعرفه كل من تدبر وتأمل في الحوادث اليوم ، إذن يجب علينا أن نحذر غاية الحذر من اليهود والنصارى ، وأن نعلم أن اليهود والنصارى كل واحد منهم ولي للآخر ، كما قال تعالى : ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ، مهما طال الأمد فهم أولياء ضد عدو مشترك وهم المسلمون^(٢) .

رابعاً : دعوة أهل الكتاب عبر الوسائل العصرية المتاحة كالإذاعات ونحوها ، والتصدي لحملاتهم وإذاعاتهم التنصيرية ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَ تفسيره ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَافِرُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩] : « من فوائده هذه

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٩) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٣٠ - ٤٣١) .

الآية : سوء القصد من أهل الكتاب ، حيث ييغون أن تكون سبيل الله عوجاً ، وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقاً عليهم إلى اليوم ، فللنصارى دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكل جهدهم إلى أن يصدوا عن سبيل الله من آمن ؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العوج ، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي ، وما زالوا إلى اليوم ، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلى النصرانية ، والعياذ بالله ، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣٢﴾﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] فهم الآن يدَّعون أن دين عيسى (القول بالتثليث ، ويقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، ثم يضحكون على أنفسهم وعلى الناس ، ويقولون : إنه ثلاثة في واحد ، فهل هذا معقول ؟!

لكن هذا من ضلال النصارى ؛ لأن النصارى ضالون ، حتى الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد؟! ^(١) هذا لا يمكن .

على كل حال : هم يريدون أن يضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا . ومن ثمَّ يجب على المسلمين الحذر منهم ، والتشهير بهم ، حتى ينفر الناس منهم ، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص ^(٢) .

(١) وقد ذكر القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في « الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام » (٧٧) فصلاً بعنوان : الفصل الرابع : دليل التثليث ، عقده لمناقشة استدلالهم على عقيدة التثليث والرد عليهم مناقشاً ذلك بأدلة عقلية ونقلية من مصادرهم .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٦٨ - ٥٦٩) .

خامساً : التنبيه لحرص أهل الكتاب على إضلال المسلمين بشتى الوسائل والأساليب ، وقد بين الشيخ رحمه الله ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٠] ، حيث قال :

« من فوائد الآية : أن الكفار ولو كانوا أهل كتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر ، وقائل هذا هو الله العالم بما في صدورهم ، قد يتظاهرون لنا بالمسالمة والمداهنة ، وأنهم أولياء ، وأنهم أصدقاء ، ولكن في قلوبهم الحقد ، والغل ، ومحبة أن نرتد على أعقابنا كافرين ، من أين نعلم هذا الذي في قلوبهم وهم يبدون لنا الود والصدقة والمحبة ؟ نعلم هذا من القرآن الكريم .

فإن قال قائل : إن الله يقول : ﴿ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، والفريق مبهم ما ندري ، ربما بعضهم على خلاف ذلك ، وإذا وُجد الاحتمال بطل الاستدلال ، فلا يمكن أن تعين طائفة من أهل الكتاب تقول : هؤلاء يحبون أن نرتد على أعقابنا كافرين ، لا يمكن أن تعين ما دام الله يقول : « فريقًا » ، الفريق مبهم ، فإذا قلت : إنهم هؤلاء ، قلنا لك : بل هؤلاء ، بل أولئك ، فما هو الميزان إذن ؟ لنا على هذا جوابان :

الجواب الأول : أن الله ذكر في آيات أخرى أن جميع الكفار يودون منا أن نكفر ، وهو شامل لأهل الكتاب وغيرهم : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً ﴾ [النساء : ٨٩] ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [المتحنة : ٢] . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

إذن هناك آيات تدل على أن جميع الكفار ، ومن ضمنهم أهل الكتاب يودون منا ذلك .

الجواب الثاني : أن نقول هذا الفريق المبهم ، يُبينه الواقع ، وهو أن من أهل الكتاب من آمن ، ومن آمن لا يمكن أن يُحب من غيره أن يكفر ، وحينئذٍ نقول : المراد بالفريق هنا من لم يؤمن منهم ، فكل من لم يؤمن فهو داخل في هذا الفريق .

- ومن فوائد الآية : أن هؤلاء الفريق من أهل الكتاب لا يرضون منا بما دون الكفر ، إلا أن يكون وسيلة إلى الكفر ؛ لأنه الغاية ، قال : ﴿يُرِيدُكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران : ١٠٠] .

وأساليب أهل الكتاب في إضلال المسلمين كثيرة جداً ومتنوعة ، منها : أن يفتحوا عليهم باب الشهوات ، فإن باب الشهوات باب واسع ، والضيق من أبواب الشهوات يتسع بسرعة ، ودليل ذلك قول النبي ﷺ : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء »^(١) «^(٢)» .

سادساً : دعوتهم للمناظرة والمحاجة بالحق وبالعدل والإنصاف ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ بَيْنَٰنٍ وَبَيِّنَٰتٍۭ ۖ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنۢ دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤١) .

(٢) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٧٦ - ٥٧٨) ، وحرص أهل الكتاب على إضلال المسلمين جاء في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَدَّتْ طَٰغِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوِ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران : ٦٩] : « من فوائد الآية : التحذير من أهل الكتاب وأنهم يحاولون صد المسلمين عن دينهم كالمشركين ، وكل من الطائفتين تودان من المسلمين الضلال ، يقول تعالى : ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء : ٨٩] ، وقال تعالى عن المشركين من قريش : ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة : ٢] ، فكل المشركين ، وكل الملحدين ، وكل من ادعى أنه صاحب كتاب ، كلهم يودون من المسلمين أن يكفروا ويضلوا بعد هدايتهم وإيمانهم . وإذا كان كذلك فيجب علينا الحذر منهم ، واعتقاد أنهم أعداء ألداء ، ويودون أن يقضوا علينا ، وعلى ديننا بين عشية وضحاها » « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٠٠) .

مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران : ٦٤﴾ .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد هذه الآية :

- أمر الرسول ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى هذه الكلمة سواء ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَتَّأْهِلَ الْكِتَابِ ﴾ ، وهنا سؤال : هل الرسول قال بذلك ؟ نعم قالها حتى كان يكتب بها إلى الملوك ، لم يكتب إلى كسرى ولكنه كتب إلى غيره ...

- ومنها : التنازل مع الخصم لإلزامه بالحق ، كيف ذلك ؟ لأنه قال : ﴿ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، والحق بلا شك مع الرسول ﷺ ، لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه تنازل معه .

- ومنها : وجوب استعمال العدل في المناظرة حتى مع العدو ؛ لأن الرسول أمر بأن يعلن هذا ، وإذا كان هذا واجبا في مناظرة المسلمين مع الكفار ، فهو في مناظرة المسلمين بعضهم مع بعض أوجب وأؤكد ، ولهذا نقول : من الخطأ العظيم أن بعض الناس إذا رأى رأيا قال عما سواه : خطأ ، وخطأ غيره ، هو قد يكون خطأ باعتبار اعتقاده لا ننكر عليه ، لأنه من المعلوم إذا اختار ضده فهو عندهم خطأ ولا ينكر عليه ، لكن الإنكار أن يُخطئ من قال به ، وهذا فرق دقيق ، فرق بين أن أعتقد أن هذا القول خطأ ولا آخذ به ، وبين أن أخطئ من قال به ؛ لأنني إذا خطأته ادعيت العصمة لي والزلل له وهذا خطأ ، ولهذا يجب في المناظرة بين المسلمين كما يجب في المناظرة بين المسلمين والكفار أن تكون بالعدل ، ومن المعلوم أن الميزان العدل في ذلك كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، لكن المشكل أنه ليس كل أحد يفهم الكتاب والسنة كما ينبغي ، يعني من الناس من يكون ظاهريا محضاً لا ينظر إلى مقاصد الشريعة ومعانيها العظيمة التي

يقصد بها إصلاح الخلق»^(١).

سابعاً: يؤكد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره على الحجج العقلية عند دعوة أهل الكتاب^(٢)، وفي الدعوة عموماً، ومدى تأثيرها في هدايتهم للحق، ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتَّابُ لِمَ تُحَاجُّوهُمْ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥] حيث قال:

« من فوائد الآية: بيان الاحتجاج بالعقل؛ لقوله: ﴿لِمَ تُحَاجُّوهُمْ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾، فكيف تحاجون به مع أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا من بعده. وهذا خلاف العقل. ويتفرع على هذه الفائدة: - أنه لا ينبغي إهمال العقل في الاستدلال، كما لا ينبغي الاعتماد عليه وترك النص. فالناس في الاستدلال بالعقل طرفان ووسط: طرف غلا فيه حتى قدّمه على السمع، وذلك بالنسبة للفقهاء من أصحاب الرأي والقياسيين الذين يعتمدون على الرأي وإن خالف النص... وفي باب العقائد جميع أهل البدع يعتمدون على العقل ويدعون السمع. مع أن العقل الذي يعتمدون عليه ليس

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٣٧٠).

وذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في « زاد المعاد في هدي خير العباد » (٣ / ٥٥٨) بيان أهمية مجادلة أهل الكتاب، وذلك ضمن فقه قصة وفد نجران حيث قال: « ومنها: جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم بل استحباب ذلك بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجئ إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة... » ١. ا. هـ. وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في « فتح الباري » (٨ / ٩٥)، في فوائد قصة أهل نجران: « وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب وقد تجب إذا تعينت مصلحته » ١. ا. هـ.

(٢) انظر في الحجج العقلية التي تساق في دعوة أهل الكتاب: « كيفية دعوة أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة » (٩ ، ٥٥) د. سعيد القحطاني .

إلا شبهات ، وليس براهين ودلالات . لكنهم ينظرون أن العقل يقتضي كذا فيثبتونه ، ويقتضي نفي كذا فينفونه ، ولا يرجعون في هذا إلى السمع ، ومن ذلك الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم . كل من نفى صفة أثبتها الله لنفسه بشبهة عقلية فإنه داخل فيمن يغالي في الاستدلال بالعقل ...

الطرف الثاني : من أنكر الاعتماد على العقل بالكلية ، وقال : ليس للعقل مدخل في إثبات أي حكم أو أي خبر . فأنكروا القياس . وهذا مثل أهل الظاهر ، أنكروا نهائياً ، وقالوا : لا يمكن أن نرجع للعقل في شيء ...

ومن الناس من هم وسط : رجعوا إلى العقل فيما لا يخالف الشرع ؛ لأن العقل إذا لم يخالف الشرع فإن الله تعالى يحيل عليه في مسائل كثيرة مثل : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] ، ومثل هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٥] « (١) .

ثامناً : إقامة الحجة عليهم من أفعالهم ، فهي أدعى لاضطراب عقيدتهم ، وتناقضها في قلوبهم ومن ثم رجوعهم عن ضلالهم ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ تَزُومُنْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩١] :

« من فوائد الآية : كذب اليهود في قولهم : ﴿ تَزُومُنْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ؛ لأنهم لو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] إلخ ...

- ومنها : عتو اليهود ، وعنادهم ؛ لأنهم يقولون : لا نؤمن إلا بما أنزل علينا^(١) ...

- ومنها : إفحام الخصم بإقامة الحجة عليه من فعله ؛ ووجه ذلك أن الله أقام على اليهود الحجة على فعلهم ؛ لأنهم قالوا : نؤمن بما أنزل علينا وهم قد قتلوا أنبياء الله الذين جاءوا بالكتاب إليهم ؛ فإن قولهم : ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ليس بحق ؛ لأنه لو كانوا مؤمنين حقيقة ما قتلوا الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

تاسعاً : دعوتهم من خلال معتقداتهم التي يؤمنون بها كإيمانهم بالبعث والحساب ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ قال في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٧٣] :

« من فوائد الآية : أن هؤلاء الذين صنعوا هذه الخديعة بينوا وأظهروا أن الذي حملهم على ذلك هو الحسد ؛ لقوله : ﴿إِنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران : ٧٣] ؛

(١) استكبار اليهود وعنادهم وكون هذه الصفة ملازمة لهم جاءت في نصوص كثيرة ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ۖ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة : ٨٧ - ٨٨] :

« من فوائد الآية : بيان عتو بني إسرائيل ، وأنهم لا يريدون الحق ؛ لقوله تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ۖ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ .

ومنها : أن بني إسرائيل يبادرون بالاستكبار عند مجيء الرسل إليهم ، ولا يتأنون ؛ لقوله تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ ثم قال تعالى : ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ؛ لأن مقتضى ترتب الجزاء على الشرط أن يكون الجزاء عقيباً للشرط : كلما وجد الشرط وجد الجزاء فوراً » « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٨٧) وانظر أيضاً : « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٩٣) ، (٢ / ١٣١) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٢٩٨ - ٢٩٩) .

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤١٢).

بلا دليل فقد قال على الله بلا علم»^(١).

هذه النماذج المتقدمة تبين أموراً دلت عليها الآيات، وأوضحها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لا بد أن تراعى أثناء دعوة أهل الكتاب^(٢)، ومما ينبغي مراعاته في دعوة أهل الكتاب اختيار اللفظ المناسب في دعوتهم، وهو ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] حيث قال:

«لو قال قائل: هل يجوز للإنسان أن يقول: اليهود والنصارى إخوان القردة والخنازير؟

الجواب: لا بأس أن يقول هذا، لكن أنا عندي أنه غير مناسب، خصوصاً في مقام الدعوة تأتي مثلاً ليهودي تقول: تعال يا أخا القردة والخنازير آمن بمحمد ﷺ، هذا لا يصح، لكن على سبيل الخبر قد يقال بالجواز»^(٣).

وقد كان النبي ﷺ يستخدم القول الحكيم في دعوته إلى الله عزَّ وجلَّ ومن ذلك ما روته عائشة، قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ^(٤) عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) «تفسير سورة البقرة» (١ / ٢٦٤).

(٢) وانظر مزيداً في دعوة أهل الكتاب من تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «تفسير سورة البقرة» (٣ / ٢٤٢)، (١ / ٣٥٨)، و«تفسير آل عمران» (١ / ٤٠٠)، (١ / ٥٣٧)، (٢ / ٥٢٢)، و«تفسير سورة النساء» (١ / ٣٧٣-٣٧٥)، و«تفسير سورة المائدة» (١ / ٤٠٤)، (٢ / ١٩١)، و«تفسير سورة ص» (٢٢٨-٢٢٩).

(٣) «تفسير سورة المائدة» (٢ / ٩٤).

(٤) السام: الموت، وقيل: الموت العاجل، وقيل: تسأمون دينكم. انظر: «فتح الباري» (١١ / ٤٢، ٤٣)، (١٠ / ١٣٥).

يَا عَائِشَةُ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » قَالَتْ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ : « قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ »^(١) .

واختيار الأسلوب الأمثل في دعوة أهل الكتاب جاء الحث عليه في كتاب الله تعالى كما جاء في سنة رسول الله ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ، وسيأتي في الفصل الخامس الكلام على أساليب ووسائل الدعوة إلى الله تعالى من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ .

ومن خلال المضامين السابقة يتبين كيف أن القرآن الكريم جاءت فيه خصوصية دعوة أهل الكتاب بما يناسب حالهم وصفاتهم ، وأن أهم ما ينبغي للداعية في دعوته لأهل الكتاب معرفة حالهم ومعتقداتهم ؛ ليتمكن من الرد على شبهاتهم ومعرفة نقاط ضعفهم والطريق لتشكيكهم في عقيدتهم ، ومما ينبغي مراعاته التفريق بين طالب الحق منهم والمتعنت المتعصب لباطله ، فلكل قسم منهم خطاباً يناسبه ، فإن من أهل الكتاب وهم كثير - يحرص تمام الحرص على الطعن في الإسلام والتربص لإضلال المسلمين بشتى الوسائل والأساليب كما تقدم في المضامين ، وما الحملات التنصيرية وما تقدمه من معونة إغاثية إلا مثلاً على حرصهم على جذب ضعفاء المسلمين في أصقاع المعمورة واستجلاب قلوبهم واستعطافهم بما يقدمونه من معونات يدشون فيها باطلهم ، مما يوجب الحذر من تسخيرهم للإمكانات الهائلة لإضلال المسلمين ، ومما ينبغي في دعوتهم التصدي لهم عبر الوسائل العصرية للوصول إلى مختلف

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

طباقتهم وذلك عبر الإذاعات والقنوات المرئية والمسموعة ، واستثمار وسائل التواصل الحديث في التأثير عليهم وإيجاد الثغرات التي تشككهم بباطلهم ، ويُعدُّ هذا الأمر من أهم استعمالات الداعية في عصرنا الحالي ؛ لما له من الأثر البالغ في المجتمعات ، كما ينبغي مناظرتهم والتصدي لهم وتحديثهم ؛ لكشف عوارهم للعامة ، وبيان خللهم لكل أحد ، ودخول هذا الجانب الدعوي إنما يكون ممن أوتي علماً وعمقاً ونباهةً ومعرفةً بقواعد المناظرة والمحاكاة وما ينبغي فيها من الآداب ومعرفة مواطن الضعف والقوة ، وإقامة الحجّة عليهم من أفعالهم ، والدخول عليهم من حيث ما يؤمنون به ، وإيراد الحجج العقلية وهذا مما أكّد عليه الشيخ في تفسيره كما تقدّم في المضامين - لما له من الأثر البالغ ، والعمق في التأثير ، وينبغي للداعية أن يكون حذراً معهم ذو معرفة بصفاتهم التي جاءت في النصوص الشرعية ، كل ذلك أدعى للتأثير عليهم حين دعوتهم .



المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين

إن أول صنف من أصناف المدعوين وجَّهت إليه الدعوة هم المشركون ؛ لأن سكناتهم كانت في مهبط الرسالة ، فكانوا أقرب الأصناف لرسول الله ﷺ ، فعليهم بدأت الدعوة إلى الله تعالى ، ولقد عاش العرب جاهليةً منغمسةً في أحوال الشرك أزماناً متعاقبة ، حتى استنارت الأرض بمهبط الوحي على رسول الله ﷺ بنور الرسالة ، فبدأ النبي ﷺ دعوته لكفار قريش ، وأخذت الدعوة في أول ثلاث سنوات طابع السرية حفاظاً عليها ، ووَّجَّهت الدعوة في هذه المرحلة إلى المقربين من المؤمنين قبل غيرهم من سائر المشركين ، ثم ما لبثت الدعوة السريّة أن انقضت بنزول آية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، فدخلت الدعوة طورها الثاني ، وهو الجهر بالدعوة باللسان فقط دون قتال ، وكان موضوع الدعوة وأساسها هو الدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، والأمر بالتوحيد ، واستمرت هذه الفترة عشر سنوات ؛ حيث امتدّت إلى الهجرة المباركة إلى المدينة ، لتشمل بعد ذلك طوائف أهل الكتاب .

عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا ، فَقَالَ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ »^(١) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء :

[٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا ، فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهُ ^(١) » ، فَقَالُوا : مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ ؟ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي عبد مَنَافٍ ، يَا بَنِي عبد الْمُطَّلِبِ » ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ » ، قَالَ : فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبَّ لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَّا إِلَّا لِهَذَا ، ثُمَّ قَامَ فَتَرَلَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ ^(٢) .

وقد بدأت دعوته ﷺ بالأقربين من عشيرته ﷺ من بني هاشم وبني عبدالمطلب ، ثم توجه الخطاب إلى المشركين قاطبة بقوله عَزَّجَلَّ : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] ، حيث جهر النبي ﷺ وأعلن ضلالة المشركين وسفاهة عِبَادِ الأصنام ، ودعاهم إلى التوحيد ، وترك عبادة الأوثان ، وترك عاداتهم المذمومة ، والتحلي بمكارم الأخلاق وفضائل الخصال ، ولم يلبث أن عاند المشركون معرضين عن دعوة التوحيد ، ونصبوا العداء ، وأعلنوها حربًا صريحة على التوحيد وأهله ، وصبُّوا على النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين ألوانًا من الأذى والضرر من سبٍّ وشتمٍ وتعذيبٍ وتنكيلٍ ، وإضرارٍ بالمال والبدن والأهل والولد ، حتى وصل الأمر إلى قتل بعض المؤمنين والمؤمنات ، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية مما كان سببًا مباشرًا للهجرة إلى المدينة ^(٣) .

(١) يا صباحاه : كلمة تقال عند هجوم العدو ، أي هجموا عليكم صباحا . « فتح الباري » لابن حجر (١ / ١٤٢) ، (٨ / ٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٧١) ، ومسلم (٢٠٨) .

(٣) انظر : « الرحيق المختوم » للمباركفوري (٧٠) ، و« السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية » لأكرم ضياء العمري (١ / ١٤٣) .

وأما المجوس فكان غالب سكناهم في بلاد الفرس^(١)، والمجوس: هم القائلون بأن الله خالق الخير وهو النور وخرجت الظلمة من النور، ويعبدون النار ويسجدون للشمس إذا طلعت^(٢).

وكان من دعوته ﷺ للمجوس أن أرسل بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُذَافَةَ السَّهْمِيِّ فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أَنْ ابْنَ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلُّ مُمَزَّقٍ»^(٣).

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «هُدَايَةِ الْحَيَارِيِّ فِي أَجُوبَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى» (١ / ٢٣٦): «فَأَمَّا الْيَهُودُ فَأَكْثَرُ مَا كَانُوا بِالْيَمَنِ وَخَيْبَرَ وَالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا، وَكَانُوا بِأَطْرَافِ الشَّامِ مُسْتَذِلِينَ مَعَ النَّصَارَى، وَكَانَ مِنْهُمْ بِأَرْضِ فَارَسٍ مُسْتَذِلَةٌ مَعَ الْمَجُوسِ، وَكَانَ مِنْهُمْ بِأَرْضِ الْمَغْرِبِ فِرْقَةٌ، وَأَعَزُّ مَا كَانُوا بِالْمَدِينَةِ وَخَيْبَرَ وَمَا حَوْلَهَا، وَكَانَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَطَعَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا وَسُلْبُهُمُ الْمَلِكُ وَالْعِزُّ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَانُوا طَبَقَ الْأَرْضِ: فَكَانَتِ الشَّامُ كُلُّهَا نَصَارَى، وَأَرْضُ الْمَغْرِبِ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِمُ النَّصَارَى، وَكَذَلِكَ أَرْضُ مِصْرَ وَالْحَبَشَةِ وَالنُّوبَةِ وَالْجَزِيرَةِ وَالْمَوْصِلَ وَأَرْضُ نَجْرَانَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْبِلَادِ. وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَهُمْ أَهْلُ مَمْلَكَةِ فَارَسٍ وَمَا اتَّصَلَ بِهَا، وَأَمَّا الصَّابِيَةُ فَأَهْلُ حِرَانَ وَكَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ».

(٢) انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١ / ٢٣٣)، وانظر «القول المفيد على كتاب التوحيد» (١ / ٩)، و«مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (٤ / ٣٠٢) لشيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «هُدَايَةِ الْحَيَارِيِّ» (١ / ٢٢٩): «(المجوس): وأمة المجوس، منهم تستفرش الأمهات والبنات والأخوات، مع العمات والخالات، دينهم الزمزمة، وطعامهم الميتة، وشرابهم الخمر، ومعبودهم النار، ووليهم الشيطان، فهم أخبث بني آدم نحلة، وأرذلهم مذهبا، وأسوأهم اعتقاداً».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٢٤).

ونص الرسالة كما أوردها الطبري رَحِمَهُ اللهُ كالتالي: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كَسْرَى عَظِيمٍ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَتْبَعَ الْهَدْيَ، وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَدْعُوكَ بِدُعَاءِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لَا نُذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَسَلَّمَ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ، فَإِنْ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ» (١).

ولقد سلك النبي ﷺ في دعوة المشركين والمجوس ما سلكه مع أهل الكتاب في الدعوة إلى الله تعالى، فكان يرسلهم ويرسل لهم الدعاة، أو يغشاهم في مجالسهم، ويناظرهم، ويورد عليهم الحجج العقلية التي تجعلهم يتفكرون في آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، ويدعوهم بما يناسب المقام مذكراً إياهم بصدقه ﷺ الذي عرفوه عنه؛ ليكون مدخلاً مناسباً لما سيقوله، فكان يقول: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بَسْفَحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، لكنَّ المشركين استمروا على عنادهم وعتوهم واستكبارهم بعدما أسلم منهم مَنْ أسلم، ولقد جاءت في كتاب الله تعالى - آيات دلَّت على دعوتهم وتعتهم بحجج واهية.

- وأبرز المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس:

أولاً: قولهم بعدما وصلتهم الدعوة: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [الصفات: ١٦٨-١٦٩]، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «من فوائدها: أن حجج الكفار حجج مكابرة ليست مبنية على حق، فمثلاً قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ماذا نقول؟ باطل، بل عندكم ذكر من

أفضل الأذكار على الإطلاق»^(١).

ثانياً : لشدة عنادهم كانوا يتواصون بالثبات على باطلهم ، لئلا يتأثروا بدعوة الحق ، وفي ذلك يقول الله تعالى عنهم : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦٦] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « في هذه الآية دليل على تخوف هؤلاء من تأثير دعوة الرسول ﷺ فيهم ، ولهذا كانوا يتواصون بالصبر على آلهتهم ، وكانوا يتواصون بالبقاء والثبات على طريقتهم ، وكانوا يتواصون بالهروب من الأماكن التي يُدعى فيها إلى التوحيد ، كل هذا يؤخذ من قوله : ﴿ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ .

- ومن فوائد الآية : أن أهل الباطل يَحْنُون على باطلهم ، ويحافظون عليه ويخافون من تزعزعه ؛ لقوله : ﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ، وهكذا أهل الباطل تجدهم دائماً يحوطون باطلهم بالسياج الذي يمنع من الوصول إليه على وجه يمزق هذا الباطل »^(٢).

ولقد كانت الآيات في دعوة المشركين والمجوس ذات مضمون دعوي مؤثر غاية التأثير على معبوداتهم ومزلزل لمعتقداتهم .

ثالثاً : القرآن الكريم أقام على المجوس وسائر المشركين الحجج والبراهين ليدعوهم إلى دين الله تعالى ، ومن تلك المضامين الدعوية الدالة على تلك الحجج والبراهين ما يلي :

١ - الاستدلال على صدق الرسول ﷺ ، وهذا من أقوى الأدلة التي أقامها القرآن الكريم على الناس عموماً والمشركين خصوصاً ، ثبوت صدق

(١) « تفسير سورة الصافات » (٣٥٢) .

(٢) « تفسير سورة ص » (٣٣) .

النبي ﷺ ، وأنه مرسل من ربه تبارك وتعالى ثبوتاً ، لا يحتمل الشك والمراء وقد دلل على ذلك من وجوه عديدة : تارة بشهادة الله تعالى له كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بِمِائِشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] . وتارة بورود صفته في التوراة والإنجيل وشهادة اليهود والنصارى بمجيئه كما تقدّم ، وتارة بشهادة مشركي العرب له بالصدق والأمانة كقولهم : « مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا » ، وكما شهد أمية بن خلف وزوجته بقولهما : « وَاللَّهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ »^(١) .

٢- ومن الحجج التي أقامها القرآن الكريم على المشركين لدعوتهم ، استجوابهم عن طريق معتقداتهم التي لا ينكرونها ، ففيها مدخل مهمّ يستفيد منه الداعية في دعوة الخصم أيّاً كان صنفه ؛ لأن ذلك من دواعي قبول الدعوة والتفكير في جدوى العقيدة الباطلة ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ٨٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية إقامة الحجة على الخصم بما لا ينكره لقوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ لأن العالم تشمل حتى ألّهتهم التي يعبدونها ، فإذا كانت ألّهتهم مربوبة فكيف يمكن أن تكون معبودة ؟ هذا تناقض ، وقد مرّ علينا أن من أقرّ بانفراد الله بالربوبية لزمه ان يُقرّ بانفراده بالألوهية وإلا صار متناقضاً ، إذ لا يستحق العبادة إلا الرب الخالق المالك المدبّر ، ومن لم يكن كذلك فإنه لا يستحق أن يُعبد »^(٢) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِيدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] :

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٢) .

(٢) « تفسير سورة الصافات » (٢٠٩) .

« من فوائد الآية : الرد على المشركين الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر ، والعَجَب أنهم يعبدون مع الله إلهًا آخر ، ويقولون في حق النبي ﷺ : ﴿ أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] ، فيقال لهم : إن العُجاب كلُّ العُجاب ما أنتم عليه من الشرك ، كيف تعبدون مع الله غيره ، وهو خالق السموات والأرض المتفرد بخلْقهما؟! »^(١) .

٣- ومن طرق دعوة المشركين الاحتجاج عليهم باعترافهم بتوحيد الربوبية وإقرارهم بتوحيد الإلهية عند الشدائد ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ أي لا تُصَيِّرُوا ﴾ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أي نظراء ، ومشابهين في العبادة ﴾ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا ندَّ له في الخلق ، والرزق ، وإنزال المطر ، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية ، ومقتضياتها ؛ لأن المشركين يقرُّون بأن الخالق هو الله ، والرازق هو الله ، والمدبر للأمر هو الله إقراراً تاماً ، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا ؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد : يشركون ؛ يجعلون مع الله إلهًا آخر ؛ وينكرون على من وحَّد الله حتى قالوا في الرسول ﷺ ﴿ أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] ؛ وإقرارهم بالخلق ، والرزق أن الله منفرد به يستلزم أن يجعلوا العبادة لله وحده ؛ فإن لم يفعلوا فهم متناقضون ؛ ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ : توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ؛ وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية ؛ يعني من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية ؛ ومن أقر بتوحيد الألوهية فإنه لم يقرَّ بها حتى كان قد أقر بتوحيد الربوبية »^(٢) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٤٢٧) ، و « تفسير سورة ص » (٢٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٧٦) .

والاحتجاج على المشركين من طريق توحيدهم للربوبية هو من أقوى الحجج تأثيراً ؛ لاتفاقهم على هذا التوحيد المتضمن لتوحيد الألوهية ؛ ولذا جاءت دعوة المشركين للحق من هذا الباب في أكثر من موضع ، والتفريق بين التوحيدين وقوع في التناقض كما أشار الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ .

ومن إقرارهم بتوحيد الألوهية عند الشدائد ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿ [الأنعام : ٤٠-٤١] .

قال الزجاج : « أعلمهم أنهم لا يدعون في الشدائد إلا إياه ، وفي ذلك أعظم الحجج عليهم ، لأنهم عبدوا الأصنام » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ (٥٢) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ [النحل : ٥٣-٥٥] ، وقوله عز من قائل : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ أَلْأَرْضِ أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر : ٨] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن المشركين يجأرون إلى الله تعالى معترفين بألوهيته عند شدائدهم ، فإذا عادوا إلى رخطهم رجعوا إلى ما

كانوا عليه من الشرك .

٤- دعوتهم عن طريق إيراد الحجج العقلية الدالة على وحدانية الله تعالى ، ومحاولة اقناعهم ببطلان باطلهم ، كما قال تعالى : ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الْبَيْنُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٣٩-٤٠] .

وفي هذا استدعاء لعقولهم أن تتحرك في التفكير بين إله واحد وهو الحق سبحانه- يتصرف في هذا الكون بحكمته البالغة ، وبين آلهة متعددة لا تملك صرفاً ولا عدلاً ، ولا يملك العبد معها تحديداً في التصرف لو قُدِّرَ ، وهي حجة دامغة للمشركين والمجوس القائلين إن لهذا الكون خالقين فالنور يخلق الخير ، والظلمة تخلق الشر ولا خير فيها ، ويعبدون النار ويسجدون للشمس . قال الفخر الرازي : « إن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته ؛ لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ، ورفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أننا هل نعبد هذا أم ذاك ؟ » (١) .

وكما قال تعالى : ﴿قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْتَحُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد قوله تعالى : ﴿قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْتَحُونَ﴾ الإنكار على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل ، والاحتجاج على أهل الباطل بباطلهم عن طريق العقل ، أي كيف تنتحونه أنتم وتصنعونه أنتم ، ثم بعد ذلك تعبدونه أليس الأولى من الناحية العقلية أن يكون هذا المنحوت هو الذي يعبدكم ؛ لأنكم أنتم الذين نحتموه وأوجدتموه ، ولكن عقولهم متكسة فصار

الأمر بالعكس يعبدون ما ينحتون»^(١).

٥- إقامة الحجة عليهم بالاستدلال بالمتقابلات ، بين خالق هذا الكون بما فيه من مخلوقات عظيمة والمتصرف فيه بحكمته جل وعلا- ، وبين ما يعتقدده المجوس من تقسيم التصرف بأحداث الكون إلى خالقيْن هما الظلمة والنور ، ثم هم يصرفون العبادة للنار ، والسجود للشمس في تخبط عقدي عجيب ، وبين ما يعتقدده المشركون في أصنامهم بأن لها شيئاً من التأثير كدفع ضرر أو جلب نفع ، وهي مخلوقات حقيرة لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً ، ومثال ذلك المتقابلات الأربعة التي اشتمل عليها قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسَوَّى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴾ [الرعد: ١٦] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] . جاء في تفسير أبي السعود : « ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ هذه المصنوعات العظيمة ، ويفعل هاتيك الأفاعيل البديعة ، أو يخلق كل شيء ، ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً أصلاً ، وهو تبكيت للكفرة ، وإبطال لإشراكهم وعبادتهم للأصنام بإنكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى »^(٢) .

وقال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قال تعالى مبيناً بطلان آلهة الكفار : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . فالله تعالى وحده هو الخالق خلق كل شيء فقدره تقديراً ، وخلقُهُ يشمل ما يقع من مفعولاته ، وما يقع من

(١) « تفسير سورة الصافات » (٢١٥) .

(٢) « إرشاد العقل السليم » (١٠٤ / ٥) .

مفعولات خلقه أيضا»^(١).

والمضامين السابقة دلت على عناية القرآن الكريم بدعوة المجوس والمشركون عموماً، وأبرز الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم كما هو واضح من المضامين أسلوب الإقناع وإيراد الحجج العقلية؛ لصد استكبارهم وتعتُّهم وترفعهم عن الحق وقبوله، واستجوابهم عن طريق معتقداتهم التي لا ينكرونها؛ لتكون مدخلاً يستفيد منه الداعية في استجلابهم للحق، وتقدم في المضامين كلام الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عن استفهامهم بقوله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧] فهم لا ينكرون العالم الذي تعيش فيه آلهتهم، فكيف تكون آلهتهم مربوبة؟! وما تقدّم من طرق دعوة المشركين: الاحتجاج عليهم باعترافهم بتوحيد الربوبية، وإقرارهم بتوحيد الألوهية عند الشدائد، ودعوتهم من هذا الباب كفيل باضطراب عقيدتهم؛ لأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية فمن أقر بأحدهما لا بد أن يُقرّ بالآخر وإلا وقع في التناقض، ودلت المضامين على أهمية دعوتهم عن طريق المتقابلات ومن خلال إيراد الحجج العقلية الدالة على وحدانية الله تعالى واستدعاء عقولهم أن تتحرك في التفكير في وحدانيته جل وعلا المتصرّفة في هذا الكون وتديره.

هذه أبرز الحجج والبراهين الداخلة ضمن المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس، وفي كتاب الله تعالى تنوّع في طرح الحجج والبراهين^(٢) التي أخذت بلبّ جبابرة الفرس، ودهاة العرب وفصحائهم، وحيرت عقولهم

(١) «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١ / ١٨).

(٢) انظر مزيداً من هذه الحجج والبراهين: «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام» للرحيلي (١ / ٣٩١ - ٤٧٠)، و«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية (١ / ٣١٥)، (١ / ٣٥١)، و«مجموع الفتاوى» (١ / ٩٢)، (٧ / ٧٥).

المتبعة لأوثان لا تملك صرفاً ولا عدلاً ، مما حدا بهم إلى أن فتح الله على قلوب كثير منهم إلى طريق الهداية والدعوة الحقّة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وفتح الله على رسوله ﷺ مكة ، والمتأمل لدعوة النبي ﷺ للمشركين في مكة من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ- يجد مضمون الدعوة فيها يهتم بغرس الاعتقاد الصحيح بإثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وبتعميق المعاني الإيمانية ، وغرس الصبر في النفوس ، والترقية على الأخلاق الفاضلة ، وانتزاع شوائب الجاهلية وما بقي من سلوكهم وعاداتهم ، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة وتوثيق الصلة بالله تعالى ليزاد إيمانهم ويقووا على مواجهة أعدائهم .



المبحث السابع : دعوة المنافقين

إن من أشهر أصناف المدعوين الذين تضافرت النصوص في توجيه الدعوة إليهم المنافقين ، فقد جاءت نصوص الكتاب والسنة مليئة مبيّنة صفاتهم وأعمالهم وحال قلوبهم وقصصهم وتعاملهم مع النبي ﷺ ، ووصفهم الذي لا ينفكون عنه ويُعرفون به على مرّ العصور ، حتى أنزل الله تعالى سورة تسمى (سورة المنافقون)^(١) ، وعليه فإن المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المنافقين لها معالم بارزة أوضحها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره كما سيأتي ، والنفاق لم يكن معروفاً أول الإسلام ؛ لأن سبب ظهوره هو سطوة المسلمين وظهورهم على أعدائهم عندها يتخفى الكافر بلباس المنافق الذي يظهر الإسلام خوفاً من سطوة المسلمين ويبطن الكفر ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « والنفاق لم يكن معروفاً قبل الإسلام ، ولا في أول الإسلام ؛ لأن أول الإسلام ليس هناك قوة للمسلمين يخافها الناس ، لكن لما صار للمسلمين شوكة ، وقوي المسلمون وذلك بعد انتصارهم في غزوة بدر في السنة الثانية بدأ النفاق يظهر ، وقال المنافقون : إن أمره قد اشتد وظهر ، فلا بد أن نداهنه ، ولا بد أن نظهر أننا معه حتى لا ينالنا بسوء ، وحصل لهم ما أرادوا ، فإن الرسول ﷺ لم ينالهم بسوء ، حتى أنه استؤذن في قتلهم فقال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في مجموع فتاويه ورسائله « (٣ / ٥٧) : « والمنافقون أضمر على الإسلام من ذوي الكفر الصريح ، ولهذا أنزل الله تعالى فيهم سورة كاملة كان من هدي النبي ﷺ أن يقرأ بها في صلاة الجمعة ؛ لإعلان أحوال المنافقين ، والتحذير منهم في أكبر جمع أسبوعي وأكثره ، وقال فيها عن المنافقين : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [المنافقون : ٤] » ١ هـ .

أصحابه»^(١) لكن هذا لا ينفعهم ، إذاً : أول ما ظهر النفاق حين قوي المسلمون بعد غزوة بدر»^(٢) .

ويقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في معنى النفاق : « وقوله : ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] المنافق : اسم فاعل من نافق ، وهو مأخوذ من نافقاء اليربوع ؛ أي : جحره ، وجحر اليربوع مبني على الخداع ؛ لأن الجربوع أو اليربوع يكيد ، فيجعل له باباً في جحره يدخل منه ، ويجعل له باباً من قشرة الأرض في أقصى الجحر ، فإذا زاحمه أحد من الباب المعهود المفتوح ؛ خرج من الباب الخفي ، فخداع ، فلهذا أخذ منه كلمة : « منافق »^(٣) .

والنفاق في الاصطلاح الشرعي : هو إظهار الإيمان ، وكتمان الكفر بالقلب^(٤) .

فالمنافق : هو الذي يظهر غير ما يُبطنه ويخفيه من التكذيب لله جل وعلا

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) ، ، وسيأتي قريباً بلفظه .
وفي « القول المفيد على كتاب التوحيد » (٢ / ٢٦٩) قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ :
« أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم ؛ لثلاث تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه ، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط » اهـ ، وانظر : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (١٠ / ٨٥٣) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٤٣) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٦٤) ، وانظر : « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٥ / ٩٨)
و« لسان العرب » (١٠ / ٣٥٩) و« تاج العروس » (٢٦ / ٤٣٥) مادة (نفق) .

(٤) « التعريفات » للجرجاني (ص : ٢٤٥) .

وفي « القول المفيد على كتاب التوحيد » (٢ / ١٧٧) ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تعريف المنافق : « هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وسمي منافقاً من النافقاء ، وهي جحر اليربوع ، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء - أي يحفر في الأرض خندقاً حتى يصل منتهى جحره ثم يحفر إلى أعلى ، فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف - ، فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء » .

ولرسوله ﷺ ، والتكذيب بأصول الايمان ، وهو المنافق الخالص ^(١) .

ولقد جاءت المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المنافقين إلى الله تعالى بطابع خاص ؛ لخصوصية الصفات التي تلبس بها المنافقون ، وحالة التقلب التي يعيشونها ، فيظهرون للمسلمين بحال يوحى بأنهم منهم وليسوا كذلك ، ولذا تعامل معهم النبي ﷺ بمنهج دعوي خاص ^(٢) يناسب حالهم المتذبذب .

- وأبرز المضامين الدعوية في دعوة المنافقين :

أولاً : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ** [البقرة : ١٢] : « من فوائد وأحكام هاتين الآيتين :

- أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم ، ويبيّن لهم حالهم ، وأنهم يفسدون في الأرض ، ووجه الإفساد من هؤلاء أهم يعطون للمسلمين السنة طيبة وقولا معسولاً ، فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره ، ولكنهم كاذبون في ذلك ، ويحصل بهذا الفساد حيث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار .

ومن إفساد المنافقين في الأرض أيضاً- أنهم يريدون أن تُمَحَى شريعة الله عَزَّجَلَّ وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت ، والطاغوت كل نظام يخالف شرع الله سبحانه وتعالى أي : يخالف ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده ، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله

(١) انظر : « أصول الدعوة » (٣٩٦) .

(٢) انظر رسالة : « المنهج الدعوي في تعامل النبي ﷺ مع المنافقين » ، للباحثة : هيلة بنت عبيد الجدعاني .

ورسوله ؛ لقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿ [النساء: ٦٠-٦١] ﴾ (١) .

ومن هنا كانت دعوتهم للحق من أشق أصناف المدعوين بيانًا ووضوحًا ؛ لأن الداعية لا يستطيع التحكُّم بمدى التأثير وصدق الاستجابة عند المنافق لدعوته ؛ ولشدة طغيانهم ومكرهم ، وإعجابهم بأنفسهم وطريقتهم .

ثانيًا : قال الله تعالى مبيِّنًا شدة طغيانهم وإعجابهم بأنفسهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣] ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « - من فوائد الآية : أن المنافق لا تنفعه الدعوة إلى الخير ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ؛ فهم لا ينتفعون إذا دعوا إلى الحق ؛ بل يقولون : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ، ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿ كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ ﴾ ذكر من استجاب للحق ليكون مشجعًا على قبوله ، وهنا أمر معلوم ؛ لأن الإنسان يتأسى بغيره بلا شك .

- ومنها : إعجاب المنافقين بأنفسهم ؛ لقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ .

- ومنها : شدة طغيان المنافقين ؛ لأنهم أنكروا على الذين عرضوا عليهم الإيمان : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ ﴾ ؛ وهذا غاية ما يكون من الطغيان ؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٥] ﴾ (٢) .

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٦٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٤٩) .

ثالثًا : لقد كان النبي ﷺ يدعوهم غيرهم من أصناف المدعوين ، ومن أهم المضامين الدعوية المتعلقة بطرق دعوة المنافقين كما في الهدى النبوي والتي جاء في تفسير الشيخ رحمه الله ما يدل عليها ما يلي :

- تنزيلهم منزلة المسلمين في التعامل الديني ، وعدم الدخول في نياتهم وإنما التعامل معهم بالظاهر ؛ ليكون ذلك أدعى لقبولهم واستجابتهم كما استجابوا لحسن تعامل النبي ﷺ ؛ ولئلا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يفرق بين أصحابه في التعامل فيقتل بعضا ويترك بعضا ، عن جابر بن عبد الله يقول : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ ، فَكَسَعَ^(١) رَجُلٌ مِّنَ الْمُهَاجِرِينَ ، رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لِلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِّنَ الْمُهَاجِرِينَ ، رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : « دَعُوهَا ، فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ » فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فَقَالَ : قَدْ فَعَلَوْهَا ، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . قَالَ عُمَرُ : دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ ، فَقَالَ : « دَعُهُ ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »^(٢)

وهذا التعامل الدعوي من النبي ﷺ له أبلغ الأثر لمن فتح الله على قلبه من المنافقين فانتهى عن نفاقه وعاد لصوابه ، وإجراء التعامل معهم على الظاهر هو الموافق للحكمة في التعامل الدعوي معهم ؛ لئلا يكون للمنافق مدخل في الطعن بالمسلمين ، وبند تعاملهم ؛ ولئلا يجري القتل على دماء معصومة يُظَنُّ أنها من المنافقين ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح (١ / ١٧٩) : « الكسع هو أن يضرب بيده على شيء أو برجله ، ويكون أيضا إذا رماه بسوء ، وقال الخليل : أن يضرب بيده ورجله دبر إنسان . »

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) .

﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «من فوائد الآية: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: على ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله عَزَّجَلَّ، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استؤذن في قتلهم: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)؛ ويتفرع على ذلك أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تدلُّ هذا الأصل، ومن ثمَّ قال الفقهاء رَحِمَهُمُ اللهُ: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة، ومن هنا أحذَّر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا... إلخ^(٢)، ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنون في قلبه، وهذا خطأ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر، قال النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحوِّ مما أسمع منه...»^(٣) (٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومن جالسني يعلم ذلك مني: أي من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى وإنِّي أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطاياها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية» اهـ. «مجموع الفتاوى» (٣ / ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣).

(٤) «أحكام من القرآن الكريم» (١ / ٥٦)، وفي موضع آخر قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ريب أن المنافقين كفار - وإن تظاهروا بالإسلام ولكن هل نعاملهم معاملة الكفار؟ الجواب: لا نعاملهم معاملة الكفار؛ لأن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ وأحكام الآخرة تجري على=

- ومن طرق دعوة المنافقين التي جاءت في النصوص ، بيان صفاتهم وأعمالهم دون تحديد أعيانهم وذكر أسمائهم ؛ ليكون ذلك مشجعاً لرجوعهم إلى الصواب وسلوك العقيدة الصحيحة والدخول في دين الله تعالى ، بخلاف فضحهم بأعيانهم فهو أدعى لعنادهم واستكبارهم وبعدهم عن دعوة الحق ، ومن أبرز صفاتهم الواردة في النصوص الكذب ، فهم من أكذب الناس ؛ وبهذه الصفة استطاعوا إظهار ما لا يبطنون^(١) ، قال الله تعالى مبيّناً هذه الصفة : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٧] ، قال الشيخ رحمه الله :

« من فوائد الآية : أن المنافقين من أكذب الناس ؛ لقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ويقولون : ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ﴾ [آل عمران : ١٦٧] وهم كاذبون في هذا ؛ لأنهم يعلمون أنه سيكون قتال ؛ لأن أعداء المسلمين جاءوا من بلادهم ، وتركوا أهلهم ، وتركوا بلادهم ، وتركوا أموالهم ، وهم في

= الباطن والسرائر ، كما قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ﴾^(١) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ [العاديات : ٩ ، ١٠] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٩] ؛ ولأنه لو عمل الناس في الدنيا على السرائر لكان في ذلك تكليف ما لا يطاق من وجه ، وكان في ذلك الفوضى التي لا نهاية لها من وجه آخر ؛ أما تكليف ما لا يطاق فلأننا لا نعلم ما في صدور الناس ؛ فلا يمكن أن نحكم عليه ؛ وأما الفوضى فلأنه يستطيع كل ظالم له ولاية أن يعاقب هذا الرجل ، أو بعدم هذا الرجل بحجة أنه مبطن للكفر ؛ ولما استؤذن النبي ﷺ في قتل المنافقين قال : « لا أقتلهم ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » [تفسير سورة البقرة] (٣ / ٣٢٤ - ٣٢٥) .

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في « القول المفيد على كتاب التوحيد » (٢ / ٣٨٤) : « فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق ، فيخفي في نفسه ما لا يبيديه لغيره [] لأنه يرى من جنبه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه ، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان » . اهـ .

غاية الحنق على الرسول ﷺ ، وفي غاية الاستعداد ، فهل يعقل أن قوماً جاءوا على هذه الصفة يرجعون دون قتال؟! «^(١) .

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] :

« من فوائد الآية : إثبات خداع المنافقين ، وأنهم قوم أهل خداع ومكر ، ولهذا كان من صفات المنافقين أنهم إذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ؛ لأن كل هذا يتضمن الخداع »^(٢) .

وقال تعالى: ﴿مُدْبِغِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَآئِلَ هَؤُلَاءِ وَلَا لَآئِلَ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجْدَلَهِ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن حال المنافقين التردد بين الكفر والإيمان ، لكن الحكم عليهم في الآخرة أنهم كفار ، أما في الدنيا فيعاملون على ظواهرهم ؛ لأن الأحكام في الدنيا على الظواهر »^(٣) .

ومن صفاتهم ردّ الدعوة ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾ [البقرة: ٢٠٦] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ :

« ومن فوائد الآية : التحذير من رد الناصحين ؛ لأن الله تعالى جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين ؛ فمن رد أمراً بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين ؛ والواجب على المرء إذا قيل له : « اتق الله » أن يقول : « سمعنا ، وأطعنا »

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٤٢٥) .

(٢) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٦١) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٦٩) .

تعظيمًا لتقوى الله»^(١).

وهذه الصفات التي جاءت في النصوص ، وتناولها الشيخ رحمه الله في تفسيره ، تبين الخصوصية المتعلقة بالمنافقين ، والتي لا يسع المسلم عموما والدعاة على وجه الخصوص - معها إلا الحذر من تقلبهم وتحين المناسب في دعوتهم ، والتبصر بحالهم وصفاتهم .

- ومن أبرز صفاتهم وأعمالهم الواردة في النصوص ما يلي :

أولاً : مرض القلب ، قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

ثانياً : الافساد في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١١ - ١٢] .

ثالثاً : رميهم المؤمنين بالسفه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ كَمَا ءَامَنَ السَّافِهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣] .

رابعاً : اللدد في الخصومة والعزة بالإثم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (٢٤) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (٢٥) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦] .

خامساً : موالاة الكافرين والترصص بالمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ بَشِّرِ الْمُتَفَقِينَ ﴾ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنَعُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٨ - ١٣٩] ، ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ

لَكُمْ فَتَحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ [النساء: ١٤١] .

سادساً: الخداع والرياء والتكاسل عن اداء العبادات ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ (١٤٢) مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣] .

سابعاً: التحاكم الى الطاغوت ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ﴾ (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ﴾ (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ [النساء: ٦٠-٦٣] .

ثامناً: الافساد بين المؤمنين ، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧] .

تاسعاً: الكذب والخوف وكره المسلمين ، قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ أَوْ مَغْرَبٌ أَوْ مَدْخَلٌ لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧] .

عاشرأ: يعييون أهل الحق ، ويرضون ويسخطون لحظوظ أنفسهم ، قال

تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

الحادي عشر: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، قال تعالى: ﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

الثاني عشر: الغدر وعدم الوفاء بالعهد قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

الثالث عشر: يعيرون المؤمنين ويسخرون منهم ولا يرضيهم منهم شيء، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

الرابع عشر: توأصيهم بترك الجهاد، قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

الخامس عشر: الإضرار بالمؤمنين وتسترهم بفعل ظاهره مشروع، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١٠٧) لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

أَنْ يَنْظَهُرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

- ومن طرق دعوة المنافقين وعظهم وتلمس ما له أبلغ الأثر في قلوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ :

« المنافقون لا يعلمهم إلا الله ، وهذا الأصل ، ولكن ربما نعرفهم في لحن القول ، أو بفراصة يعطيها الله تعالى من شاء من عبادته .

قوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ يعني : لا تتعب نفسك معهم ، ولا تعاملهم معاملة الكافرين فتقاتلهم ؛ لأنهم لم يعلنوا بالعداوة ، ولهذا لما استؤذن النبي ﷺ في قتل من استؤذن بقتله منهم ، قال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »^(٢) ، وهذا هو عين الحكمة ؛ لأننا لو سلطنا سيوفنا على أمثال هؤلاء لقتلنا عالماً ، وقد يكونون مؤمنين ، وإذا كان الرجل المشرك الذي لحقه أسامة رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ وأدركه بالسيف قال له النبي ﷺ : « أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟ ! »^(٣) مع

(١) انظر : « شرح رياض الصالحين » (١ / ١٣٦) لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، و « مجموع فتاوى

ورسائل ابن عثيمين » (٢٠ / ٣٨٠) ، و « أصول الدعوة » (٤٠٤٣٩٨) .

وانظر مزيداً : « صفات المنافقين » لابن القيم ، و « صفة النفاق وذم المنافقين » للفريابي ، و « صفة النفاق ونعت المنافقين » للأصبهاني .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) ، من حديث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، قال : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلِحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا عَشِينَاهُ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ ، وَطَعْنَتْهُ بَرْمُجِي حَتَّى قَتَلَتْهُ ، قَالَ : فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ لِي : يَا أُسَامَةُ ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا ، قَالَ : فَقَالَ : « أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » قَالَ : فَمَا زَالَ يَكُرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

أن الظاهر أنه قالها تعوداً ، فإذا كان هذا الرجل عصم دمه بهذه الكلمة فكيف بهؤلاء المنافقين الذين يذكرون الله ، ويأتون معنا ويصلون ويتصدقون ، فالكف عنهم هو عين الحكمة .

قوله : ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ الموعظة : هي التذكير المقرون بالترغيب والترهيب ؛ أي : أن تذكر الإنسان بما يلزمه من فعل أو ترك مع ترغيب أو ترهيب ، ترغيب فيما تأمره به ، وترهيب فيما تنهاه عنه .

قوله : ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي : قل لهم قولاً يصل إلى قرارة نفوسهم^(١) .

وليس للداعية أن تعرض عن دعوة المنافقين بحجة إضمار ما لا يظهرونه ، وتذبذبهم بين الإيمان والكفر ، بل الله تعالى أمر بوعظهم ، وتلمس ما له أثر عليهم لعل موعظة توقظ قلوباً مضطرباً ، وقولاً بليغاً يردّ عقلاً حائراً .

- ومن طرق دعوة المنافقين مجاهدتهم باللسان وذلك بالعلم والبيان الذي يحصل به ردّ شبهاتهم وشائعاتهم ، وهو من أهم الطرق في اندثار المنافقين وانخاسهم ، وشعورهم بضعفهم وبطلان مذهبهم ، وصواب غيرهم من المسلمين ، كما قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣] :

قال ابن العربي رحمه الله : « وأما المنافقون فكان مع علمه بهم يعرض عنهم ، ويكتفي بظاهر إسلامهم ، ويسمع أخبارهم فيلغيها بالبقاء عليهم ، وانتظار الفيئة إلى الحق بهم ، وإبقاء على قومهم ، لئلا تثور نفوسهم عند قتلهم ، وحذراً من سوء الشنعة في أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؛ فكان لمجموع هذه

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٦٩ - ٤٧٠) .

الأمر يقبل ظاهر إيمانهم ، وبادئ صلاتهم ، وغزوهم ، ويكل سرائرهم إلى ربهم ، وتارة كان ييسط لهم وجهه الكريم ، وأخرى كان يظهر التغير عليهم .

وأما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما قول من قال : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود فيهم لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم ، فإنه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد مساقها أنهم لم يكونوا منافقين»^(١) .

وقال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين : قسم بالعلم والبيان ، وقسم بالسلاح .

أما مَنْ مجاهدته بالعلم والبيان فهو الذي يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين ؛ مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك ، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح ؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا ، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان ، قال الله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جُنُودُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [التوبة : ٧٣] ، فجاهد الكفار يكون بالسلاح ، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان .

ولهذا كان الرسول ﷺ يعلم بأن في أصحابه منافقين ، ويعلمهم بأعيانهم ، ولكنه لا يقتلهم ، واستؤذن في قتلهم فقال : « لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه »^(٢) ، فذلك الذين ينضوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع

(١) « أحكام القرآن » (٢ / ٥٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) .

لا نقاتلهم بالسلاح ، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان «^(١) .

والمجاهدة بالعلم والبيان توحى للداعية بمزيد من التبصّر في دين الله تعالى ، والتعمق في معرفة شبه الأعداء وما يراوغون فيه لاسيما أهل النفاق ، فلطالما أوردوا على النبي ﷺ أسئلة شرعية ، وآراء حريية أرادوا بها هدم الدين وإضعافه بلسانٍ يظهر ما لا يبطن ، لكن البصيرة التي جعلها الله تعالى في قلب نبيه ﷺ ردّ الله بها كيدهم في نحورهم ، وأبان منهم كل خيانة للأمة ، وهكذا الداعية إذا أراد مجاهدتهم بالعلم والبيان ، فإنه يلزمه مع ذلك عمق في الاستدلال ، وتأصيل في العلم والبيان .

- ومن طرق دعوتهم التدرج معهم من الرفق واللين إلى الشدة والغلظة ، كما كان يفعل النبي ﷺ ، فلقد كانت دعوته بالرفق وبالقول الحسن ممثلاً قول الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ، وقوله : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، وهذا في سائر دعوته ﷺ كما استعمل هذا الرفق مع اليهود ، ومن ذلك ما روته عائشة ، قالت : اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا عَائِشَةُ « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » قالت : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قال : « قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ »^(٢) ، وهكذا كان يدعو النبي ﷺ المنافقين باللين والرفق ، ففي « الصحيحين » من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أن النبي ﷺ : « ... مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُشْرِكِينَ عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ ، وَالْيَهُودِ ،

(١) « شرح رياض الصالحين » (٢ / ٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥) .

فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُعْبَرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَتَزَلَّ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: أَيُّهَا الْمَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: اغْشِنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاتَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ: «أَيُّ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي - قَالَ: كَذَا وَكَذَا» ، قَالَ: اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ، لَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدْ اضْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ أَنْ يُتَوَّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعَصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ، شَرِقَ بِذَلِكَ^(١)، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ...»^(٢).

هذا تعامله ﷺ مع رأس المنافقين بالرفق واللين ومواقف لطف النبي ﷺ ورفقه في الدعوة كثيرة مشهودة، لكن إن استدعى الأمر الغلظة عليهم كانت هي الأنسب. في التعامل مع المنافقين، كما فعله مع نفس الشخص الذي رفق به وهو عبدالله بن أبي، وذلك في حادثة الإفك حيث صعد النبي ﷺ المنبر فقال:

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح مسلم» (١٢ / ١٥٩): «قوله: «شَرِقَ بِذَلِكَ» بكسر الراء أي: غَصَّ، ومعناه: حسد النبي ﷺ وكان ذلك بسبب نفاقه»، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفتح» (١ / ١٣٨): «قوله «شَرِقَ بِذَلِكَ»: بكسر الراء أي ضاق صدره حسداً كمن غَصَّ بالماء» وانظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاظمي عياض (٦ / ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٧)، ومسلم (١٤٢٢ / ٣) برقم (١٧٩٨).

« يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا » ، فَذَكَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ ... الحديث (١) ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : « قوله في حديث الإفك من يعذرني من رجل هو عبد الله بن أبي » (٢) .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « وقصة الإفك : أن قوماً من المنافقين تكلموا في عرض عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وليس والله قصدهم عائشة ، لكن قصدهم رسول الله ﷺ : أن يندسوا فراشه ، وأن يلحقوه العار والعياذ بالله ! ولكن الله والله الحمد - فضحهم ، وقال : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] » (٣) .

واستعذار النبي ﷺ دليل على شدة الكلام وغلظه تجاه من تسبب في إشاعة القول على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بحديث الإفك ، وهذا هو المناسب لا سيما مع المنافقين إن استدعى ذلك المقام بعد القول بالحسنى والدعوة بالرفق ، وعليه يُحمل أمر الله تعالى بالغلظة عليهم في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُنْحِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣] .

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية : « يأمر الله تعالى نبيه ﷺ ، بجهاد الكفار والمنافقين ، والإغلاظ عليهم في ذلك ، وهذا شامل لجهادهم ، بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة ، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال ، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله

(١) أخرجه البخاري بطوله (١١٣ / ٩) برقم (٧٣٦٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

(٢) فتح الباري (١ / ٢٨٦) .

(٣) « شرح العقيدة الواسطية » (٣٤٢) ، وحادثة الإفك بطولها ، رواها البخاري في « صحيحه » (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

وينقاد لحكمه ، فإن هذا يجاهد ويغلظ له ، وأما المرتبة الأولى ، فتكون بالتي هي أحسن»^(١) .

والتنوع في دعوة المنافقين بين اللين والغلظة ، هي المناسبة لتنوع حالهم وتقلبها وتذبذب قلوبهم كما قال الله تعالى عن حالهم ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣] ، ولذا جاءت المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المنافقين متنوعة وفقاً لنفاقهم وما يتقلبون فيه من حال كما تقدّم بيانه ، وأفادت هذه المضامين أن أبلغ ما يؤثر في دعوة المنافقين هو تنزيلهم منزلة المسلمين من حيث التعامل الدنيوي كما دلّت على ذلك النصوص ، فهذا أدعى لقبولهم واستجابتهم ، وسدّ منافذ الخصومة والاستعداد على المسلمين بحجة التفرقة ، كما أن ذكر صفاتهم وأعمالهم التي جاءت متضادة في نصوص الكتاب والسنة والتي تميّزوا بها عن سائر المدعوّين دون التعرّض لأعيانهم طريقاً من طرق دعوتهم ومحفّزاً لهم في ترك قبائح الأعمال والبعد عن مواطن الانتساب للنفاق وأهله ، والمنافق تعثره بعض المراجعات التي ربما تستوقفه على قبيح صنيعه فمن المناسب دعوته بالوعظ وتذكيره بما له أثر في قلبه كما هي دعوة القرآن بذلك ، قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] ، وبالجملّة فإن دعوة المنافق دعوة تحتاج إلى فقه عميق ، وفهم دقيق ، وذلك بالرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة وتأمّل المضامين فيها من خلال التفاسير وشروح السنة ، فإن الداعية كلما تبصّر بما أوردته النصوص في حياة المنافقين وصفاتهم وأحوالهم

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٧٤) .

وتقبلت لهم كان ذلك أدعى لمعرفة طبائعهم ومفاتيح دعوتهم إلى الحق الذي
أراد الله تعالى لعباده .



الفصل الخامس

الأساليب والوسائل الدعوية المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الأساليب الدعوية ، وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدل بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .

المبحث الثاني : الوسائل الدعوية ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

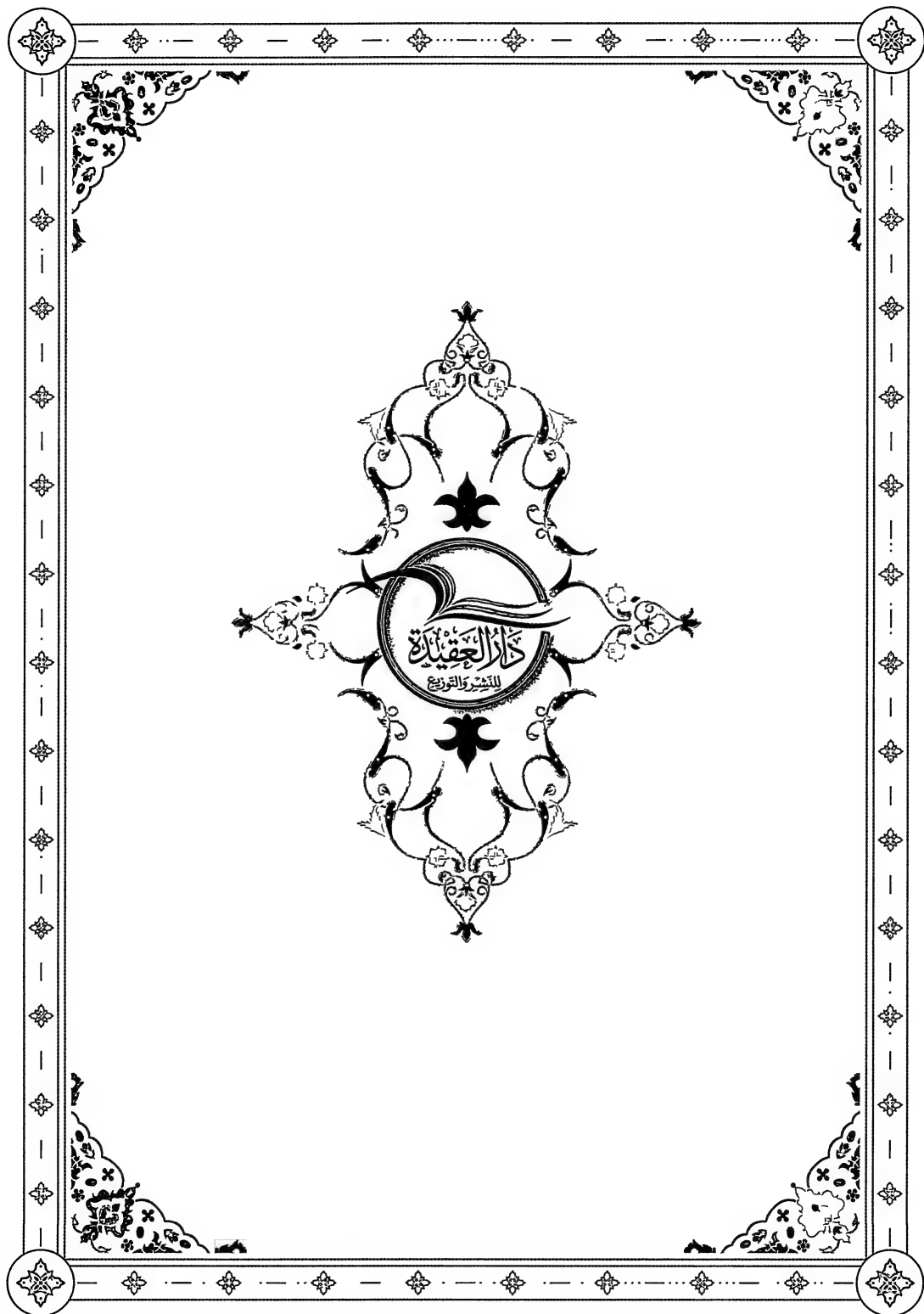
المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل والدعاة

المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرى .



المبحث الأول

الأساليب الدعوية المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : الحكمة .

المطلب الثالث : الموعظة الحسنة .

المطلب الرابع : الجدل بالتي هي أحسن .

المطلب الخامس : الترغيب والترهيب .

المطلب السادس : الأمثال .

المطلب السابع : القصص .

المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها

إن من أهم المضامين الدعوية تأثيراً في ميدان الدعوة إلى الله هي المضامين المتعلقة بالأساليب والوسائل الدعوية ؛ لأن مادة الدعوة وموضوعاتها لا يمكن إيصالها كما ينبغي إلا بأساليب الدعوة ووسائلها .

ولقد استعمل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سائر الأساليب بما يقتضيه مقام الدعوة إلى الله تعالى ، فجاءت دعوتهم بالترغيب والترهيب ، وكذا الحكمة ، وضرب الأمثال ، والقصص ، والجدال بالتي هي أحسن ، والموعظة الحسنة ، والمراوحة بين هذه الأساليب للوصول إلى ما يناسب المدعو ، فهذا نبي الله تعالى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول مبيناً تنقله بين أساليب الدعوة إلى الله تعالى تلمساً ما يناسب قومه ، قال الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۖ ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِيءَ إِذِ انْتَبِهُوا ۚ وَأَسْتَغْثُوا إِثْبَاتَهُمْ ۚ وَأَصْرُوا ۚ وَأَسْتَكَبَرُوا ۚ اسْتِكْبَارًا ۖ ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۚ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۖ ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۖ ﴾ [نوح : ٥-١٢] .

فنوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نوعٌ في الإسلوب رغبةً بهداية قومه ، فأسرَّ في دعوته ، وأعلن ، ورغب ، ورهب ، كل ذلك لينقلهم من شركهم إلى توحيد الله تعالى .

ولقد احتوى كتاب الله تعالى على أساليب دعوية مهمة للداعية ترفع من مستواه في ميدانه الدعوي لو أتقنها وأحسن استعمالها ، وتبصَّر في مضامينها الواردة في كتب التفاسير ، ومن أبرز كتب التفسير التي سطَّرت المضامين

الدعوية المتعلقة بالأساليب ، تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كما سيأتي بيانه .

- تعريف الأساليب الدعوية .

الأسلوب في اللغة : الطريق ، والوجه ، والمذهب ؛ يقال : أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع أساليب . والأسلوب : الطريق تأخذ فيه . والأسلوب ، بالضم : الفن ؛ يقال : أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه ^(١) .

وفي الإصطلاح للأساليب تعريفات متقاربة ، ومن ذلك :

قيل : هي الطرق والكيفيات المؤثرة المقنعة التي يتم بها تبليغ الإسلام ، والحث على تطبيقه ^(٢) .

وقيل : هي العلم الذي يتصل بكيفية مباشرة تبليغ الدعوة وإزالة العوائق عنه ، وهي الطريقة التي يسلكها الداعية في تأليف كلامه ، واختيار ألفاظه ، وتأدية معانيه ، ومقاصده من كلامه ^(٣) .

وقيل : هي الطرق التي يسلكها الداعية في دعوته ، أو كيفيات تطبيق مناهج الدعوة ^(٤) .

ومما تقدّم يتضح أن الأساليب الدعوية هي طرق وكيفيات يتم اختيار ألفاظها وتأليفها لتؤدي رسالة الدعوة إلى الله تعالى .

(١) « لسان العرب » (١ / ٤٧٣) ، و« مختار الصحاح » (١٥١) ، و« المصباح المنير » في (١ / ٢٨٤) ، مادة (سلب) .

(٢) « فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري » د . سعيد القحطاني (٢ / ١١٢١) .

(٣) « مناهل العرفان في علوم القرآن » للزرقاني (٢ / ٣٠٣) .

(٤) « المدخل إلى علم الدعوة » (٢٤٢) .

ونظر الداعية في الأساليب الواردة في الكتاب والسنة وما تضمنته من مضامين دعوية ، وتأملها ومحاولة محاكاتها في ميدان الدعوة من أهم ما ينبغي مراعاته ، ولاسيما وساحة الدعوة اليوم في بعض ميادينها- تشكو ضعفاً في انتهاج الأسلوب الأمثل المبني على المنهج الشرعي المؤصل في توصيل رسالة الإسلام وتعاليمه .

وأهمية الأساليب الدعوية ترجع إلى أن إتقانها ومعرفة استعمالها سبب في شمول الدعوة واستيعابها كافة أطراف المجتمع وتنوع ثقافتهم ومقدراتهم واختلاف فهمهم واستيعابهم ، فاختيار الأسلوب الأمثل راجع إلى حال المحيط الذي تنصب عليه الدعوة بظروفه المحيطة به ، فالعامي الذي لا يفهم الأسلوب العلمي يناسبه الأسلوب القصصي أو ضرب الأمثال ، والعقلاني الذي يرد الأمور إلى العقل والفهم يناسبه الأسلوب الإقناعي بالحجج العقلية ، والجدال بالتي هي أحسن ، والعاصي الذي انغمس في غفلاته يحتاج إلى موعظة حسنة توقظ قلبه ومراوحة بين الترغيب والترهيب ، وهكذا يقال في سائر الناس حسبما يقتضيه الحال ، وما الداعية إلا طبيب يداوي المدعوين بالأسلوب الأمثل .

كما أن تنوع الأساليب الدعوية يساعد على كسر الملل الذي يصاحب المدعوين جرّاء الأسلوب الأوحاد ؛ لئلا يذهب مقصود الدعوة والاستفادة من مضمونها بسبب السآمة التي تلحق المدعو ، والاعتماد على أسلوب واحد أو أسلوبين خلاف الأسلوب القرآني الذي يأخذ بلُبِّ كل مَنْ قرأه بتدبر وتمعن في أساليبه المتنوعة ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « والقرآن الكريم مثاني تتنّى فيه المعاني ، فيؤتى بالمعنى وما يقابله ، ويأتي بأصحاب النار وأصحاب الجنة ، ويأتي بآيات الترهيب وآيات الترغيب ، وهلم جرّاً ، لأجل أن يكون

الإنسان سائراً إلى الله عزَّجَل بين الخوف والرجاء ، ولثلا يمل ، فإن تنويع الأساليب وتنويع المواضيع لا شك أنه يعطي النفس قوة واندفاعاً ، بخلاف ما لو كان الكلام على وتيرة واحدة ، فإن الإنسان قد يمل ولا تتحرك نفسه «^(١) .

كما أن تنوع الأساليب من أقوى العوامل المؤثرة على المدعوين ، وانجذابهم إليه ؛ لأنه سيحاكي عقولهم بما يناسب الجميع ، وهذا مُشَاهِدٌ في الواقع الدعوي ، وملموس بما يُصرِّح به المدعوون أحياناً من عيهم على مَنْ يلازم طريقة واحدة في الطرح الدعوي .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَوُتُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للداعي إلى الله أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس ، ويعطفهم عليه ؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿يُقَوْمِ﴾ ؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد ، والتلطف ، والتحبب ما هو ظاهر »^(٢) .

والداعية إلى الله إذا استعمل الأسلوب المناسب ، مقتفياً في ذلك نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما جاء في كتاب الله تعالى ، ومتبعاً سنة محمد ﷺ في دعوته ، كان له من أمره رشداً ، وكتب الله لدعوته أثراً ، وإن من أهم ما يساعد على النظر في الأساليب التمعُّن في آيات الله تعالى ، والقراءة في تفاسيرها ، فإن ذلك يوقف الداعية على مضامين دعوية متعددة ذات علاقة بالأساليب كما سيظهر في مطالب هذا المبحث من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

(١) « تفسير جزء عم » سورة البينة (٢٨٠) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (١ / ١٨٨) .

(٣) « المفردات في غريب القرآن » للأصفهاني (٢٤٩).

وأمثاله . وقيل : الإصابة في القول والفعل ، وقيل : معرفة الحق والعمل به ، وقيل : العلم النافع والعمل الصالح ، وقيل : سرعة الجواب مع الإصابة ، وقيل : وضع كل شيء في موضعه^(١) ، وهو ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ حيث قال : « الحكمة قال العلماء : إنها من الأحكام وهو الإتقان ، إتقان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه فهي وضع الأشياء في مواضعها »^(٢) .

ومن تتبع سيرة النبي ﷺ وجد أن الحكمة ملازمة له في جميع أموره ، وخاصة في دعوته إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، فهو النبي الحكيم ﷺ الذي ملأ الله قلبه بالإيمان والحكمة ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءٍ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطُسْتٍ^(٣) مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي ، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ... »^(٤) الحديث .

وهذا يدل على أن الحكمة من أهم الأمور في الدعوة إلى الله تعالى ، حيث

(١) انظر : « جامع البيان » للطبري (١ / ٤٣٦) و « معالم التنزيل » للبغوي (١ / ٢٥٦) (١ / ١١٦) و « زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي (١ / ٣٢٤) و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (٢ / ١٣١) (٣ / ٦٠) و « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (١ / ١٨٤) (١ / ٣٢٣) و « روح المعاني المثنائي » للألوسي (١ / ٣٨٧) و « تيسير الكريم الرحمن » (١ / ١٧٣) (١ / ٢٩٠) ، و « فتح الباري » لابن حجر (١ / ٦٧) ، و « تفسير سورة البقرة » لابن عثيمين (٢ / ٨٧) ، (٢ / ٢٤٢) .

(٢) « شرح رياض الصالحين » (٢ / ٣٥٠) ، وانظر : (٤ / ٧٤) ، وانظر : « تفسير سورة الحديد » (٣٥٩) ، و « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٤ / ٢٦٩) .

(٣) إناء كبير مستدير . انظر : « فتح الباري » لابن حجر (١ / ٤٦٠) « تاج العروس » (٥ / ٥) ، مادة (طست) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩) .

امتلاً بها صدر النبي ﷺ ، وقد جاء بها روح القدس في طست الذهب وهو أثنى المعادن ، وفي مكة المكرمة البقعة المباركة بعد غسله بماء زمزم الذي هو أطهر الماء وأفضله ، كل هذه المعاني في هذا الموقف يدل على أن الحكمة لها شأن عظيم في الدعوة إلى الله تعالى .

ولقد احتوى تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ على جملة من المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الحكمة ، وأبرز المضامين الدعوية في أسلوب الحكمة ما يلي :

أولاً : في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لقول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، قال : « انظر للحكمة ، أحياناً يكون الإنسان المدعو غضبان بسبب مؤثرات خارجية ، فلا تتحمل نفسه أن يقبل منك حتى ولو كان كلاماً عادياً ، وأحياناً يكون راضياً ومنسطحاً تقدر أن تضرب له الأمثلة حتى يهديه الله ، ولهذا يخطئ بعض الناس مثلاً - إذا قابل شخصاً ولم يعامله المعاملة اللائقة به ، نفر منه ، فمثل هذه الأمور لا ينبغي للإنسان أن يحكم على الشخص بمجرد أنه دعاه مرة ونفر ، انظر للوقت الذي تراه فيه متقبلاً وادعه إلى الحق »^(١) .

ثانياً : أسلوب الحكمة إنما يفوز به من استطاع فهم أحوال الناس ، وراعى في ذلك المكان والزمان ، فمداره على حال المدعو وما يناسبه ، وحينما يقع الخلل والخطأ في تقدير الحال سيكون التشخيص من الداعية في دعوته بما لا يناسب ، ولربما أورت عاقبة لا تُحمد ، وردة فعل لا تنبغي ، ولذا كان لزماً على الداعية أن يولي لهذا الأسلوب اهتمامه ، ويتأمل مضامينه .

وفي تفسير قول الله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

أَوْفَى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَنِ ﴿البقرة: ٢٦٩﴾ ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ :
 « من فوائد الآية : أن الله سبحانه وتعالى يمنُّ على مَنْ يشاء من عباده بالحكمة ،
 فتجدُ الرجل حكيماً في قوله وفي فعله وفي تركه وفي إقدامه وفي جميع
 أحواله ، متأنياً مُطَّلِعاً إلى المستقبل ، وإلى الآثار فيزُن بعضها ببعض ، ويُقدِّمُ
 حيث كان الإقدام خيراً ويُخجِمُ حيث كان الإحجام خيراً ... »

- ومن فوائدها : تفاضل الناس في هذا : أن منهم مَنْ يُؤْتَى الحكمة ، ومنهم
 من يُحرَم الحكمة .

- ومنها : أن مَنْ أُوتِيَ الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ، فأموره تكون مرتبة فد
 تأتِي فيها وقد علم كيف يضع قدمه ، فتجده قليل الزلل وإن كان الإنسان ليس
 معصوماً - لكن مَنْ أُوتي الحكمة فهو أقل زللاً من غيره ...

- ومنها أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله وحده الحكمة ؛ لأنه إذا كان الذي
 يُؤْتِي الحكمة هو الله ، فإلى مَنْ نلجأ إذا أردنا الحكمة؟! إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، فأنت
 يا أخي المسلم إذا أردت الحكمة فاطلبها ممن يقدر على إعطائك إياها ، ولكن
 مع هذا نقول : إن التجارب لها دور عظيم في الوصول إلى الحكمة ، وإن
 مصاحبة العقلاء أيضاً لها دور عظيم في تحصيل الحكمة ، فاعمل أنت أيها
 المسلم بدعاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يعطيك الحكمة ، وكذلك أيضاً بالأسباب الأخرى
 الحسنية حتى تصل إلى مرادك ^(١) .

فمن أبرز سبل نيل أسلوب الحكمة هو سؤال الله تعالى ذلك ، فإن الله تعالى
 يمنُّ على من دعاه بالإجابة ، ومن ذلك إذا سأل الله تعالى الحكمة ، كما سألها
 النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : صَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ ،

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٩٤-٢٩٥) .

وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ»^(١) فَإِذَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الدَّاعِيَةِ بِالْحِكْمَةِ كَانَ ذَلِكَ جَانِبًا ظَاهِرًا فِي قُوَّتِهِ الْعَمَلِيَّةِ وَحَسَنَ تَصْرِيفِ الْأُمُورِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَزِنَ الْأُمُورَ وَالْحَوَادِثَ وَيَضَعُهَا مَوَاضِعَهَا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ الْحِكْمَةِ فِي الْآيَةِ: «هِيَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَمَعْرِفَةُ أَسْرَارِ الشَّرَائِعِ وَحُكْمُهَا، وَإِنْ مِنْ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَقَدْ آتَاهُ خَيْرًا كَثِيرًا وَأَيُّ خَيْرٍ أَعْظَمَ مِنْ خَيْرٍ فِيهِ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ وَالنَّجَاةُ مِنْ شَقَاوَتَهُمَا! وَفِيهِ التَّخْصِيسُ بِهَذَا الْفَضْلِ وَكَوْنُهُ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَكَمَالُ الْعَبْدِ مَتَوَقِّفٌ عَلَى الْحِكْمَةِ، إِذْ كَمَالُهُ بِتَكْمِيلِ قُوَّتَيْهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فَتَكْمِيلُ قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَةِ الْمَقْصُودِ بِهِ، وَتَكْمِيلُ قُوَّتِهِ الْعَمَلِيَّةِ بِالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ، وَبِذَلِكَ يَتِمَّكُنُ مِنَ الْإِصَابَةِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَتَنْزِيلِ الْأُمُورِ مَنَازِلَهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَبِدُونِ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُهُ ذَلِكَ»^(٢).

ثَالِثًا: إِذَا أُنْزِلَ الدَّاعِيَةُ الْأُمُورَ مَنَازِلَهَا، وَتَبَصَّرَ فِي مَنَاسِبَةِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ، مَرَاعِيًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، اسْتَطَاعَ أَنْ يُقَدِّمَ دَعْوَتَهُ لِمَدْعُوِّهِ بِمَا يَنَاسِبُ التَّذْكِيرَ أَوْ التَّحْذِيرَ أَوْ التَّرْغِيبَ كُلُّهُ بِمَا يَنَاسِبُهُ، قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]: «مِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ فِي خُطَابِهِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ كُلَّ مَا يَكُونُ فِيهِ التَّنْفِيرُ فِيمَا يَنْفَرُ مِنْهُ، أَوْ التَّرْغِيبُ فِيمَا يَرْغَبُ فِيهِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَسْلُوبِ الْحِكْمَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١١٥).

(٣) «تفسير سورة النساء» (٢/ ٢٩٩).

رابعاً: لقد كان العلماء الأوائل يستعملون أسلوب الحكمة في كثير من ميادين الدعوة إلى الله تعالى، للوصول إلى قلب المدعو بما يناسبه، وإقناعه بالوصول إلى الحق الذي جار عنه، قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «أكثر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في «الفتوى الحموية» النقول عن العلماء من الأشاعرة، وغيرهم؛ وقال: «إنه ليس كل من نقلنا قوله فإننا نقول به؛ ولكن لما كان بعض الطوائف منتحلاً إلى إمام أو مذهب، صار لو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم» وهذا من الدعوة بالحكمة فإنه يقنع المعارض بما لا يمكنه نفيه ومعارضته إذا أتى إليه بشيء من كلام مقلده لا يمكنه أن يحيد عنه ...» (١).

خامساً: الداعية إلى الله تعالى لن يستطيع ترتيب أولويات الأسلوب وبماذا يبدأ وما يناسب حتى يكون له نصيب من الحكمة، فبالحكمة يعرف مواضع اللين والشدّة، والوعظ والندارة والبشارة، وما يناسب الحال، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]: «لو قال قائل: البشارة هل تكون وسيلة لتأليف قلوب أصحاب المنكرات، كأن يقال لهم: أبشروا أنتم على خير ونحو ذلك؟

الجواب: لكل مقام مقال، قد يكون من الحكمة أن لا تنفر الناس بذكر التخويف والوعيد، وقد يكون بالعكس، فمثلاً: إذا كنت تخاطب شخصاً معيناً منغمساً في الآثام، فهنا ربما يكون جانب التخويف أفضل، لكن مع التخويف تقول له: يا أخي باب التوبة مفتوح، واذكر قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، حيث ذكر أمهات العظائم، ومع

ذلك قال : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، فلكل مقام مقال ، لا يمكن أن تذكر شيئاً معيناً^(١) .

ومن خلال المضامين الدعوية السابقة المناطة بأسلوب الحكمة يتضح أن الداعية إلى الله تعالى لن يتتهج الأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله حتى تكون الحكمة من أبرز الأساليب في دعوته إلى الله تعالى ؛ لئلا يقع مع مدعويه بما ينافي الدعوة إلى الله ، فلا بد أن يكون فاهماً ومدركاً لاختلاف أحوال مدعويه ، وما يطرأ عليهم من المؤثرات النفسية كالغضب والرضا ، والإقبال والإدبار ، متأنياً في اتخاذ الأسلوب الأمثل ؛ لئلا يقع ضحية الاستعجال بوضع الشيء في غير موضعه المناسب ، ولا بد أن تظهر الحكمة عليه في قوله وفعله وأخذه وردّه وفي سائر شأنه مع مدعويه ، ويراوح بين الشدة واللين ، والوعظ بالندارة والبشارة بما يتناسب مع المقام ؛ ليدرك في ذلك السير على نهج دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الحكمة ، والتي هي الطريقة المثلى التي سار عليها النبي ﷺ والسلف الصالح من بعده ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن طريقة أهل السنة العملية واتباعهم للأثر ، قال : « (اتباع الآثار) : لا اتباع إلا بعلم ، إذاً ، فهم حريصون على طلب العلم ، ليعرفوا آثار الرسول ﷺ ثم يتبعونها فهم يتبعون آثار الرسول ﷺ في العقيدة والعبادة والأخلاق والدعوة إلى الله تعالى ، يدعون عباد الله إلى شريعة الله في كل مناسبة ، وكلما اقتضت الحكمة أن يدعوا إلى الله ، دعوا إلى الله ، ولكنهم لا يخطون خبط عشواء ، وإنما يدعون بالحكمة ، يتبعون آثار الرسول ﷺ في الأخلاق الحميدة في معاملة الناس باللطف واللين ، وتنزيل كل إنسان منزلته ، يتبعونه أيضاً في أخلاقه مع أهله ، فتجدهم يحرصون على أن يكونوا أحسن الناس لأهلهم » (٢) .

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٥١)، و (٢ / ٤٨).

(۲) «مجموع فتاویٰ و رسائل العثیمین» (۸ / ۶۳۴).

المطلب الثالث : أسلوب الموعظة الحسنة

بعدما أمر الله تعالى بالدعوة إليه بالحكمة ، عطف على ذلك أسلوباً مهماً في الدعوة إلى الله تعالى وهو أسلوب الموعظة الحسنة فقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، لما للموعظة من أهمية عظيمة في الإسلام ، فهي أسلوب يزيل عن النفس آثار الغفلة والبعد عن الله تعالى ، ويحملها على تحريك القلب بالخوف والرجاء ، والزجر عن الأعمال المفضية للعقاب ، والحث على ما فيه نيل للثواب ، ولذا كانت آيات القرآن موعظة كما قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] .

قال القاسمي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره : « ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي تركية نفوسكم بالوعد والوعيد ، والإنذار والبشارة ، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب ، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب ، لتعلموا على الخوف والرجاء »^(١) .

والموعظة لغة : الوعظ والعظة والعظة والنصح والتذكير بالعواقب ، قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُليِّن قلبه من ثوابٍ وعقاب ، وفي التنزيل : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ، لم يجئ بعلامة التأنيث ؛ لأنه غير حقيقي ، أو لأن الموعظة في معنى الوعظ حتى كأنه قال فمن جاءه وعظ من ربه^(٢) ، وقال ابن فارس : « الوعظ : هو التَّخْوِيفُ وَالْإِنْذَارُ ، وَقَالَ الْخَلِيلُ : هو

(١) « محاسن التأويل » (٦ / ٣٥) .

(٢) « لسان العرب » (٧ / ٤٦٦) مادة (وعظ) .

(٥) « فتح القدير » (٣ / ٢٤٢) .

موعظة ترعّب النفوس في أفعال الخير وترهبهم من أفعال الشر أقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاخِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وكذا نبينا محمد ﷺ استعمل أسلوب الموعظة في تبليغ الرسالة وتذكيره لأصحابه كما سيأتي .

والموعظة من أهم الأساليب الدعوية ، وأكثرها تأثيراً لاسيما على أهل الإيمان ؛ لأن غالب ما يعترضهم هو الغفلة والقسوة لا الجحود والعناد ، فمناسبة أسلوب الوعظ لغفلتهم أكثر من غيره من الأساليب كما سيأتي بيانه .

- ومن أبرز المضامين الدعوية في أسلوب الموعظة :

أولاً: بيان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لفقه أسلوب الموعظة ومتى يكون؟ قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: « ينبغي للإنسان الواعظ للناس أن لا تكون موعظته بالترغيب دائماً أو بالترهيب دائماً ؛ لأنه إن أدام الترغيب أوقعهم في الأمن من مكر الله ، وإن أدام الترهيب أوقعهم في القنوط من رحمة الله ، فالواعظ في الحقيقة كالطبيب ، إن أعطى جرعة زائدة هلك المريض ، وإن نقص لم يبرأ المريض ، لا بد أن الإنسان يراعي الأحوال ، لا يقتصر على الترغيب دائماً ولا على الترهيب دائماً ، وإذا قلنا بهذه القاعدة تبين لنا أن من الناس من الأولي في حقه الترغيب ، ومن الناس من الأولي في حقه الترهيب .

فإذا رأيت شخصاً مقبلاً على طاعة الله حريصاً عليها ، فهنا نقول : الأولي الترغيب ، حتى نحثه على الطاعة وتقدمها ونؤمله القبول ، وإذا رأيت أحداً بالعكس متهاوناً بالطاعة ، مصراً على المعصية ، فهنا جانب الترهيب أولى ومع ذلك نأمره بالتوبة ونرغبه في قبولها»^(١) .

وهذا الفقه من الأهمية بمكان ، فكثير ممن لا يُحسن الوعظ يديم جانب

(١) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢٩٥) .

الرجاء في مواعظه حتى يظن المدعو أن ما عمله من الذنوب هيناً ، أو يُغَلِّب جانب الخوف في وعظه حتى يظن المدعو أن قد هلك فيقنط من رحمة الله تعالى ، والفهم الصحيح أن يراعي الداعية حال المدعو في مواعظه هل هو في حال إقبالٍ وندمٍ فيرغبه أو إدبار وإعراض فيُرهبه مع المراوحة بين الحالين .

ثانياً : من فقه الموعظة أن يعلم الداعية أن الموعظة ليست خاصة بحال الترغيب والترهيب فحسب ، بل الأوامر والنواهي داخلة في ذلك ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ﴾ [النساء : ٦٦] :

« من فوائد الآية : أن الأحكام الشرعية مواعظ ، ولهذا سمى الله القرآن موعظة ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [يونس : ٥٧] ، ووجه كون الأوامر والنواهي موعظة : أن الإنسان يتعظ بها فيمثل الأمر ويجتنب النهي ، وكثير من الناس لا يفهم من كلمة موعظة إلا ما كان مقروناً بالترغيب أو الترهيب ، وهذا ليس بشرط »^(١) .

ثالثاً : الوعظ كما أنه يقع في الأمر والنهي وتعليم أوامر الدين ، فهو يقع في مساق الترغيب والترهيب كما هو معلوم ، والوعظ بالتخويف أيضاً أسلوب وعظي قرآني ، قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : قرن المواعظ بالتخويف ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عَزَّجَلَّ ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله ، ويقوم بما أوجب الله ، ويترك ما نهى الله عنه ؛

وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عَزَّجَلَّ يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان التي يؤمن بها ؛ وذلك ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم ؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله «^(١)» .

وتحصّل مما سبق : إن الوعظ ينقسم إلى قسمين :

١- وعظ التعليم : ويكون ببيان عقائد التوحيد ، وبيان الأحكام الشرعية الخمسة : من الواجب ، والحرام ، والمسنون ، والمكروه ، والمباح ، مع مراعاة أحوال الناس ، ويسوق الداعية ذلك مساق الوعظ الذي يلين القلوب ، ويبعثها على العمل ، لا سرداً مملاً خالياً من التأثير .

٢- وعظ التاديب : ويكون بتحديد الأخلاق الحسنة ، وبيان آثارها ومنافعها في المجتمع ، والحث على التخلق بها ، والتزامها ، وتحديد الأخلاق السيئة ، والتحذير عن الاتصاف بها عن طريق : الترغيب والترهيب .

مستشهداً في وعظه بالكتاب وصحيح السنة ، وآثار الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ^(٢) .

رابعاً : يُقسّم الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ الموعظة إلى قسمين باعتبار آخر - مبيّناً مَنْ الذي ينتفع بالموعظة ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦] ، حيث قال :

« من فوائد الآية : أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون .

- ومنها : أن المواعظ قسمان : كونية ، وشرعية ؛ فالموعظة هنا كونية قدرية ؛

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٤١) .

(٢) انظر : « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٢٦٦ ، ٤٦٢) و« تفسير الكريم الرحمن » (١ / ٢٧٨)

(٢ / ٣٥) و« هداية المرشدين » لعلي محفوظ (١٤٣) ، و« فقه الدعوة في صحيح الإمام

البخاري » للقحطاني (١ / ١٠٥١) .

لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظة للمتقين ، وأما الشرعية فمثل قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس : ٥٧] ؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية ، أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم ؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات .

- ومنها : أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون ؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية ، ولا بالمواعظ الشرعية ؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطراراً ، وإكراهاً ، وقد لا ينتفع ، وقد يقول : هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور : ٤٤] ؛ وقد ينتفع ، ويرجع إلى الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان : ٣٢] « (١) .

خامساً : أهمية الوعظ في التذكر وإيقاظ القلوب من غفلتها ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص : ٤٦] ، قال الشيخ رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : « معلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه ؛ ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأتها واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة ، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من النوم ، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير ، غفلوا وكانهم ما خلقوا لعبادة

الله ، وجعلوا لهم أصناماً يعبدونها من دون الله ، ويركعون لها ، ويسجدون وينذرون ويوفون ، فهم غافلون لعدم من يوقظهم»^(١) .

فلا يمكن أن ينتفع بالوعظ إلا من كان ، حاضر القلب ، سليم النفس ، له قلب يتذكر ويتفكر ، وعقل يتأمل ويتدبر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة ، فيه ذكرى لنوعين من الناس : الأول ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي : من كان له لب وعقل يهتدي به بالتدبر والثاني : ﴿ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي استمع إلى غيره ممن يعظه وهو حاضر القلب فيبين الله تعالى أن الذكرى تكون لصنفين من الناس :

الأول : من له عقل ووعي يتدبر ويتأمل بنفسه ويعرف ، والثاني : من يستمع إلى غيره ، ولكن بشرط أن يكون شهيداً أي حاضر القلب ، وأما من كان لا يستمع للموعظة ، أو يستمع بغير قلب حاضر ، أو ليس له عقل يتدبر به ، فإنه لا ينتفع بهذه الذكرى ، لأنه غافل ميت القلب»^(٢) .

سادساً : يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ حائِثاً الدعاة إلى الله تعالى ببذل النفس في ميدان الدعوة ومرشداً إلى الفقه المطلوب في طرح أسلوب الموعظة الحسنة : « وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله ، تعليماً في الحلقات والمجالس العامة والخاصة ، حتى لو كنت في مجلس قهوة ، فإن من الخير والإحسان أن تعلم الناس ، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلم الناس ، ولكن

(١) « تفسير سورة يس » (٢١) .

(٢) « تفسير سورة ق » (١٠٩) .

استعمل الحكمة في هذا الباب ، فلا تثقل على الناس حيث كلما جلست مجلساً جعلت تعظهم وتحدث إليهم ؛ لأن النبي ﷺ كان يتخولهم بالموعظة ، ولا يكثر ؛ لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملّت كلّت وضعفت ، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم»^(١) .

ومن خلال المضامين السابقة يستشعر الداعية أهمية أسلوب الوعظ في الدعوة إلى الله تعالى ، وأن من فقه الوعظ أن ينوّع الداعية في دعوته بين الترغيب والترهيب وفي الأمر والنهي ، ومعرفة من يناسبه أسلوب الوعظ ويتذكر به ، ويسمو بالقلب عن مواطن الغفلة ، مراعيًا في ذلك القدر المناسب في الوعظ ، فكثرة الوعظ تُخلُّ بالمقصود وتُقلِّل فائدته ؛ لما يورثه من السآمة والملل ، عن ابن مسعود ، قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ « يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا »^(٢) ، كما أن جفاف الميدان الدعوي من أسلوب الموعظة الحسنة يُحدث خللاً ظاهراً ، ومكاناً شاغراً في الخطاب الدعوي ؛ لما للموعظة الحسنة من أثر كبير في النفوس ، فهو أسلوب يحمل المضمون الدعوي بطابعه الخاص في محاكاة القلوب وإقبالها على الله تعالى ، « فالمواعظ سياط القلوب ؛ لاشتغالها على القول الحق الذي يُليِّن القلوب ، ويؤثّر في النفوس ، ويكَبِّحُ جِمَاحِ النفوس المتمرّدة ، ويزيدُ النفوس المهدّبة إيماناً وهداية ، ومن تأمل آثار الموعظة عَلِمَ حقاً حاجة النفوس لها »^(٣) ، أما القلوب التي لم تقارعها المواعظ ستبقى غافلة ، بعيدة عن ذكر الله تعالى .

(١) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٣ / ٢١٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٨) ، ومسلم (٢٨٢١) .

(٣) انظر : « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (١٩ / ١٦٤) و « مفتاح دار السعادة » لابن القيم (١ / ٤٧٤) .

والداعية إلى الله تعالى يعلم يقيناً أهمية أسلوب الموعظة الحسنة في إقبال القلوب المؤمنة وإيقاظها من غفلاتها ، فيعطي هذا الأسلوب الدعوي حقه من الدعوة إلى الله تعالى بالفقه المطلوب عند طرحه في الميدان الدعوي ، بلا إخلال ولا إملال ، ومستزيداً من المضامين الدعوية لأسلوب الموعظة الواردة في نصوص الكتاب والسنة .



المطلب الرابع : الجدل بالتي هي أحسن

الأسلوب الدعوي الثالث الذي ذكره الله تعالى في قوله جلّ وعلا- : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] هو أسلوب الجدل بالتي هي أحسن .

ويُعد الجدل أمراً فطرياً جُبِلَ عليه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] ، والأمر الفطري أياً كان- لا يكون محموداً إلا إذا أحسن الإنسان استعماله ، ومن ذلك الجدل في الدعوة إلى الله تعالى ، فقد أمر الله باستخدامه في الدعوة وقد ظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ، وأمر الله تعالى بالجدل بالتي هي أحسن فيه دلالة واضحة على أهميته وأثره في حقل الدعوة إلى الله ، ولقد استعمل الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أسلوب الجدل في دعوتهم ، ومن ذلك قول قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَلَنَا ﴾ [هود: ٣٢] ، وفي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، وأي أسلوب يستعمله الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يُعد من الأساليب المهمة ، واهتم النبي ﷺ والصحابة من بعدهم والتابعين لهم بإحسان بهذا الأسلوب الدعوي ، وما نقل عن بعض السلف من ذم الجدل ، فهو محمول على الجدل المذموم والمماراة والمحاجة الباطلة أو ما لا فائدة فيها .

والجدل في اللغة : هو اللدد في الخصومة والقدرة عليها ، والجدال : مقابلة

الحجة بالحجة ، ورجل جدل إذا كان قوي في الخصام ، وجادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم^(١) .

وذكر العلماء عدة تعريفات متقاربة للمجادلة في الاصطلاح ومن ذلك :

قال الراغب الأصفهاني : « هي المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة »^(٢) .

وقال الجرجاني : « دفع المرء خصمه عن إفساد قوله : بحجة ، أو شبهة ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة »^(٣) .

وقال الكفوي : « هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة ، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره والنظر قد يتم به وحده »^(٤) .

والمجادلة بالتي هي أحسن أسلوب دعوي استعمله الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما تقدّم - واستعمله النبي ﷺ ، ومن ذلك : ما جاء في الصحيحين ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّهُ قَالَ : بَيْنَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ » ، فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَنَادَاهُمْ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا » ، فَقَالُوا : قَدْ بَلَغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَ لَهُمْ

(١) انظر : « مختار الصحاح » (٥٥) و« لسان العرب » (١١ / ١٠٣) ، و« المصباح المنير » (٩٣ / ١) ، و« تاج العروس » (٢٨ / ١٩٤) و« المعجم الوسيط » (١ / ١١١) و« النهاية في غريب الحديث » (١ / ٢٤٧) ، مادة (جدل) .

(٢) « المفردات في غريب القرآن » (١٨٩) .

(٣) « التعريفات » (٧٤) .

(٤) « الكليات » (٣٥٣) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » (١ / ١٥٣)، وانظر: « التفسير القيم » لابن القيم (٣٥٩).

الجدال ، وأنها من مقامات الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] :

« من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدال ؛ لقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ ، فتعلم يا أخي طرق الجدال ، من أجل أن تجادل بها لنصرة الحق »^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن المحاجة لإبطال الباطل ، وإحقاق الحق من مقامات الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

- ومنها : الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق المناظرة ، والمحاجة ؛ لأنها سُلَّم ، ووسيلة لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ؛ ومن طالع كتب شيخ الإسلام ونحوها تعلم المناظرة ولو لم يدرسها فناً »^(٢) .

والجدال لا يكون أسلوباً دعوياً مؤثراً ومطلوباً في الميدان الدعوي حتى يكون بالحسنى كما تقدّم - أما إذا لم يكن كذلك فهو مذموم لا يراد مطلقاً ، فضلاً على أن يكون أسلوباً دعوياً .

ثانياً : ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ أقسام الجدال وحكم كل قسم منوهاً بالجدال المحمود ومحذراً من الجدال المذموم ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] ،

(١) « تفسير سورة الأنعام » (١٣٨) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٨١) .

حيث قال : « لولا الجدل مع أهل الباطل ما تبين الحق ، ولا اندحض الباطل ، فلا بد للإنسان من الجدل في إثبات الحق ، وإبطال الباطل ، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم .

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدل إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : جدال محمود ، مأمور به : إما وجوباً ، أو استحباباً .

القسم الثاني : جدال مذموم ، منهي عنه .

القسم الثالث : جدال بين بين .

أما الجدل الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق ، وإبطال الباطل ، وهذا مأمور به ، وهو كالجهاد في سبيل الله ، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله ، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم ، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل .

والقسم الثاني : بالعكس وهذا مذموم منهي عنه ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى : ١٦] .

والقسم الثالث : بين بين ، يعني لا يأمر به^(١) ، ولا ينهى عنه ، لكن لاشك أن تركه أولى ، وهو الجدل في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة ، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات ، فهذا لاشك أنه لا خير فيه ، وأنه

(١) هكذا في الطبعة على البناء للمعلوم ، والأظهر والله أعلم أنها للبناء للمجهول : (لا يؤمر به) بدليل ما بعدها .

من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه»^(١).

وعلى الداعية التفطن لفقه هذا الأسلوب الدعوي والتفرقة بين ما كان محموداً فيُمثَّل، وما كان مذموماً فيُجتنب؛ لأن الجدل المذموم يورث الشحناء، ويهدر الأوقات، ولا يف بالمقصود، بل قد يكون وبالاً على الداعية بدمَّ طريقته في الدعوة إلى الله تعالى، ولقد ابتلي واقع المسلمين اليوم بشيء ظاهر من الجدل المذموم حتى في الأوساط الدعوية، فما كان من نتاجه إلا تشتت الجهود، وتفرق القلوب، وتدابر الأبدان، وضعف الأعمال، وتبدد الطاقات الفاعلة في المجتمع بسبب جدال مذموم ربما على جزئية يسيرة حضر

(١) «تفسير سورة يس (٢٩٠-٢٩١)، والنهي عن الجدل في النصوص يُحمَل على الجدل المذموم، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَتٍ فَمَنْ فُرضَ فِيهِكَ الْحَجُّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «من فوائد الآية: تحريم الجدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾؛ والجدال إن كان لإثبات الحق، أو لإبطال الباطل فإنه واجب، وعلى هذا فيكون مستثنى من هذا العموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ وأما الجدل لغير هذا الغرض فإنه محرم حال الإحرام؛ فإن قلت: أليس محرمًا في هذا، وفي غيره لما يترتب عليه من العداوة، والبغضاء، وتشويش الفكر؟ فالجواب: أنه في حال الإحرام أوكد». «تفسير سورة البقرة» (٢ / ٤١٨).

قال أبو الفرج الحنبلي: «اعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة الجدل وما تصرف منها في كتابه العزيز في تسعة وعشرين موضعاً ولفظه الحجة وما تصرف منها في سبعة وعشرين موضعاً ولفظة السلطان أيضاً في ثلاثة وثلاثين موضعاً الجميع المراد به الحجة سوى موضع واحد في الحاقة: ﴿هَآكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٩] وقيل: المراد به الحجة، فأما الجدل فهو مذموم في كل موضع ذكر إلا في ثلاثة مواضع: أحدها: في النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، الموضع الثاني: في العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، الموضع الثالث: في المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]. «استخراج الجدل من القرآن الكريم» لناصح الدين ابن الحنبلي (٥٢٤٩).

فيها الشيطان فكان له نصيب هذا التناج .

ثالثاً : بين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي مضامين أسلوب المجادلة بالحسنى آداباً وتوجيهات نافعة يحسن بالداعية أن يراعيها عند امثاله لأسلوب الجدل بالتي هي أحسن ومنها :

- أنه ينبغي لمن يستعمل أسلوب المجادلة ألا يجادل إلا بعد أن يتمكن من العلم الذي سيخوض فيه ؛ لئلا يؤتى الإسلام من قبله ، ويظهر ضعف الحجة لعدم تمكنه من العلم ، وهذا التنبيه من أهم ما ينبغي أن يراعيه الداعية ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تُحَاجُّوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] : « من فوائد الآية : ذم المحاجة بغير علم ؛ لقوله : ﴿ فَلَمْ تُحَاجُّوْا فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وما أكثر هذا الواقع المؤسف المر في زمننا هذا ، كثير من الناس اليوم يحاجون فيما ليس لهم به علم ، بل بما تقتضيه عقولهم القاصرة ، فيقول مثلاً : لم صار كذا؟ ولم صار كذا؟ لماذا كان هذا حراماً وكان هذا حلالاً؟ لماذا كان هذا واجباً وكان هذا غير واجب؟ وما أشبه ذلك ، فيحاجون فيما ليس لهم به علم . وكثير من العامة الذين عندهم لسن وبيان ، وإن من البيان لسحراً- يجادل طالب العلم في أمر لا يعلمه هو ، بل مجرد مجادلة ومراء » (١) .

- أنه ينبغي لمن يستعمل أسلوب المجادلة أن يعرف جميع حجج الخصم وشبهه ؛ لكي يستحضر الرد عليها بما يناسب ، وذلك عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، قال

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن أهل الباطل يحتاجون في الحق لإبطاله ؛ ولكن حججهم باطلة .

ويتفرع على هذه الفائدة : أنه ينبغي للإنسان أن يعرف شبه المخالفين التي يدعونها حججاً لِيَنْقُصَ عليهم منها ، فيبطلها ؛ قال الله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] « (١) .

وتمكن الداعية من العلم ، وتبصره بحجج الخصم ومدخله من شأنه أن يعطي أسلوبه الدعوي قوة في الدعوة بإظهار الحق وانتصاره ، وإزهاق الباطل واندفاعه ، وكم جرّت بعض المناظرات مع أهل الباطل والتي يكون فيها المناظر المنسوب لأهل الحق فاقداً لأهلية الجدل من ويلات وإضعاف ، وإظهار للحق بمظهر الباطل ، فكان الداعية فاقد التأهيل العلمي فتنة لأهل الحق بورود الشبه عليهم ، وفتنة لأهل الباطل بثباتهم على باطلهم ظناً منهم أنهم على حق ، وعليه فليتيق الله من ينتصب للجدال لاسيما المبثوث عبر وسائل الإعلام العصرية - أن يؤتى الإسلام من قبله .

- استعمال العدل مع المُجَادِل ، والتنزّل معه لإلزامه بالحُجَّة الدامغة ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد هذه الآية :

- التنزّل مع الخصم لإلزامه بالحق ، كيف ذلك ؟ لأنه قال : ﴿ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، والحق بلا شك مع الرسول ﷺ ، لكن من أجل إلزام الخصم وإقامة

(۱) «تفسير آل عمران» (۱ / ۳۷۰).

مَرِيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿[المائدة: ١٧]﴾، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: « من فوائد الآية: أنه عند المناظرة ينبغي بأن تبدأ بأول مَنْ يحتج به المناظر، وأنه على خلاف ما ناظر عليه، وجهه: أن الله بدأ بذكر إهلاك المسيح وأمه الذي يعتقد هؤلاء أنه إلهًا »^(١).

وإن كان لحجته حكماً بُدِءَ به ثم يطالب بالحجة والبرهان على هذه النتيجة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: « من فوائد الآية وأحكامها: أن يُقَدِّمَ المناظرُ الحكم على قول مناظره، ثم يطلب منه الحجة على إثباته؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ونظير ذلك أن يقول قائل: هذا واجب لا بُدَّ من فعله، فأقول: هذا قولك فهات دليلك إن كانت صادقاً، فيثبت المناظر أولاً أن هذا قول المناظر، وأن هذا ليس له أصل، ثم يتحداه بطلب الدليل.

- ومن فوائدها وأحكامها: قوة المحاجة في كتاب الله عَزَّجَلَّ التي تدحض الخصم وتُفْجِمُهُ؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المعلوم أنه لا برهان لهم في ذلك، فإن دخول الجنة ليس معلّقاً باليهودية أو النصرانية، بل هو مُعَلَّقٌ بما ذكره الله تعالى فيما بعد.

- ومن فوائد الآية وأحكامها: الإنصاف في معاملة الخصم، وإلا فإنه يكفي أن يقول الله عَزَّجَلَّ: هذا باطل، ولكنه سبحانه وتعالى - حكم عدل، فطلب من

(١) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٣٤)، وانظر: « تفسير سورة يس » (٢٩٧).

هؤلاء المدَّعين أن يأتوا بالحجة والبرهان»^(١).

- ذكر الحجَّة الظاهرة البيِّنة للخصم دون الحجج التي ربما يجد له فيها مدخلاً ،
عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

« من فوائد الآية : أنه ينبغي للمناضل المجادل أن لا يذكر من الحجج ما
يمكن للخصم أن يدَّعي مثله أو أن يميل يميناً وشمالاً ، وإن ذكر ذلك فليذكر ما
لا يمكن أن يدَّعيه الخصم ، ووجه ذلك أن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ عدل عن
مناضلة هذا الرجل بالطرق الخفية إلى مناظرته بالطرق الجليلة ...

- من فوائد الآية : أنه ينبغي للمجادل المُحَاجَّ أن يأتي بالضربة القاصمة التي
لا مجال ولا محاولة للتخلُّص منها ؛ لأنه لما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَإِنَّ
اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بُهِتَ الذي كفر ، ما
استطاع الرد »^(٢).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا
مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣] :

« من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان أن يتحدَّى خصمه بما تبينُ به الحججة
على وجه لا مفر له منه ؛ لقوله : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وهكذا ينبغي في
المناظرة أن الإنسان لا يأتي بحجة واهية ؛ لأنه إذا أتى بحجة واهية ، ثم كسرت

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٩٧-٢٩٨) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٦٤-٢٦٥) وانظر : « تفسير سورة ص » (١١٦) .

أمامه ضعفت عزيمته وبان خله ، وإذا أتى بحجة لا يمكن أن يلحقها نقص ، صار هذا أقوى لعزيمته وأنكى لخصمه ، أرأيت محاجة إبراهيم عليه السلام للذي حاجه في ربه ، قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، فقال المحاج الخصم : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥] ، لكن هل هذه دعوى أو منزلة على شيء معين ؟ فيها خلاف ، بعضهم قال : إنها دعوى وهو كاذب ، لكن فيها إيهام ، وبعضهم قال : إنها منزلة على شيء معين ، وأن قوله : ﴿ أَنَا أُحْيِي ﴾ يعني أوتى بالرجل يستحق القتل ، فأرفع القتل عنه فيكون في هذا إحياء ، ﴿ وَأُمِيتُ ﴾ يعني أوتى بالشخص البريء فأمر بقتله ويقتل .

لكن إبراهيم عليه السلام لم يجادله مجادلة تحتاج إلى طول منازعة ، قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، أي : انقطع ، لأنه عاجز عن أن يدعي الإتيان بقمر أو بنجم . وهكذا ينبغي أن تكون المخاصمة بحجة دافعة بعيدة عن الأشياء المشتبهة ^(١) .

ولأن المراد من استعمال أسلوب الجدل بالتي هي أحسن هو دعوة هذا الخصم للحق ، وسلوك أقرب الطرق لاستجابته وذلك بالبده بما لا مفر عنه وإقناعه بباطله هو المراد ، ولذا كان هذا الأدب من أهم مما يبدأ به ، لاسيما إذا استحضرنا أن طول المناظرة في الغالب تشتت المقصود وتجعله صاحب الباطل يتمسك بباطله أكثر ؛ لأنه وجد في طول المناظرة ما يتشبث به ويزينه له الشيطان بأنه حجة صالحة لثباته على باطله .

- حسن القصد والإخلاص في الجدل من أجل إظهار الحق لا من أجل انتصار النفس ، عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٥٣٩) ، وانظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٣٧) .

ومن خلال المضامين السابقة اتضحت أهمية أسلوب الجدل والتي هي أحسن في الدعوة إلى الله تعالى ، لاسيما وأن المناوئين لدعوة الحق ، والعاملين على تشويهها من الأعداء كثير منذ البعثة إلى يومنا هذا- وهذه سنة الله تعالى في الحياة ، ولا أظهر أسلوباً وأقوى حضوراً من أسلوب الجدل والتي هي

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٤٤٤-٤٤٥).

أحسن مع هؤلاء ، فلا بد من تعلُّم طرق الجدل ؛ استناناً بالرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم إلى الله تعالى ، ويُستفاد من المضامين المتقدِّمة أهمية التفريق بين الجدل المحمود المطلوب في الدعوة إلى الله تعالى ، وبين الجدل المذموم الذي حذَّرت النصوص من استعماله ، ومن الآداب والتوجيهات المستفادة مما سبق : أهمية التمكن العلمي لمن يتولَّى مناظرة الخصوم ؛ ليكون مُلمَّاً بالحق وكيفية ردِّ حجج الخصم ، حاضرَ البديهة لما يُعرض عليه من الشبهات ، بصيراً ببراهين الألداء وتفنيدها ، بادئاً بالأهم فالأهم ، مستهدفًا حجةَ الخصم الكبرى ليفلقها فيوهن ما بعدها ؛ لتتجاوز براهين الباطل ، مع استحضاره الإخلاص في مجادلته وطلب الحق والانتصار له ، لا الانتصار للنفس والهوى ، مستعملاً العدل مع الخصم ؛ ليكون ذلك أدعى لاستجابته ورجوعه إلى الحق .

وأسلوب الجدل بالتي هي أحسن من أكثر الأساليب التي تحتاج إلى مهارة وتعلُّم لطرقه وما يتعلَّق به ، مما يستوجب على الدعاة العناية به ، والنظر في مضامينه الدعوية في الكتاب والسنة وتقوية الحجة بهما في دعوة المعارضين .



المطلب الخامس : أسلوب الترغيب والترهيب

الترغيب في اللغة : « من رَغِبَ يَرْغَبُ رَغْبَةً إِذَا حَرَصَ عَلَى الشَّيْءِ ، وَطَمَعَ فِيهِ . وَالرَّغْبَةُ : السُّؤَالُ وَالطَّمَعُ »^(١) ، والترهيب لغة : رَهْبَةً وَرُهْبًا ، بالضم وبالفتح وبالتحريك ، وَرُهْبَانًا ، بالضم وَيُحَرِّكُ : خَافَ^(٢) ، وَرَهَبَ الشَّيْءَ رَهْبًا وَرَهْبًا وَرَهْبَةً : خَافَهُ^(٣) .

والمقصود بأسلوب الترغيب : هو استعمال كل ما يحمل النفس على الاستجابة وقبول الحق والسعي إليه والثبات ؛ لنيل مرضاة الله تعالى وثوابه في الآخرة ، وأما أسلوب الترهيب فهو التخويف من غضب الله تعالى وبطشه وعذابه في الآخرة ، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « الإنذار يقول العلماء : هو الإعلام المقرون بالتخويف ، والبشارة هي : الإعلام المقرون بما يفرح ويسر ، فالبشارة بالسار ، والإنذار بخلافه »^(٤) .

وأسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب الدعوية في تاريخ الدعوة إلى الله تعالى على مرّ العصور ، كما سيتضح ذلك من خلال المضامين الدعوية المتعلقة بهذا الأسلوب ، فهو من أساليب تبليغ الرسالات ، استعمله الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم ، وتذكيرهم لأقوامهم بما هم عليه من نِعَمِ الله تعالى التي ترغّبهم بطاعته وتوحيده ، وعبادته حق العباد ، محذرين

(١) « لسان العرب » (١ / ٤٢٢) ، مادة (رغب) .

(٢) « القاموس المحيط » (ص : ٩٢) ، مادة (رهب) .

(٣) « لسان العرب » (١ / ٤٣٦) ، مادة (رهب) .

(٤) « تفسير سورة الصفات » (٣٦٥) ، وانظر : « أصول الدعوة » (٤٣٧) .

أقوامهم إن امتنعوا من الاستجابة للدعوة وكفروا بالله تعالى أن يحلَّ بهم عذاب الله تعالى ، ومن ذلك قول الله تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٣٢] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ [١٣٣] وَحَنَّتِ وَعُيُونِ [١٣٤] إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٥] ، وقال تعالى عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] ، وقال تعالى آمراً نبيه محمد ﷺ بالردِّ على المكذبين المعاندين ومبيِّناً وظيفة البشارة والندارة التي بُعث بها : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ، والنصوص الدالة على استعمال جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أسلوب البشارة والندارة كثيرة ، مما يدل على أهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن رسالة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تتضمن هذين الشئيين وهما : البشارة والإنذار ، فلمن تكون البشارة ، ولمن يكون الإنذار؟ تكون البشارة لمن أطاع واتبع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، والإنذار بالعقوبة لمن كذب » (١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] : « من فوائد الآية : أن مضمون الرسالات الإلهية شيئان : البشارة ، والإنذار ؛ وذلك لأن المآل مآل الخلق - إلى

دارين هما : الجنة والنار ، فأما مؤمن يُبَشِّرُ بالجنة ، وإما كافر يُنْذِرُ بالنار ^(١) ، وفي موضع آخر لتفسير الآية قال :

«وقوله تعالى : ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ هذان حالان ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يأتون بالبشارة والندارة في آن واحد ؛ يعني : ليس بعض الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبشراً ، والآخر منذراً ؛ بل كل واحد جامع بين التبشير ، والإنذار ؛ أي مبشرين بثواب الله عَزَّجَلَّ لمن استحققه ؛ ومنذرين بعقاب الله من خالف أمره ؛ قال الله تبارك وتعالى - : ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف : ٢] ؛ فهنا بيّنت الآية المبشّر ، والمبشّر به ؛ فالمبشّر : المؤمنون الذين يعملون الصالحات ؛ والمبشّر به : أن لهم أجراً حسناً ما كثر فيه أبداً ؛ ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ^(٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿[الكهف : ٤ ، ٥] فالمنذر : هم الكفار ؛ والمنذر به : العذاب ^(٢) .

وكثرة مواطن أسلوب الترغيب والترهيب في القرآن الكريم دليل على أهميته في الدعوة إلى الله تعالى ، ففي معظم سور القرآن الكريم نجد هذا الأسلوب حاضراً ، وفي أعظم سورة فيه كذلك ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « وفي قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] ترغيب وترهيب : ترغيب في العمل الصالح ؛ لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب على عمله ، ويثاب عليه حرص على الأعمال الصالحة ، واجتهد ورغب فيها ، وترهيبٌ لأنه إذا عَلِمَ بأنه سَيُجَازَى على عمله ويُعَاقَبُ على سيئته ، أو على الأصح يستحق العقاب

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٦٧) ، وانظر : « تفسير سورة يس » (٢٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٧) .

على سيئته فإنه يخشى من ذلك ، ويتجنب الأعمال السيئة ؛ خوفاً من يوم الدين الذي يُجَازَى فيه العاملون بأعمالهم ؛ كما قيل : (كما تدين تُدان) فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عُدَّتَه ، وأن نعمل صالحاً يقربنا إلى الله عَزَّجَلَّ ، ويسعدنا في ذلك اليوم »^(١) .

والداعية إلى الله تعالى لا يحذو حذو الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوته حتى تشمل على أسلوب الترغيب والترهيب مراوحاً بينهما بما تقتضيه الحكمة ، والأُنفع في مقام الدعوة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « وكان أي النبي ﷺ - يهجر بعض المؤمنين ، كما هجر الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك ؛ لأن المقصود دعوة الخلق إلى طاعة الله بأقوم طريق ، فيستعمل الرغبة حيث تكون أصلح ، والرغبة حيث تكون أصلح »^(٢) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « ينبغي للداعية إلى الله أن تكون دعوته تارة بالترغيب ، وتارة بالترهيب ، بل الأفضل أن يجعل دعوته مشتملة على الترغيب والترهيب ، وذلك لأنها أي : الدعوة إذا كانت مقتصرة على الترغيب صارت سبباً للأمن من مكر الله ، وأن يتمادى الإنسان في معصية الله ، ويرجو الله ، وإذا كانت مشتملة على الترهيب صارت سبباً للقنوط من رحمة الله ، واستبعاد الرحمة ، وهذا ضرر ، بل ينبغي أن يكون الداعية جامعاً بين هذا وهذا ؛ ليحمل الناس على الرجاء وعلى الخوف ، ولهذا قال الإمام أحمد : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً ، فأيهم غلب هلك صاحبه . وقال بعض أهل العلم :

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ١٧) .

(٢) « منهاج السنة النبوية » (١ / ٦٥) .

الرجاء والخوف كالجناحين للطائر إن انخفض أحدهما سقط الطائر ، وإن تساوى صار طيرانه متزنًا^(١)»^(٢) .

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : أنه ينبغي للإنسان الداعي إلى الله أن يعامل الناس بما تعامل به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقوامها ، فتارة يبشر ، وتارة ينذر ؛ لأنه إن سلك سبيل البشارة دائماً أدخل الناس في الإرجاء ، وإن سلك سبيل الإنذار دائماً أدخل الناس في القنوط واليأس ، فلذلك يجب أن يكون الإنسان حكيماً يراعي أحوال الناس ، فمثلاً : إذا رأى الناس قد انهمكوا في أمر محرم فالأولى هنا أن لا يسلك سبيل البشارة فيوقع الناس في الأمن من مكر الله ، بل يسلك سبيل الإنذار ويشدد »^(٣) .

والمراوحة بين أسلوب الترغيب والترهيب مهم في الدعوة إلى الله تعالى ، وإن من الخلل الواقع أن تجد من الدعاة مَنْ غالب دعوته في الترهيب حتى أصبح هذا الطابع ملازماً له في كثير من أطروحاته الدعوية ، وهذا من آثاره السلبية أن يُحدث فجوة كبيرة في حياة المدعو ظناً منه أنه مهما عمل فهو بعيد كل البعد عن مواطن الرضا ، وكذا العكس فإن من غلب جانب الترغيب صار سبباً في غفلة المدعو عما هو عليه من التقصير في جنب الله تعالى ، وفقه هذا

(١) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ نحو هذا الكلام في « مدارج السالكين » (١ / ٥١٣) ، حيث قال : « القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والجناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر » ا.هـ .

(٢) « تفسير سورة ص » (٢٢١) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٥) .

الأسلوب أن يراوح الداعية بين الترغيب والترهيب بما يقتضيه الحال والمقام .
ولقد احتوى تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ على مضامين دعوية متعلقة
بأسلوب الترغيب وأخرى متعلقة بأسلوب الترهيب .

- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الترغيب :

أولاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَلَّتْ أَكْثَلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّتْ ۗ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] :

« من فوائد الآية : الترغيب في العمل الصالح ، وأن الله تعالى يعلم به ولا
يضيع عليك ، بل يثيبك عليه ثواباً عاجلاً وثواباً أجلاً » (١) .

ثانياً : قوله رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ ۗ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

« من فوائد الآية : الحث ، والترغيب في الإنفاق في سبيل الله ؛ يؤخذ هذا
من ذكر فضيلة الإنفاق في سبيل الله ، فإن الله لم يذكر هذا إلا من أجل هذا
الثواب ؛ فلا بد أن يعمل له » (٢) .

ثالثاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا
تُؤْفَقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] :

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٨٣) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٣١٢) .

« من فوائد الآية : حث الإنسان على المبادرة للعمل الصالح ؛ لأنه إذا كان ميتاً ولا محالة وهو لا يدري متى يموت ، فإن العقل كالشرع يقتضي أن يُبادر ولا سيما في قضاء الواجبات والتخلي عن المظالم . فلا تُهْمَلْ ولا تؤخَّر ، فإن التأخير له آفات ، كثيراً ما يقول الإنسان : أنا سأفعل هذا غداً ولكن يتهاون ، ثم يأتي غد وما بعده ، ويضيع عليه الوقت »^(١) .

رابعاً : قوله رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] :

« من فوائد الآية : التشويق إلى الجنة ليزداد الإنسان قوة في العمل لها ؛ لقوله : ﴿ وَلَا دَخَلْنَهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ، والجنات في الأصل البساتين الكثيرة ، لأنها أي البساتين الكثيرة الأشجار تجن من فيها ، أي تستره وتغطيه ، فيستفاد منها التشويق إلى هذا الثواب العظيم »^(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء : ٥٧] ، قال مرغباً بالجنة بمزيد من التفصيل الذي احتوته الآية :

« من فوائد الآية : بيان ما في الجنة من النعيم لقوله : ﴿ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

- ومنها : أن الجنة أنواع وليست نوعاً واحداً ، يؤخذ ذلك من صيغة الجمع ﴿ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٥١٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ٥٧٩) .

- ومنها : أن أهل الجنة مخلدون فيها أبداً ، لقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ، وقد أجمع أهل الملة على أن نعيم الجنة دائم أبداً ، وكذلك جمهور أهل السنة على أن عذاب أهل النار دائم أبداً .

- ومنها : الثناء على الأزواج في الجنة ، سواء كن من أهل هذه الدنيا أو من الحور ، لقوله : ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ .

- ومنها : الثناء على هؤلاء الأزواج ، وأنهن مطهرات من كل عيب حسي أو معنوي .

ومنها : أن الجنة ليس فيها حر ، وإنما هي ظل ظليل ، لقوله تعالى : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .

وجملة الآية فيها الحث على الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الله سبحانه إنما ساق بيان نعيمهم حثاً على أن نعمل العمل الموصول إلى ذلك .

- ومنها : أن أهل الجنة ينعمون في الدنيا وفي الآخرة ، لقوله : ﴿سَكُنْ دُخْلُهُمْ﴾ ؛ لأن السين تدل على القرب ، ذكرنا ذلك في التفسير ، وأن أصحاب الجنة هم في الجنة في الدنيا وفي الآخرة ؛ لأنه لا أحد أطيب عيشاً ممن آمن وعمل صالحاً^(١) .

والمضامين الدعوية الدالة على الترغيب بالأعمال الصالحة وما يتعلّق بها في حال الدنيا ومآل الآخرة كثيرة ، ومما سبق من المضامين يتضح أن للترغيب أهمية كبيرة في الدعوة إلى الحكمة من الوجود وهي تحقيق العبودية لله تعالى بالدعوة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، وعلى رأسها تحقيق كلمة التوحيد والقيام

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٣٧) .

بمقتضياتها وشروطها والبعد عما ينقضها ، والدعوة إلى بقية أركان الإسلام الخمسة : كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأركان الإيمان والإحسان ، ومن ثم الترغيب في بقية أنواع الطاعات الأخرى ، والأخلاق والمعاملات ، وكذا ترغيب النفوس بما يحصل به رضا الله تعالى وحفظه وولايته ، والترغيب بموعدده في الآخرة .

والداعية إلى الله تعالى إذا أحسن أسلوب الترغيب كان ذلك باعثاً له على فتح سائر ما يهيج نفوس المؤمنين مما أعدّه الله تعالى لمن أطاعه من الخيور المتعلقة بمصالح الدنيا والآخرة^(١) .

- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب التهيب :

أولاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكْمُ الْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] :

« من فوائد الآية : الوعيد على من زلّ بعد قيام الحجة عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكْمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ؛ فإن قيل : من أين يأتي الوعيد؟ قلنا : من قوله تعالى : ﴿ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ؛ لأن من معاني « العزة » الغلبة ، والفهر ؛ و « الحكمة » : تنزيل الشيء في مواضعه ؛ فإذا كان هناك غلبة وحكمة ، فالمعنى : أنه سينزل بكم ما تتبين به عزته ؛ لأن هذا هو مقتضى حكمته^(٢) .

ثانياً : قوله رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنُهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً ﴾ [النساء: ٩٣] : « هذه الآية من أعظم الآيات التي جاءت في الوعيد ،

(١) انظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٧٠-٢٧٢) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٠) .

قال الله فيها: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ، المؤمن هنا : يراد به ما هو أعم من المؤمن ؛ فالمؤمن يشمل ناقص الإيمان وكامل الإيمان « (١) » .

ثالثاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ٧٧] : « من فوائد الآية : تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، وينصبُ هذا على العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله مداينة أو مراعاة أو من أجل مال ، فإنهم اشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ؛ لأن الله عهد إلى العلماء أن يبينوا العلم . وقد مرَّ بنا أن العلماء ثلاثة أقسام : عالم أمة ، وعالم دولة ، وعالم ملة ، فعالم الملة لا يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً ، بل يبين الملة ولا يبالي . وعالم الدولة يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ليكون له جاه عند الدولة ، وربما ليعطى مالا ، وعالم الأمة هو الذي يراعي الأمة ، ينظر ماذا تشتهي الأمة (أي عامة الناس) فيقتي به أو يقول به ، وما لا تشتهي الأمة يسكت عنه ، فإذا رأى الأمة على شيء غير سائغ في الشرع سكت عنه ، وإذا طلبوا منه شيئاً غير سائغ في الشرع ولكنه يرى أنه يرضيهم وافقهم عليه » (٢) .

رابعاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩-٣٠] : « من فوائد الآية : التحذير من فعل هذه

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٨١) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٤٤٣) .

المنهيات ؛ وذلك بالوعيد عليها بالنار .

- ومنها : أن فعل هذه المنهيات من كبائر الذنوب ؛ لأنه توعد عليه بالنار ، وكل ذنب توعد عليه بالنار فهو من كبائر الذنوب .

- ومنها : بيان عظمة الله وتمايم سلطانه وقدرته ، لقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ^(١) .

خامساً : وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ يَلْقَسُ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَّلَ الْوَلَدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] : « من فوائد الآية : التحذير من الجور ، لقوله : ﴿ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ ، وهذا يشمل كل موضع يتعين فيه العدل ، فيكون مثلاً - العدل بين الأولاد في العطية وغير العطية ، حتى كان السلف يعدلون بين أولادهم في القبل . يعني : إذا قبل صبيّاً قبل الآخر ، والعدل بين الزوجات أيضاً ، والعدل بين الخصمين بين يدي القاضي ... وما أشبه ذلك .

- ومنها : تحذير من أعرض عن إقامة الشهادة والعدل ، أو لوى لقوله : ﴿ وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

- ومنها : عموم علم الله وخبرته ، لقوله : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ لأن (مَا) اسم موصول تشمل كل ما يعمل به ابن آدم .

- ومنها : التحذير من مخالفة الله ؛ لأن كل مؤمن يعلم أن الله خبير بعمله لا

بد أن يتجنب ما يكون سبباً للعقاب ، ويتعرض لما يكون سبباً للثواب «^(١) .

والمضامين الدعوية الدالة على الترهيب من الأعمال السيئة وما يتعلّق بها من الحال ومآل الآخرة كثيرة ، ومما سبق يتضح أن للترهيب أهمية كبيرة في الدعوة إلى التحذير من كل ما ينافي حكمة العبودية لله تعالى ، وذلك بالدعوة إلى ترك كل ما يغضب الله تعالى ويخالف أمره ، وعلى رأس ذلك الشرك بالله تعالى وما يتعلّق به ، وبقيّة أركان الإسلام ، والدعوة إلى ترك الكبائر كالسرقة والخيانة والغش والزنا والزور وقتل النفس المعصومة ، وكتمان العلم والظلم وسائر الموبقات ، وأي عمل يكون به البعد عن الله تعالى ومرضاته ، وذلك ببيان عواقب هذه الأمور في الدنيا وعاقبتها في الآخرة ، وبيان مقدار الحرمان الذي يعيشه العبد حينما يتهاون بفرائض الله تعالى ، وبيان مقدار العقوبات التي جعلها الله تعالى لمن عصاه على وجه التفصيل والإجمال ، وكذا ترهيب النفوس عن الوصول إلى كل ما يُغضب الله تعالى ، ويحصل به مقتته وبعده عنه جل وعلا ، والترهيب من وعيده في الآخرة .

والداعية إلى الله تعالى إذا أحسن أسلوب الترهيب كان ذلك باعثاً له على تنفير المسلمين عن الأعمال السيئة والعصيان الذي يورث ضيق الحياة في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة^(٢) .

- من المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ما يكون فيه الترغيب والترهيب في مساق واحد تقدّم في أول المطلب شيء منها - ومن ذلك :

أولاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٢٩ - ٣٣٠) .

(٢) انظر : « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٧٠ - ٢٧٢) .

الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿[النساء: ٣٩] :

« من فوائد الآية : إثبات العلم لله تعالى بأحوال عباده ، لقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ، ويتفرع على هذه الفائدة : الرغبة والرغبة ، وذلك لأنك إذا علمت أن الله عليم بك خفت من مخالفته ، ورجوت في موافقته ، إذ لا يضيع شيء على الله عَزَّوَجَلَّ ، والإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ يكسب الإنسان مراقبة الله سبحانه تمامًا ؛ لأن أي شيء تفعله فهو عليم بك ، فهذا يحمل الإنسان على الرجاء في فعل ما يحبه الله ، وعلى الخوف من فعل ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ »^(١) .

ثانيًا : قوله رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْطِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] : « من فوائد الآية : ترهيب المرء من المخالفة ، وترغيبه في طاعة الله ؛ لقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه راجع إلى ربه لا محالة فإنه لا بد أن يكون فاعلاً لما أمر به تاركاً لما نهى عنه ؛ لأنه يخاف من هذا الرجوع »^(٢) .

ثالثًا : قوله رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧] : « من فوائد الآية : الترغيب في العمل الصالح ، والترهيب من العمل السيئ ؛ لأن ختم الآية بهذه الجملة مقتضاه : احرصوا على العمل الصالح ؛ فإنه لن يضيع ؛ واحذروا من العمل السيئ ؛ فإنكم تتجاوزون عليه ؛ لأن

(١) « تفسير سورة النساء » (١ / ٣٢٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ٢٠٥) .

كلاً معلوم عند الله سبحانه وتعالى - «^(١) .

رابعاً : قوله رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ^(٢٢) : « اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ إِلهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بِضَيْرٍ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ » ^(٢٣) [إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ] ﴿ يس : ٢٢-٢٤ ﴾ : « من فوائد الآية الكريمة : كمال نصيح هذا الرجل ؛ لأنه قرر وحدانية الله عزَّوجلَّ بعدة أمور ، منها ما سبق في قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، ومنها : التحذير من الشرك به لكون المشرك في ضلال مبين ، وهكذا ينبغي للداعية لله عزَّوجلَّ إذا دعا إلى الحق أن يذكر ما في لزومه من الفضائل ، وأن يذكر ما في مخالفته من الضلال والسوء ، حتى يجمع بين الترغيب والترهيب » ^(٢) .

وعلى الداعية حين استعماله لأسلوب الترغيب والترهيب أن يستدل بما صحَّ من الأخبار ، وليحذر الداعية من التهاون في إيراد النصوص الضعيفة ، أو التساهل من الأخذ من الكتب التي تخلط الصحيح بالضعيف ، فإن هذا مما يُعاب على كثير من الوعاظ والدعاة اليوم ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « اعلم أنه يوجد في كتب الوعظ من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة في أحوال القبر والقيامة ما ينبغي للقارئ أن يحترز منها ، ولا أحسن من الرجوع إلى الكتب الصحيحة في هذا الباب لئلا نضل الناس ؛ لأن بعض الوعاظ يختار مثل هذه الأحاديث من أجل الترغيب أو الترهيب ، وفي الحقيقة أن هذا مسلك ليس بجيد ؛ لأن كوننا نملاً أدمغة الناس بأحاديث ضعيفة أو موضوعة خطأ حتى لو كان فيها ترغيب وترهيب ، وفيما صحَّ عن النبي ﷺ كفاية ، والناس

(١) « تفسير سورة البقرة » (٣ / ١٧٧) .

(٢) « تفسير سورة يس » (٩٤) .

سوف يأخذون كل ما ذكر على أنه صحيح ، يقولون : ما قيل في المحراب فهو صواب ، والواجب على من أُلّف في الترغيب والترهيب أن لا يذكر إلا ما كان حجة من صحيح أو حسن ، أما الضعيف فلا حاجة لذكره لأننا في غنى عن الضعيف الذي لم يثبت عن النبي ﷺ»^(١).

والداعية إذا أتقن طرح هذا الأسلوب الدعوي سار على نهج القرآن الكريم الذي هو نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم ، يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « وكثيرا ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ، كما قال تعالى : وقوله : ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] ، وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهذا وبهذا لينجع في كل بحسبه . جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب»^(٢).



(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٧٨) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ٣٨٥) .

المطلب السادس : أسلوب ضرب الأمثال

من طبيعة النفوس البشرية فطرةً أنها تأنس بالقول إذا جاء بصورة تشبيهية فضلاً عما في ذلك من تقريب للمعنى ، ولذا كان من أهم أساليب الدعوة إلى الله تعالى أسلوب ضرب الأمثال .

«وَالْمَثَلُ : الشَّيْءُ الَّذِي يُضْرَبُ لَشَيْءٍ مِثْلًا فَيَجْعَلُ مِثْلَهُ ، وَفِي الصَّحَاحِ : مَا يُضْرَبُ بِهِ مِنَ الْأَمْثَالِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَمِثْلُ الشَّيْءِ أَيْضًا صِفَتُهُ»^(١) .

وضرب الأمثال أسلوب دعوي نصّ عليه الكتاب والسنة ، إذ تعدّد ضرب المثل في كتاب الله تعالى ، كما سيأتي بيانه في المضامين الدعوية المتعلقة به في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وكذا السنة فقد كان رسولُ الله ﷺ يستعين على توضيح المعنى بضرب المثل ممّا يشاهده النّاس بأمر أعينهم ، ويقع تحت حواسّهم وفي متناول أيديهم ؛ ليكون وقع المؤعظة في النّفس أشدّ ، وفي الذهن أرسخ ، ومن الأمثلة على ذلك : ما رواه أبو موسى الأشعريّ ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مِثْلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، مِثْلُ الْأُتْرَجَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَمِثْلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِثْلُ التَّمْرَةِ ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ ، وَمِثْلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، مِثْلُ الرِّيحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمِثْلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، كَمِثْلِ الْحَنْظَلَةِ ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ »^(٢) .

وفي صحيح مسلم يبيّن النبي ﷺ صورة اللّحمة التي ينبغي أن تكون بين

(١) « لسان العرب » (١١ / ٦١١) ، و « مختار الصحاح » (٢٩٠) و « تاج العروس » (٣٠ / ٣٧٩) ، مادة (مثل) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٢٧) ، ومسلم (٧٩٧) .

المؤمنين في هذه الحياة بمثال بديع يوصل المعنى المراد بأبلغ صورة وأبين بيان، حيث قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(١).

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي اسْتَعْمَلَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ أَسْلُوبَ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، وَإِثَارَةِ الْإِنْتِبَاهِ، وَطَرَحَ السُّؤَالِ عَلَى أَصْحَابِهِ؛ لِيُشِيرَ بِذَلِكَ النَّشَاطُ الذَّهْنِي، وَيَجْذِبَ انْتِبَاهَهُمْ وَيَشَوْقَهُمْ لِمَا سَيَقُولُهُ لَهُمْ: مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَبَابٍ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ» قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرْنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا»^(٢).

وَنُصُوصُ السَّنَةِ فِي ضَرْبِ الْمَثَلِ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ أَحْسَنَ الْحَافِظُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ أَفْرَدَ فِي سَنَنِهِ جُزْءًا أَسْمَاهُ: «أَبْوَابُ الْأَمْثَالِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٣)، جَمَعَ فِيهِ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي ضَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَمْثَالِ، وَقَدْ جَمَعَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَحَادِيثَ الْأَمْثَالِ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ^(٤)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَنَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ لِأَهَمِّيَّتِهِ فِي تَقْرِيبِ الْمَعْنَى وَتَشْوِيقِ الْمُتَلَقِّي، وَسُرْعَةِ اسْتِعْبَابِهِ لِلْمَقْصُودِ بِأَبْلَغِ عِبَارَةٍ.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جَاءَ أَسْلُوبُ ضَرْبِ الْمَثَلِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، يَقُولُ ابْنُ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٢٨)، وَمُسْلِمٌ (٦٦٧).

(٣) انْظُرْ: «سَنَنُ التِّرْمِذِيِّ» (١٤٤ / ٥).

(٤) وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُ: «أَمْثَالُ الْحَدِيثِ» لِلرَّاهِمَزِيِّ، وَ«الْأَمْثَالُ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ» لِأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ، وَ«الْأَمْثَالُ» لِأَبِي عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ.

القيم رَحِمَهُ اللهُ: « وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلاً تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم »^(١).

وهذا التعدد في الكتاب والسنة لاستعمال هذا الأسلوب يبين مكانته في الدعوة إلى الله تعالى، وأهميته في الطرح الدعوي، وضرورة تنبّه الدعاة لهذا الأسلوب من أجل العمل به، ولقد احتوى تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ على مضامين دعوية متعلّقة بضرب المثل.

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلّقة بأسلوب ضرب المثل :

أولاً: قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]: « يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال هنا فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب؛ ليتوصل بها إلى المعاني المعقولة؛ لأن إدراك الشيء المحسوس أقرب من إدراك الشيء المعقول، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا الَّذِي مَثَلُ نُضْرَيْهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَجَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلى ذهنه وتصورها »^(٢).

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يؤكد على أهمية ضرب الأمثال؛ لأن من ثمراته الوصول إلى المعاني المعقولة بضرب الأمثلة المحسوسة، وكذا تقريب المعنى وتيسيره لفهم

(١) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١ / ١٠١).

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٧٣).

المدعو ، وهو من شأنه أن يعطي دعوة الداعية وضوحاً وتقديم الدعوة بأقرب صورة ، ولربما كان ضرب المثل للمدعو أبلغ في بقاء المعنى واستحضاره أكثر مما لو قدّم المعنى مجرداً من ضرب الأمثال المقرّبة .

ثانياً : في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] ، قال الشيخ رحمه الله : « من فوائد الآية : أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل - أن يبيّن ذلك بالمثل كما قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : ٥٨] .

- ومن فوائد هذه الآية الكريمة : أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من الأمثال إلى قسمين : قسم مصدق مؤتمن موقن بأن ذلك حق ، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول : ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر : ٣١] هكذا أخبر الله في هذه الآية ، وهذا هو الواقع «^(١) .

وفي موضع آخر قال : « ومن فوائد الآية : أن الله تعالى يضرب الأمثال ؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة ؛ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخْخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ [العنكبوت : ٤١] ؛ وهذا البيت لا يقيها من حرّ ، ولا برد ، ولا مطر ، ولا رياح ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت : ٤١] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ مُمْسِقٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْبِغُوا فَا هُوَ

يَبْلُغُهُ» [الرعد: ١٤] : إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً ، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن ؛ هؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليلبغ فاه ؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى ؛ وإما لحكمتها ، وبيان وجه هذا المثل «^(١) .

ثالثاً : ضرب الأمثال في الدعوة إلى الله له ثمرات عديدة ويحقق أهدافاً ينشدها الداعية في دعوته ، ومن ذلك :

١- أن الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس ، فيتقبله العقل ؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم ، وتقدم كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عن هذه الثمرة ، وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] :

« يضرب الله تبارك وتعالى الأمثال في القرآن الكريم تقريباً للمعقول بالمحسوس ، ولا يَعْقِلُ هذه الأمثال وما ترمي إليه من المعاني إلا أهل العلم كما قال عز وجل : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] «^(٢) .

(١) « تفسير سورة البقرة » (١ / ٩٨ - ٩٩) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٧٣) ، وقال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] : « من فوائد الآية : بلاغة القرآن ، حيث يضرب للمعقولات أمثالاً محسوسات ؛ لأن الشيء المحسوس أقرب إلى الفهم من الشيء المعقول ؛ لكن من بلاغة القرآن أن الله تعالى يضرب الأمثال المحسوسة للمعاني المعقولة حتى يدركها الإنسان جيداً ، كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] .
« تفسير سورة البقرة » (١ / ٦٤) .

٣- أن ضرب الأمثال أوقع في تذكير المدعوين ، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : « وقد أخبر الله سبحانه أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه ، وأمر باستماع أمثاله ، ودعا عباده إلى تعقلها ، والتفكير فيها ، والاعتبار بها ، وهذا هو المقصود بها » (٢) .

٤- أن ضرب المثل سبب في الإمتاع وطرده السامة والملل عن المدعوين ، قال ابن المقفع : « إذا جُعِلَ الكلام مثلاً ، كان ذلك أوضح للمنطق ، وأبين في المعنى ، وآثق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث »^(٤) .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : « فَإِنَّ النَفْسَ تَأْنِسُ بِالنَّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ الْأَنْسِ التَّامِ ، وَتَتَفَرَّقُ مِنَ الْغَرَبَةِ وَالْوَحْدَةِ وَعَدَمِ النَّظِيرِ ؛ فَفِي الْأَمْثَالِ مِنْ تَأْنِيسِ النَفْسِ وَسُرْعَةِ قَبُولِهَا وَانْقِيَادِهَا لِمَا ضَرَبَ لَهَا مِثْلَهُ مِنَ الْحَقِّ أَمْرٌ لَا يَجْعَلُهُ أَحَدٌ ، وَلَا يَنْكُرُهُ ، وَكَلِمَا ظَهَرَتْ لَهَا الْأَمْثَالُ أَزْدَادَ الْمَعْنَى ظُهُورًا وَوُضُوحًا ، فَالْأَمْثَالُ شَوَاهِدُ

(٤) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (٢٧).

المعنى المراد ، ومزكية له «^(١) .

٥- أن ضرب المثل من سُبُل الإقناع وإقامة الحُجَّة ، وهو من حسن التعليم والفصاحة التي جاء بها كتاب الله تعالى ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغِصُّوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] :

« من فوائد الآية : ضرب المثل المُقنع للإنسان ، وذلك بقوله : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغِصُّوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يعني : لو كان الحقُّ لكم وأعطاكم الإنسان الرديء بدل الجيد أو الوسط ، لم تأخذوه إلا على إغماض ، ومثل هذا المثل قول الله تبارك وتعالى في سورة النساء : ﴿ وَلَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] يعني أن الإنسان يجب عليه أن يرحم اليتيم ، كما لو أنه هو ترك من خلفه ذرية ضعافاً خاف عليهم ، فكَذلك يجب أن يعرف حق اليتيم ، وهذا من حسن تعليم القرآن الكريم وفصاحته وبيانه «^(٢) .

٦- أن الأمثال أوقع في النفس ، وأقوم في التصديق وبث الطمأنينة ؛ لما يورثه ضرب المثل من التصوير التمثيلي الذي يجعل المتلقي كأنما يرى ما يُدعى إليه رأي العين ، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ؕ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣] :

(١) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١ / ١٨٣) .

(٢) « أحكام من القرآن الكريم » (٢ / ٢٨٩) .

« من فوائد الآية : ضرب الأمثال بالأموال الواقعة ؛ لأن ذلك أبلغ في التصديق والطمأنينة ، ويتفرع على ذلك أنه ينبغي للواعظ والداعي إلى الله عز وجل أن يضرب المثل للمدعويين بالأموال الواقعة ؛ لأن ذلك أبلغ .

- ومنها : أن الإنسان مهما بلغ من الصدق فإنَّ عَرْضَهُ الأمثال الواقعة تجعل كلامه حق اليقين »^(١) .

والداعية إذا تأمل هذه الثمرات الظاهرة في المضامين السابقة عَلم أن ضرب الأمثال له مكانة كبيرة كمضمون أسلوبه دعوي ينبغي أن يكون ظاهراً في الدعوة إلى الله تعالى ؛ لأنه من أهم الأساليب الدعوية التي يحصل بها التذكير البليغ في أقرب صورة وأوضحها ، ولذا استعمل في القرآن في أمثال متنوعة ، قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧] : « يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال ، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر ، وأمثال التوحيد والشرك ، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء ، والحكمة في ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون »^(٢) .



(١) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٨١) .

(٢) « تفسير الكريم الرحمن » (٧٢٣) .

المطلب السابع : أسلوب القصص

لقد جعل الله تعالى أسلوب القصص سبيلاً من أسباب أخذ العظة والعبرة والاعتاظ والتفكير ، فقال تعالى : ﴿ فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٦] ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

قال البيضاوي : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَمَمُهُمْ أَوْ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ، عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ لِذَوِي الْعُقُولِ ، الْمَبْرَأَةِ مِنْ شَوَائِبِ الْإِلْفِ وَالرُّكُونِ إِلَى الْحَسَنِ »^(١) .

وفي لسان العرب : « الْقِصَّةُ : الْخَبَرُ وَهُوَ الْقِصَصُ ، وَقَصَّ عَلَى خَبَرِهِ يَقُصُّهُ قِصًّا وَقِصَصًا : أَوْرَدَهُ . وَالْقِصَصُ : الْخَبَرُ الْمَقْصُوصُ ، بِالْفَتْحِ ، وَضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ . وَالْقِصَصُ ، بِكَسْرِ الْقَافِ : جَمْعُ الْقِصَّةِ الَّتِي تُكْتَبُ »^(٢) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « الْقِصَصُ وَالْقِصَّ لُغَةٌ : تَتَّبِعُ الْأَثَرَ ، وَفِي الْأَصْطِلَاحِ : الْإِخْبَارُ عَنْ قِضِيَّةِ ذَاتِ مَرَاكِلَ ، يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا »^(٣) .

ولقد جاء أسلوب القصص في القرآن ضافياً على غيره من الأساليب ، فقد كانت القصص تشغل مساحة كبيرة من القرآن الكريم ؛ لما اشتملت عليه من الْحِكَمِ وَالثَّمَرَاتِ الْعَظِيمَةِ ، ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَلَرُبَّمَا تَعَدَّدَتِ الْقِصَّةُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ كَقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَرُبَّمَا

(١) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » للبيضاوي (٣ / ١٧٩) .

(٢) « لسان العرب » (٧ / ٧٤) ، مادة (قصص) .

(٣) « تفسير سورة الفاتحة والبقرة » (٥٧) .

كانت السورة بأكملها وطولها تحكي قصة نبي من الأنبياء كقصة يوسف عليه السلام ، بالإضافة إلى قصص الصالحين وما جرى لهم ، وقصص المعاندين وأخذ الاعتبار مما آلوا إليه ، وما ذاك إلا لأهمية هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى ، ومن أمثلة قصص القرآن الكريم في سورة واحدة وهي سورة البقرة ما يلي :

قصة البقرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدَّائُنَا هُزُوتَ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيعَةَ فِيهَا قَالُوا أَفَتَنَجِيَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١] .

وقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

وقصة طالوت وجالوت ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَفِقُوا اللَّهَ كُفْرًا مِّنْ فَتْنَةٍ فَلَئِنَّ غَلَبَتِ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّادُنِ اللَّهَ ۖ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَرَمُوهُمْ يَازِيبُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ۖ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿[البقرة: ٢٤٧-٢٥١]﴾ .

والقصص في سائر القرآن الكريم أسلوب يتكرر؛ لأهميته البالغة وحكمه الباهرة في الدعوة إلى الله تعالى كما سيأتي - وكذا السنة المطهرة جاء أسلوب القصص فيها كثيرا ومتصافرا، وامتلات به دواوين السنة، ومن أمثلة ذلك:

قصة أصحاب الأخدود التي رواها مسلم في صحيحه من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلُكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى

النَّاسُ ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيُّ بُنْيَ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ، وَكَانَ الْعَلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً ، فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ ، إِنْ أَنْتَ سَفَيْتَنِي ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ : رَبِّي ، قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْعَلَامِ ، فَجِيءَ بِالْعَلَامِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيُّ بُنْيَ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالْمِثْشَارِ ، فَوَضَعَ الْمِثْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِثْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ، ثُمَّ جِيءَ بِالْعَلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا ، فَاصْعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُورٍ ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَأَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ؟ قَالَ : تَجْمَعُ

النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَكِ ، فَخُذَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيرانَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَخْمُوهُ فِيهَا ، أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ : يَا أُمُّهُ اضْبِرِّي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ ^(١) .

وقصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ يَتِمَاشُونَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ ، فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : انظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ صَالِحَةً ، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا . فَقَالَ أَحَدُهُمْ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَلِي صَبِيَّةٌ صِغَارٌ ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ فَحَلَبْتُ بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ وَلَدِي ، وَإِنَّهُ نَاءَ بَيْ الشَّجَرِ ، فَمَا أَتَيْتُ حَتَّى أُمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا ، أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِالصَّبِيَّةِ قَبْلَهُمَا ، وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمَيَّ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِي وَدَائِبُهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ .

فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً حَتَّى يَرَوْْنَ مِنْهَا السَّمَاءَ . وَقَالَ الثَّانِي : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمَّ أَحَبُّهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا ، فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقَيْتُهَا بِهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ ، فَقُمْتُ عَنْهَا ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا . فَفَرَجَ لَهُمْ فُرْجَةً . وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أُرْزُ ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ : أُعْطِنِي حَقِّي ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيَهَا ، فَجَاءَنِي فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي وَأُعْطِنِي حَقِّي ، فَقُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيَهَا ، فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَهْزَأُ بِكَ ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيَهَا ، فَأَخَذَهُ فَاِنْطَلَقَ بِهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ ، فَافْرُجْ مَا بَقِيَ . فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ» (١) .

ونماذج القصص من الكتاب والسنة كثيرة ؛ لما تميّزت به القصة من أثر وبُعْدِ دعوي بالغ ؛ ولما للقصّة من قبول عند جميع فئات المدعوين ؛ ولما فيها من إيصال العظة والعبرة بأسلوب مؤثر ، ولما جُبلت عليه النفس البشرية من الاهتمام والتشوّف للأسلوب القصصي .

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ : « جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود بها مجرد الخبر ، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] » (٢) .

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٤) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

(٢) « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (١٠ / ٨٦٩) .

- ومن أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب القصص :

أولاً: من أولى وأهم المضامين أن يعرف الداعية شأن أسلوب القصص ومكانته وأقسامه في القرآن الكريم ، قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « وقصص القرآن أصدق القصص ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] وذلك لتمام مطابقتها للواقع .

وأحسن القصص ؛ لقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : ٣] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى .

وأنفع القصص ، لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق .

وهي ثلاثة أقسام :

- قسم عن الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين .

- وقسم عن أفراد وطوائف ، جرى لهم ما فيه عبرة ، فنقله الله تعالى عنهم ، كقصّة مريم ، ولقمان ، والذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، وذو القرنين ، وقارون ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، وأصحاب الأخدود ، وغير ذلك .

- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ ، كقصّة غزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني قريظة ، وبني النضير ، وزيد بن حارثة ، وأبي لهب ، وغير ذلك «^(١) .

والداعية إلى الله تعالى يجب أن يعلم أن أعظم مضمون قصصي دعوي هو قصص القرآن الكريم فهي أعظم القصص وأفضلها ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : « قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : ٣] ؛ فأحسن الأخبار أخبار الوحي : القرآن ، وغيره ؛ وأصلحها للخلق قصصها »^(١) .

ثانياً : قال الشيخ رحمه الله : « قص الله عز وجل أكمل القصص وأحسن القصص ؛ لأنه صادر عن :

١ - علم .

٢ - عن صدق .

٣ - صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلام أوضح من كلام الله ، إلا من أضل الله قلبه وقال : هذا أساطير الأولين .

٤ - وبأحسن إرادة ، لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ، ولا بما حكم علينا أن نجور ، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل »^(٢) .

ثالثاً : في القصص عظة وتذكرة لأولي الألباب ، وفيها فرصة لتوجيه الناس لهدي الشريعة ، ومن أمثلة ذلك قصة أيوب عليه السلام في سورة (ص) قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٤٣] قال الشيخ رحمه الله : « ﴿ وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٤٣] أي عظة لأصحاب العقول ... يتذكر بها أصحاب العقول ، يتذكرون بأن المصائب تكون على

(١) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ٣٦٠) .

(٢) « تفسير سورة الكهف » (٢٥) .

الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وعلى غيرهم ، وبأن الشيطان يمكن أن يُسَلِّطَ على الرسول ، ويتذكرون بها أن الإنسان إذا لجأ إلى ربه ، ودعا ربه ، فإن الله يجيبه ، ويتذكرون بأنها كلما اشتد الكرب قُرب الفرج»^(١)

ولا يخفى ما للقصص من تأثير في النفوس ، واتعاظ واستفادة من تجارب السابقين ، وتسلية لما يواجه المسلم داعية أو مدعوا مما قد يؤثر عليه في حياته ، ولذا جاء من فوائد القصص التسلية لرسول الله ﷺ ومن بعده في مسيرته الدعوية لما قد يصيبه جراء إعراض المعاندين وتكذيبهم بأن يتأسى بقصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قبله وما واجهوه في دعوتهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْهَضْنَا نُصْرًا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] .

وعليه فإن أهمية القصة في الدعوة إلى الله يرجع إلى عدة أمور ، أهمها :
- أن فيها العظة والعبرة لمن تفكر وتأمل ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ، وقال تعالى: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: « يقول لنبه محمد ﷺ: فاقصص يا محمد هذا القصص ، الذي قصصته عليك من نبي الذي آتيناه آياتنا ، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة وقصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم ، وما حل بهم من عقوبتنا ونزل بهم ، حين كذبوا رسلنا من نعمتنا على قومك من قريش ومن قبلك من يهود بني إسرائيل ، ليتفكروا في ذلك فيعتبروا وينبؤوا إلى

طاعتنا ، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات ، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك » ^(١) .

- أنها سبيل من سُبُل التثبيت وتدعيم الحق وإظهاره ، كما قال تعالى : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود : ١٢٠] .

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ : « لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، ما ذكر ، ذكر الحكمة في ذكر ذلك ، فقال : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي : قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فإن النفوس تأنس بالافتداء ، وتنشط على الأعمال ، وتريد المنافسة لغيرها ، ويتأيد الحق بذكر شواهد ، وكثرة من قام به » ^(٢) .

- أن فيها تحفيزاً لتحمل المشاق في طريق الدعوة إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود : ٢٥] .

قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ : « ثم إنه تعالى شرع في ذكر قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الداعين إلى الله تعالى وبيان حالهم مع أممهم ليزداد تَشْمِيرًا في الدعوة وتحملاً لما يقاسيه من المعاندين ، فقال عز من قائل : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ » ^(٣) .

- أن في هذه القصص تسلية لأهل الحق ، بأن ما أصابهم قد أصاب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قبلهم وكل من كان على طريق الحق ، كما قال تعالى لَنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَثَمُودُ﴾ ^(١٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَنُ لُوطٍ ^(١٣)

(١) « جامع البيان » (١٠ / ٥٨٩) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (٣٩٢) .

(٣) « روح المعاني » (٦ / ٢٣٥) .

وَأَصْحَبُ الْآيَةِ وَقَوْمٌ يُبْعُ كُلُّ كَذَبٍ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدٍ ﴿ق: ١٢-١٤﴾، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: «ذكر الله هؤلاء المكذبين لفائدتين:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول ﷺ بأنه ليس أول رسول كُذِّب، بل قد كُذِّبَت الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قبل، كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٣]. قيل: إنه شاعر، قيل: إنه مجنون، قيل: إنه كاهن. وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسلية النبي ﷺ؛ لأن الإنسان إذا رأى غيره قد أصيب بمثل مصيبتة يتسلى بلا شك، وتهون عليه المصيبة.

الفائدة الثانية: التحذير لمكذبي الرسول ﷺ، ولهذا قال في آخر ما ذكر ﴿كُلُّ كَذَبٍ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدٍ﴾ [ق: ١٤] فحق عليهم وعيد الله بالعذاب، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، يعني كل واحد من هذه الأمم جوزي بمثل ذنبه فعوقب بمثل ذنبه^(١)، وهي تسلية لجميع الدعاة إلى الله تعالى أن يصبروا على ما ينالهم من المدعوين، وعلى طول طريق الدعوة إلى الله تعالى. ومما تقدَّم من المضامين الدعوية يتبيَّن أن أسلوب القصص أسلوب له مكانته وأهميته في الدعوة إلى الله تعالى، ولا أدلَّ من كثرة وروده في الوحيين، ووروده في نقل قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فأهمية وجوده في دعوة الداعية ظاهرة اقتداءً بهدي القرآن في ذكر قصص السابقين، وبالنبي ﷺ في إيراد القصص كما شهدت بذلك دواوين السنة.

وينبغي مع حثِّ الدعاة على عدم التفريط بهذا الأسلوب في الميدان

(١) «تفسير سورة ق» (٨٢)، وانظر: «تفسير جزء عم» سورة البروج (١٤١).

الدعوي - ألا يكون في استعمال هذا الأسلوب إفراطاً أيضاً ، كما يُغرق بعض الدعاة في سرد القصص بلا قَدَرٍ معيّن ودون رويّة ولا تثبت ، حتى ظهر جملة من الدعاة هم إلى القُصّاص الذين يخلطون الغثّ بالسمين أقرب منهم إلى المنهج الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب القصصي ، فإن هذا الاستعمال للقصّة يُذمّ ولا يُمدح .

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ : « القصص الذي يذكر الجنة والنار والتخويف ولهم نية وصدق الحديث ، فأما هؤلاء الذين أحدثوا من وضع الأخبار والأحاديث فلا أراه »^(١) .

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ : « ذمّ القصص لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد ، ثم غالبهم يخلط فيما يورده ، وربما اعتمد على ما أكثره مُحال ، فأما إذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً فهو ممدوح ، وقد كان أحمد بن حنبل يقول ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق »^(٢) .

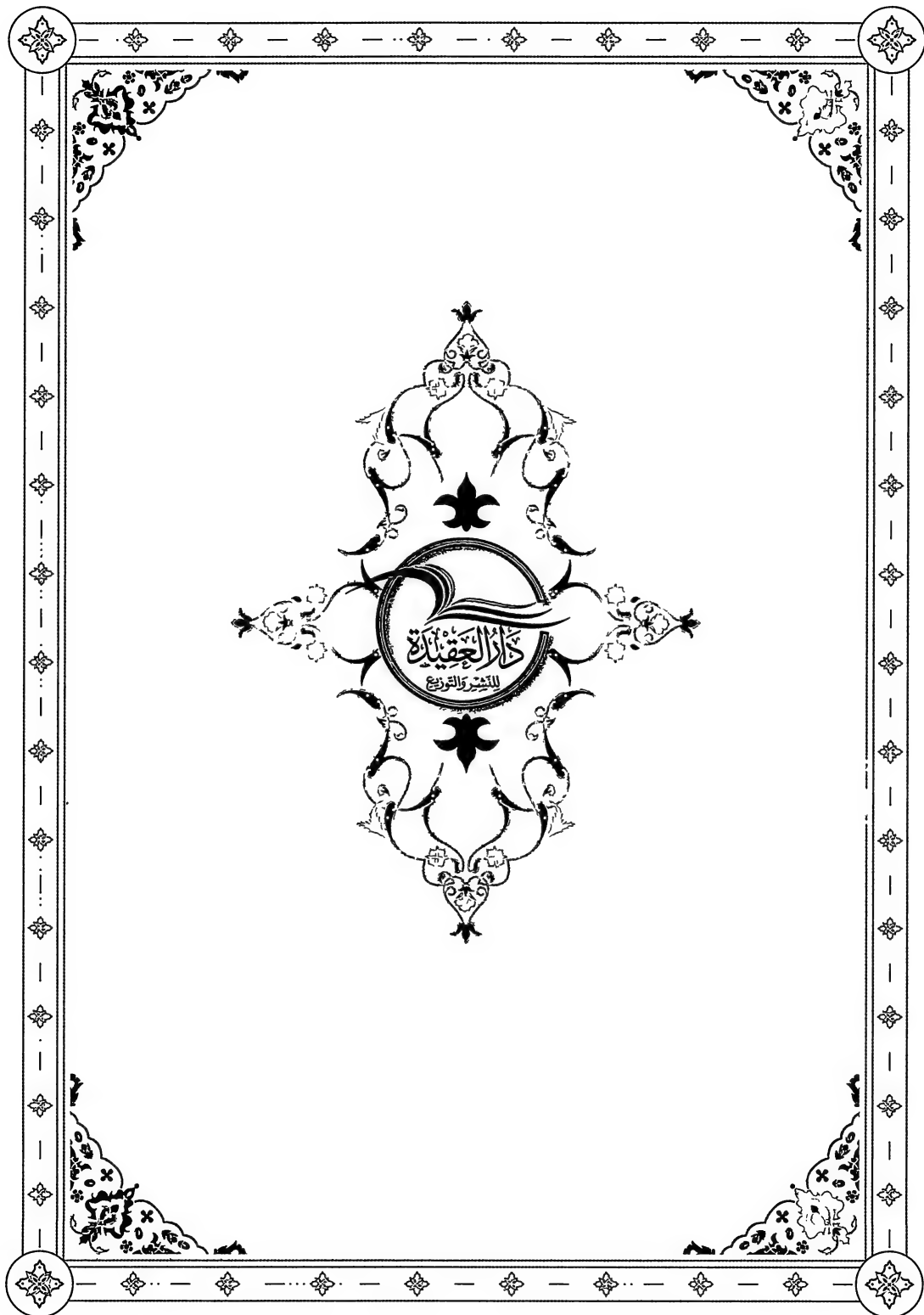
ولتتحقق الغاية من القصّة في الدعوة إلى الله ، على الداعية تحرّي الصدق فيما ينقله من قصص وأخبار ؛ ليتحقق بذلك الاقتداء بالهدي الشرعي في ذلك ، فقد امتدح الله تعالى قصص القرآن بتأكيد صدقها فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢] ، ولا يكن همّ الداعية التأثير بمدعويه بإيراد القصص الموضوعية جاعلاً للتأثير والعاطفة هو معيار استعماله لهذا الأسلوب ، بل على الداعية تحرّي الصدق ، وعليه أيضاً ألا يورد من القصص إلا ما كان معقولاً في أذهان المدعوّين ، مبتعداً عن الغرائب لئلا يُطعن في مضمون دعوته ، وحتى لا

(١) « الآداب الشرعية والمنح المرعية » لابن مفلح (٢ / ٨٤) .

(٢) « تليس إبليس » (١١١) .

تندعم ثقة الناس فيه وفي علمه ، والفرار من غرائب القصص والأخبار هو هدي السلف رَحِمَهُمُ اللهُ ، ومن ذلك قول أيوب السخيتاني رَحِمَهُ اللهُ : « إِنَّمَا نَفَرُّ أَوْ نَفَرُقُ مِنْ تِلْكَ الْغَرَائِبِ » ، كما أورد ذلك عنه مسلم في « صحيحه »^(١) ، والداعية إلى الله تعالى يجعل الأسلوب القصصي مدخلاً مناسباً لقلوب مدعويه مستغلاً شغف الناس وفطرتهم في الميل إلى القصص ، ليستعين بذلك في الدعوة إلى الله تعالى ، وإذا تأمل الداعية هذه الأساليب الدعوية وتأملها في أخبار دعاة الإسلام من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومن تبعهم إلى عصرنا الحاضر عرف كيف يدخل على مدعويه بما يناسب المقام والحال ، وصار نموذجاً يُحتذى به في الدعوة إلى الله .





المبحث الثاني

الوسائل الدعوية المستنبطة

من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها .

المطلب الثاني : القدوة الصالحة .

المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول .

المطلب الرابع : إرسال الرسل والدعاة

المطلب الخامس : إرسال الكتب والرسائل .

المطلب السادس : الخطبة .

المطلب السابع : وسائل أخرى .

المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها

القسيم الآخر المكمل للأساليب في مضامين الدعوة هي وسائل الدعوة ،
والأساليب والوسائل كما تقدّم - ركنان أساسيان من أركان الدعوة ، فهما
الحاملان لمضمون الدعوة إلى الميدان الدعوي .

ومن المعلوم عند العقلاء أنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى أهدافه التي ينشدها
دون استخدام وسائلها أو وسيلة توصله إلى المقصود ، وهكذا الداعية إلى الله
تعالى فإنه لا يمكن أن يوصل دعوته إلا عن طريق وسائل الدعوة إلى الله تعالى ،
وهكذا كان رسول الله ﷺ في دعوته فإنه استعمل الوسائل المتاحة في زمانه
فصدع بالحق على الصفا ، وكان يستعمل ملتقيات الناس وأسواقهم ويراهم فرصة
لإيصال دعوته ﷺ ، ويطوف بمشاعر الحج ويتلقى القبائل ويستنصر لدينه ، وكل
هذا وغيره من الوسائل التي استخدمها ﷺ لإيصال دعوته إلى الناس وقتئذ .

وكذا دعاة الإسلام في كل عصر يستعملون الوسائل المتاحة والمتجددة
والمناسبة لمقام دعوتهم ، والداعية إلى الله تعالى كلما كان أعلم بوسائل الدعوة
أتاح ذلك له نشر الدعوة في سبل متعددة دون الاقتصار على وسيلة واحدة ،
وبتعدد الوسائل تتعدد المنافع وتتوسع ، ولا يكون الداعية حبيس الوسيلة
الواحدة أو الوسائل المحدودة والذي هو سبب من أسباب تعثر الدعوة ، سواء
كان ذلك بسبب ضيق أفق الداعية بمعرفة الوسائل ، أو ضيق الوسائل المتاحة
في نشر الدعوة إلى الله تعالى .

ولئن كانت الأساليب هي طرق وكيفيات يتم بها تبليغ الإسلام ، فإن هذه

الطرق والكيفيات لا بد لها من أداة لنقلها إلى الميدان الدعوي ، فالوسائل هي الحاملة لهذه الطرق للمدعوين ، وسيأتي في تعريف الوسائل بأن أبرز معانيها إيصال الدعوة .

- تعريف الوسائل الدعوية :

الوسيلة في اللغة : من الثلاثي و سَلَّ ، ومن معانيه : الرَّغْبَةُ وَالطَّلَبُ . يُقَالُ و سَلَّ ، إِذَا رَغِبَ . و الوَاسِلُ : الرَّاعِبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(١) ، وَهِيَ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ وَيُتَقَرَّبُ بِهِ^(٢) .

وفي الإصطلاح الدعوي : وسائل الدعوة : هي ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية ، أو مادية^(٣) .

وقيل : هي ما يتوصل به الداعية إلى تبليغ دعوته من أشياء وأمور^(٤) .

وقيل : هي ما يستعين به الداعي على تبليغ الدعوة إلى الله على نحوٍ نافع مثمر^(٥) .

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : الوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود^(٦) .

فالمراد بالوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى : هي ما يستعمله الداعية من أمور

(١) « مقاييس اللغة » (٦ / ١١٠) ، مادة (وسل) .

(٢) « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٥ / ١٨٥) و « لسان العرب » (١١ / ٧٢٥) و « تاج العروس » (٣١ / ٧٥) ، مادة (وسل) .

(٣) « المدخل إلى علم الدعوة » (٤٩) .

(٤) « الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى » (١٢٦) .

(٥) « أصول الدعوة » (٤٤٧) .

(٦) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ١٠٣) .

حسّية أو معنوية لنقل دعوته إلى الناس .

وتنقسم وسائل الدعوة إلى قسمين :

١- وسائل معنوية : وهي جميع ما يعين الداعية في دعوته من أمور قلبية أو فكرية ، وذلك كالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ، والتفكير ، والتخطيط ، ونحو ذلك مما لا يُحسُّ به أو يُلمس ، وإنما تُرى آثاره .

٢- وسائل حسّية (أو مادية) : وهي جميع ما يعين الداعية من أمور محسوسة أو ملموسة ، كالقول ، والحركة ، والأدوات ، والأعمال ومنها : الكتابة ، والرسالة ، ووسائل الإعلام ، وإعمار المساجد ، وإقامة النوادي ، ونحوها مما هو محسوس^(١) .

ولقد استعمل النبي ﷺ الوسائل المعنوية ، وأبرز ذلك هو الأخلاق الرفيعة التي زكّاه الله تعالى بها وأثنى عليه في كتابه جل وعلا فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ، فكانت أخلاقه ﷺ من أعظم وسائل دعوة الآخرين ، وتأثر به بأخلاقه صدقه وأمانته ولينّه وشفقته ، مَنْ تأثر من كفار قريش آنذاك .

وأما الوسائل الحسية فقد استعمل ﷺ جميع وسائل عصره كما تقدّم ، فصعد بالحق على الصفا ، وكان يستعمل ملتقيات الناس وأسواقهم ، يطوف بمشاعر

(١) « المدخل إلى علم الدعوة » (٤٩) ، ومنهم من يُقسّم وسائل الدعوة إلى : وسائل خارجية مثل الحذر المبني على التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب ، والاستعانة بعد الله تعالى بالغير في تبليغ الدعوة ، ونحوها من الوسائل غير المباشرة والتي تتعلّق باتخاذ الأسباب لتهيئة المجال الجيّد المساعد لتبليغ الدعوة إلى الله تعالى ، والنوع الثاني وسائل تبليغ الدعوة بصورة مباشرة ، كالتبليغ بالقول ، والتبليغ بالعمل ، والتبليغ بالسيرة الحسنة وغيرها . انظر : « أصول الدعوة » (٤٤٧) ، وانظر : « مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة » (٩٤) د . سعيد القحطاني .

الحج ويتلقى القبائل إذا وفدوا ، والناس في طرقاتهم ونواديهم .

وفي كل عصر تتجدد الوسائل الدعوية ، وفي زماننا كثرت وسائل الدعوة ، وأصبحت سهلة لكل من عنده همٌ دعوي يريد نشر الدين وتبليغه في أصقاع المعمورة ، وهذه من نِعَم الله الوارفة .

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ : « في وقتنا الحاضر يسر الله عَزَّجَلَّ أمر الدعوة أكثر ، بطرق لم تحصل لمن قبلنا ، فأمر الدعوة اليوم متيسرة أكثر ، وذلك بواسطة طرق كثيرة ، وإقامة الحجّة على الناس اليوم ممكنه بطرق متنوعة مثلاً عن طريق الإذاعة ، وعن طريق التلفزة ، وعن طريق الصحافة ، وهناك طرق شتى »^(١) .

فينبغي للداعية استغلال تنوع الوسائل المعاصرة ، واستعمالها على الوجه المشروع في الدعوة إلى الله تعالى ، فإن الناس إذا رأوا الداعية واکبهم في الوسائل المشروعة ووجدوه حيث استعملوا هذه الوسائل كان ذلك أدعى لوصول الخير إليهم ، ومواكبة الدعوة لكل الميادين المعاصرة في حياتهم .

على أنه ينبغي للداعية التنبه من استعمال هذه الوسائل بوجه غير مشروع ، أو استعمال وسائل محرمة في الدعوة إلى الله تعالى فإنه لا يجوز وكل وسيلة محرمة فإنها لا تؤدي إلى مقصود مشروع ، قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « لو أراد الإنسان أن يتوصل إلى خير بشرٍّ كأن يصانع إنساناً بمعصية يقول لعله يهتدي ، مثل أن يغتاب زيداً أو عمراً ليتقرب إلى هذا الرجل ، فهذا ليس بجائز ، لا يمكن أن تكون الدعوة إلى الخير بوسيلة محرمة إطلاقاً ؛ لأن الوسيلة المحرمة خبث في ذاتها ، كيف تكون وسيلة إلى خير ، لكن إذا كان من المباح صار خيراً لغيره ، وإن كان هو بنفسه خيراً صار خيراً على خير »^(٢) .

(١) « مجموع فتاوى ابن باز » (٥ / ٢٥٦) ، (٨ / ٤٠٣) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ١٢) .

وليكن للداعية في رسول الله ﷺ أسوة حسنة باجتنابه كل وسيلة محرمة وإن كانت تستعمل للدلالة على الخير ، ومن ذلك حينما أراد الصحابة وسيلة للإخبار بدخول وقت الصلاة ، تحدّثوا بوسائل متعددة ، فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم اتخذوا قرناً مثل قرن اليهود ، وأشار بعضهم إلى إضرام نار كما يفعل المجوس ، فأعرض النبي صلى الله عليه عن كل هذه الوسائل المشابهة لوسائل الكفار وأمر بالأذان بصفته المشروعة^(١) .

قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « لو قال قائل : هل يجوز فعل الوسائل المحرمة للوصول للمصلحة كمن أراد إرشاد رجل ولا يتم له ذلك إلا بالجلوس معه في مكان المعصية ؟

الجواب : أن الوسائل المحرمة لا تكون سبيلاً للإرشاد أبداً ، فمثلاً : لو قلنا : إن هذا الرجل لا يمكن أن يهتدي ، إلا إذا أتينا بالموسيقى نضربها له ، فلا نضربها ومهما صغر هذا الذنب لا نفعله بل ندعوه إن اهتدى فلنفسه وإلا فعلها »^(٢) .

وليعلم الداعية أنه لا مجال لاستحسان بعض الوسائل المحرمة أو المشروعة المستخدمة على وجه غير مشروع في مجال الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا مما يقع في خلله بعض المجتهدين باستحسانهم لتتأجج دعوية يروجونها ، فالمحرم لا يكون سبيلاً للخير ، حتى ولو كان فيه شائبة من محرم ، ومن أمثلة ابتعاد النبي ﷺ من

(١) والحديث أخرجه مسلم (٣٧٧) ، عن عبد الله بن عمر ، أَنَّهُ قَالَ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ ، فَيَتَحَيَّيْنَوْنَ الصَّلَوَاتِ ، وَلَيْسَ يُنَادِي بِهَا أَحَدٌ ، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَرْنًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ . فَقَالَ عُمَرُ : أَوْلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا بَلَاءُ قُمْ . فَنادِ بِالصَّلَاةِ » ، وفي رواية : فَذَكَّرُوا أَنْ يَنْوُزُوا نَارًا أَوْ يَضْرِبُوا نَاقُوسًا .

(٢) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ٢١٣) .

الوسيلة ولو كانت مشوبة بمحرم ، ما كان عليه أهل الجاهلية من عادة في إنذار القوم فإنهم يفعلون ثلاثاً : يصعدون مكاناً مرتفعاً من جبل ونحوه ، ويصيحون بقومهم كقولهم (واصباحاه) لإنذارهم ، ويكون هذا النذير عرياناً وكأن العدو عراهم من ثيابهم ليسرعوا إلى نجدتهم ، ولما أراد النبي ﷺ دعوة قومه انتزع النبي ﷺ ما كان محرماً وهو التعري ، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا ، فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهُ ^(١) » ، فَقَالُوا : مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ ؟ قَالُوا : مُحَمَّدٌ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي فُلَانٍ ، يَا بَنِي عبدِ مَنْأَفٍ ، يَا بَنِي عبدِ الْمُطَّلِبِ » ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ » ^(٢) .

فالنبي ﷺ جرّد هذه الوسيلة مما كان محرماً وفعل المشروع فيها ، بل صحّ عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ » ^(٣) ، إشارة إلى عِظَم ما جاء به كما كان عليه الناس من قبل عند النذارة ، فعلى الداعية الابتعاد عما كان حراماً من أصله من الوسائل ، أو ما كان استعماله محرماً وإن كان أصل الوسيلة مباحة .

(١) يا صباحاه : كلمة تقال عند هجوم العدو ، أي هجموا عليكم صباحاً . انظر فتح الباري لابن حجر (١ / ١٤٢) ، (٨ / ٧٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٦ / ١٧٩) برقم (٤٩٧١) ، ومسلم (١ / ١٩٣) برقم (٢٠٨) .

(٣) والحديث أخرجه البخاري (٨ / ١٠١) برقم (٦٤٨٢) ، ومسلم (٤ / ١٧٨٨) برقم (٢٢٨٣) ، من حديث عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : « إِنِّ مِثْلِي وَمِثْلِي مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالْجَنَاءُ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَذَلُّوهُ فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ ، فَذَلِكَ مِثْلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمِثْلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ » .

المطلب الثاني : وسيلة القدوة الصالحة

من المضامين الدعوية التي احتواها تفسير الشيخ رحمه الله ، والمهمة في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى ، والتأثير في المدعوين ودعوتهم إلى الإسلام وتعاليمه ، وسيلة القدوة الصالحة للداعي ، وأفعاله الحميدة ، وصفاته العالية ، وأخلاقه الفاضلة ، والتزامه بالإسلام ظاهراً وباطناً ، ولهذه الوسيلة بالغ الأثر على المدعوين ؛ لأن التأثير بالأفعال والسلوك أبلغ من التأثير بالقول وحده .

فالقدوة الصالحة وسيلة دعوية يجذب إليها المدعوون من حيث لا يشعر الداعية ؛ لما يرونه من أخلاقه وأفعاله وحسن تعامله ، كما كان عليه النبي ﷺ من الأسوة الحسنة التي أمرنا باتباعها فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، والذي عرف عنه قومه أخلاقه وقدوته الكبيرة في النفوس ، فأسلم منهم من أسلم ، وصد بعضهم عن تصديقه الكبر والجحود ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وفي حديث أبي سفيان رضي الله عنه مع هرقل حينما سأله عن أحوال النبي ﷺ وسلوكه قال هرقل : « فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَهْمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَهَلْ يَغْدُرُ ؟ قُلْتُ : لَا قَالَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ : يَقُولُ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ ... » (١) .

فبوسيلة القدوة الصالحة التي ارتسمت في حياة النبي الكريم ﷺ جعل الله لها أثراً بالغاً في أوساط قريش ، والذي لم يُتهم بشيء مما كان يعمل قومه حينما كانوا

يعجُّون في وسط مجتمعي كثرت فيه المفسدات وعمَّت فيه الرذائل ، لكنه ﷺ بما عليه من قدوة صالحة - استطاع كسب قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام وتعاليمه ، وهكذا يكون الداعية مقتدياً بالنبى ﷺ ، مراعيًا هذه الوسيلة المهمة في الدعوة إلى الله تعالى ، والتي هي من صفات الربانية المنشودة ، قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : الإشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون معلمًا ربانيًا ؛ لقوله : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ ، أما ما يحصل من بعض الناس وهو أن يكون معلمًا لا ربانيًا ؛ فإن علمه قاصر جدًّا ؛ لأن فائدة العلم وثمرته هي العمل والتأدب بآداب العلم ، فإذا كان هذا الرجل يملأ أدمغة الطلاب علمًا ولكن ليس هناك سلوك وأخلاق وأعمال وعبادة ، فإن تعليمه ناقص جدًّا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴾ » (١) .

وأصول القدوة الصالحة التي يكون بها الداعية قدوة طيبة في مجتمعه أصلاً عظيمان هما : حسن الخلق ، وموافقة العمل للقول .

فأما حسن الخلق فيندرج تحته كثير من الصفات : كالتواضع ، والوفاء بالعهد ، والأمانة ، والشجاعة ، والصبر ، والشكر ، والحلم ، والرفق ، والحياء ، والعفو ، والجود ، والعدل ، وحفظ اللسان ، وغيرها من أخلاق الإسلام .

وأما موافقة العمل للقول فهو أن يكون فعل الداعية موافقاً للطريق المستقيم ، وسيرته تطبيقاً عملياً لقوله ، فلا يخالف ظاهره باطنه ، ولا فعله قوله في أمره ونهيه ، فهو بهذا يكون قدوة يُحتذى به ويتأثر به من حوله من

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٤٥٩) .

الناس دون أن يشعر^(١) .

وأولى الناس في استعمال هذه الوسيلة هم الدعاة إلى الله تعالى ؛ لأنهم قدوات في مجتمعهم ويتعلم منهم الناس بأفعالهم قبل أقوالهم ، في امثالهم شريعة الإسلام وتعاليمه ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « يجب على كل طالب علم أن يكون أول من يمثل أمر الله عزَّوَجَلَّ ويجتنب نهيه ؛ لأنه مسؤول عن ذلك من وجهين :

الوجه الأول : أنه كغيره من المكلفين .

والثاني : أن طالب العلم قدوة ، أيُّ عمل يعمله فسوف يقتدي به الناس ، ويحتجون به ، فإذا كان طالب العلم هو الذي يسخر من العلماء أو من دون العلماء فهذه بلية في الواقع^(٢) .

وليس هذا فحسب بل على الداعية أن يشجع غيره في امثال القدوة الصالحة في المجتمع ، فيذكر لهم ما كان عليه النبي ﷺ إمام المقتدين من الخلق الرفيع ، والمعاملة الحسنة في النفس ومع الغير وهكذا كان مَنْ بعده من التابعين وأئمة الدين على مرِّ العصور ، فإن في نشر نماذج القدوات الصالحة محاكاة للنفوس وتشجيعا لها بالافتداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أن من طرق التشجيع على الشيء والإغراء به ، أن يُذكر للإنسان سلف يقتدي به ويتشجع

(١) انظر « أصول الدعوة (١٠٠) ، و« الحكمة في الدعوة إلى الله » (١٢٤-١٣٠) ، و« مقومات الداعية الناجح » (٤٨) ، و« المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلى الله تعالى » للرحيلي (١٧٠) .

(٢) « تفسير سورة الحجرات » (٣٩) .

للحاق به ؛ لقوله : ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾^(١) .

وقد عالج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره مدخلا من مداخل الشيطان مما يتعلق بالقدوة الصالحة فقال : « هنا مسألة وهي : أن الشيطان يأتي إلى الإنسان فيقول : إن صليت فقد راءيت ، وإن حسنت صلاتك فقد راءيت ، وهو بعيد من هذا ، فهل يترك تحسين الصلاة خوفاً من ذلك ، أو يترك العبادة خوفاً من ذلك ؟

الجواب : لا ، وهذا من مبهطات الشيطان للإنسان ، ولكن ليشق طريقه وليستمر ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا يلتفت إلى هذه الوسوس ؛ لأن الشيطان يتمنى أن لا نعبد الله ؛ لأنه عصي الله ، فيريد من الناس أن يعصوا ربهم أيضاً ، فلا تترك العبادة من أجل الرياء .

ثم إن طراً على بالك أنك تحسنها من أجل رؤية الناس : فإن كنت طالب علم يقتدي به فانو أنك تحسنها من أجل أن يقتدي الناس بك ، وتكون في هذه الحال عابداً معلماً ، فإن الرسول ﷺ كان إذا أتاه وفد يطلب منه أن يبين لهم كيفية الصلاة يقول لهم : « صلوا معنا » ، وكان يصعد على المنبر حين بني له ، ويصلي عليه ويقول : « فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي »^(٢) ، وبهذا تطرد الشيطان عنك .^(٣) ، وفي هذا دلالة على تعلم الناس من أفعال الداعية واقتدائهم به ، لما يرونه من حسن عمل ، ومثال يُحتذى به .

ومما تقدّم من المضامين الدعوية في تفسير الشيخ تتضح أهمية بناء القدوات الصالحة في المجتمع ؛ وأهمية محاكاة النفس لأن تكون قدوة في

(١) « تفسير آل عمران » (٢ / ٢٦٢) ، وانظر : « تفسير آل عمران » (١ / ٤٧١) .

(٢) أخرجه البخاري (٩١٧) ، ومسلم (٥٤٤) .

(٣) « تفسير سورة النساء » (٢ / ٣٦٤) .

مجتمعها لاسيما الذين يتولون القيادات العلمية والتربوية ، فلا بد أن يستشعروا بأن المدعوين إنما يتأثرون بأخلاقهم وتعاملهم وتصرفاتهم أكثر من تعليمهم أو تنظيرهم ، فالعلم الصِّرف منابعه كثيرة ، لكن التربية والقدوة الحسنة تحتاج إلى داعية بأفعاله قبل أقواله ، ومعلمًا بسمته ودلّه قبل تعليمه ، فالدعاة الصادقون هم الذين وافقت أفعالهم أقوالهم في العبادة والأخلاق وحسن التعامل مع الناس ، وطالب العلم قدوة في مجتمعه ، وكم ظنّ الناس في عمل ما يعمله الداعية أنه من شرع الله تعالى بمجرد التطبيق ، فلا بد للداعية أن يراعي هذا المستقى الذي يستقي منه العامة ، فترسم الدعوة في أفعاله وأقواله ليكون قدوة صالحة في مجتمعه .



المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول

وسيلة القول من أبرز وسائل الدعوة وأكثرها شيوعاً واستعمالاً في الميدان الدعوي ؛ لما في وسيلة القول من سهولة التطبيق ، ولما فُطِرَ عليه البشرية من التحدُّث بعضهم لبعض ، فينشأ الإنسان ووسيلة القول هي الأبرز في تعايشه مع غيره ، ولذا كانت المضامين الدعوية بالقول هي الأكثر من وسائل الدعوة .

وكان تبليغ رسول الله ﷺ لرسالة الشريعة بالقول ، قال تعالى مخاطباً رسوله وأمرًا له أن يقول للناس : ﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٨] ، وقال : ﴿ قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وكذلك أمر الله رسله أجمعين بتبليغ أقوامهم رسالة ربهم بالقول المبين ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفْرَعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠٤] ، فالقول هو الوسيلة الأصلية في إيصال الحق للناس .

ووسيلة التبليغ بالقول لا تكون وسيلة دعوية حتى تكون ذات مضمون دعوي يتسم بالنفع وبذل الخير للغير ، ولذا جاء التقييد في الآية بالقول الحسن ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة : ٨٣] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها :

« من فوائد الآية الكريمة : وجوب القول الحسن في مخاطبة الناس ، وفي دعوتهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ، والظاهر والله أعلم أن القول

الحسن إن كان المراد به ما هو ضد القول السيء ، فإن القول الحسن هنا يكون واجباً ، أي : أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم ، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية ، ومن القول الحسن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله ، فإن هذا كله من القول الحسن ، وضده القول السيء الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس ، فإنه محرم^(١) .

فما لم يكن حسناً من القول فليس وسيلة للدعوة ، وما كان في أصله حسناً لكنه استعمل في غير موضعه فليس على منهاج الدعوة الصحيحة ، ولذا فإن وسيلة القول كغيرها مما لا بد أن تراعى فيه الحكمة ، فمن القول الحسن ما يناسب في مقام دون غيره ، ومن القول الحسن ما تأخيره أفضل من تقديمه ، فالداعية يراعي ما يقول حسبما تقتضيه المصلحة والحكمة .

والتبليغ بالقول وسيلة يندرج تحتها أنواع متعددة منها : الخطبة ، والدروس العلمية ، والفتاوى الشرعية ، والمحاضرات ، والندوات ، والمناقشات الشرعية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوات الفردية ، والنصيحة الأخوية ، ونحوها من الوسائل القولية في الميدان الدعوي .

فينبغي للداعية أن يغتنم استعمال هذه الوسائل ، لأنه باستعمالها تصل دعوته لأقطار بعيدة ، وتعم أماكن عديدة .

وينبغي للداعية أن يراعي في قوله من اللفظ ما يناسب المدعوين على اختلاف طبقاتهم ، وينبغي أن يتأنى في كلامه حتى يستوعبه السامع ويفهمه ، كما كان النبي ﷺ عليه من القول ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قالت : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٣٦) .

حَدِيثًا ، لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَخْصَاهُ^(١) ، مبتعداً عن التفاسيح والتكلف في النطق ، متلطفاً بقوله للمدعوين^(٢) ، وإن من إحسان القول أن يعيد مقالته إذا لم تُفهم عنه ، ففي الصحيح عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ « إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا »^(٣) .

ولا يكون الداعية إلى الله تعالى وارث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حتى يجتهد في الدعوة القولية والفعلية ، حتى ينال شرف المبلغين لشريعة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية : « وجوب إبلاغ الشريعة على أهل العلم ، وجه ذلك : أن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وإذا كانوا ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وجب عليهم أن يقوموا بحق الإرث ، فيبلغوا ما علموا من شريعة الله وجوباً ، إما بالقول وإما بالفعل : إما بالكتابة وإما بالإشارة ، بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ »^(٤) .

وإن من حق الإرث الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في المضامين السابقة أن يسعى الداعية حسب استطاعته - بكل وسيلة حديثة تكون امتداداً لقوله ، وتبليغه الناس دعوة الإسلام ، لاسيما في زماننا الذي كثرت فيه وسائل عصريّة متنوعة قرّبت البعيد ، وأسمعت النائي عن الناس حتى صار يعايشهم ، من خلال مواقع التواصل الاجتماعي المتجددة والمتسارعة في حدوثها وانتشارها بين الناس ،

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٧) ، ومسلم (٢٤٩٣) .

(٢) انظر : « أصول الدعوة » (٤٧٢) ، و « مقومات الداعية الناجح » (٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٩٤) .

(٤) « تفسير سورة المائدة » (٢ / ١٥١) .

والداعية الحصيف هو الذي يستغل هذه البرامج الحديثة في تبليغ الشريعة بقوله ، لاسيما وحاجة الأمة اليوم لإقامة شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبيرة للغاية ، وتقدم في كلام الشيخ رحمه الله ما يدل على وجوبها وأنها من أوجب القول الحسن الذي يدعى الناس به ، وليس ببعيد أن يقال : إن وسيلة القول هي أقوى الوسائل الدعوية وأكثرها نفعا ، ففقدتها يفقد الداعية كثيرا من الوسائل المتعلقة بها .



المطلب الرابع : وسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والدعاة

من الوسائل الدعوية التي قامت عليها الرسائل وانتشرت بها الشرائع ، ووصل بها الحق إلى الناس ، وقُطِعَتْ بها الحجج ، وسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من الظلمات إلى نور الوحي والرسالة والتوحيد .

وهي وسيلة عريقة ؛ لتعلقها بإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، حيث كان استعمال هذه الوسيلة في جميع الأمم ، فكل أمة بعث الله فيهم رسولاً يبين لهم الحق بعد الضلال ، وتتابع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لتبقى آثار الرسالة في الأمم ، ويحملها من بعدهم من دعاة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الروم: ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [البقرة: ٨٧] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية مبيناً مضمون وسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : « من فوائد الآية : أن الله تعالى لم يهمل الخلق بلا رسل ، فإنه قفّى من بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تبعاً ؛ من أجل هداية الناس ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ، فكل أمة خلا فيها نذير ؛ لتقوم الحجة على العباد ، فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة على ربهم عزَّ وجلَّ ولكنه سبحانه وتعالى منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما قال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] .

- ومن فوائد المستنبطة المأخوذة من هذه الآية : أن الله عزَّ وجلَّ قَفَى من بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ من أجل أن تبقى آثار الرسالة في العباد «^(١)» .
ووسيلة إرسال الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من أعظم المنن التي منَّ الله تعالى بها على عباده ، وحفظ لهم بها وحدة الصف بوحدة الدين ، ليبشروا الناس بكل أمنٍ وخير ، وينذرونهم عقوبة الله إن خالفوا أمره ، قال تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ :

« من فوائد الآية : منَّة الله عزَّ وجلَّ على عباده بإرسال الرسول ، ولابد من إرسال الرسول ، يعني : أن حكمة الله عزَّ وجلَّ تقضي بإرسال الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله من الأسماء والصفات والأحكام ، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات ، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلى الرسول «^(٢)» .

وأهم حكمة من إرسال الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هي الدعوة لدينه وإقامة الحجة على الخلق ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « فحكمة إرسال الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تتلخص في :

الأول : إقامة الحجة على الخلق حتى لا يحتج أحد على الله فيقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَ وَنَخْزَى ﴾ [طه : ١٣٤] لقد قطع الله هذه الحجة من أساسها بإرسال الرسول عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وتأبيدهم بالآيات البيّنات الدالة على صدقهم ، وصحة

(١) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٢٤٥) ، وانظر : « تفسير سورة النساء » (١ / ٤٦٤) .

(٢) « تفسير سورة الأنعام » (٢٣٨) ، وانظر (٥٣) ، وانظر : « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٤٩) .

نبوتهم ، وسلامة طريقتهم .

الثاني : توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم ، ودعوتهم للحق الذي خُلِقُوا من أجله .

الثالث : جمعهم على دين واحد ورجل واحد ، فإن انقياد الناس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكاً فإنهم يجتمعون عليه عن عقيدة راسخة وإيمان ثابت فيحصل الصلاح والإصلاح^(١) .

ولقد أرسل النبي ﷺ الدعاة ليلبغوا شرع الله تعالى ، كما أرسل معاذ بن جبل إلى أهل الكتاب ، قائلاً له : « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ ... »^(٢) ، وهي وسيلة استعملت على مرِّ العصور إلى زماننا ، فيإرسالهم تقوم الحُجَّةُ على الجاهلين برفع الجهل عمَّن لم تبلغه الشريعة أو أحد فروعها ، أو بلغته على وجه مشبوه ، وإقامتها على المعاندين بإزالة الشبهة التي كان يتمسكون بها ويدعون لها ، لاسيما في زمن كثرت فيه الأهواء ، وتعددت الفرق ، وضلَّ عن طريق الحق أقوام كانوا تبعاً لمن يظنون أنهم على الحق ، وليسوا على شيء ، فالمسؤولية على الدعاة أعظم ، والحاجة مُلحَّة في إرسالهم وبيانهم للحق أوضح بيان^(٣) .

(١) انظر : « مجموع فتاوى ورسائل العثيمين » (٥ / ٢٩٩) بتصرف .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

(٣) ولا يتم ذلك إلا بالسير على هدي الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في رسالاتهم ، فعلى الدعاة أن يقتفوا آثارهم ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] : « وقوله : ﴿ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ أي : بعد إرسال الرسل ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يبينون للناس بياناً تاماً لا يحتاج معه إلى إيضاح ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ =

ومن خلال المضامين السابقة يُعَلِّم أهمية وسيلة إرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ لإقامة الحجة على العباد ، وبيان الحق لهم ، وتوجيههم لما فيه خير وصلاح لدينهم ودنياهم ، ولجمع الأمة على دين واحد وأمة واحدة تعتزُّ بدينها وتدافع عن حياضه ، وإنه من السير على جادة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين سعوا في أقوامهم وكابدوا الدعوة لإيصال الحق ، أن يسير على نهجهم دعاة الإسلام اليوم وفق منهج شرعي قائم على الكتاب والسنة ، لاسيما والحاجة لهم تتضاعف زمناً بعد آخر ، وسواء كان ذلك في الوسط الداخلي للدعوة أو الخارجي ، والواقع خير شاهد ، ولئن كان اجتهد رهبان اليهود ومبشّري النصارى ، ومعممي الروافض وغيرهم في الدعوة إلى ديانتهم الباطلة بجدٍّ واجتهاد فعلى دعاة الإسلام اليوم مزاحمتهم وبيان خطرهم ، وسبقهم إلى سائر المدعوين في الأرض لنقاذهم من ظلمات الغواية إلى نور الهداية ، وهم بهذا يسرون على جادة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] :

« من فوائد الآية : أن هؤلاء الذين يدينون بدين غير الإسلام يُتَعَبُونَ أبدانهم ، ويهلكون أموالهم ، وربما يموتون جوعاً وعطشاً وحرّاً وبرداً في الدعوة إلى غير دين الإسلام ، كالذين يسمونهم المبشرين ، وهم في الحقيقة منضّرون مضللّون ، هؤلاء ينفقون أموالاً كثيرة ، ويتعبون تعباً عظيماً ، ويتعرضون للهلاك ، وكل هذه الأعمال نتيجتها هباء : ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بِالْإِسْلَامِ فَجَعَلْنَاهُ نَفْثًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، لا يستفيدون منها إطلاقاً لأنها على غير شريعة الله ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

= وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٤] فلا بد من البيان على كل رسول ، ﴿ لَّئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] « تفسير سورة النساء » (٢ / ٤٨٤) .



كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً
ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦] ، يغلبون إذا قام
المسلمون بما يجب عليهم من نصره دين الإسلام ، ولهذا نأسف أن النصارى
لهم هذا النشاط في دعوتهم إلى الضلال ، والمسلمون نشاطهم لا يبلغ ولا
عشر معشاره مع أنهم على حق . ولكن الحق لا بد أن ينتصر ولو بعد حين ^(١) .

فالواجب على المؤسسات الدينية ، والمراكز الإسلامية ، وغيرهم ممن
ينطوي تحته جملة من الدعاة ، الاجتهاد ، وحسن الترتيب والتنظيم ، والتنظير ،
في إرسال الدعاة وفق المنهج الشرعي المؤصل ، بلا إخلال ، ولا عشوائية ،
وإنما دعوة ذات رؤية ومنهجية ، ودراسة ، وثمرات مرتقبة ، فهي المثمرة حقاً ،
وعلى دعاة الإسلام مزاحمة أهل الباطل ومناصرة الحق ، والسبق لبنيل شرف
الدعوة بالوصول إلى كل قطرٍ يحتاج الدعوة إلى دين الله تعالى ، فإن إرسال
الدعاة من أعظم الوسائل وأهمها ، وهو طريق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، واتباعه يتم
الاقتراء بهم والسير على نهجهم ، فهي وسيلة من أقدم الوسائل ولن تنقطع إلى
قيام الساعة .



(١) « تفسير الفاتحة والبقرة » (٣ / ٣٣) ، وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسير الآية : « فبين سبحانه أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليحكم بين الناس بالحق والقسط ، وليوضح للناس ما اختلفوا فيه من الشرائع والعقائد ، من توحيد الله وشرعيته ﷻ . » « الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة » (٦) .

الكتب ، فقد كان رسول الله ﷺ يأمر بكتابة الرسائل إلى حكام البلاد غير الإسلامية ، يدعوهم فيها إلى الله ، واعتناق دين الإسلام ؛ كرسائله (إلى كسرى في العراق ، وهرقل في الشام ، والمقوقس في مصر ، وكذلك علماء الإسلام يرسلون الرسائل إلى الحكام المسلمين يدعونهم فيها إلى ما أمرهم الله به .

ومن رسائله ﷺ ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : بَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى ، مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ » فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى ، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَقَهُ ، فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ ، قَالَ : « فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلُّ مُمَزَّقٍ » ^(١) ، وأورد الطبري رَحِمَهُ اللهُ نَصَّ الرسالة ولفظها : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارَسَ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَدْعُوكَ بِدُعَاءِ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْتَذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، فَأَسْلَمَ تَسْلَمَ ، فَإِنْ أَبَيْتَ ، فَإِنْ إِيْتَمَ الْمَجُوسُ عَلَيْكَ » ^(٢) .

وكما في كتاباته إلى أهل الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « من فوائد الآية : أمر الرسول ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى هذه الكلمة سواء ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ ﴾ »

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤) .

(٢) « تاريخ الأمم والملوك » (٢ / ٦٥٤) .

أَلِكْتَبِ ﴿١﴾ ، وهنا سؤال : هل الرسول قال بذلك ؟ نعم قالها حتى كان يكتب بها إلى الملوك ، لم يكتب إلى كسرى ولكنه كتب إلى غيره : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، لكنه يقول : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ ، من كمال أدبه ، إذا قال : قل يا أهل الكتاب ، فكأنه يقول : إنما كتبت لكم هذه الآية بأمر الله ، لكن لو قال : يا أهل الكتاب بدون (قل) ، لكان فيها احتمال أنه كتبها من عند نفسه ، فالمهم أن الرسول ﷺ قال ذلك ، ودعاهم إلى هذه الكلمة ، لكنهم أبوا وامتنعوا لأنهم مصرّون معاندون إلا من هدى الله ، فقد هدى الله من النصاري أقواماً ، ومن اليهود أقواماً ، ومن المشركين أقواماً ﴿١﴾ .

ومن هذا المضمون الدعوي تبيّن أهمية وسيلة إرسال الرسائل والكتب ، لإقامة الحجة على العباد ، ودعوتهم إلى الحق الذي دلّ عليه التنزيل ، وعدم إيكالهم إلى عقولهم القاصرة التي ربما تستحسن ما ليس بحسن ، أو ما فيه هلاكهم وتناحرهم والذي تستباح من خلاله الأموال والأنفس بحجة إقامة العدل والإنصاف في المجتمعات ، استناداً لما تمليه العقول القاصرة ، ويكون بذلك التحريف والتبديل في الدين ، ولذا فإنه من المهم إرسال الرسائل والكتب التي تبيّن للناس الحق الذي لا بد أن يصيروا إليه والذي به تُحفظ العقول والأعراض والأموال والنفوس والدين ، وإرشادهم لأصول الدين وفروعه ورفع الجهل عنهم ، ولقد استعمل هذه الوسيلة علماء المسلمين على مرّ العصور ، سواء برسائل الدعوة لبيان أصل دين الإسلام ، أو لفرع من فروعه ، أو لبيان فتوى أو نازلة في المسلمين ونحوها ، أو تأليف الكتب والأبحاث والمقالات في المجالات وغيرها ، فينبغي استغلال مثل هذه الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى ، ولقد أثبت الواقع أهميتها وحاجة الناس لها ، في دولٍ شتى ، فعلى أهل الدعوة

الاهتمام بالرسائل والمقالات ، والأبحاث ، والكتب وترجمتها إلى لغات مَنْ يراد تعريفهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، فهذه الوسيلة يمكن تبليغ الإسلام إلى ملايين الناس الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولم تصلهم معاني الإسلام ، وفي واقعنا الحاضر نجد اهتماماً بالغاً بكتب الشريعة الإسلامية ومخاطبة العالم الإسلامي بهذه الكتب والرسائل ، ومكاتبة الدعوة إلى الله تعالى تعني بهذا الجانب عناية فائقة ، وهذه من نِعَم الله تعالى .

على أنه ينبغي للداعية عند كتابة الرسائل والأبحاث والكتب أن يراعي اختلاف طبقات الناس وفهومهم ومستوياتهم ، فلغة الدعوة إلى الإسلام أو فروعه ، سواء بالعربية أو المترجمة تكون بأسلوب بسيط مفهوم واضح يدركه أقل الناس قدرة على فهم الخطاب ، وأن تكون معانيه واضحة مما لا يسع أيّ إنسان يريد الإسلام وما يتعلّق به أن يجهلها ، وأن تكون خالية من ذكر المسائل الدقيقة والخلافية ، وأن تكون مختصرة دون إخلال بالمعنى ومقتضيات التفهيم^(١) ، ولغة الرسائل الشرعية والأبحاث والردود العلمية ، تناسب مقام التحقيق العلمي ، والتفصيل الدقيق ، وهكذا يراعي الداعية مستويات القارئ لهذه الكتب والرسائل ، ويحقق المنفعة المرادة من استعمال هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى .



(١) انظر : « أصول الدعوة » (٤٨٢) .

(۲) «فتاویٰ نور علی الدرب» (۸ / ۲)، وانظر: «تفسير جزء عم» (۱۶۹).

وينبغي للداعية حين استعماله لهذه الوسيلة أن يراعي حقها ، وحق المستمعين الذين يتعبدون بالاستماع لخطبته ، فلا بد من الاعتناء بالموضوع ، والتوقيت ، والطول ، والقصر ، ومراعاة الحال ، ومواكبة الظروف والأحوال بياناً وتوجيهاً .

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ مبيناً أهمية استغلال هذه الوسيلة وما ينبغي للداعية الخطيب مراعاته في خطبته : « الواجب على الخطيب أن يخطب خطبة مؤثرة نافعة ، تعالج ما كان الناس عليه ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان ، فليراع الخطيب هذا ، أعني يراعي ما تقتضيه المصلحة فيما يلقيه من الخطب التي يعالج بها ما كان الناس عليه ، فمثلاً إذا كان الخطيب يخطب بين يدي شهر رمضان فإن من المناسب أن يتكلم عن أحكام الصيام ، وأحكام القيام ، وأحكام الزكاة ؛ لأن كل هذه مما يفعل في شهر رمضان ، أما الصيام والقيام فظاهر ، وأما الزكاة فلأن غالب الناس يخرجون زكاة أموالهم أو على الأقل يحسبون أموالهم ليعرفوا الزكاة في شهر رمضان ، وإذا كان في زمن جفاف وجذب ذكّر الناس بما يُسبّب هذا الجفاف والجذب ، وأنه الذنوب والمعاصي كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءَاتِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَبُوا فَاَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، وإذا كان في زمن غفلة من الناس عما ينبغي أن يقبلوا عليه من العبادة والعلم وما أشبه ذلك ذكّرهم بما يفوتهم في هذا ، وإذا كان في زمن الحرب ذكّرهم بما يناسب الحال ... أما آداب الخطبة فإنها كثيرة منها : أن يكون الخطيب قوياً في خطبته ، مؤثراً منفعلاً حسب ما يسوق من المعاني ؛ حتى يؤثر على الناس في استيقاظهم واستيعابهم لما يقول ، وشدّ ضمائرهم وقلوبهم إليه ليتنفعوا بهذه الخطبة ، أما أن يلقيها إلقاء كما يلقي أي كتاب يقرؤه فإن هذا قد يجلب النوم للمستمعين ، بخلاف الذي ينفع ويتفاعل ، ولهذا قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(٣) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين (ص: ٢٢)، وانظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١٦ / ٦).

المطلب السابع : وسائل أخرى

وسائل الدعوة إلى الله تعالى لا تنحصر ؛ لأنها تتجدد بتجدد الزمن ، فلكل زمن وسائل جديدة تناسب حالهم ، وتعدد وسائل الدعوة وتكاثرها وتنوعها ظاهر لكل متأمل لاسيما في العصور المتأخرة التي استُحدثت فيها وسائل مقروءة ومسموعة ومرئية متعددة ، يحسن بالداعية استغلالها ليوافق حياة الناس ، وما يستعملونه من وسائل لتواصلهم الاجتماعي وغيره ، وهناك من وسائل الدعوة التي لازال المسلمون يستخدمونها على مرِّ العصور إلى يومنا هذا ، وهي وسائل فاعلة في المجتمع ، ولقد ذكر الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره جملة من المضامين الدعوية الدالة على وسائل دعوية أخرى غير ما تقدّم ، ومن ذلك ما يلي :

- من وسائل الدعوة صحبة الأخيار : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٥٢] رِئَاءَ أَمْنِكُمْ بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٢-٥٣] :

« من فوائد الآية : الحرص على صحبة الأخيار ، نأخذه من قوله : ﴿ فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، ولا شك أن صحبة الأخيار خير ، حتى إن الرسول ﷺ مثَّلها بحامل المسك قال : « مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافع الكير ؛ فحامل المسك ، إما أن يُحْدِثَكَ يعني يعطيك مجاناً هبة ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة كل هذا طيب ونافعٌ

الكبير . . .^(١) ، والكبير عبارة عن جلد مثل الغرب ، والغرب دلو للبعير يرفع به الماء ، فهو يشبه الغرب وفيه طرف مفتوح ، وفيه طرف متصل بأنبوب ، يتصل بمكان النار فيفتحه ، ثم يضمه ويكون قد حمل هواء عن طريق هذا الأنبوب يدفعه جهة النار ، فتلهب بشدة ، وغالباً ما يكون اثنين ، واحد عن يمين الرجل وآخر عن يساره ، فتكون النار دائماً تلهب .

« ونافخ الكبير إما أن يُحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار من الجلساء أصلحهم ؛ لأن الجلوس الصالح كله خير ، والجلوس السوء كله شر^(٢) .

- ومنها : المساجد ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [البقرة: ١١٤] : « من فوائد الآيات وأحكامها : الإشارة إلى أن المساجد إنما بُنيت لذكر الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لقوله : ﴿ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ وقد جاءت السنة مصرحة بذلك ، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مَهْ مَهْ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزِرُ مَوَهُ دَعْوُهُ » فتركوه حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : « إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ ، وَلَا الْقَدَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ »^(٣) «^(٤) .

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٤) ، ومسلم (٢٦٢٨) .

(٢) « تفسير سورة آل عمران » (١ / ٣١٥) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥) .

(٤) « أحكام من القرآن الكريم » (١ / ٣٠٤) .

- ومنها : التأمل بنعم الله تعالى : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَبْتَغِي إِسْرَاءَ يَلْ أذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾ [البقرة : ٤٠] :

« من فوائد الآية : أن تذكير العبد بنعمة الله عليه أَدْعَى لقبوله الحق ، وأقوم للحجة عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ؛ فهل هذا من وسائل الدعوة إلى الله ؛ بمعنى أننا إذا أردنا أن ندعو شخصاً نذكره بالنعم ؟
فالجواب : نعم ، نذكره بالنعم ؛ لأن هذا أَدْعَى لقبول الحق ، وأدْعَى لكونه يحب الله عَزَّوَجَلَّ ؛ ومحبة الله تحمل العبد على أن يقوم بطاعته »^(١).

- ومن وسائل الدعوة إظهار أثر النعمة : قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة : ١٥٢] :
« من فوائد الآية : تحريم كفر النعمة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ ؛ ولهذا إذا أنعم الله على عبده نعمة فإنه يحب أن يرى أثر نعمته عليه ؛ فإذا أنعم الله عليه بعلم فإن الله يحب من هذا العالم أن يظهر أثر هذه النعمة عليه :
أولاً : على سلوكه هو بنفسه بحيث يكون معروفاً بعلمه ، وعمله به .

ثانياً : بنشر علمه ما استطاع ، سواء كان ذلك على وجه العموم ، أو الخصوص .
ثالثاً : أن يدعو إلى الله على بصيرة بحيث إنه في كل مجال يمكنه أن يتكلم في الدعوة إلى الله بقدر ما يستطيع حتى في المجالس الخاصة فيما إذا دعي إلى وليمة مثلاً ، ورأى من المصلحة أن يتكلم فليتكلم ؛ وبعض أهل العلم يكون معه كتاب ، فيقرأ الكتاب على الحاضرين ، فيستفيد ، ويفيد ؛ وهذا طيب

إذا علم من الناس قبول هذا الشيء بأن يكون قد عودهم على هذا ، فصاروا يرقبونه منه ؛ أما إذا لم يعودهم فإنه قد يثقل عليهم بهذا ، ولكن من الممكن أن يفتح المجال بإيراد يورده سؤالاً مثلاً - حتى يفتح المجال للناس ، ويسألون ، وينتفعون ؛ لأن بعض طلبة العلم تذهب مجالسهم كمجالس العامة لا ينتفع الناس بها ؛ وهذا لا شك أنه حرمان وإن كانوا لا يأثمون إذا لم يأتوا بما يوجب الإثم ؛ فالذي ينبغي لطالب العلم حتى وإن لم يُسأل - أن يورد هو سؤالاً لأجل أن يفتح الباب للحاضرين ، فيسألوا ؛ وقد جاء جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والساعة ، وأماراتها ؛ وقال النبي ﷺ : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »^(١) ؛ مع أن الذي يجيب الرسول ﷺ ؛ ولكن جعله معلماً وهو يسأل ؛ لأنه هو السبب في هذا التعليم »^(٢) .

- من وسائل الدعوة ترجمة الكتب الشرعية للغات أخرى ، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٩] : « من فوائد الآية : أنه إذا احتجنا إلى معرفة اللغات الأجنبية لبيان الشريعة كان ذلك مما يثاب عليه ؛ لأن من صفات النبي ﷺ أنه يبين للناس بأي وسيلة ، وعلى هذا فمن تعلم اللغة غير العربية من أجل الدعوة إلى الله كان مثاباً على ذلك ؛ لأنها وسيلة لتبيين الشريعة ونشرها »^(٣) .

وقال في موضع آخر : « على المسلمين أن يترجموا الشريعة إلى لغة من يخاطبونهم بها حتى تتم الحجة ؛ لأنك لو أتيت إلى قوم عجم وتكلمت

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) .

(٢) « تفسير سورة البقرة » (٢ / ١٧٠ - ١٧١) .

(٣) « تفسير سورة المائدة » (١ / ٢٥٠) .

عندهم بأبلغ وأفصح الكلام العربي ، ما استفادوا من هذا شيئاً ، ولا يدرون ما تقول ، وعليه فمن أراد أن يذهب إلى قوم يدعوهم إلى الله ، لا بد أن يتعلم لغتهم حتى يتمكن من دعوتهم ، أو يصطحب شخصاً يترجم له يكون عالماً باللغتين : الأصلية والفرعية ، ويكون له إلمام بموضوع الترجمة ، يعني موضوع ما يترجمه ، يعني إذا كان يريد أن يترجم في الكلام على التوحيد لا بد أن يكون عنده إلمام بذلك لئلا يفهم الأمر على خلافه ^(١) .

- ومنها : استعمال وسيلة التبليغ بالقول والفعل ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة : ٦٧] :

« من فوائد الآية : وجوب إبلاغ الشريعة على أهل العلم ، وجه ذلك : أن العلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وإذا كانوا ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وجب عليهم أن يقوموا بحق الإرث ، فيبلغوا ما علموا من شريعة الله وجوباً ، إما بالقول وإما بالفعل : إما بالكتابة وإما بالإشارة ، بأي وسيلة يجب عليهم أن يبلغوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ .

ومن ثمَّ يجب أن ينتبه طالب العلم لهذا : وهو أن السنن التي هي سنن تجب على طالب العلم ؛ لأن هذا من إبلاغ الرسالة ، يعني : لو أن إنساناً طالب علم معتبراً عند الناس قام يصلي ، وترك رفع اليدين مثلاً عند تكبيرة الإحرام ، وعند الركوع ، وعند الرفع منه ، وعند القيام من التشهد الأول ، أو ركع ركوعاً على غير وجه مشروع لعدده آثماً ؛ لأن هذا الفعل الذي أخل بالسنة فيه سيكون حجة للناس وسيقولون : لو كان هذا مشروعاً ما تركه فلان ، كذلك الأفعال

التي تكون مكروهة في حق غيره قد تكون في حقه محرمة .

كما أنه يجب أيضاً على طالب العلم أن يفعل ما يعتقد الناس أنه حرام ، من أجل أن يعرفوا أنه ليس بحرام ، يعني بعض الناس يقول : أي حركة في الصلاة تبطل الصلاة ، فنقول : إذا وجد سبب الحركة ، يعني : السبب الذي يبيحها فليفعله العالم حتى يبين للناس ، لكن في هذه الحالة إذا خاف أن يقتدى به ، يبين بالقول أنه فعل ذلك لحاجة وأن الحركة في الصلاة إذا كانت لحاجة فلا بأس بها وما أشبه ذلك » (١) .

- ومنها : الوسائل العصرية كالإذاعات الحديثة ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ٩٩] : « من فوائد الآية : سوء القصد من أهل الكتاب ، حيث ييغون أن تكون سبيل الله عوجاً .

وهذا الوصف لأهل الكتاب لا يزال منطبقاً عليهم إلى اليوم ، فللنصارى دعاة يُنَصِّرون الناس ويسعون بكل جهدهم إلى أن يصدوا عن سبيل الله من آمن ؛ لأنهم يريدون أن يسلك الناس السبيل العوج ، لا يريدون أن يسلكوا السبيل السوي ، وما زالوا إلى اليوم ، ولهم إذاعات خاصة تدعو الناس إلى النصرانية ، والعياذ بالله ، النصرانية الباطلة التي يحاربها عيسى (، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنۢ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] فهم الآن يَدَّعون أن دين عيسى (القولُ بالتثليث ، ويقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، ثم يضحكون على أنفسهم وعلى الناس ، ويقولون : إنه ثلاثة في واحد ، فهل هذا معقول ؟ !

لكن هذا من ضلال النصارى ؛ لأن النصارى ضالون . حتى الأمور العقلية لا يهتدون إليها فكيف يكون ثلاثة في واحد ؟ ! هذا لا يمكن .

على كل حال : هم يريدون أن يضلوا الناس منذ عهد الرسول ﷺ وإلى يومنا هذا . ومن ثمَّ يجب على المسلمين الحذر منهم ، والتشهير بهم ، حتى ينفر الناس منهم ، وأن يقابلوا دعوتهم الإلحادية الكفرية بدعوة التوحيد والإخلاص « (١) .

- ومن وسائل الدعوة التأليف بالمال ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : « قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] ، فالنبي ﷺ لم يقل لأي واحد : أعطني أجراً على دعوتي إياك ، بل هو ﷺ يبذل المال ليؤلف القلوب ، كما أعطى المؤلف قلوبهم من الأموال شيئاً عظيماً » (٢) .

- ومنها : السير في الأرض للاعتبار بالتأمل في خَلْقِ الله ، والنظر في عواقب الأمم السابقة ، قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] : « من فوائد الآية : الأمر بالسير في الأرض ، ولكن هل هو على إطلاقه أو من أجل الاعتبار فقط ؟

لننظر ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾ إذن السير في الأرض لغير غرض شرعي

(١) « تفسير آل عمران » (١ / ٥٦٨) .

(٢) « تفسير الحجرات الحديد » (١٩٨) .

مذموم ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ^(١) ، وغيره من أهل العلم ؛ لأن السير في الأرض من غير غرض شرعي فيه إتعاب للنفس ، وتعريضها للهلاك ، وإضاعة المال ، وإضاعة الوقت ، أما إذا كان لغرض شرعي فهو على حسب هذا الغرض .

وعلى هذا فإن السير في الأرض ينقسم إلى أقسام :

قسم لأغراض محرمة ، وهذا لا شك في تحريمه . وقسم آخر لأغراض مشروعة مطلوبة ، وهذا لا شك في طلبه . وقسم ثالث لمجرد الفرجة والنزهة ، وهذا ينظر فيه ، فالأصل فيه الإباحة ، ولكن إن توصل به الإنسان إلى محرم كان حراماً ، وإن توصل به إلى مشروع كان مشروعاً^(٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام : ١١] ، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ : « من فوائد الآية : الأمر بالسير في الأرض للاعتبار ، سواء كان بالبصائر أو بالأبصار ، لقوله : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، ويتفرع على هذه الفائدة أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة ، وأفضل نقرأه منه هو القرآن وصحيح السنة^(٣) . »

هذه أبرز الوسائل الدعوية في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ ، ومما تقدّم من مضامينها نستفيد أن وسائل الدعوة إلى الله تعالى كثيرة ، ومتنوعة ، وينبغي للداعية اختيار ما يناسب من الوسائل لكل مقام ، فإن تناسب وسائل وأساليب الدعوة وموضوعاتها مع حال المدعوين سبب ظاهر في نجاح دعوته وبلوغه

(١) انظر : « اقتضاء الصراط المستقيم » (١ / ٣٢٧) .

(٢) « تفسير آل عمران » (٢ / ٢٠٢) .

(٣) « تفسير سورة الأنعام » (٦١) .



المقصود منها ، وتحقيق الهداية للمدعوين ، واستجلاب قلوبهم لدعوته ،
ووسائل الدعوة العصرية متجددة ومتنوعة في مواصفاتها والتي تجعل
الداعية يوصل دعوته بكافة الأنواع سمعية كانت أو مرئية أو مقروءة إذا أحسن
استعمالها ، واجتهد في إتقانها كما ينبغي ، واستعان الله تعالى على بلوغ حسن
العمل في كل وسيلة يتم خلالها إيصال الدعوة إلى الله تعالى ، ووسائل العصر
اليوم سهلة الاستعمال ، سريعة الوصول ، دقيقة الوصف ، واسعة الانتشار ،
والدعاة إلى الله تعالى عليهم استغلال هذه الميزات المهمة والتي من شأنها أن
تنشر الدعوة إلى الله تعالى في أصقاع الأرض .



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، حمداً يليق بجلاله على تواتر نِعَمِهِ التي لا تُحصى ، ومن ذلك ما أسبغه عليّ من التيسير فيما كتبت وبحثت فيه ، فله الشكر والمنّة والفضل على تمام النعمة .

والصلاة والسلام على النبي الأكرم ، الذي ترك أمته على خير هدى ، وأوضح دلالة ، من تمسك بها كان من أهل النجاة والفلاح ، صلى الله عليه وعلى آله وذريته وصحبه إلى يوم الدين ، وبعد ...

فهذا جهد المُقل ، بذلت فيه ما فتحه الله تعالى عليّ في بيان المضامين الدعوية في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ تعالى ، وقد اشتمل على :

التمهيد وذكرت فيه : ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، مولده ونشأته ووفاته ، وشيوخه وتلاميذه ، ومكانته العلمية والدعوية ومؤلفاته ، ثم أهمية القرآن ومنزلته في الدعوة وحاجة الدعوة إليه وإلى تفسيره ، ثم منهج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره ، وكيفية تناوله لقضايا الدعوة ، وأهمية ربطها بكتاب الله تعالى ، ثم مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ .

الفصل الأول وذكرت فيه : المضامين الدعوية في الدعوة إلى عقيدة التوحيد من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، كالدعوة إلى عقيدة التوحيد بأنواعه ، ثم التحذير من الشرك وما يضادّ التوحيد ، ثم الدعوة إلى أركان الإيمان ، ثم الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة .

الفصل الثاني وذكرت فيه : المضامين الدعوية في مجالات الدعوة الأخرى في تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، كالدعوة إلى العبادات ، الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والدعوة إلى ما يتعلق بالمعاملات ، والدعوة إلى التربية الصالحة ، والقُدوة الحسنة ، ثم ذكرت القضايا الدعوية المعاصرة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وذكرت أثر معالجة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لهذه القضايا ونماذج متنوعة لها .

الفصل الثالث وذكرت فيه : المضامين الدعوية في بناء الداعية وتأهيله من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، بدأت بتعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل ، ثم التأهيل العقدي للداعية ، ثم التأهيل العلمي للداعية ، ثم التأهيل الأخلاقي للداعية ، ثم التأهيل العملي للداعية .

الفصل الرابع وذكرت فيه : المضامين الدعوية في أصناف المدعوين وخصائصهم في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، بدأت بتعريف المدعوين وبيان أصنافهم وأنواعهم ، ثم مراعاة أحوال المدعوين ، ثم دعوة المسلمين ، ثم دعوة أهل البدع ، ثم دعوة أهل الكتاب ، ثم دعوة المجوس وسائر المشركين ، ثم دعوة المنافقين .

الفصل الخامس وذكرت فيه : المضامين الدعوية في الأساليب والوسائل المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : بدأت بالأساليب الدعوية ، ذكرت تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها ، ثم الأساليب الآتية : الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، والترغيب والترهيب ، والأمثال ، والقصص ، ثم الوسائل الدعوية المستنبطة من تفسير ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : بدأت بتعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها ، ثم الوسائل الآتية : القدوة الصالحة ، والدعوة بوسيلة القول ، وإرسال الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والدعاة ، وإرسال الكتب

والرسائل ، والخطبة ، ثم وسائل أخرى .

وقد توصلت إلى مجموعة من النتائج والتوصيات من خلال هذا البحث المتواضع وهي كما يلي :

أولاً : النتائج :

١- شمولية تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ لكثير من الجوانب العلمية والدعوية ، فتفسيره فيه بسط تفسيري للآية وما تشتمل عليه من جوانب عقدية وفقهية وتربوية ودعوية .

٢- غزارة مضامين الدعوة وما يتعلّق بها في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ : من مفهوم للدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها وأصولها ومجالاتها ، وما يتعلق بالدعاة وتأهيله وبناءه ، وأصناف المدعوين وكيفية التعامل معهم ودعوتهم ، وأساليب الدعوة ووسائلها ، وأهمية ربط هذه المتعلّقات الدعوية بكتاب الله تعالى .

٣- التركيز الظاهر في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على جوانب تزكية النفس ، وإصلاحها ، والأخلاق القولية والعملية ، وأن القرآن الكريم هو منهج الحياة وهو أساس الدعوة الذي ينبغي للعبد العمل به كما كان النبي ﷺ .

٤- الدعوة إلى اتباع السنة النبوية وربطها بكتاب الله تعالى في كثير من الجوانب الدعوية التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ، ففي تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ استيفاء لأدلة الكتاب والسنة في عرض المسائل والقضايا الشرعية وترجيحها .

٥- الحث على التمسك بالسنة ونبد البدعة ، وبيان انحراف المبتدعة ، وتناول كثير من فرق المبتدعة ، وبيان خلل اعتقادهم ، والردّ عليهم برّد علمي فيه مناقشة أقوالهم وحججهم وبيان ضعفها وما يعترئها من تناقض ، ولقد أسهب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب لاسيما فيما يتعلّق بالأسماء والصفات .

٦- وفرة القضايا الدعوية التي تناولها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لاسيما القضايا العصرية التي يحتاجها الناس في كثير من الموضوعات ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو قضايا الأمة ككل ، ومحاولة ربط واقع الناس بالقرآن الكريم ومعانيه .

٧- حسن الترتيب في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ حيث إنه في غالب تفسيره يتناول الجوانب اللغوية والنحوية في الآية ، ثم المعنى الإجمالي في الآية مقروناً بأوجه القراءات ، ثم الفوائد المستخلصة من الآية وفيها يستوفي الشيخ رَحِمَهُ اللهُ جميع ما يتعلق بدلالات الآية ومضمونها .

٨- سهولة الأسلوب الذي عرض فيه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ تفسيره ، فقد جاء تفسيره ، واضح العبارة ، سهل الفهم ، وافر المعاني ، يتسم بالبسط لاسيما في الأمور التي تحتاج إلى مزيد إيضاح .

ثانياً : التوصيات :

١- الوصية بوصية الله تعالى للأولين والآخرين بتقوى الله تعالى في السر والعلن ، وأخص بها نفسي وإخواني الباحثين الذين مكنهم الله تعالى للنهل من الكتب العلمية وبحثها ونقلها بأمانة ، وتقديمها للساحة العلمية ، والإخلاص لله تعالى بالعمل له وحده سبحانه ، جل ثناؤه وتقدس أسمائه ؛ لأن ذلك هو ثمرة العلم والعمل .

٢- العناية بكتاب الله تعالى ، ودراسته دراسة دعوية شاملة ، وما يتعلق به من كتب التفسير التي اشتملت على وفرة في المضامين الدعوية ، ولو تم استقصاء كتب التفسير التي تتميز بالبسط وإبراز المضامين الدعوية فيها ؛ لظهرت جملة من المضامين المرتبطة بكتاب الله تعالى .

٣- تَنَاولُ تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ بمزيد من الدراسات الدعوية التي تسلَّط الضوء على بعض جوانب الدعوة على وجه الخصوص والتفصيل ، فإن ما كتبه في هذه الدراسة هو دراسة دعوية شاملة للمضامين الدعوية عموماً على وجه الشمول والتمثيل ، لا الحصر واستقصاء الجميع .

٤- أهمية العناية بتفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ من حيث الإخراج العلمي له ، حيث التمايز الكبير بين أجزاء التفسير من حيث بسط التفسير وطريقته ، وأهمية عزل ما كان من تفسيره للقرآن مباشرة ، وتعليقه على تفسير الجلالين ، وتناوله لسورة أو أجزاء معينة في دورة علمية أو استفتاح للقاء علمي .

مع النظر في بعض أجزاء التفسير التي تحتوي على أخطاء مطبعية ظاهرة وكثيرة لاسيما في أجزاء التعليق على الجلالين كتفسير سورة يس وتفسير سورة الصافات وتفسير سورة ص ، وكذلك تفسير السور من الحجرات إلى الحديد ، فقد وقفت على عدة أخطاء مطبعية .

وأهمية تكميل ما يتعلَّق بتفسير الجلالين من أجزاء لم يتم إخراجها مع حاجة طلبة العلم لها ، مع أهمية استقلالية كل ما يتعلَّق بتفسير الجلالين في نتاج علمي مستقل لا يتعلَّق بالتفسير الأصلي ؛ للتفاوت الظاهر في المنهج العلمي المتَّبَع بين التفسيرين .

٥- توجيه الباحثين إلى الاهتمام بالدراسات الدعوية المتعلقة بكتاب الله تعالى ، ثم الدراسات الدعوية المتعلقة بالسنة النبوية ، بحيث تكون هذه الدراسات ضمن جدول متسلسل يتناول كل ما يتعلَّق بالدعوة ؛ للخروج بموسوعة دعوية تأصيلية تتعلَّق بكتاب الله تعالى والسنة النبوية .

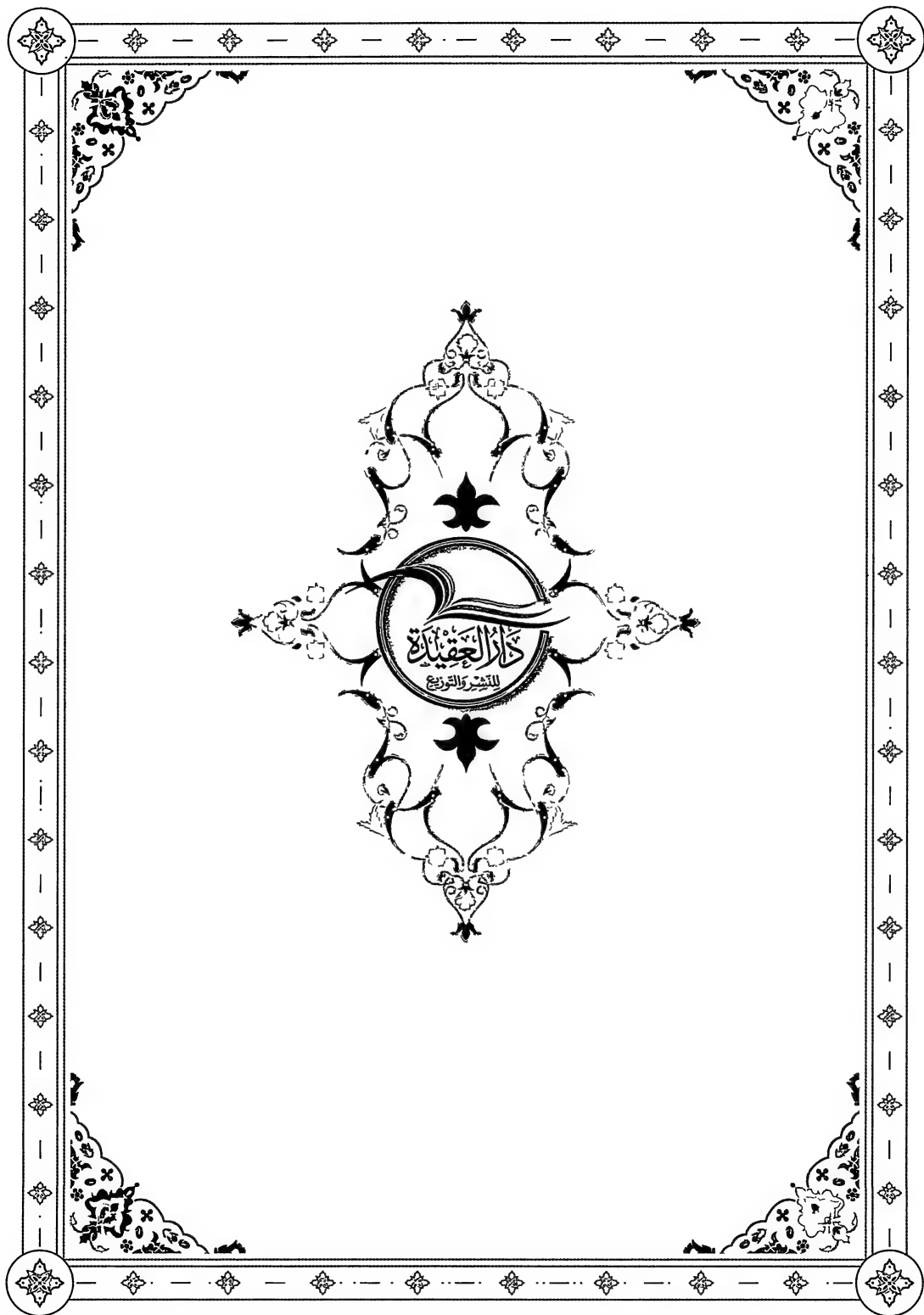
٦- تناول القضايا الدعوية المعاصرة الماثلة في كتب تفسير المعاصرين ،

أو شروحات السنة النبوية ، وعرضها وفق دراسة تأصيلية ، لاسيما وقضايا الدعوة متعددة يحتاج معها الناس اليوم إلى دراسة تأصيلية ذات نتائج مبنية على الكتاب والسنة .

٧- إجراء دراسات دعوية أكاديمية تتناول المضامين الدعوية في كتب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ المتعلقة بالسنة النبوية ؛ لما يتميز به الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من التوجيه الدعوي ، والبسط في قضايا الدعوة وموضوعاتها وأساليبها ووسائلها ، ومن الكتب ذات محل الدراسة التي يقترحها الباحث : شرح صحيح مسلم ، شرح صحيح البخاري ، شرح رياض الصالحين .

هذه أبرز النتائج والتوصيات التي خرج بها الباحث ، والله تعالى أسأله القبول ، والتجاوز عن التقصير ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، سالمًا من كل شائبة ، هذا وإن أصبت فيه فهي منة الله تعالى وحده وتوفيقه وتسديده ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .





الفهارس

١- فهرس المضامين الدعوية .

٢- فهرس المصادر والمراجع .

٣- فهرس الموضوعات .

١ - فهرس المضامين الدعوية

الصفحة	المضامين الدعوية
١١٤	المضامين الدعوية في توحيد الربوبية
١٢٢	المضامين الدعوية في توحيد الألوهية
١٣٠	المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات
١٤٢	المضامين الدعوية في التحذير من الشرك
١٥٠	المضامين الدعوية المتعلقة بالإيمان وأركانه
١٨٥	المضامين الدعوية في الدعوة للالتزام بالسنة والتحذير من البدعة
٢١٢	المضامين الدعوية المتعلقة بالعبادات الظاهرة والباطنة
١١٢	المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصلاة
١١٨	المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الزكاة
٢٢٣	المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصيام
٢٢٦	المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الحج
٢٤٩	المضامين الدعوية المتعلقة بمكارم الأخلاق
٢٥٠	المضامين المتعلقة بالصبر
٢٥٧	المضامين المتعلقة بالعفو
٢٦١	المضامين المتعلقة بالصدق
٢٦٥	المضامين المتعلقة بالأمانة
٢٧٣	مضامين الأخلاق الذميمة التي جاء التحذير منها
٢٨٢	المضامين الدعوية المتعلقة بالمعاملات

الصفحة	المضامين الدعوية
٢٩٤	المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ والتي تساعد على تركية النفس وتسمو بها نحو التربية الصالحة لتكون قدوة حسنة في المجتمع
٣١١	المضامين الدعوية المتعلقة بالقضايا المعاصرة في تفسير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ
٣١١	مضامين القضايا الدعوية المعاصرة المتعلقة بالدعاة ودعوتهم
٣١٦	مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بعلاقة أمة الدعوة بالعلماء
٣١٨	مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بدعاة الضلالة وغزوهم الفكري
٣٢٢	مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بمدعي الحضارة والمدنية ودعاة الحرية وتحرير المرأة
٣٢٩	مضامين القضايا المعاصرة في أقوال العامة وأفعالهم
٣٣٥	مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بواقع المسلمين
٣٥٣	المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العقدي للداعية
٣٦٨	المضامين الدعوية في التأهيل العلمي للداعية
٣٩٠	المضامين الدعوية في التأهيل الأخلاقي للداعية
٣٩١	المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع مدعوّيه
٤٠٦	المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء
٤١٦	المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه
٤٢٥	المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوّين
٤٤٩	المضامين الدعوية في مراعاة أحوال المدعوّين
٤٥٩	المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المسلمين
٤٨٠	المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل البدع
٥٠٤	المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل الكتاب وما ينبغي في دعوتهم

الصفحة	المضامين الدعوية
٥٢٣	المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس
٥٣٤	المضامين الدعوية في دعوة المنافقين
٥٦٠	المضامين الدعوية في أسلوب الحكمة
٥٦٧	المضامين الدعوية في أسلوب الموعدة
٥٧٦	المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الجدل بالتي هي أحسن
٥٩٣	المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الترغيب
٥٩٦	المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب التهيب
٥٩٩	المضامين الدعوية فيما يكون فيه الترغيب والتهيب
٦٠٥	المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب ضرب المثل
٦١٧	المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب القصص
٦٢٦	المضامين الدعوية المتعلقة بالوسائل الدعوية
٦٣٢	مضامين دعوية متعلقة بوسيلة القدوة الصالحة
٦٣٧	مضامين دعوية متعلقة بوسيلة القول
٦٤١	مضامين دعوية متعلقة بوسيلة إرسال الرسل والدعاة
٦٤٦	مضامين دعوية متعلقة بوسيلة إرسال الكتب والرسائل
٦٥٠	مضامين دعوية متعلقة بوسيلة الخطبة
٦٥٣	مضامين دعوية متعلقة بوسائل أخرى



٢- فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

- (١٤) عاماً مع سماحة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، عبدالكريم بن صالح المقرن ، دار طويق للنشر والتوزيع ، ١٤٢٢هـ .
- الإبانة الكبرى ، لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري ، تحقيق : رضا معطي ، وعثمان الأثيوبي ، ويوسف الوابل ، والوليد بن سيف النصر ، وحمد التويجري ، دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٥هـ .
- ابن عثيمين الإمام الزاهد ، للدكتور : ناصر بن مسفر الزهراني ، دار ابن الجوزي ط ١ ، ١٤٢٢هـ .
- الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآن ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ .
- إثبات صفة العلو ، لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد ، الشهير بابن قدامة المقدسي ، تحقيق : أحمد بن عطية بن علي الغامدي ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ .
- اجتماع الجيوش الإسلامية ، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : عواد عبد الله المعتق ، مطابع الفرزدق التجارية - الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ ،
- أحكام القرآن ، للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي ، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط ٣ ، ١٤٢٤هـ .
- الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لأبي عبدالله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الحنبلي ، عالم الكتب .
- أدب القاضي ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي ، تحقيق :

- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي - القاهرة.

- إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- أقسام البدعة وأحكامها ، أحمد عبدالكريم نجيب ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤٢٨ هـ .
- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو السبتي ، تحقيق : يحيى إسماعيل ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ .
- إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفهم ، محمد بن صالح العلي ، دار الأندلس الخضراء ، المملكة العربية السعودية - جدة ، ط ٢ ، ١٤١٥ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي ، تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- البدع العملية المتعلقة بالقرآن الكريم ، أحمد عبدالله آل عبدالكريم ، مكتبة دار المنهاج المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٣٢ هـ .
- البدع والنهي عنها ، لأبي عبد الله محمد بن وضاح بن بزيق القرطبي ، تحقيق ودراسة : عمرو عبد المنعم سليم ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة مصر ، مكتبة العلم ، جدة - السعودية ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .
- البرهان في علوم القرآن ، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٣٧٦ هـ .
- البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، الشهير بالجاحظ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة (دعو) ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى ، الزبيدي ، دار الهداية .
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، أبو جعفر الطبري ، دار التراث - بيروت ، ط ٢ ، ١٣٨٧ هـ .

- ١ - التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر - تونس ، ١٩٨٤ هـ .
- ٢ - التحفة العراقية ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، المطبعة السلفية - القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٩ هـ .
- ٣ - التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ .
- ٤ - تعظيم قدر الصلاة ، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي ، تحقيق : عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، مكتبة الدار المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ .
- ٥ - التعليق على لمعة الاعتقاد ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، تحقيق : أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، مكتبة أضواء السلف ، ط ٣ ، ١٤١٥ هـ .
- ٦ - تفسير ابن كثير المسمى : تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ .
- ٧ - تفسير أبي السعود ، تفسير أبي السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٨ - تفسير البغوي المسمى : معالم التنزيل في تفسير القرآن ، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .
- ٩ - تفسير الثعلبي المسمى الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- ١٠ - تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠ هـ .
- ١١ - تفسير السعدي المسمى : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .

- تفسير القاسمي ، المسمى : محاسن التأويل ، محمد جمال الدين الحلاق القاسمي ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- تفسير القرآن الكريم لابن القيم المسمى : التفسير القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، تحقيق : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية ، إشراف : إبراهيم رمضان ، دار ومكتبة الهلال - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .
- تقريب التدمرية ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، الدمام ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ ، وانظر : مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٣١٨ / ٩) .
- تلبس إبليس ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .
- التمهيد ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ، ١٣٨٧ هـ .
- تهذيب اللغة ، لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ، أبو منصور ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- التوقيف على مهمات التعاريف ، زين الدين محمد المناوي القاهري ، عالم الكتب القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ، أبو جعفر الطبري ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- جامع العلوم والحكم ، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط إبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ٥ ، ١٤٢٢ هـ .
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري ، تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .

- جامع بيان العلم وفضله ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق : أبي الأشبال الزهيري ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ .
- الجامع لأحكام القرآن ، المسمى : تفسير القرطبي ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٤ هـ .
- الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وما قيل فيه من المراثي ، وليد بن أحمد الحسين ، سلسلة إصدارات الحكمة ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ، أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي العامري ، تحقيق : بكر عبد الله أبو زيد ، دار الراية - الرياض ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .
- جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ، أحمد محمد البريدي ، مكتبة الرشد ناشرون ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٨ هـ .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، تحقيق : علي بن حسن عبد العزيز بن إبراهيم حمدان بن محمد ، دار العاصمة ، السعودية ، ط ٢ ، ١٤١٩ هـ .
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، المسمى : الداء والدواء ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، دار المعرفة - المغرب ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، تحقيق : محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .
- حقيقة البدعة وأحكامها ، سعيد بن ناصر الغامدي ، دار الرشد ، المملكة العربية السعودية ، ط ٣ ، ١٤١٩ هـ .
- حكم تارك الصلاة ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، مدار الوطن للنشر ، طبع عام ١٤٢٣ هـ .
- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، الناشر : وزارة الشؤون

- الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني ، دار السعادة مصر ، ١٣٩٤ هـ .
- حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية وسيرته الخيرية ، جمع وترتيب : مرزوق عبدربه عبدالعال ، دار الرشد في الرياض ط ١ ، ١٤٢٣ هـ .
- درء تعارض العقل والنقل ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤١١ هـ .
- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ، سعود بن عبد العزيز الخلف ، مكتبة أضواء السلف ، المملكة العربية السعودية الرياض ، ط ٤ ، ١٤٢٥ هـ .
- دراسات في علوم القرآن ، محمد بكر إسماعيل ، دار المنار ، ط ٢ ، ١٤١٩ هـ .
- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ، أحمد غلوش ، دار الكتاب الإسلامي ، ودار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ .
- الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ، عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض المملكة العربية السعودية ، ط ٤ ، ١٤٢٣ هـ .
- دعوة أهل البدع ، خالد بن أحمد الزهراني ، قد له الشيخ : صالح بن فوزان الفوزان ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية - الدمام ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ .
- ديوان الإمام الشافعي ، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، مكتبة المستقبل ، حلب - أقيول ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .
- ديوان الخنساء ، المكتبة الثقافية ، بيروت - لبنان .
- ذم الكلام وأهله ، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ، تحقيق : عبد الرحمن عبد العزيز الشبل ، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

- الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، دار الهلال - بيروت ، ط ١ .
- الرد على الجهمية والزنادقة ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، تحقيق : صبري بن سلامة شاهين ، دار الثبات للنشر والتوزيع ، ط ١ .
- الرد على الجهمية ، لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني ، تحقيق : بدر بن عبد الله البدر ، دار ابن الأثير - الكويت ، ط ٢ ، ١٤١٦ هـ .
- الرد على المبتدعة ، لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الله العروف بـ (ابن البناء الحنبلي) ، تحقيق : أبي عبد الله عاد بن عبد الله آل حمدان ، دار الأمر الأول للنشر ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، ط ٢ ، ١٤٣٣ هـ .
- رسالة في الدعوة إلى الله ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، مدار الوطن ، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٢٨ هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .
- زاد الداعية إلى الله (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين) ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، دار الثقة للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .
- زاد المسير في علم التفسير ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، تحقيق : عبدالرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، ط ٢٧ ، ١٤١٥ هـ .
- الزهد ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، وضع حواشيه : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ١ .

- سنن ابن ماجه ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، وماجه اسم أبيه يزيد ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .
- سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السُّجِسْتَانِي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت .
- سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، أبو عيسى ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ .
- سنن الدارمي ، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي ، تحقيق : حسين سليم أسد الداراني ، دار المغني للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .
- السنن الكبرى ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه : شعيب الأرنؤوط ، تقديم : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .
- سنن النسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، ١٤٠٥ هـ .
- السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية ، أكرم ضياء العمري ، مكتبة العلوم والحكم ، المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة ، ط ٦ ، ١٤١٥ هـ .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي ، أبو الفلاح ، تحقيق : محمود الأرنؤوط ، خرج أحاديثه : عبد القادر الأرنؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي ، تحقيق : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، دار طيبة السعودية ، ط ٨ ، ١٤٢٣ هـ .

- شرح الأربعين النووية ، محمد بن صالح العثيمين ، دار الثريا للنشر ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، إشراف مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية ، ط ٣ ، ١٤٢٥ هـ .
- شرح السنة ، لأبي محمد الحسن بن علي بن خلف البرهاري ، تحقيق : خالد بن قاسم الراددي ، مكتبة الغرباء الأثرية - السعودية ، ط ١ ، ١٤١٤ هـ .
- شرح السنة ، لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي دمشق ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .
- شرح الشيخ ابن عثيمين لثلاثة الأصول ، دار الثريا للنشر ، ط ٤ ، ١٤٢٤ هـ .
- شرح العقيدة السفارنية الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، مدار الوطن للنشر ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ .
- شرح العقيدة السفارنية ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، مدار الوطن ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية ، ط ٢ ، ١٤٣٤ هـ .
- شرح العقيدة الواسطية ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، تحقيق : سعد فواز الصميل ، دار ابن الجوزي ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ط ٥ ، ١٤١٩ هـ .
- الشرح الممتع على زاد المستقنع ، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع السعودية ، إشراف مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ .
- شرح النووي على مسلم ، المسمى : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ .
- شرح رياض الصالحين ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، مدار الوطن للنشر ، الرياض ، ١٤٢٦ هـ .
- شرح كشف الشبهات ويليهِ شرح الأصول الستة ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، إعداد : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الثريا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ .

- الشرك في القديم والحديث ، لأبي بكر محمد زكريا ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- الشريعة ، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّي ، تحقيق : عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي ، مدار الوطن المملكة العربية السعودية - الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ .
- صحيح ابن حبان ، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ .
- صحيح الجامع الصغير وزياداته ، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين ، بن الألباني ، المكتب الإسلامي .
- الصحيح المسند من أسباب النزول ، مُقْبَلُ بْنُ هَادِي بْنِ مُقْبِلِ الْوَادِعِيِّ ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة ، ط ٤ ، ١٤٠٨ هـ .
- صفات المنافقين ، محمد بن أبي بكر ابن قيم ، الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية ، عام النشر : ١٤١٠ هـ .
- صفة الصفوة ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، تحقيق : أحمد بن علي ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، ١٤٢١ هـ .
- صفة النفاق وذم المنافقين ، لأبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفَرَيَّابِي ، شرحه وحققه وعلق عليه : أبو عبد الرحمن المصري الأثري ، دار الصحابة للتراث ، مصر ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ .
- صفة النفاق ونعت المنافقين ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني ، تقديم وتحقيق : الدكتور عامر حسن صبري ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ .
- الصفدية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد ابن تيمية الحراني ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية - مصر ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ .
- الصلاة وأحكام تاركها ، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ، مكتبة الثقافة ، المدينة المنورة .
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم

- الفرق بين الفرق وبين الفرقة الناجية ، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي ، دار الآفاق الجديدة - بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٧ م .

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن تیمیة الحرانی ، تحقیق : عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار البيان دمشق ، ١٤٠٥ هـ .
- فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري ، سعيد بن علي بن وهب القحطاني ، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر ، ط ١ ، ١٣٥٦ هـ .
- القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً ، للدكتور سعدي أبو حبيب ، دار الفكر . دمشق - سورية ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ .
- القاموس المحيط ، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف : محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، ط ٨ ، ١٤٢٦ هـ .
- القول المفيد على كتاب التوحيد ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي ، ط ٢ ، ١٤٢٤ هـ .
- كتاب العين ، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ، تحقيق : د . مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي ، أبو البقاء الحنفي ، تحقيق : عدنان درويش محمد المصري ، مؤسسة الرسالة - بيروت .
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الحنفي أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي ، تحقيق : عدنان درويش محمد المصري ، مؤسسة الرسالة - بيروت .
- كيفية دعوة أهل الكتاب في ضوء الكتاب والسنة ، سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، مؤسسة الجريسي للتوزيع .
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الأنصاري ، دار صادر بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ .

- مادة صوتية بعنوان : (من دروس وفتاوى الحرم المدني لعام ١٤١٦ هـ) ، مقتبسة من صفحة الشيخ ابن عثيمين في موقع إسلام ويب .
- مباحث في علوم القرآن ، مناع بن خليل القطان ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ط ٣ ، ١٤٢١ هـ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، تحقيق : حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ .
- مجموع الفتاوى ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المملكة العربية السعودية المدينة النبوية ، ١٤١٦ هـ .
- مجموع فتاوى ابن باز ، أشرف على جمعه وطبعه : محمد بن سعد الشويعر ، تحت إشراف رئاسة البحوث العلمية والإفتاء ، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٢١ هـ .
- مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ، محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الوطن دار الثريا ، ١٤١٣ هـ .
- مختار الصحاح ، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، الناشر : المكتبة العصرية الدار النموذجية ، بيروت صيدا ، ط ٥ ، ١٤٢٠ هـ .
- مختصر العلو مختصر العلو للعلي العظيم ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، حققه واختصره : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٤١٢ هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٦ هـ .
- المدخل إلى علم الدعوة ، محمد أبو الفتح البيانوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤ هـ .

- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٤١١ هـ .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط عادل مرشد ، وآخرون ، إشراف : د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي ، المكتبة العلمية - بيروت .
- المطلع على ألفاظ المقنع ، لأبي عبد الله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البجلي ، تحقيق : محمود الأرنؤوط وياسين محمود الخطيب ، مكتبة السوادي للتوزيع ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ .
- معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٥ م .
- معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ ، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر ، دار العاصمة للنشر والتوزيع - الرياض ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ .
- المعجم الوسيط ، تأليف : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، عناية : إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد النجار ، دار الدعوة .
- معجم مقاييس اللغة ، مادة (دعو) ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٣٩٩ هـ .
- معيار البدعة وضوابط البدعة ، محمد حسين الجيزاني ، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٣١ هـ .

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، الدار الشامية - دمشق ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ .
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ .
- مقدمة تفسير الجلالين ، اعتناء : أبي صهيب الكرمي ، بيت الأفكار الدولية الرياض ، ١٤١٩ هـ .
- مقدمة في أصول التفسير ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، ١٣٩٠ هـ .
- مكارم الأخلاق ، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين ، مدار الوطن - المملكة العربية السعودية ، ط ١ ، ١٤٢٨ هـ .
- الملل والنحل ، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ، مؤسسة الحلبي .
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ٣ .
- المناهي اللفظية ، للشيخ ابن عثيمين ، جمع وإعداد : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان ، دار الثريا للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٥ هـ .
- منهاج السنة النبوية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، منشور : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ .
- المنهج الدعوي في تعامل النبي ﷺ مع المنافقين ، للباحثة : هيلة بنت عبيد الجدعاني ، رسالة ماجستير لبحث تكميلي صادرة من كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى ، عام ١٤٣٢ - ١٤٣٣ هـ .

- المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلى الله تعالى، حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، نشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١١٩، ١٤٢٣هـ.
- منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٤هـ.
- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط ١، ١٤١٧هـ.
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، تأليف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤٢٠هـ.
- موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، إبراهيم بن عامر الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المملكة العربية السعودية - المدينة النبوية، ط ١، ١٤١٥هـ.
- النبوات، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد التيمي البكري، شهاب الدين النوري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ.
- نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي، دار المسلم للنشر والتوزيع- الرياض، ط ٢، ١٤٢٢هـ.
- نواقض الإيمان القولية والعملية، عبدالعزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، مدار الوطن للنشر- الرياض، ط ٣، ١٤٢٧هـ.

- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أحمد الحاج، دار القلم دار الشامية، السعودية - جدة، ط ١، ١٤١٦هـ.
- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، علي محفوظ، دار الاعتصام، ط ٩، ١٣٩٩هـ.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.
- الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، عبد الله بن عبد الحميد الأثري، راجعه وقدم له: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٢هـ.



٣- فهرس الموضوعات

المقدمة : وتشمل :

- الأهمية وأسباب الدارسة. ١١
- أهداف الدارسة. ١٧
- تساؤلات الدارسة. ١٨
- الدراسات السابقة. ١٩
- خطة البحث. ٢٦
- منهج البحث. ٣١
- التمهيد : وفيه ثلاثة مباحث : ٣٥
- المبحث الأول : ترجمة الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيها ثلاثة مطالب : ٣٧
- المطلب الأول : مولده ونشأته ووفاته ٣٨
- أولاً : مولده ونشأته ٣٨
- ثانياً : مرضه ووفاته ٣٩
- المطلب الثاني : شيوخه وتلاميذه ٤٢
- أولاً : شيوخه ٤٢
- ثانياً : تلاميذه ٤٣
- المطلب الثالث : مكانته العلمية والدعوية ، ومؤلفاته ٤٧
- أولاً : مكانته العلمية والدعوية ٤٧
- لقاءات الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الدورية ٥١

- ثانياً : مؤلفاته ٥٣
- المبحث الثاني : أهمية القرآن الكريم وتفسيره للدعوة الإسلامية وفيه ثلاثة مطالب : ٦١
- المطلب الأول : أهمية القرآن ومنزله في الدعوة ٦٢
- المطلب الثاني : حاجة الدعوة إلى القرآن الكريم وتفسيره ٦٦
- المطلب الثالث : منهج الشيخ رحمه الله في تفسيره وتناوله للقضايا الدعوية ٧٣
- القسم الأول : أحكام من القرآن الكريم ٧٣
- القسم الثاني : تفسيره من المصحف مباشرة ٧٤
- القسم الثالث : التعليق على تفسير الجلالين ٧٥
- القسم الرابع : تفسير أجزاء وسور متفرقة ٧٧
- المبحث الثالث : مفهوم الدعوة وأهميتها وحكمها ومصادرها من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، ويشتمل على أربعة مطالب : ٧٩
- المطلب الأول : مفهوم الدعوة إلى الله ٨٠
- الدعوة في اللغة ٨٠
- الدعوة في الاصطلاح ٨١
- المطلب الثاني : أهمية الدعوة إلى الله ٨٤
- الدعوة إلى الله تعالى جهاد في سبيل الله ٨٦
- الدعوة إلى الله تعالى سبيل خيرية الأمة ٨٧
- الدعوة إلى الله تعالى سبيل لتحصيل الأجور العظيمة ٨٧
- الدعوة إلى الله أحسن الأعمال عند الله تعالى ٨٨
- الدعوة إلى الله تعالى سبيل الفلاح ٨٨

- ترك الدعوة إلى الله سبيل للتفرق ٨٩
- والدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى اتباع الصراط المستقيم ٩٠
- والدعوة إلى الله هي طريق المؤمنين الصادقين ، وضدها سبيل المنافقين وهديهم ٩٠
- المطلب الثالث : حكم الدعوة إلى الله ٩٣
- المطلب الرابع : مصادر الدعوة إلى الله ١٠٠
- المصدر الأول : القرآن الكريم ١٠٠
- المصدر الثاني : السنة النبوية ١٠٣
- المصدر الثالث : أقوال السلف ١٠٤
- المصدر الرابع : اللغة ١٠٥
- الفصل الأول : الدعوة إلى عقيدة التوحيد من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه أربعة مباحث : ١٠٩
- المبحث الأول : الدعوة إلى عقيدة التوحيد بأنواعه ١١٤
- النوع الأول : توحيد الربوبية ١١٤
- المضامين الدعوية في توحيد الربوبية ١١٤
- إضافة الربوبية إلى شخص معين تعني أن الربوبية ربوبية خاصة ١١٨
- ربوبية الله تعالى مبنية على الرحمة الواسعة الواصلة للخلق ١١٨
- من أعظم أنواع التوسل إلى الله تعالى التوسل بربوبيته ، وهو توسل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ١١٨
- كل ما يتعلق بأفعال الرب هو من مقتضيات الربوبية ١١٨
- جواز تعليل الأحكام الشرعية بمقتضى الربوبية ١١٩
- النظر في مقام الربوبية يختلف عن النظر في مقام الألوهية ١٢٠

- النوع الثاني : توحيد الألوهية..... ١٢١
- المضامين الدعوية في توحيد الألوهية ١٢٢
- توحيد الألوهية هو توحيد العبادة..... ١٣٤
- التفسير الصحيح لمعنى لا إله إلا الله ١٢٥
- توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان ١٢٦
- أقسام العبودية والفرق بينهما ١٢٧
- النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات ١٢٩
- المضامين الدعوية في توحيد الأسماء والصفات ١٣٠
- باب الصفات كأسماء الأصل فيه التوقيف ، يجب تلقيه من كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ ليس للعقول مدخل في تفصيله ١٣١
- الاسم المتعدي لا يتم الإيمان به إلا بإثباته اسماً من أسماء الله تعالى ، وإثبات ما تضمنه من صفة ، وإثبات الأثر المترتب عليه ١٣٢
- صفات الله تعالى تُثبت على حقيقتها بإجماع السلف ١٣٣
- باب الأخبار عن الله تعالى أوسع من باب الصفات ، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء ١٣٥
- أقسام المضاف إلى الله تعالى ومتى يكون صفة من صفاته ١٣٥
- كل صفة مُرتبة على سبب فهي من الصفات الفعلية ؛ لأنها توجد بوجود هذا السبب وتتفي بانتفائه ١٣٦
- كل ما نفاه الله تعالى عن نفسه من الصفات فلا يُراد به مجرد النفي وإنما إثبات كمال ضده ١٣٦
- التلازم بين أنواع التوحيد الثلاثة الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ١٣٨
- المبحث الثاني : التحذير من الشرك وما يضاد التوحيد..... ١٤٠
- المضامين الدعوية في التحذير من الشرك : ١٤٢

- الجانب الأول : التحذير من شأن الشرك عموماً وبيان خطره وعاقبته ١٤٢
- الجانب الثاني : في التحذير من أنواع الشرك وبيانها ، وما يضاد التوحيد ١٤٣
- أولاً : التحذير من الشرك بدعاء غير الله تعالى ١٤٤
- ثانياً : دعاء الموتى لجلب النفع أو دفع الضرر ١٤٤
- ثالثاً : بناء القبور في المساجد وسيلة من وسائل الشرك ١٤٥
- رابعاً : اتخاذ الأنداد لله تعالى ١٤٦
- خامساً : الاستعانة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ١٤٦
- سادساً : الاستغاثة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ١٤٧
- المبحث الثالث : الدعوة إلى أركان الإيمان ١٥٠
- المضامين الدعوية المتعلقة بالإيمان وأركانه ١٥٠
- الجانب الأول : معنى الإيمان وما يتعلق به ١٥٠
- أولاً : معنى الإيمان ١٥٠
- ثانياً : يرى الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ دخول الأعمال في مسمى الإيمان ١٥٢
- ثالثاً : زيادة الإيمان ونقصانه ١٥٤
- الجانب الثاني : بيانه لأركان الإيمان على وجه التفصيل في تفسيره ١٥٥
- أولاً : الإيمان بالله ١٥٥
- ثانياً : الإيمان بالملائكة ١٥٧
- ثالثاً : الإيمان بالكتب المنزلة ١٦٠
- رابعاً : الإيمان بالرسل ﷺ ١٦٣
- الفرق بين الرسول والنبى ١٦٤

- ١٦٥ - وجوب الإيمان بجميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
- ١٦٧ - إثبات رسالة محمد ﷺ
- ١٦٧ - عموم رسالة النبي ﷺ
- ١٦٨ - خامساً : الإيمان باليوم الآخر
- ١٦٨ - أهمية الإيمان باليوم الآخر
- ١٧٠ - دلالة العقل على الإيمان باليوم الآخر
- ١٧١ - معنى الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه
- ١٧٢ - حياة البرزخ ، نعيم القبر وعذابه
- ١٧٣ - وإثبات البعث
- ١٧٥ - والنفخ في الصور
- ١٧٦ - سادساً : الإيمان بالقدر خيره وشره
- ١٧٦ - تعريف القضاء والقدر عند الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ
- ١٧٨ - مراتب القضاء والقدر
- ١٧٩ - المخالفون لأهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر والردّ عليهم
- ١٨٠ - أقسام الناس في العمل وعلاقته بالقدر
- ١٨٤ - المبحث الرابع : الدعوة إلى الالتزام بالسنة والتحذير من البدعة
- ١٨٥ - المضامين الدعوية في الدعوة للالتزام بالسنة والتحذير من البدعة
- ١٨٥ أولاً : تعريف البدعة
- ١٨٨ ثانياً : ما يتحقق به اتباع السنة
- ١٩١ ثالثاً : أنواع البدع

- رابعاً : التأثر بالبدعة لا يسوّغها ١٩٥
- خامساً : ردُّ الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تفسيره على المبتدعة وتفنيد شبهاتهم ١٩٩
- الفصل الثاني : مجالات الدعوة الأخرى ، والقضايا الدعوية المعاصرة في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ، وفيه مبحثان : ٢٠٣
- المبحث الأول : مجالات الدعوة الأخرى في تفسير ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ، وفيه أربعة مطالب : ٢٠٥
- المطلب الأول : الدعوة إلى العبادات ٢٠٩
- المضامين الدعوية المتعلقة بالعبادات الظاهرة والباطنة ٢١٢
- ١- الدعوة إلى الصلاة ٢١٢
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصلاة ٢١٢
- ٢- الدعوة إلى الزكاة ٢١٧
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الزكاة ٢١٨
- ٣- الدعوة إلى الصيام ٢٢٢
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الصيام ٢٢٣
- ٤- الدعوة إلى الحج ٢٢٦
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بالدعوة إلى الحج ٢٢٦
- ومما جاء في تفسيره من المضامين الدعوية ، الدعوة إلى العبادات الآتية ٢٣٠
- الدعوة إلى الإخلاص ٢٣٠
- الدعوة إلى برِّ الوالدين ٢٣٠
- والدعوة إلى الهجرة والجهاد في سبيل الله تعالى والإخلاص فيهما ٢٣١
- الدعوة إلى التوبة ٢٣٢

- ٢٣٣ - الدعوة إلى الدعاء وآدابه .
- ٢٣٥ - الدعوة إلى التوكل وعلاقته بالإيمان بالله تعالى وفعل الأسباب .
- ٢٣٧ - الدعوة إلى الرجاء .
- ٢٣٨ - الدعوة إلى تدبر القرآن .
- ٢٣٩ - الدعوة إلى الافتقار وحسن اللجوء لله تعالى والاستعانة به .
- ٢٤٠ - الدعوة إلى الرضا .
- ٢٤٤ - المطلوب الثاني : الدعوة إلى مكارم الأخلاق .
- ٢٤٩ - المضامين الدعوية المتعلقة بمكارم الأخلاق .
- ٢٤٩ ١- خُلِقَ الصبر .
- ٢٥٠ - من أبرز المضامين المتعلقة بالصبر .
- ٢٥٣ ٢- خُلِقَ الإحسان .
- ٢٥٦ ٣- خُلِقَ العفو .
- ٢٥٧ - أبرز المضامين المتعلقة بالعفو .
- ٢٦٠ ٤- خُلِقَ الصدق .
- ٢٦١ - أبرز المضامين المتعلقة بالصدق .
- ٢٦٤ ٥- خُلِقَ الأمانة .
- ٢٦٥ - أبرز المضامين المتعلقة بالأمانة .
- ٢٦٨ - المضامين المتعلقة بمكارم الأخلاق في تفسير الشيخ رحمه الله .
- ٢٦٨ ٦- محبة المرء الخير للغير كما يحبه لنفسه .
- ٢٦٩ ٧- خُلِقَ المعاشرة بالمعروف .

- ٢٧٠ ٨- الإصلاح بين الناس وترك النميمة .
- ٢٧٠ ٩- معاملة الناس بالظاهر وحسن الظن بهم .
- ٢٧٢ ١٠- الإيفاء بالعهد والنذر .
- ٢٧٣ - مضامين الأخلاق الذميمة التي جاء التحذير منها .
- ٢٧٣ - خُلِقَ الكذب .
- ٢٧٣ - خُلِقَ الحسد .
- ٢٧٤ - خُلِقَ الفخر .
- ٢٧٥ - خُلِقَ البخل .
- ٢٧٦ - خُلِقَ الخيانة .
- ٢٧٧ - خُلِقَ اللمز .
- ٢٧٩ - خُلِقَ التدابر .
- ٢٨١ المطلب الثالث : الدعوة إلى المعاملات
- ٢٨١ - للمعاملات ضوابط تُبْنَى عليها أحكامها
- ٢٨٢ - المضامين الدعوية المتعلقة بالمعاملات
- ٢٨٢ أولاً : أهمية المعاملات والدعوة إليها في القرآن الكريم ، وردّ شبهة المعترضين على ذلك .
- ٢٨٣ ثانياً : الدعوة إلى الكسب الطيب في المعاملات .
- ٢٨٤ ثالثاً : التحذير من الكسب الخبيث في المعاملات وبيان أنواعه وأوجه كسبه .
- ٢٨٥ رابعاً : سدّ باب الحيل في المعاملات ، وأنه من التشبه باليهود .
- ٢٨٦ خامساً : التحذير من الربا في المعاملات ، والمسائل المعاصرة فيه .
- ٢٨٩ سادساً : الدعوة إلى حسن التعامل في المعاملات الدائرة بين الناس

المطلب الرابع : الدعوة إلى التربية الصالحة ، والقُدوة الحسنة. ٢٩٢

- أبرز المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ والتي تساعد على تزكية النفس وتسمو بها نحو التربية الصالحة لتكون قدوة حسنة في المجتمع. ٢٩٤

أولاً : استشعار مراقبة الله تعالى لحياة العبد في كل جليلة ودقيقة. ٢٩٤

ثانياً : إدراك أهمية التربية الصالحة وعِظَم المسؤولية ، والقيام بواجبها. ٢٩٥

ثالثاً : تربية النفس على مخالفة الهوى وتذكُّر انبطاط وسوء عاقبة مرتبته. ٢٩٦

رابعاً : التأسي بالقُدوات الصالحة ، والتسليّة بحالهم ومصابهم. ٢٩٦

خامساً : الإيمان بأسماء الله الحسنى التي ختمت بها الآيات واستشعارها ، وتأمل آثارها الإيمانية والمسلكية. ٢٩٧

سادساً : النظر للنفس بعين النقص والتقصير سبب في استدراك الخلل التربوي. ٢٩٨

سابعاً : حمل النفس على التواضع في معاملة الآخرين. ٢٩٩

المبحث الثاني : القضايا الدعوية المعاصرة وأوفيه مطلبان : ٣٠٣

المطلب الأول : أثر معالجة القضايا المعاصرة. ٣٠٤

أ- التأصيل الشرعي للقضايا النازلة. ٣٠٩

ب- ربط المسائل المعاصرة بأصولها. ٣٠٩

ج- مراعاة حال الواقع المعاصر. ٣٠٩

د- حسن التقرير والتفصيل والتقسيم. ٣٠٩

هـ- الاستفادة من أهل الخبرة والنظر في النازلة. ٣٠٩

و- منهجه في الرد على المخالفين. ٣٠٩

المطلب الثاني : نماذج القضايا المعاصرة الواردة في تفسير ابن عثيمين رَحْمَةُ اللَّهِ ، وبيان تأصيل ومعالجة الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ لها. ٣١١

- المضامين الدعوية المتعلقة بالقضايا المعاصرة في تفسير الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ ٣١١
- أولاً: مضامين القضايا الدعوية المعاصرة المتعلقة بالدعاة ودعوتهم ٣١١
- مسألة طلب العلم من أجل الشهادة الدنيوية ٣١١
- مسألة هجرة الداعية من بلد لا يتمكن فيه من الدعوة ٣١٢
- مسألة تعامل الدعاة مع مَنْ يُؤَلِّبُ على ولاية الأمور ويتمنون زوالهم ٣١٣
- مسألة المحاجة التي يواجهها الدعاة من العامة بغير علم ٣١٤
- مسألة تعامل الدعاة مع كتب المُحَدِّثِينَ المعاصرين ٣١٤
- مسألة أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله تعالى ٣١٥
- ثانياً: مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بعلاقة أمة الدعوة بالعلماء ٣١٦
- مسألة الخلل في فهم مراد العالم ، وعدم التثبت في النقل لاسيما في زمن كثرة الأهواء .. ٣١٦
- مسألة استغلال أخطاء العلماء والتشهير بها عبر وسائل الإعلام الحديث ، وبيان مضرة ذلك . ٣١٦
- ثالثاً: مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بدعاة الضلالة وغزوهم الفكري ٣١٨
- مسألة دعاة الضلالة وتنوُّع غزوهم المعاصر ٣١٨
- مسألة فتنة استعمار الأفكار وخطورتها ، وأنها أعظم أسلحة دعاة الضلالة ٣١٩
- مسألة تحديد النسل وأنها من دسائس دعاة الباطل لإضعاف المسلمين ٣٢٠
- مسألة دعاة الاشتراكية ٣٢١
- رابعاً: مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بمدَّعي الحضارة والمدنيَّة ودعاة الحرية وتحرير المرأة ٣٢٢
- مسألة الطعن في الحجاب في وسائل الإعلام ٣٢٢
- مسألة المساواة بين الرجل والمرأة وأن هذا ما تتطلبه الحضارة والمدنية ٣٢٣

- مسألة تغيير الاصطلاح الشرعي والتعبير بما يخالفه ، ومن ذلك التعبير بالمساواة دون العدل . ٣٢٤
- مسألة تحرير المرأة والدعوة إلى السفور ٣٢٦
- مسألة ولاية المرأة وتوليها مناصب رئاسية ٣٢٦
- بيان الشيخ رحمه الله لحقيقة الدعوة إلى الحرية التي ينادون بها ٣٢٧
- مفهوم الرجعية ٣٢٨
- حكم المنتقصين للدين من دعاة الحرية- في الإسلام ٣٢٨
- خامساً : مضامين القضايا المعاصرة في أقوال العامة وأفعالهم ٣٢٩
- مسألة تقسيم الكذب إلى أسود وهو المحرم وأبيض وهو جائز ٣٣٠
- ومسألة التعبد لله تعالى بالأذكار والرُقَى من باب التجربة في نفعها لا اليقين ٣٣٠
- مسألة تتبع الرُخص في الفتاوى ، والانتقاء من الفتاوى ما يناسبه ٣٣٢
- مسألة قول بعض العامة عن الميت : انتقل أو حُمل إلى مثواه الأخير ٣٣٢
- مسألة التذرع بما كان عليه أكثر الناس عند الإنكار عليه ٣٣٣
- مسألة استقدام العمالة الكافرة مع توفر المسلم ٣٣٣
- مسألة دبلجة الصور وتركيبها بما يخالف الحقيقة ، وهل تثبت الشهادة بالصورة ٣٣٤
- مسألة الاعتماد على التوقيت بالأشهر الإفرنجية ، وترك التوقيت العالمي وهو التوقيت بالأهلة . ٣٣٤
- سادساً : مضامين القضايا المعاصرة المتعلقة بواقع المسلمين ٣٣٥
- من أسباب النصر على أعداء الله قوة اليقين والإيمان بالله تعالى ٣٣٥
- من أسباب النصر ، التمسك بكتاب الله تعالى والعمل به ٣٣٧
- من أسباب النصر الإخلاص لله تعالى ، وترك المعاصي وانتشارها في المجتمعات ٣٣٧
- من أسباب النصر العودة إلى ما كان عليه السلف رحمه الله ، والسير بقيادة حكمة تسير بشرع الله

- تعالى . ٣٣٨
- من أسباب النصر توحيد القصد وذلك باسم الإسلام لا العزوبة ، وهو الذي به تُستردُّ أرض فلسطين ٣٤٠
- من أسباب النصر ، نصره النبي ﷺ والدفاع عنه . ٣٤١
- أساليب أعداء الله في إضعاف المسلمين ، ومن ذلك التنفير من أولياءه بأوصاف توجب التنفير . ٣٤٢
- الحكمة مما يصيب المسلمون اليوم من تسلط الكافرين ، والتشريد ، والتجويع ، والانتهاك . ٣٤٣
- مسألة محبتنا انتصار الكافر على كافر آخر . ٣٤٤
- مسألة تولية الكافر قيادة أو سلطة تخص المسلمين . ٣٤٤
- الفصل الثالث : بناء الداعية وتأهيله من خلال تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه خمسة مباحث : ٣٤٧
- المبحث الأول : تعريف الداعية وبيان مفهوم التأهيل ٣٤٨
- أولاً : التعريف بالداعية : ٣٤٨
- ثانياً : مفهوم تأهيل الداعية . ٣٤٩
- المبحث الثاني : التأهيل العقدي للداعية . ٣٥٢
- المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العقدي للداعية . ٣٥٣
- أولاً : الإخلاص لله تعالى ، والمتابعة لرسوله ﷺ . ٣٥٣
- ثانياً : من تأهيل الداعية عقدياً اعتزازه بعقيدته ودينه . ٣٥٩
- ثالثاً : مما ينبغي أن يراعيه الداعية في تأهيله العقدي ، أن تكون العقيدة هي أول اهتماماته الدعوية . ٣٥٩
- رابعاً : الإيمان وعلاقته بتكوين الداعية في استقامته وتعليمه وولاية الله تعالى له . ٣٦١
- خامساً : الحث على قرن الاعتقاد والإيمان بالعمل الصالح ، وأن العقيدة المجردة عن العمل لا تنفع . ٣٦٣

- سادساً : العناية بما عقد عليه القلب من أعمال القلوب ٣٦٣
- المبحث الثالث : التأهيل العلمي للداعية ٣٦٧
- المضامين الدعوية في التأهيل العلمي للداعية ٣٦٨
- أولاً : النية الصالحة في العلم ٣٦٨
- ثانياً : استشعار أهمية العلم ، من لوازم تأهيل الداعية علمياً ٣٧٠
- ثالثاً : اقتران الدعوة إلى الله بالعلم والبصيرة ٣٧٢
- ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٧٤
- الشرط الأول : العلم بالشرع ، والعلم بالحال ٣٧٤
- الشرط الثاني : أن لا يتغير المنكر إلى ما هو أنكر منه ٣٧٤
- الشرط الثالث : أن يعلم أن هذا مفيد ٣٧٤
- الشرط الرابع : أن يكون الأمر بالمعروف فاعلاً له ، والنهي عن المنكر تاركاً له ٣٧٥
- رابعاً : الرسوخ في العلم المبني على الكتاب والسنة ٣٧٧
- خامساً : الحذر من كتمان العلم ٣٧٩
- سادساً : الحذر من القول على الله بلا علم ٣٨٣
- المبحث الرابع : التأهيل الأخلاقي للداعية ٣٨٩
- المضامين الدعوية في التأهيل الأخلاقي للداعية تنقسم إلى قسمين : ٣٩٠
- القسم الأول : أخلاق عامة يمثلها الداعية كسائر المسلمين ٣٩٠
- القسم الثاني : أخلاق الداعية المتعلقة بميدانه الدعوي ، وهي على جانبين : ٣٩٠
- الجانب الأول : أخلاق الداعية مع المدعوين ٣٩١
- أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع مدعوئه ٣٩١

- أولاً : اللين والرفق عند تغيير المنكر ٣٩١
- ثانياً : الصبر على أذى المدعوين عند المحاجة والمخاصمة منهم ٣٩٣
- ثالثاً : أخذ الناس بالظاهر والبعد عن تصنيفهم ٣٩٥
- رابعاً : العفو والتسامح ٣٩٧
- خامساً : خفض الجناح للمدعوين والتواضع لهم ٣٩٨
- سادساً : البعد عن العُجْبِ بالنفس والاعتداد بها ٤٠١
- سابعاً : الترفع عن أخذ الأموال من الناس مقابل الدعوة ٤٠٢
- ثامناً : الاستقامة في معاملة الخلق وهي التوسط في سائر الأخلاق ٤٠٣
- تاسعاً : إجابة السائل عن العلم وعدم نهره ٤٠٥
- الجانب الثاني : مضامين أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء ٤٠٦
- أبرز المضامين الدعوية في أخلاق الداعية مع الدعاة والعلماء ٤٠٦
- أولاً : البعد عن النزاع والحث على اجتماع الكلمة ٤٠٦
- ثانياً : فقه الخلاف ٤٠٨
- ثالثاً : الحذر من التفاخر بالأعمال الدعوية أو بالعلم الشرعي ٤١١
- رابعاً : حسن تعامل الداعية وتلطفه مع شيخه ٤١٢
- المبحث الخامس : التأهيل العملي للداعية ٤١٤
- الجانب الأول : ما يتعلّق بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه ٤١٥
- المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع نفسه ٤١٦
- أولاً : اشتغال الداعية بالعبادة ٤١٦
- ثانياً : البعد عن المعاصي ٤١٩

- ٤٢٠ ثالثاً : الدعاء بالثبات والعلم النافع
- ٤٢٣ رابعاً : أن يمثل ما يأمر به وينهى عنه.
- ٤٢٥ الجانب الثاني : ما يتعلق بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوين
- ٤٢٥ - المضامين الدعوية المتعلقة بالتأهيل العملي للداعية مع المدعوين
- ٤٢٥ أولاً : التنوع في الطرح الدعوي
- ٤٢٧ ثانياً : الحرص على بيان الحق للناس وتوجيههم
- ٤٢٨ ثالثاً : التماس الداعية ما يؤثر على المدعو
- ٤٢٩ رابعاً : التدرج في الدعوة إلى الله تعالى
- ٤٣٠ خامساً : ذكر المخارج والحلول الشرعية لما ينهاهم عنه
- ٤٣٢ سادساً : ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عدة تنبيهات عملية في الدعوة ينبغي مراعاتها :
- ٤٣٢ - لا يتحمل الداعية إغراض المدعوين بعد نصيحهم
- ٤٣٦ - حاجة الداعية للتسلية لما يواجهه من مشقة طريق الدعوة
- ٤٣٦ - أن طريق الدعوة طريق ابتلاء وامتحان وأن استبطاء النصر لا يخل بالدعوة
- ٤٤١ الفصل الرابع : أصناف المدعوين وخصائصهم في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه سبعة مباحث :
- ٤٤٢ المبحث الأول : تعريف المدعوين وبيان أصنافهم وأنواعهم
- ٤٤٣ - بيان أصناف المدعوين
- ٤٤٧ المبحث الثاني : مراعاة أحوال المدعوين
- ٤٤٩ - أبرز المضامين الدعوية في مراعاة أحوال المدعوين
- ٤٥٩ المبحث الثالث : دعوة المسلمين

- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة المسلمين ٤٥٩
- المبحث الرابع : دعوة أهل البدع ٤٧٧
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل البدع ٤٨٠
- المبحث الخامس : دعوة أهل الكتاب ٥٠٢
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بدعوة أهل الكتاب وما ينبغي في دعوتهم ٥٠٤
- المبحث السادس : دعوة المجوس وسائر المشركين ٥٢٠
- أبرز المضامين الدعوية في دعوة المشركين والمجوس ٥٢٣
- المبحث السابع : دعوة المنافقين ٥٣٢
- أبرز المضامين الدعوية في دعوة المنافقين ٥٣٤
- أبرز صفاتهم وأعمالهم الواردة في النصوص ٥٤٠
- من طرق دعوة المنافقين وعظهم وتلمُّس ما له أبلغ الأثر في قلوبهم ٥٤٣
- من طرق دعوة المنافقين مجاهدتهم باللسان وذلك بالعلم والبيان الذي يحصل به ردّ شبهاتهم وشائعاتهم ٥٤٤
- من طرق دعوتهم التدرج معهم من الرفق واللين إلى الشدة والغلظة ٥٤٦
- الفصل الخامس : الأساليب والوسائل الدعوية المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ، وفيه مبحثان : ٥٥١
- المبحث الأول : الأساليب الدعوية المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ ٥٥٣
- المطلب الأول : تعريف الأساليب الدعوية ، وبيان أهميتها ٥٥٤
- تعريف الأساليب الدعوية ٥٥٥
- المطلب الثاني : أسلوب الحكمة ٥٥٨
- أبرز المضامين الدعوية في أسلوب الحكمة ٥٦٠

- المطلب الثالث : أسلوب الموعظة الحسنة ٥٦٥
- أبرز المضامين الدعوية في أسلوب الموعظة ٥٦٧
- المطلب الرابع : الجدل والتي هي أحسن ٥٧٤
- أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الجدل والتي هي أحسن ٥٧٦
- المطلب الخامس : أسلوب الترغيب والترهيب ٥٨٨
- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الترغيب ٥٩٣
- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب الترهيب ٥٩٦
- من المضامين الدعوية في تفسير الشيخ رحمه الله ما يكون فيه الترغيب والترهيب في مساق واحد ٥٩٩
- المطلب السادس : أسلوب ضرب الأمثال ٦٠٣
- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب ضرب المثل ٦٠٥
- المطلب السابع : أسلوب القصص ٦١١
- من أبرز المضامين الدعوية المتعلقة بأسلوب القصص ٦١٧
- المبحث الثاني : الوسائل الدعوية المستنبطة من تفسير الشيخ ابن عثيمين رحمه الله ٦٢٥
- المطلب الأول : تعريف الوسائل الدعوية ، وبيان أهميتها ٦٢٦
- تعريف الوسائل الدعوية ٦٢٧
- المطلب الثاني : وسيلة القدوة الصالحة ٦٣٢
- المطلب الثالث : الدعوة بوسيلة القول ٦٣٧
- المطلب الرابع : وسيلة إرسال الرسل ﷺ والدعاة ٦٤١
- المطلب الخامس : وسيلة إرسال الكتب والرسائل ٦٤٦
- المطلب السادس : وسيلة الخطبة ٦٥٠

- المطلب السابع : وسائل أخرى ٦٥٣
- ومنها : المساجد ٦٥٤
- ومنها : التأمل بنعم الله تعالى ٦٥٥
- ومن وسائل الدعوة إظهار أثر النعمة ٦٥٥
- من وسائل الدعوة ترجمة الكتب الشرعية للغات أخرى ٦٥٦
- ومنها : استعمال وسيلة التبليغ بالقول والفعل ٦٥٧
- ومنها : الوسائل العصرية كالإذاعات الحديثة ٦٥٨
- ومن وسائل الدعوة التأليف بالمال ٦٥٩
- ومنها : السير في الأرض للاعتبار بالتأمل في خَلْق الله ٦٥٩
- الخاتمة : وتتضمن : أهم نتائج البحث والتوصيات ٦٦٢
- أولاً : النتائج ٦٦٤
- ثانياً : التوصيات ٦٦٥



الفهارس

- ١- فهرس المضامين الدعوية..... ٦٧٠
- ٢- فهرس المصادر والمراجع..... ٦٧٣
- ٣- فهرس الموضوعات..... ٦٩١

